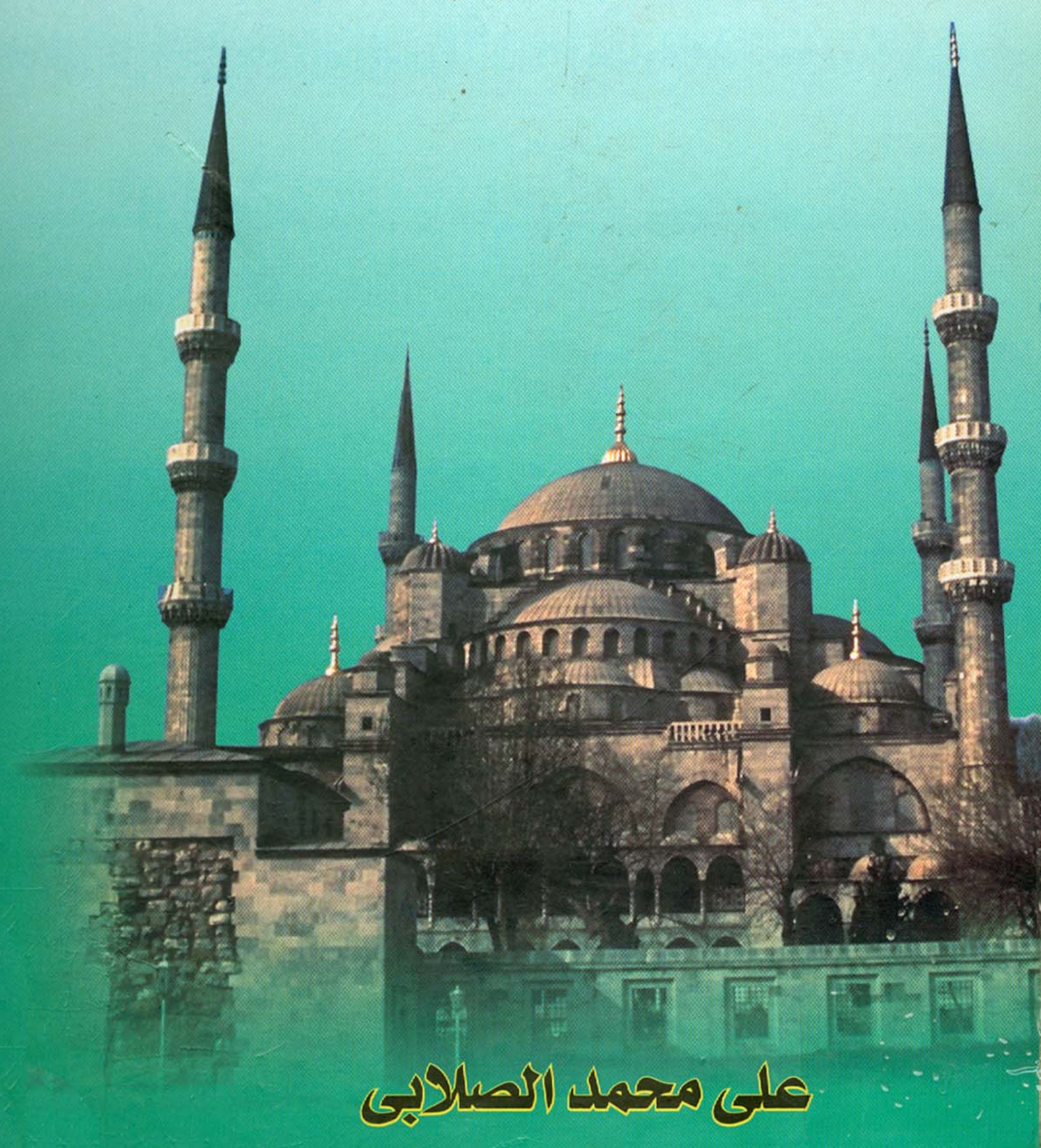
ى التاريخ الإسلامى

الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط



علي محمد الصلابي

صفحات مِنَ التاريخ الإسلامى (٦)

الدولــة العُثمانيـة

عوامِل النهوض وأسباب السُّقوط

تــأليــف

علی محمد محمد الصلابی

الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط

الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط

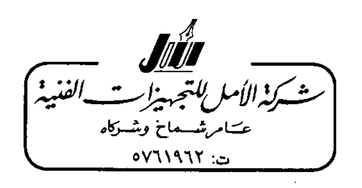
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

رقم الإيـــداع/ ١٨٤٣ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى / I.S.B.N

977 - 265 - 314 - 1



دار التـــوزيع والنشـر الإسـلا مـيـة

٢٥١ ش بورسـعـيـد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فـاكس : ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ص.ب ١٦٣٦

مكتبة الإعلام : ١٢ ش ابن هانئ الأندلس ت : ٢٦٠٠٧٣١

مكتبة نصر الدين : ٤٤٦ ش الهرم - أعلى النفق ت: ٥٧٣٠٧٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين:

أهدي هذا الكتاب سائلا المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١]

أما بعد :

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت .

هذا الكتاب السادس (صفحات من التاريخ الإسلامى) يتحدث عن الدولة العثمانية «عوامل النهوض وأسباب السقوط»؛ فيعطى صورة واضحة عن أصول الأتراك، ومتى دخلوا فى الإسلام وعن أعمالهم المجيدة عبر التاريخ، ويستل من بطون المصادر والمراجع بعض التراجم لشخصيات تركية صهرها القرآن الكريم وساهمت فى بناء الحضارة الإسلامية، ونصرت مذهب أهل السنة أمثال: السلطان سلجوق، وألب أرسلان، ونظام الملك وملكشاه، ويتحدث الكتاب عن جهادهم ودعوتهم وحبهم للعلم والعدل، ويبين أن الأتراك الذين قاموا ببناء الدولة العثمانية امتداداً للسلاجقة ويتحدث حديثاً منصفاً عن زعماء الدولة العثمانية كعثمان الأول، وأورخان، ومراد الأول، ومحمد جلبى، ومراد الثانى ومحمد الفاتح، ويبين صفاتهم والمنهج الذى ساروا عليه، وكيف تعاملوا مع سنن الله فى بناء الدولة كسنة التدرج، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة تغيير النفوس، وسنة التدافع، وسنة الابتلاء، وكيف حقق القادة الأوائل شروط التمكين، وكيف أخذوا بأسبابه المادية والمعنوية؟ وما هى المراحل التى مرت بها؟ وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكمية شارك فيها العلماء والفقهاء والجنود والقادة على مر العصور وكر الدهور وتوالى الأزمان؟

ويبين للقارئ الكريم أن النهوض العثمانى كان شاملاً فى كافة المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والحربية، وأن للتمكين صفات، لابد من توافرها فى القادة، والأمة، وبفقدها يفقد التمكين.

ويوضح للقارئ حقيقة الدولة العثمانية والأسس التى قامت عليها والأعمال الجليلة التى قدمتها للأمة؛ كحماية الأماكن المقدسة الإسلامية من مخططات الصليبية البرتغالية، ومناصرة أهالى الشمال الأفريقى ضد الحملات الصليبية الأسبانية وغيرها، وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية، وإبعاد الزحف الاستعمارى عن ديار الشام ومصر، وغيرها من الأراضى الإسلامية، ومنع انتشار المذهب الاثنى عشرى الشيعى الرافضى إلى الولايات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية ومنع اليهود من استيطان فلسطين، ودورها فى نشر الإسلام فى أوروبا. ويتحدث هذا البحث عن سلبيات الخلافة العثمانية، والتى كان لها الأثر فى إضعاف الحكم، كإهمال اللغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم والحديث الشريف فى آخر عهدها، وعدم الوعى الإسلامى الصحيح، وانحرافها عن شرع الله تعالى وتأثرها بالدعوات التغريبية.

ويتكلم عن حقيقة الصراع بين الحركة الوهابية والدولة العثمانية، وعن الدور المشبوه الذى قام به محمد على لصالح بريطانيا وفرنسا فى ضربه للتيار الإسلامى فى مصر، والحجاز، والشام، وعن حركته التغريبية التى كانت خطوة نحو الانسلاخ عن المبادئ الإسلامية الأصيلة ويتحدث عن الدعم الماسونى الذى كان خلف سياسات محمد على المدمرة للأمة الإسلامية. ويوضح الكتاب أن محمد على كان مخلباً وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء فى تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه فى نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدى والإسلامى لديه ولدى أعوانه وجنوده، وكيف ترتب على دور محمد على فى المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذى أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالى استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية.

ويتكلم عن السلطان محمود الثانى الذى ترسم خطى الحضارة الغربية فى حركته الإصلاحية، ويتحدث عن ابنه عبدالمجيد الذى تولى السلطنة من بعده والذى كان خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذى وجد مثله وفلسفته فى الماسونية، وكيف ساهم هذا الوزير مع أنصاره فى دفع عجلة التغريب التى كانت تدور حول نقاط ثلاثة هامة :

الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش، والاتجاه بالمجتمع نحو التشكيل العلمانى، والاتجاه نحو مركزية السلطة فى استانبول والولايات، وكيف كانت الخطوات الجريئة التى اتخذها الماسون الأتراك نحو علمنة الدولة وإظهار خطى كلخانة وهمايون والوصول إلى دستور مدحت باشا عام (١٨٧٦م) وكان ذلك الحدث أول مرة فى تاريخ الإسلام ودولته يجرى العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسى والبلجيكى والسويسرى وهى دساتير وضعية علمانية.

ويوضح للقارئ كيف وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعلمنت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، وابتعدت الدولة عن التشريع الإسلامى فى مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وبذلك سحب من الدولة العثمانية شرعيتها من أنظار المسلمين .

ويبين للقارئ الكريم كيف هيمن رجال التغريب على الدولة العثمانية فى زمن السلطان عبدالعزيز وعندما تعرض لكثير من مخططاتهم عزلوه ثم قتلوه.

ويتحدث عن الجهود العظيمة التى قام بها السلطان عبدالحميد خدمة للإسلام، ودفاعاً عن دولته، وتوحيداً لجهود الأمة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية فى معترك السياسة الدولية فى زمن السلطان عبدالحميد؟ ويفصل الكتاب فى الوسائل التى اتخذها السلطان عبدالحميد فى تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية كالاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء. ويركز الكتاب على جهود الصهيونية العالمية فى دعم أعداء السلطان عبدالحميد كالمتمردين الأرمن، والقوميين البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقى، والوقوف مع الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية وكيف استطاع أعداء الإسلام عزل السلطان عبدالحميد؟ وما هى الخطوات التى اتخذت للقضاء على الخلافة العثمانية؟ وكيف صنع البطل المزيف مصطفى كمال؟ الذى عمل على سلخ تركيا من عقيدتها وإسلامها، وحارب التدين، وضيق على الدعاة، ودعا إلى السفور والاختلاط. ولم يترك الكتاب الحديث عن بشائر الإسلام فى تركيا ويشير إلى الجهود العظيمة التى قامت بها الحركة الإسلامية فى تركيا بفصائلها المتعددة وتترك القارئ المسلم ينظر بنور الإيمان إلى مستقبل الإسلام فى تركيا والعالم أجمع .

وفى نهاية الكتاب يهتم الباحث بإبراز أسباب السقوط من المنظور القرآنى، ليبين للقارئ أن أسباب السقوط عديدة منها :

انحراف الأمة عن مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشرك والبدع، وانحرافات وظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة فى المجتمع الإسلامى تحمل عقائد وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وينبه القارئ المسلم عن خطورة الفرق المنحرفة فى إضعاف الأمة كالفرقة الإثنى عشرية الشيعية الرافضية، والدروز والنصيرية والإسماعيلية، والقاديانية، والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام، ويتحدث الكتاب عن غياب القيادة الربانية كسبب فى ضياع الأمة وخصوصاً عندما يصبح علماؤها ألعوبة بيد الحكام الجائرين، ويتسابقون على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكيف أصيبت العلوم الدينية فى نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر؟

وكيف اهتم العلماء بالمختصرات والشروح والحواشى والتقريرات؟ وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدعوة لفتح بابه تهمة كبيرة تصل إلى الرمى بالكبائر، وتصل عند المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وتعرض الكتاب للظلم الذى انتشر فى الدولة وما أصابها من الترف والانغماس فى الشهوات وشدة الاختلاف والتفرق وما ترتب عن الابتعاد عن شرع الله من آثار خطيرة، كالضعف السياسى، والحربى، والاقتصادى، والعلمى، والأخلاقى، والاجتماعى، وكيف فقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها؟ وكيف استعمرت وغُزيت فكريا نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية، وجهلها بسنن الله فى نهوض الأمم وسقوطها، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦]

إن هذا الجهد المتواضع قابل للنقد والتوجيه وفى حقيقته محاولة جادة للجمع والترتيب والتفسير والتحليل للأحداث التاريخية التى وقعت فى زمن الدولة العثمانية والتى تأثرت بحركة الشعوب فى صراعها العنيف فيما بينها نتيجة للاختلاف فى العقائد والمناهج والأهداف والقيم والمثل؛ فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لى ذلك، والمجال مفتوح للنقد والرد والتوجيه وهدفى من الكتاب :

١ - تسليط الأضواء على زعماء الدولة العثمانية، كعثمان الأول، وأورخان ومحمد الفاتح وغيرهم .

٢ - بيان المنهج الذى سارت عليه الدولة العثمانية فى مسيرتها الطويلة .

٣ - التركيز على العوامل التى ساهمت فى بناء الدولة العثمانية والأسباب التى نخرتها وساهمت فى إضعافها ثم سقوطها وزوالها .

٤ - تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول، والنظر فى سنن الله فى الآفاق وفى الأنفس والمجتمعات.

٥ - بيان الكيد العظيم الذى تعرضت له الدولة العثمانية من قبل النصارى واليهود والعلمانيين الأتراك . . وغيرهم .

٦ - كشف الزور والبهتان الذى تعرضت له الدولة العثمانية من الأقلام المسمومة وبيان بطلان من سمّى الحكم العثمانى استعماراً وقرنه بالاستعمار الغربى، كالاستعمار الفرنسى والإنجليزى .

٧- الدفاع عن إخواننا فى العقيدة (العثمانيين) الذين تعرضوا للظلم ونسب إلى تاريخهم أباطيل وأكاذيب من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين العرب والأتراك وترشيد الأجيال لمعرفة حقيقة العثمانيين .

٨- إظهار صفحات الجهاد العظيم الذى قام به العثمانيون، ومساهماتهم فى الدعوة إلى الله والتى حاول أعداء الأمة طمسها والتشكيك فيها، والطعن فى حقيقتها .

٩- إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيداً عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم .

١٠ - بيان أن حركات الإصلاح التى تستحق التقدير والاحترام فى الأمة هى التى سارت وتسير على منهج القرآن الكريم، وسنة سيد المرسلين ﷺ فى العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات وجميع شئون الحياة .

١١ - التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين ساهموا فى بناء الدولة العثمانية وتربية الأمة، كالشيخ أحمد الكورانى، وشمس الدين آق (محمد بن حمزة) وغيرهم.

* هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى مدخل وسبعة فصول ونتائج البحث :

المدخل : المناهج المعاصرة فى كتابة تاريخ الدولة العثمانية .

الفصل الأول: جذور الأتراك وأصولهم

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أصل الأتراك وموطنهم .

المبحث الثانى : قيام الدولة السلجوقية .

المبحث الثالث : نهاية الدولة السلجوقية .

الفصل الثانى: قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول : عثمان مؤسس الدولة العثمانية .

المبحث الثانى: السلطان أورخان بن عثمان .

المبحث الثالث : السلطان مراد الأول .

المبحث الرابع : السلطان بايزيد الأول .

المبحث الخامس : السلطان محمد الأول .

المبحث السادس : السلطان مراد الثانى .

الفصل الثالث: محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول : السلطان محمد الفاتح .

المبحث الثانى : الفاتح المعنوى للقسطنطينية (الشيخ آق شمس الدين) .

المبحث الثالث: أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبى والإسلامى .

المبحث الرابع: أسباب فتح القسطنطينية .

المبحث الخامس : أهم صفات محمد الفاتح .

المبحث السادس : شىء من أعماله الحضارية .

المبحث السابع : وصية السلطان محمد الفاتح لابنه .

الفصل الرابع: السلاطين الأقوياء بعد محمد الفاتح

ويشتمل على تسعة مباحث :

المبحث الأول : السلطان بايزيد الثانى .

المبحث الثانى : السلطان سليم الأول .

المبحث الثالث : السلطان سليمان القانونى .

المبحث الرابع : الدولة العثمانية وشمال أفريقيا .

المبحث الخامس : المجاهد الكبير حسن آغا الطوشى .

المبحث السادس : المجاهد حسن خير الدين بربروسة .

المبحث السابع : سياسة صالح رايس.

المبحث الثامن : سياسة حسن بن خير الدين فى التضييق على الإسبان .

المبحث التاسع : المتوكل على الله ابن عبدالله الغالب السعدى .

الفصل الخامس: بداية اضمحلال الدولة العثمانية

ويشتمل على أحد عشر مبحثاً :

المبحث الأول : السلطان سليم الثانى .

المبحث الثانى : السلطان مراد الثالث .

المبحث الثالث : السلطان محمد خان الثالث .

المبحث الرابع : السلطان أحمد الأول .

المبحث الخامس : بعض السلاطين الضعاف .

المبحث السادس : السلطان سليم الثالث .

المبحث السابع : جذور الحملة الفرنسية الصليبية .

المبحث الثامن : السلطان محمود الثانى .

المبحث التاسع : السلطان عبدالمجيد الأول .

المبحث العاشر: السلطان عبدالعزيز .

المبحث الحادى عشر: السلطان مراد الخامس .

الفصل السادس: عصر السلطان عبدالحميد

ويشتمل على ثمانية مباحث :

المبحث الأول : السلطان عبدالحميد .

المبحث الثانى: الجامعة الإسلامية .

المبحث الثالث : السلطان عبدالحميد واليهود .

المبحث الرابع : السلطان عبدالحميد وجمعية الاتحاد والترقى.

المبحث الخامس: الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثانى .

المبحث السادس : حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية .

المبحث السابع : بشائر إسلامية فى تركيا العلمانية .

المبحث الثامن : أسباب السقوط .

ثم نتائج البحث

وأخيراً : أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب .

« سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك »

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

المدخـل

المناهج المعاصرة فى كتابة تاريخ الدولة العثمانية

* **تمهيـد :**

لم يتورع المؤرخون الأوروبيون واليهود والنصارى والعلمانيون الحاقدون عن الهجوم على تاريخ الدولة العثمانية، فاستخدموا أساليب الطعن والتشويه والتشكيك فيما قام به العثمانيون من خدمة للعقيدة والإسلام، وسار على هذا النهج الباطل أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم القومية، والعلمانية، وكذلك المؤرخون الأتراك الذين تأثروا بالتوجه العلمانى الذى تزعمه مصطفى كمال، فكان من الطبيعى أن يقوموا بإدانة فترة الخلافة العثمانية، فوجدوا فيما كتبه النصارى واليهود ثروة ضخمة لدعم تحولهم القومى العلمانى فى تركيا بعد الحرب العالمية الأولى .

كان الموقف من التاريخ العثمانى بالنسبة للمؤرخ الأوروبى بسبب تأثره بالفتوحات العظيمة التى حققها العثمانيون، وخصوصا بعد أن سقطت عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية) وحولها العثمانيون دار إسلام وأطلقوا عليها إسلام بول (أى دار الإسلام) فتأثرت نفوس الأوروبيين بنزعة الحقد والمرارة الموروثة ضد الإسلام فانعكست تلك الأحقاد فى كلامهم وأفعالهم، وكتاباتهم وحاول العثمانيون مواصلة السير لضم روما إلى الدولة الإسلامية ومواصلة الجهاد حتى يخترقوا وسط أوروبا ويصلوا إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين فيها، وعاشت أوروبا فى خوف وفزع وهلع ولم تهدأ قلوبهم إلا بوفاة السلطان محمد الفاتح.

وكان زعماء الدين المسيحى من قساوسة ورهبان وملوك يغذون الشارع الأوروبى بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام والمسلمين، وعمل رجال الدين المسيحى على حشد الأموال والمتطوعين لمهاجمة المسلمين (الكفرة على حد زعمهم) البرابرة، وكلما انتصر العثمانيون على هذه الحشود ازدادت موجة الكره والحقد على الإسلام وأهله، فاتهم زعماء المسيحيين العثمانيين بالقرصنة، والوحشية والهمجية، وعلقت تلك التهم فى ذاكرة الأوروبيين .

لقد كانت الهجمات الإعلامية المركزة من زعماء المسيحية بسبب الحفاظ على مكاسبهم السياسية والمادية، وكرههم للإسلام وأهله، وبالفعل استطاعت بعض الأسر الحاكمة فى

أوروبا أن يتربعوا على صدور المجتمعات الأوروبية فى الحكم فترة زمنية طويلة، وحققوا مكاسب ضخمة فأثروا ثراء كبيرا ونصبوا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت فى مجملها على الضلال والتضليل .

ومع أن المجتمعات الأوروبية ثارت على هذه الفئات، بعد أن اكتشفت ضلالها وتضليلها مع بداية عصر النهضة، وبداية مرحلة جديدة فى التاريخ الأوروبى، إلا أنه لم يستطع وجدان المجتمع الأوروبى أن يتخلص من تلك الرواسب الموروثة من هذه الفئات تجاه العالم الإسلامى بشكل عام وتجاه الدولة العثمانية بشكل خاص. ولذلك اندفعت قواتهم العسكرية المدعومة بحضارته المادية للانتقام من الإسلام والمسلمين، ونزع خيراتهم بدوافع دينية واقتصادية وسياسية وثقافية، وساندهم كتابهم ومؤرخوهم، للطعن والتشويه والتشكيك فى الإسلام وعقيدته وتاريخه، فكان نصيب الدولة العثمانية من هذه الهجمة الشرسة كبيرا.

وشارك اليهود الأوروبيون بأقلامهم المسمومة، وأفكارهم المحمومة فى هذه الهجمات المتواصلة ضد الدولة العثمانية خصوصاً والإسلام عموماً، وازداد عداء اليهود للدولة العثمانية بعد أن فشلت كافة مخططاتهم فى اغتصاب أى شبر من أراضى هذه الدولة لإقامة كيان سياسى لهم طوال أربعة قرون هى عمر الدولة العثمانية السنية، استطاع اليهود بمعاونة الصليبية والدول الاستعمارية الغربية، ومن خلال محافلهم الماسونية أن يحققوا أهدافهم على حساب الأنظمة القومية التى قامت فى العالم الغربى والإسلامى والتى وصفت نفسها بالتقدمية والتحضر واتهمت الخلافة العثمانية على طول تاريخها بالتخلف والرجعية والجمود والانحطاط وغير ذلك. واعتبرت المحافل الماسونية، والمنظمات الخفية التابعة لليهود والقوى العالمية المعادية للإسلام والمسلمين أن مسألة تشويه الفترة التاريخية للدولة العلية العثمانية من أهم أهدافها .

أما المؤرخون العرب فى العالم الإسلامى فقد ساروا فى ركب الاتجاه المهاجم لفترة الخلافة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بعدة أسباب يأتى فى مقدمتها إقدام الأتراك بزعامة « مصطفى أتاتورك » على إلغاء الخلافة الإسلامية فى عام ١٩٢٤م، وأعقب ذلك إقدام الحكومة العلمانية التركية بالتحول الكامل إلى المنهج العلمانى فى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على حساب الشريعة الإسلامية التى ظلت سائدة فى تركيا منذ قيام الدولة العثمانية، وتحالفت هذه الحكومة مع السياسة الأوروبية المعادية للدول الإسلامية والعربية، واشتركت سلسلة الأحلاف العسكرية الأوروبية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، والتى رفضتها

الشعوب العربية الإسلامية وبعض حكوماتها، وقد كانت تركيا من أوائل الدول التي اعترفت بقيام الكيان السياسى الإسرائيلى فى فلسطين عام (١٩٤٨م) مما جعل الشعوب العربية الإسلامية تندفع خلف حكوماتها القومية، بعد غياب الدولة العثمانية التى كانت تجاهد كل من تسول له نفسه بالاعتداء على شبر من أراضى المسلمين .

ويأتى سبب التبعية البحثية لمدرسة التاريخ العربى لتاريخ المنهجية الغربية كعامل هام فى الاتجاه نحو مهاجمة الخلافة العثمانية، خصوصاً بعد التقاء وجهات النظر بين المؤرخين الأوروبيين والمؤرخين العرب حول تشويه الخلافة الإسلامية العثمانية .

ولقد تأثر كثير من مؤرخى العرب بالحضارة الأوروبية المادية، ولذلك أسندوا كل ما هو مضىء فى تاريخ بلادهم إلى بداية الاحتكاك بهذه الحضارة البعيدة كل البعد عن المنهج الربانى، واعتبروا بداية تاريخهم الحديث من وصول الحملة الفرنسية على مصر والشام وما أنجزته من تحطيم جدار العزلة بين الشرق والغرب، وما ترتب عليه بعد ذلك من قيام الدولة القومية فى عهد محمد على فى مصر، وصحب ذلك اتجاههم لإدانة الدولة العثمانية التى قامت بالدفاع عن عقيدة الشعوب الإسلامية ودينها وإسلامها من الهجمات الوحشية التى قام بها الأوروبيون النصارى .

لقد احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الإسلامية وقامت بدعم المؤرخين والمفكرين فى مصر والشام الداعين إلى تأصيل الإطار القومى وتعميقه من أمثال البستانى واليازجى وجورج زيدان وأديب إسحاق وسليم نقاش وفرح انطوان وشبلى شميل وسلامة موسى وهنرى كوريل وهليل شفارتز وغيرهم، ويلاحظ أن معظمهم من النصارى واليهود، كما أنهم فى أغلبهم إن لم يكونوا جميعاً من المنتمين إلى الحركة الماسونية التى تغلغلت فى الشرق الإسلامى منذ عصر محمد على والتي كانت بذورها الأولى مع قدوم نابليون فى حملته الفرنسية .

لقد رأى أعداء الأمة الإسلامية أن دعم التوجه القومى والوقوف مع دعاته كفيل بتضعيف الأمة الإسلامية والقضاء على الدولة العثمانية .

واستطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومى فى داخل الشعوب الإسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الإسلامى الذى يشكل الإطار الحقيقى لحضارة المسلم وثقافته وعلومه، ولم يتغير هذا المنهج المنحرف لدى المؤرخين العرب بشكل عام بعد

قيام الانقلاب العسكرى فى مصر سنة ١٩٥٢م، حيث اتجهت الحكومة العسكرية فى مصر منذ البداية، والتفت حولها أغلب الحكومات العسكرية إلى دعم التوجه القومى، كما أن معظم هذه الحكومات ارتكزت على أسس أكثر علمانية فى جميع الجوانب بما فى ذلك الجانب الثقافى والفكرى، فنظروا إلى الخلافة العثمانية والحكم العثمانى للشعوب الإسلامية والعربية بأنه كان غزواً واحتلالاً، وأسندوا إليه كل عوامل التخلف والضعف والجمود والانحطاط التى ألمت بالعالم العربى الإسلامى، واعتبروا حركات الانشقاق والتمرد التى قامت إبان الفترة العثمانية، والتى كان دافعها الأطماع الشخصية، أو مدفوعة من القوى الخارجية المعادية للخلافة الإسلامية، اعتبروها حركات استقلالية ذات طابع قومى كحركة على بك الكبير فى مصر، والقرمانليين فى ليبيا، وظاهر العمر فى فلسطين، والحسينيين فى تونس، والمعنيين والشهابيين فى لبنان، وغير ذلك من أجل تأصيل الاتجاه القومى الذى طرحوه. بل زعموا أن محمد على كان زعيماً قومياً حاول توحيد العالم العربى، وأنه فشل بسبب أنه لم يكن عربى الجنس، وتناسوا أن محمد على كان ذا أطماع شخصية، جعلته يرتبط بالسياسة الاستعمارية التى دعمت وجوده، وحققت به أهدافها الشريرة من ضرب الدولة السعودية السلفية، وإضعاف الخلافة العثمانية، ومساندته المحافل الماسونية فى ضرب القوى الإسلامية فى المنطقة وتهيئتها بعد ذلك للاحتلال الغربى المسيحى الحاقد. لقد تحالفت المحافل اليهودية الماسونية مع القوى الاستعمارية الغربية والقوى المحلية العميلة التى أمكن تطويعها من خلال أطماعها، والتقوا جميعاً فى تدمير القوة الإسلامية ومصادرة حريات شعوبها وسلب خيراتها وإقامة حكم ديكتاتورى مدعوم بالسلاح الغربى الحديث وهو ما مثله محمد على، وقد شارك بعض المؤرخين السلفيين فى المشرق العربى فى الهجوم على الفترة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بالرصيد العدائى الذى خلّفه دور الخلافة العثمانية ضد الدعوة السلفية فى عديد من مراحلها بسبب مؤامرات الدول الغربية الاستعمارية التى دفعت السلاطين العثمانيين بالصدام بالقوة الإسلامية فى نجد قلب الدعوة السلفية وكذلك لمساندة الخلافة للاتجاه الصوفى وبما يصاحبه من مظاهر تخل بالجوانب الأساسية للشريعة الإسلامية، فضلا عن أن دولة الخلافة فى سنواتها الأخيرة قد سيطر عليها دعاة القومية التركية الذين ابتعدوا بها عن الالتزام بالمنهج الإسلامى الذى تميزت به الدولة العثمانية لفترات طويلة فى تاريخها وشجع كافة المسلمين بالارتباط بها وتأييدها والوقوف معها.

وأما المؤرخون الماركسيون فقد شنوا حرباً لا هوادة فيها على الدولة العثمانية واعتبروا فترة حكمها تكريساً لسيادة النظام الإقطاعى الذى هيمن على تاريخ العصور الوسطى

السابقة، وأن العثمانيين لم يُحدثوا أى تطور فى وسائل أو قوى الإنتاج، وأن التاريخ الحديث يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية ثم الرأسمالية التى أسهمت فى إحداث تغيير فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى بداية القرن التاسع عشر، والتقوا فى ذلك مع المؤرخين الأوروبيين من أصحاب الاتجاه الليبرالى وكذلك مع أصحاب المنظور القومى، وقام بعض المؤرخين والمفكرين من النصارى واليهود بترويج للاتجاهين الغربى والماركسى بواسطة التأليف والترجمة لمؤلفاتهم، والذى ساندته المحافل الماسونية، حيث إنهم حاولوا أن يبتعدوا عن أى من الأطر الإسلامية الوحدوية مفضلين عليها الدعوة القومية بمفهومها المحلى أو العربى كمشروع الهلال الخصيب فى الشام أو مشروع وحدة وادى النيل بين مصر والسودان فضلا عن نشاطهم فى ترويج الاتجاهات القومية المحدودة كالدعوة إلى الفرعونية فى مصر، والآشورية فى العراق، والفينيقية فى الشام... إلخ .

وأما المؤرخون الأتراك الذين برزوا فى فترة الدعوة القومية التركية فقد تحاملوا كثيراً على فترة الخلافة العثمانية سواء لمجاراة الاتجاه السياسى والفكرى الذى ساد بلادهم والذى حمّل الفترة السابقة كل جوانب الضعف والانهيار أو لتأثر الأتراك بالموقف المشين الذى بدت عليه سلطة الخلافة والتى أصبحت شكلية بعد الإطاحة بالسلطان عبدالحميد سنة (١٩٠٩م)، حيث انهزمت فى معارك متعددة عندما دخلت الحرب العالمية الأولى وترتب على تلك الخسائر ضياع كثير من أراضيها وتسليمها بتوقيع معاهدة سيفر سنة (١٩١٨م)، والذى فى حقيقته هزيمة لرجال الاتحاد والترقى، ونتيجة لسياستها، فى حين استطاعت الحركة القومية بزعامة مصطفى كمال أن تنقذ تركيا من هذه الإهانة وتستعيد الكثير من الأراضى التركية وتجبر اليونان والقوى التى تساندها، إلى جانب تأثر المفكرين الأتراك بموقف بعض العرب الذين ساندوا الحلفاء الغربيين إبان الحرب الأولى ضد دولة الخلافة وإعلان الثورة عليها سنة (١٩١٦م).

وبرغم تفاوت الأسباب وتباينها إلا أن كثيراً من المؤرخين التقوا على تشويه وتزوير تاريخ الخلافة الإسلامية العثمانية، لقد اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشويه الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس، ولقد غلبت على تلك الكتب والدراسات طابع الحق الأعمى، والدوافع المنحرفة، بعيدة كل البعد عن الموضوعية، وأدى ذلك إلى ظهور رد فعل إسلامى للرد على الاتهامات والشبهات التى وجهت للدولة العثمانية ولعل من أهمها وأبرزها تلك الكتابة المستفيضة التى قام بها الدكتور عبدالعزيز الشناوى فى

ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان «**الدولة العثمانية دول إسلامية مفترى عليها**» وبرغم الجهد الذى بذله ودافعه الإسلامى، والموضوعية التى اتسم بها هذا العمل فى أغلبه، إلا أنه لم يعالج جميع جوانب التاريخ العثمانى وعليه بعض الملاحظات مثل حديثه عن حقيقة الانكشارية والتى لا تثبت أمام البحث العلمى النزيه، ومن الجهود المشكورة فى هذا الميدان ما قام به الباحث الكبير والأستاذ الشهير المتخصص فى تاريخ الدولة العثمانية الدكتور محمد حرب الذى كتب للأمة الإسلامية بعض الكتب القيمة مثل: «العثمانيون فى التاريخ والحضارة»، و«السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم»، و«السلطان عبدالحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار».

ومن الأعمال القيمة فى تاريخ الدولة العثمانية ما قدمه الدكتور موفق بنى المرجة كرسالة علمية لنيل درجة الماجستير تحت عنوان «**صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد**» أو الخلافة الإسلامية واستطاع هذا الكتاب أن يبين كثيراً من الحقائق المدعومة بالوثائق والحجج الدامغة وغير ذلك من الكتّاب المعاصرين إلا أن هناك جوانب فى تاريخ الخلافة العثمانية وفى تاريخنا الإسلامى فى العصر الحديث تحتاج إلى إعادة النظر من منظور إسلامى يساهم فى إبراز الحقائق، والتئام تلك الشروخ التى نتجت عن صياغة تاريخنا من منظور قومى علمانى خدم أعداءنا فى المقام الأول واستخدموه كوسيلة من وسائلهم فى تمزيق الشعوب الإسلامية.

وعلينا عندما نكتب التاريخ الحديث أن نبين ونظهر دور المحافل الماسونية والمخططات الغربية فى توجيه هذه الصياغة التاريخية الخبيثة والتى يقوم بها مجموعة من عملاء اليهود والنصارى من أدعياء المنهج الليبرالى والعلمانى، حيث يقومون بإبراز العناصر الماسونية على الساحة التاريخية ووضعهم فى دور الحركة الماسونية فى الوقوف مع حركات التحرر .

إن التاريخ الإسلامى القديم والحديث علم مستهدف من قبل كل القوى المعادية للإسلام باعتباره الوعاء العقدى والفكرى والتربوى فى بناء وصياغة هوية الشعوب الإسلامية [١] .

وهذه محاولة متواضعة للبحث فى التاريخ العثمانى فى عمومه وتهتم بدور الخلافة العثمانية فى الشمال الأفريقى، وتمتد هذه الدراسة إلى الجذور القديمة التى قامت عليها الدولة العثمانية إلى أن سقطت الخلافة على يد العميل الإنجليزى، والملحد الكبير مصطفى كمال. وفى ثنايا هذه الدراسة يتعرض الباحث لأسباب القوة العثمانية وأسباب ضعفهم،

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، د. زكريا بيومى ص ٧ ، ٨ ، ٩ إلى ١٦ ، ١٧ .

وصفات رجالهم وسلاطينهم الأقوياء، واهتمامهم بالعلماء وتطبيق شرع الله وجهادهم العظيم لنشر الإسلام والدفاع عن دياره ضد الحملات الصليبية التى لا تنتهى، ويلتزم الكاتب منهج أهل السنة عند عرض الأحداث محاولاً أن يتقيد بالعدل والإنصاف عند الحكم على الأحداث لعله يساهم فى تصحيح الكثير من الأحكام والمفاهيم الخاطئة التى ألمت بالدولة الإسلامية العثمانية .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى الصراط المستقيم

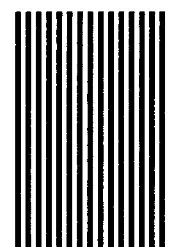




الفصل الأول

جذور الأتراك وأصولهم





المبحث الأول
أصل الأتراك ومواطنهم

فى منطقة ما وراء النهر والتى نسميها اليوم (تركستان) والتى تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز[١] وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك[٢].

ثم تحركت هذه القبائل فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، فى الانتقال من موطنها الأصلى نحو آسيا الصغرى فى هجرات ضخمة، وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التى ساهمت فى هجرتهم، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية، فالجدب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثاً عن الكلأ والمراعى والعيش الرغيد[٣] والبعض يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عدداً وقوة وهى المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وترك أراضيها[٤] بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار وذهب إلى هذا الرأى الدكتور عبداللطيف عبدالله بن دهيش[٥].

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطىء نهر جيحون، ثم استقرت بعض الوقت فى طبرستان، وجرجان[٦]، فأصبحوا بالقرب من الأراضى الإسلامية والتى فتحتها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية فى بلاد فارس سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م[٧].

---

(١) انظر: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد العيد ص ١٠٦.

(٢) انظر: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية تحقيق د. محمد نور الدين ص ٢ – ٤.

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٨.

(٤) انظر: كتاب السلوك، أحمد المقريزى، ج١، قسم ١، ص٣.

(٥) انظر: قيام الدولة العثمانية للدكتور عبداللطيف دهيش، ص٨.

(٦) انظر: الكامل فى التاريخ (٨ / ٢٢).

(٧) انظر: شوقى أبو خليل: نهاوند، ص٥٥ – ٧٠.

•• اتصالهم بالعالم الإسلامي:

في عام ٢٢ هـ/ ٦٤٢م تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضي يسكنها الأتراك، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبدالرحمن بن ربيعة بملك الترك شهر براز، فطلب من عبدالرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبدالرحمن إلى القائد سراقة بن عمرو، وقد قام شهر براز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بالأمر، فوافق على ما فعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها (١).

وتقدمت الجيوش الإسلامية لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الإسلامية في تلك البلدان، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الإسلامية، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان والأقاليم ومنهم الأتراك فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية، واعتنق الأتراك الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله(٢).

وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١ هـ، ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين(٣).

وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها في تلك الأقاليم فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وتوغلت تلك الجيوش المظفرة حتى وصلت سمرقند، وما أن ظهر عهد الدولة الإسلامية حتى صارت بلاد ما وراء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الإسلامي وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة (٤).

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) انظر: : الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، ص ١٢، ١٣.

(٣) انظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، ص ٤٠٥، ٤٠٩.

(٤) انظر: خراسان لمحمود شاكر، ص٢٠ – ٣٥.

وازداد عدد الأتراك فى بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا فى تولى المناصب القيادية والإدارية فى الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتاب، وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسى الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركى وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون فى تصريف شئون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف إلى تقليص النفوذ الفارسى، الذى كان له اليد المطلقة فى إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون [١].

وقد تسبب اهتمام المعتصم بالعنصر التركى إلى حالة سخط شديدة بين الناس والجند، فخشى المعتصم من نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هى (سامراء)، تبعد عن بغداد حوالى ١٢٥ كم وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ فى الظهور فى أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامى حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية [٢].

*****

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص١٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص١٢.

المبحث الثانى

قيام الدولة السلجوقية

كان لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث فى المشرق العربى الإسلامى، أثر كبير فى تغير الأوضاع السياسية فى تلك المنطقة التى كانت تتنازعها الخلافة العباسية السنيّة من جهة، والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة ثانية.

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت فى القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر الميلادى)، لتشمل خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى، وكانت الرى فى إيران ثم بغداد فى العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية فى خراسان وما وراء النهر (كرمان) وبلاد الشام (سلاجقة الشام) وآسيا الصغرى سلاجقة الروم، وكانت تتبع السلطان السلجوقى فى إيران والعراق.

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية فى بغداد ونصروا مذهبها السنّى بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهى الشيعى فى إيران والعراق، والنفوذ العبيدى (الفاطمى) فى مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهى تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية)[1].

لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقى أن يسقط الدولة البويهية فى عام ٤٤٧ هـ فى بغداد وأن يقضى على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبى عبدالله الجلاب لغلوه فى الرفض[2].

لقد كان النفوذ البويهى الشيعى مسيطراً على بغداد والخليفة العباسى، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسى القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل

---

(١) انظر: السلاطين فى المشرق العربى د. عصام محمد شبارو، ص١٧١.

(٢) انظر: أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، ص٦٧.

بك، كما أصدر الخليفة العباسى أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه فى الخطبة فى مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الأمر فى بغداد، وتسيير الخليفة العباسى حسب إرادتهم(١).

كان طغرل بك يتمتع بشخصية قوية، وذكاء حاد، وشجاعة فائقة كما كان متديناً ورعاً عادلاً، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشاً قوياً، وسعى لتوحيد السلاجقة الأتراك فى دولة قوية(٢).

وتوطيداً للروابط بين الخليفة العباسى القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرل بك، فإن الخليفة تزوج من ابنة جفرى بك الأخ الأكبر لطغرل بك، وذلك فى عام ٤٤٨هـ/١٠٥٩م ثم فى شعبان عام ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسى القائم بالله، لكن طغرل بك لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث إنه توفى ليله الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٢م، وكان عمره إذ ذاك سبعين عاماً، بعد أن تمت على يده الغلبة للسلاجقة فى مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق(٣).

أولاً: السلطان (محمد) الملقب ألب أرسلان أى الأسد الشجاع:

تولى ألب أرسلان زمام السلطة فى البلاد بعد وفاة عمه طغرل بك، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولى السلطة فى البلاد، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلب عليها، وكان ألب أرسلان - كعمه طغرل بك - قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه فى البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد فى سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام فى داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامى هى المحركة لحركات الفتوحات التى قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيما للجهاد، وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره فى تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضى الدولة البيزنطية (٤).

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص١٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٧.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص٢٥.

(٤) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٢٠.

لقد بقى سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأى توسع خارجى.

وعندما أطمأن على استتباب الزمن، وتمكن حكم السلاجقة فى جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهى فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية (العبيدية) فى مصر، وتوحيد العالم الإسلامى تحت راية الخلافة العباسية السنيّة ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام فى تلك المناطق[١]، وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية فى حلب، والتى أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعى سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسى بدلاً من الخليفة (الفاطمى/ العبيدى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)[٢]، ثم أرسل قائده الترك أتنسز بن أوق الخوارزمى فى حملة إلى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس من يد (الفاطميين) العبيديين ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التى تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى داخل بيت المقدس[٣].

وفى سنة ٤٦٢ هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبى هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر «العبيدى» وترك الأذان بـ «حى على العمل» فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له: إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار[٤].

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان دومانوس ديوجينس امبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن امبراطوريته. ودخلت قواته فى مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة «ملاذكرد» فى عام ٤٦٣هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م[٥] قال ابن كثير: «وفيها أقبل ملك الروم دومانوس فى جحافل أمثال الجبال من

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٢٠.

(٢) انظر: السلاطين فى المشرق العربى، د. عصام محمد، ص٢٥.

(٣) انظر: مرآة الزمان لسبط بن الجوزى، ص١٦١.

(٤) انظر: أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، ص ٦٨.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٢٠.

الروم والرخ و الفرنج، وعدد عظيم وعُدد، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً، ومعه مائة ألف نقّاب وخفار(1)، وألف روزجارى، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، و ألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمناجيق، ومنها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً، فقال له: ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدى المسلمين، والقدر يقول: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] فالتقاه السلطان ألب أرسلان فى جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً، بمكان يقال له الزهوة، فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك البخارى بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفئتان، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه فى التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسر ملكهم دومانوس، أسره غلام رومى، فلما أوقف بين يدى الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال: لو كُنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال: كل قبيح، قال: فما ظنك بى؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرنى فى بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدنى. قال: ما عزمت على غير العفو والفداء. فأفتدى منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فقال بين يدى الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه، وقبل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له الملك عشرة ألف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله....»(2).

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذى لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الامبراطور دومانوس الذى بلغ مائتى ألف، حدثاً كبيراً، و نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى لأنها سهلت على إضعاف نفوذ الروم فى معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهى المناطق

---

(1) النقاب والخفار: من ينقب ومن يحفر.

(2) البداية والنهاية (١٢/١٠٨).

المهمة التى كانت من ركائز وأعمدة الامبراطورية البيزنطية. وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين.

لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الربانى أبى نصر محمد بن عبدالملك البخارى الحنفى، فى معركة ملاذكرد عندما قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الاديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التى يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههُنا سلطان يأمر ولا ينهى. وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفنى (١) الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله.

وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمى وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٢م ودفن فى مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاه (٢).

•• شيء من أخلاق السلطان ألب أرسلان:

(كان رحيم القلب، رفيقاً بالفقراء، وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائسين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله وكان يكثر الصدقة، فيتصدق فى رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان فى ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء فى جميع ممالكه عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن فى جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلى يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم) (٣).

كتب إليه بعض السعاة فى شأن وزيره نظام الملك وذكروا ماله فى ممالكه فاستدعاه فقال: خذ إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كان كذب فاغفر له زلته، الحرص على حفظ مال الرعايا، بلغ أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه فصلبه فارتدع سائر المماليك خوفاً من سطوته (٤).

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبى، حوادث ووفيات: ٤٦١، ٤٧٠، ص ٢.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص ٢١.

(٣) الكامل لابن الأثير: ٦/٢٥٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٢/١١٤.

وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصى ما وراء النهر إلى أقاصى الشام (١) .

ثانياً: ملكشاه وفشله فى توحيد الخلافة والسلطنة:

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه وعارضه عمه قاورد بن جفرى حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قاورد وقتل وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان عين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.

واتسعت الدولة السلجوقية فى عهد السلطان ملكشاه لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسى.

وأسند ملكشاه المناطق التى سيطر عليها فى بلاد الشام لأخيه تاج الدولة تتمش سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، وذلك من أجل متابعة الفتح. فأسس هذا الأخير دولة سلاجقة الشام كما عين ملكشاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل والياً على آسيا الصغرى التى كانت تتبع بلاد الروم لمتابعة الفتح سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، فأسس هذا أيضاً دولة سلاجقة الروم (٢) وقد استمرت هذه الدولة ٢٢٤ سنة ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليلة أبى الفوارس قتلمش بن إسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلمش الذى يعتبر مؤسس هذه الدولة (٣) وقد تمكن من فتح أنطاكية سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، كما تمكن ابنه داود من السيطرة على قونية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ليتخذها عاصمة له. وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية فى آسيا الصغرى؛ وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية مسيحية إلى مدينة سلجوقية إسلامية، وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م(٤) وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية .

لقد كان سلاجقة الروم حريصين على تتريك آسيا الصغرى ونشر الإسلام فيها على المذهب السنّى وكانوا سبباً فى نقل الحضارة الإسلامية إلى تلك الأقاليم، وأسقطوا الخط

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٦/٢٥٣ .

(٢) انظر: السلاطين فى المشرق العربى، ص ٢٨ .

(٣ ، ٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

الدفاعى الذى كان يحمى المسيحية من أوروبا ضد الإسلام فى الشرق [١] .

ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملكشاه لم يفلح قائده أتسز فى توحيد بلاد الشام ومصر بعد أن شكل السلاجقة تهديداً فعلياً للدولة العبيدية (الفاطمية) داخل مصر.

وعندما أراد أتسز غزو مصر حلت به الهزيمة على يد قوة من العرب قبل مواجهة الجيش الكبير الذى أعده الوزير بدر الجمالى فى رجب ٤٦٩هـ/١٠٧٦م ، وقد أدى فشل أتسز إلى مزيد من التشرذم، والتمزق السياسى والصراع الدامى، لينتهى الأمر بمقتله سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م [٢] .

كذلك لم يفلح ملكشاه فى جعل الخلافة العباسية تتحول إلى أسرته السلجوقية، عندما زوج ابنته إلى الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، فرزقت منه بولد، كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسى، ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة فى شخص حفيده [٣] .

•• وفاتــه:

توفى السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد (٤٤٧ - ٤٨٥هـ/١٠٥٥ - ١٠٩٢م) الذى عرفته الدولة السلجوقية فى عهد السلاطين الثلاثة، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع ولقد ظهر فى زمن ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذى يهمنا معرفة سيرته ودوره فى قوة الدولة السلجوقية .

ثالثاً: نظــام الملـك:

قال عنه الذهبى : «الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقرآء والفقهاء.

أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب فى العلم، وأدرّ على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته» [٤] .

---

(١) انظر: السلاطين فى المشرق العربى، ص ٢٩

(٢) انظر: مرآة الزمان، سبط بن الجوزى، ص ١٨٢ .

(٣) انظر: السلاطين فى المشرق العربى، ص ٣٠ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٩٤.

تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه(١) .

وأشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة ،وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذى ولى على حلب وديار بكر والجزيرة، قال عنه ابن كثير : « من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة » (٢) وقام ولده عماد الدين زنكى ببداية الجهاد ضد الصليبيين ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هى التى وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة فى العالم الإسلامى (٣) .

وكذلك كان آق سنقر البرسقى من قواد السلطان محمود السلجوقى، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفى سنة ٥٢٠هـ قتله الباطنيون، وهو يصلى فى الجامع الكبير فى الموصل، قال عنه ابن الأثير: « وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات فى أوقاتها، ويصلى من الليل متهجداً » (٤) .

ويحدثنا المؤرخ أبو شامة عن آثار السلاجقة لاسيما فى زمن نظام الملك : « فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما فى وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها » (٥) .

•• ضبطه لأمور الدولة:

لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم فى أموال الناس، وقالوا ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض النهاس لأذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان فبين له ما فى هذا الفعل من الضعف ، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٩/ ٩٥ .

(٢) البداية والنهاية : ١٢/ ١٥٧ .

(٣) انظر: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٦٨ .

(٤) الكامل : ١٠/ ٦٣٣ نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه، ص ٦٨ .

(٥) الروضتان فى أخبار الدولتين (١/ ٣١) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه .

البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: افعل فى هذا ما تراه مصلحة! فقال له نظام الملك: ما يمكننى أن أفعل إلا بأمرك. فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجّابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لا حاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته (١).

•• حبه للعلم واحترامه للعلماء وتواضعه:

كان يحب العلوم وخصوصاً الحديث شغوفاً به وكان يقول: إنى أعلم بأنى لست أهلاً للرواية ولكنى أحب أن أربط فى قطار (٢) نقلة حديث رسول الله ﷺ (٣) فسمع من القشيرى، أبى مسلم بن مهر بزد، وأبى حامد الأزهرى (٤).

وكان حريصاً على أن تؤدى المدارس التى بناها رسالتها المنوطة بها فعندما أرسل إليه أبوالحسن محمد بن على الواسطى الفقيه الشافعى أبيات من الشعر يستحثه على المساعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى علي الفتنة ومما قاله أبو الحسن الواسطى من الشعر:

يا نظام الملك قد حلّ	ببغداد النظام
وابنك القاطن فيها	مستهان مستضام
وبها أودى له قتلى	غلام، وغلام
والذى منهم تبقى	سالماً فيه سهام
يا قوام الدين لم	يبق ببغدا مقام
عظُم الخطبُ وللحرب	اتصال ودوام
فمتى لم تحسم الداء	أياديك الحسام

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٢/٢٥٦.

(٢) قطار: قافلة.

(٣) انظر: البداية والنهاية ١٢/١٥٠.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٩/٩٥.

ويـكـف الـقـــــوم فـي بغـداد قـتل وانتـقـام

فـعلى مـدرسـة فـيـهـا ومـن فـيـهـا الـسـلام

واعـتـصـام بحَـريم لـك مـن بـعـدُ حـرام [١]

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء حيث يقضى معهم جُلّ نهاره، فقيل له: «إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسى لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيرى وأبو المعالى الجوينى قام لهما وأجلسهما معه فى المقعد، فإن دخل أبو على الفارندى قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب فى ذلك فقال: إنهما إذا دخلا علىّ قالا: أنت وأنت، يطرياننى ويعظماننى، ويقولان فىَّ مالا فىّ فأزداد بهما ما هو مركوز فى نفس البشر، وإذ دخل علىّ أبو على الفارندى ذكرنى عيوبى وظلمى، فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه..» [٢].

قال عنه ابن الأثير: «وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء، والفقهاء وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح...» [٣].

كان من حفظة القرآن ختمه وله إحدى عشرة، واشتغل بمذهب الشافعى، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفَّل [٤] وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشىء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة فى حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات [٥]، وكانت له صلة بالله عظيمة وقال ذات مرة: رأيت ليلة فى المنام إبليس فقلت له: ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرنى بالسجود له مشافهة وأنا أسجد له فى كل يوم مرات، وأنشأ يقول:

مـن لـم يـكـن لـلـوصـال أهـلاً فـكـلٌّ إحـسـانـه ذنـوب[٦]

---

(١) انظر: الكامل٦/٢٧٦.
(٢) البداية والنهاية: ١٢/١٥٠.
(٣) الكامل: ٦/٣٣٧.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/٩٦.
(٥) انظر: الكامل ٦/٣٣٧.
(٦) البداية والنهاية ١٢/١٥٠.

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه، ومكفول الرزق، قال فى هذا المعنى: كنت أتمنى أن يكون لى قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربى ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لى رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه (١) .

ومن تواضعه أنه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خُراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه.

وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه، ويدنيهم (٢) .

ومن شعره:

بعد الثمانين ليس قُوة	قد ذهبت شهوة الصبُّوة
كأننى والعصا بكّفى	موسى ولكن بلا نُبُوَّة (٣)

وينسب إليه أيضاً :

تقوس بعد طول العُمر ظهرى	وداستنى الليالى أىَّ دَوْسِ
فأمسى والعصا تمشى أمامى	كأن قوامها وتر بقوسِ

وكان يتأثر بسماع الشعر فعندما دخل عليه أبو على القومَسَانى فى مرضة مرضها، يعوده فأنشأ يقول:

إذا مرضنا نوَينا كل صالحةٍ	فإن شفينا فمنا الزيغ والزَّلَلُ
نرجو الإله إذا خفنا ونسخطه	إذا أمنا فما يزكو لنا عمل

فبكى نظام الملك وقال: هو كما يقول (٤) .

---

(١) انظر: الكامل ٦/ ٣٣٨ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) تاريخ الإسلام حوادث ووفيات ٤٨١ ـ ٤٩٠ / ص ١٤٧ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٤/ ٣٢٨ .

•• وفاتــه:

فى عام ٤٨٥هـ من يوم الخميس، فى العاشر من شهر رمضان وحان وقت الإفطار، صلىّ نظام الملك المغرب وجلس على السّماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء، والقرّاء والصوفية، وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذى نزلوه من أراضى نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، فى زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ومن استشهد هناك من الأعيان ويقول: طوبى لمن لحق بهم.

فلما فرغ من إفطاره، خرج من مكانه قاصداً مَضْرب حَرَمه فبدر إليه حدث ديلمىّ، كأنه مُستميح، أو مستغيث فعلق به، وضربه وحمل إلى مضرب الحرم.

فيقال: إنه أول مقتول قتلته الإسماعيلية (الباطنية)، فانبث الخبر فى الجيش، وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر مظهراً الحزن والنحيب والبكاء وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجود بنفسه حتى مات، فعاش سعيداً ومات شهيداً فقيداً حميداً (١).

وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه.

وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: لا تقتلوا قاتلى، فإنى قد عفوت عنه وتشهد ومات (٢).

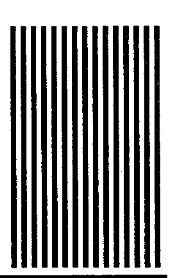
ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

كان الوزير نظامُ الملكِ لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرفٍ
عزَّت فلم تعرفِ الأيامُ قيمتها ... فردَّها غيره منه إلى الصدف (٣)

قال عنه ابن عقيل: بهر العقول سيرة النظام جوداً وكرماً وعدلاً، وإحياءً لمعالم الدين، كانت أيامه دولة أهل العالم، ثم ختم له بالقتل وهو مارٌّ إلى الحج فى رمضان فمات ملكاً فى الدنيا، ملكاً فى الآخرة، رحمه الله (٤).

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٣٢٢، ٣٢٣.
(٢) نفس المصدر السابق ٤ / ٣٢٣.
(٣) البداية والنهاية ١٢ / ١٥١.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ١٩ / ٩٦.



المبحث الثالث

نهاية الدولة السلجوقية

كان للسلطان ملشكاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود والذى عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلا فبايعوه على تولى السلطة لأن أمه تركان خاتون كانت ذات شأن كبير أيام ملكشاه، وقد استمر حكمه حوالى العامين من ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وإلى عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، حيث توفى هو وأمه ثم جاء من بعده ركن الدين أبو المظفهر بركيارق بن ملكشاه، واستمر حكمه حتى عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م، ثم تلاه ركن الدين ملكشاه الثانى وفى نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع محـ مد، واستمر حكمه حتى عام ٥١١هـ/١١٢٨م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتى كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق. وقد انقرضت دولتهم عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م، وذلك على يد شاهنات خوارزم (١) . وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى إلى عدة دول وإمارات صغيرة. ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال فى عهد كل من السلطان طغرل بك الأول والسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه وأسلافهم. بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لا يوجد بينها أى تعاون يذكر (٢) .

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهى تلك الدولة التى وقفت ردحاً من الزمن أمام الهجمات المغولية وقد قامت معها إمارات سلجوقية فى شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الروم، وهى السلطنة التى قاومت الحملات الصليبية، واستطاعت أن تحصرها فى الركن الشمالى الغربى من آسيا

(١) انظر: تاريخ دولة آل سلجوق لمحمد الأصبهانى ص ٨١ـ١٥٤ .

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص ٢٣ .

الصغرى. أما سلطنة سلاجقة الروم فقد دمرتها الغارات المغولية المتلاحقة .

لقد تضافرت عوامل عديدة فى سقوط السلطنة السلجوقية التى مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية .

*** ومن هذه العوامل :**

١ـ الصراع داخل البيت السلجوقى بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد .

٢ـ تدخل النساء فى شئون الحكم .

٣ـ إذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك .

٤ـ ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوى [١] .

٥ـ عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

٦ـ الانقسام الداخلى بين السلاجقة والذى وصل إلى حد المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم فى العراق.

٧ـ المكر الباطنى الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك فى حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم .

٨ـ الغزو الصليبى القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا وغير ذلك من الأسباب والعوامل إلا أن السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها :

(أ) كان لهم دور فى تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالى قرنين من الزمان حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض فى ظل سيطرة البويهين الشيعة الروافض .

(ب) منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية فى مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلى توحيد المشرق العربى الإسلامى تحت الراية الباطنية العبيدية الرافضية .

---

(١) انظر: السلاطين فى المشرق العربى ، ص ٥٠ .

(جـ) كانت الجهود التى بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامى والذى تم على يد صلاح الدين الأيوبى وتحت راية الخلافة العباسية السنية (١) .

(د) قام السلاجقة بدور ملموس فى النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإداريا ونشروا الأمن والاستقرار فيها .

(هـ) وقفوا فى وجه التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولا صد الخطر المغولى إلى حد كبير .

(و) رفعوا من شأن المذهب السنى وعلمائه فى تلك المناطق (٢) .

هذه نبذة موجزة عن السلاجقة السنيين ودورهم فى نصرة الإسلام، وإن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الشجعان كلمة الشراذم كما فعل الأستاذ نجيب زبيب فى الموسوعة العامة فى تاريخ المغرب والأندلس (٣) .

******

---

(١) انظر : السلاطين فى المشرق العربى ص ٥١ .

(٢) انظر : قيام الدولة العثمانية ص ٢٤ .

(٣) انظر: الموسوعة العاملة لتاريخ المغرب والأندلس ٣ / ١٠ .



الفصل الثانى

قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجرى الموافق الثالث عشر الميلادى تعيش فى كردستان، وتزاول حرفة الرعى، ونتيجة للغزو المغولى بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر فى عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر فى ما.ينة أخلاط[١] ثم بعد وفاته فى عام ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذى واصل تحركه نحو الشمال الغربى من الأناضول، وكان معه حوالى مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس [٢] وحين كان أرطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التى لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطى، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه فى الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً فى نصر المسلمين على النصارى [٣] وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامى السلجوقى هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضاً فى الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور فى الروم [٤]، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً فى الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم فى العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م [٥]، خلفه من بعده فى الحكم ابنه عثمان الذى سار على سياسة أبيه السابقة فى التوسع فى أراضى الروم [٦] .

---

(١) أخلاط مدينة فى شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وآن فى أرمينيا .

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص ٢٦ .

(٣) انظر: جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين، زياد أبو غنيمة ص ٣٦ .

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور د. عبدالعزيز العمرى ص ٣٥٣ .

(٥) تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام الجابى للقرمانى ص ١٠ .

(٦) انظر : تاريخ الدولة العلية ص ١١٥ محمد فريد .

المبحث الأول
عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذى تنتسب إليه الدولة العثمانية[١] وهى السنة التى غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[٢].

لقد كان الخطب عظيما والحدث جللا، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار، فى تلك الظروف الصعبة والوهن المستشرى فى مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة فى التمكين هى أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هى بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص: ٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ [القصص: ٥، ٦].

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح ص ١٢ عبد السلام عبد العزيز ص ١٢.

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٩٢، ١٩٣).

ولا شك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين فى عشية أو ضحاها، بل فى طرفة عين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ... ﴾ [النحل: ٤٠].

فلا يستعجل أهل الحق موعود الله عز وجل لهم بالنصر والتمكين، فلابد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية، ولابد من الصبر على دين الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤].

والله إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه وأتى به شيئًا فشيئًا بالتدرج لا دفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذى ولد فى عام سقوط الخلافة العباسية فى بغداد.

أولاً: أهم الصفات القيادية فى عثمان الأول:

عندما نتأمل فى سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة فى شخصيته كقائد عسكرى، ورجل سياسى، ومن أهم هذه الصفات:

١ - **الشجاعة**: عندما تنادى أمراء النصارى فى بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون فى عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠١ م لتشكيل حلف صليبى لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين(١).

٢ - **الحكمة**: بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده فى افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقى علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له سك العملة باسمه، مع الدعاء له فى خطبة الجمعة فى المناطق التى تحته(٢).

٣ - **الإخلاص**: عندما لمس سكان الأراضى القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سدًا منيعًا أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين(٣).

---

(١) انظر: جواب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ص ١٩٧.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص ٢٥.

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية ص ٢٦.

٤ - **الصبر**: وظهرت هذه الصفة فى شخصيته عندما شرع فى فتح الحصون والبلدان، ففتح فى سنة ٧٠٧ هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفى سنة ٧١٢ هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها. وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة فى عام ٧١٧ هـ/ ١٣١٧م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان فى فتوحاته، حيث حدثت بينه وبين قائد حاميتها اقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٥ - **الجاذبية الإيمانية**: وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسة واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذى سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم[١]، بل إن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أى غزاة الروم، وهى جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسى، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات فى جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ما جاء به الإسلام من نظام، وجماعة (الإخيان) (أى الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة، وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذى سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل: إقامة المساجد والتكايا و «الخانات» الفنادق، وكانت لهم فى الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا فى نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس فى التمسك بالدين، وجماعة (حاجيات روم) أى حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالإسلام، ومعرفة دقيقة بتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات[٢].

٦ - **العدل**: تروى معظم المراجع التركية التى أرّخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء فى مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨.

(٢) انظر: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى د. على عبد الحليم ص ٣٣١، ٣٣٢.

البيزنطيين فى عام ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م وأن عثمان حكم لبيزنطى نصرانى ضد مسلم تركى، فاستغرب البيزنطى وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحى وأنا على غير دينك، فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذى نعبده، يقول لنا: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء: ٥٨]، وكان هذا العدل الكريم سببًا فى اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام(١).

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته وفى البلاد التى فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش وإنما عاملهم بهذا الدستور الربانى: ﴿ **أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا** ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]. والعمل بهذا الدستور الربانى يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

٧ - **الوفاء**: كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثمانى، أن لا يمر من فوق الجسر أى عثمانى مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده(٢).

قال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٢٤].

٨ - **التجرد لله فى فتوحاته**: فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه، ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق فى موسوعته (التاريخ العام الكبير) بأنه (كان عثمان متدينًا للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكًا لفكر سياسى واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حبًا فى السلطة وإنما حبًا فى نشر الإسلام)(٣).

ويقول مصر أوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانًا عميقًا بأن وظيفته الوحيدة فى الحياة هى الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعًا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف»(٤).

هذه بعض صفات عثمان الأول والتى كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد

---

(١) انظر: جوانب مضيئة ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

(٣، ٤) انظر: جوانب مضيئة ص ٣٣.

لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد فى سبيل الله والدعوة إليه، ولذلك كان عثمان فى فتوحاته يطلب من أمراء الروم فى منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هى الدخول فى الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض وقبلوا دفع الجزية. أما ما عداهم فقد شن عليهم جهاداً لا هوادة فيه فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناة على تواضعه، وأصبح مستحقًا لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف فى آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأى وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغايات سامية. لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى وكان حريصًا على الأعمال الإصلاحية فى جميع الأقاليم والبلدان التى فتحها، فسعى فى بسط سلطان الحق والعدالة، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معاديًا لأهل الكفران.

ثانيًا: الدستور الذى سار عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة فى سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإدارى والتنفيذ الشرعى فى الإمارة. ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد. يقول عثمان فى وصيته: (يا بنى: إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يابنى: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بنى : إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.

يا بنى : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدى ما أنت له أهل)[1].

وفى كتاب (التاريخ السياسى للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: (اعلم يا بنى، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة فى عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)[2].

وفى كتاب مأساة بنى عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: (يا بنى، إننى أنتقل إلى جوار ربى، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً فى الرعية، مجاهداً فى سبيل الله، لنشر دين الإسلام.

يا بنى، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فأنهم لا يأمرون إلا بخير.

يا بنى، إياك أن تفعل أمرًا لا يرضى الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فأنهم سيدلونك على الخير.

واعلم يا بنى أن طريقنا الوحيد فى هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا)[3].

وفى التاريخ العثمانى المصور، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتى لأبنائى وأصدقائى، أديموا علو الدين الإسلامى الجليل بإدامة الجهاد فى سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة فى الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائمًا؛ لأن الله عز وجل قد وظف عبدا ضعيفًا مثلى لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم فى سبيل الله ومن انحرف من سلالتى عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

---

(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، ص ١٦.

(٢) انظر جوانب مضيئة، ص ٢١.

(٣) انظر: جوانب مضيئة، ص ٣.

يا بنى : ليس فى الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلى بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل . اعدل فى جميع شئونك . . . . .)[١] .

لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون ، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش ، وبالمؤسسات العسكرية ، وبالعلماء واحترامهم ، وبالجهاد الذى أوصل فتوحًا إلى أقصى مكان وصلت إليه رايته جيش مسلم وبالإمارة وبالحضارة)[٢] .

هذه الوصية الخالدة هى التى سار عليها الحكام العثمانيون فى زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم .

ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها تبلغ ١٦,٠٠٠ كيلو متر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذا على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين فى ذلك الزمان وهى : أزنيق وبورصة [٣] .

******

(١) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص ٣٣ .

(٢) انظر : العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٦ .

(٣) انظر : العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ١٥ .

المبحث الثانى

السلطان أورخان بن عثمان

٧٢٦ـ ٧٦١هـ/ ١٣٢٧ ـ ١٣٦٠م

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده فى الحكم والفتوحات، وفى عام ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧هـ سقطت فى يده نيقوميديا، وتقع فى شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة اسطنبول وهى مدينة أزميت الحالية، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصرى أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا فى مصر(١) واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشاً نظامياً (٢) .

وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ فى فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق فى آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولى عهده « سليمان » لعبور مضيق « الدردنيل » والاستيلاء على بعض المواقع فى الناحية الغربية .

وفى عام (٧٥٨هـ) اجتاز سليمان مضيق « الدردنيل » ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لاتزال دولتهم فى بداية تأسيسها، وفى الضفة الشرقية أمر « سليمان » جنوده أن يركبوا فى الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوروبى حيث فتحوا ميناء قلعة « ترنب » و « غاليبولى » التى فيها قلعة « جنا قلعة » و « أبسالا » و « رودستو » وكلها تقع على مضيق « الدردنيل » من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده فى فتح « القسطنطينية » (٣) .

أولاً: تأسيس الجيش الجديد دينى تتارى:

إن من أهم الأعمال التى ترتبط بحياة السلطان أورخان تأسيسه للجيش الإسلامى وحرص

---

(١) انظر : قيام الدولة العثمانية ، ص ٢٩ .

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ١٧ .

(٣) انظر : إلى الدولة العثمانية ، الدكتور جمال عبدالهادى ، ص ٢٢ .

على إدخال نظام خاص للجيش فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها (١) .

كما أنه أضاف جيشاً آخر عرف بالإنكشارية (٢) شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتهم الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكرياً وحربياً يعينون في مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى (٣) .

ولقد زعم معظم المؤرخين الأجانب أن جيش الإنكشارية تكون من انتزاع أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام (الدفشرية)، وزعموا أن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم «ضريبة الغلمان» وأسموها أحياناً «ضريبة الأبناء» وهي ضريبة زعموا أنها تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين، ومن هؤلاء المؤرخين الأجانب الذين افتروا على الحقيقة، كارل بروكلمان، وجيبونز، وجب (٤). إن الحقيقة تقول إن نظام الدثرمة المزعوم ليس سوى كذبة دُسَّت على تاريخ أورخان بن عثمان ومراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيين قاطبة، فلم يكن نظام الدثرمة هذا إلا اهتماماً من الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتاماً أو مشردين، فالإسلام الذي تدين الدولة العثمانية به يرفض رفضاً قاطعاً ما يسمى بضريبة الغلمان التي نسبها المغرضون من المؤرخين الأجانب إليها .

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٢ .

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص ٣٠٢ .

(٤) انظر: جوانب مضيئة، ص ١٢٢ .

لقد كانت أعداد هائلة من الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم بسبب الحروب والمعارك، فاندفع المسلمون العثمانيون إلى احتضان أولئك الأطفال الذين هاموا فى طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم وأمهاتهم وحرصوا على تأمين مستقبل كريم لهم وهل من مستقبل كريم وأمين إلا فى الإسلام، أفإن يحرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشردون التائهون الإسلام، انبرى المفترون يزعمون أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمهاتهم ويكرهونهم على الإسلام؟! .

• ومن المؤسف أن هذه الفرية الحاقدة، وهذا الإفك المبين، وهذا البهتان العظيم التقفه بعض المؤرخين المسلمين يدرسونه فى مدارسهم وجامعاتهم وكأنه أمر مسلم به ويطرح على الطلاب كأنه حقيقة من الحقائق، ولقد تأثر بكتب المؤرخين الأجانب مجموعة من المؤرخين المسلمين ومن هؤلاء من يشهد له بالغيرة على الإسلام فأصبحوا يرددون هذا البهتان فى كتبهم من أمثال: المؤرخ محمد فريد بك المحامى فى كتابه «الدولة العلية العثمانية» والدكتور على حسون فى كتابه «تاريخ الدولة العثمانية» والمؤرخ محمد كرد فى كتابه «خطط الشام» والدكتور عمر عبدالعزيز فى كتابه «محاضرات فى تاريخ الشعوب الإسلامية» والدكتور عبدالكريم غريبه فى كتاب «العرب والأتراك» .

الحقيقة تقول كل من ذكر ضريبة الغلمان أو أخذهم بالقوة من ذويهم تحت قانون أخذ خمس أطفال المدن والقرى ليس له دليل إلا كتب المستشرقين، كجب، والمؤرخ النصرانى سوموفيل، أو بروكلمان وهؤلاء لا يطمئن إليهم فى كتابة التاريخ الإسلامى ولا إلى نواياهم تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام .

إن الذين يربون تربية خاصة على الجهاد لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء آباء مسلمين انخلعوا عن النصرانية، واهتدوا إلى الإسلام، وشرعوا من أنفسهم وعن طواعية لا عن إكراه، يقدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية إسلامية، أما باقى الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة العثمانية .

إن حقيقة الجيش الجديد الذى أنشأه أورخان بن عثمان هى تشكيل جيش نظامى يكون دائم الاستعداد والتواجد قريباً منه فى حالة الحرب أو السلم على حد سواء، فشكل من فرسان عشيرته ومن مجاهدى النفير الذين كانوا يسارعون لإجابة داعى الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام فى قلوبهم، وحسن إسلامهم، وما كاد أورخان ينتهى من تنظيم هذا الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن التقى الحاج بكتاش وطلب

منه أن يدعو لهم خيراً، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود، ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم، ويجعل سيوفهم حادة قاطعة، وأن ينصرهم فى كل معركة يخوضونها فى سبيل الله ثم مال تجاه أورخان فسأله: هل اتخذت لهذا الجيش اسما؟ قال: لا، قال: فليكن اسمه «ينى جرى» وتلفظ «ينى تشرى» أى الجيش الجديد .

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم «ذو الفقار» تيمناً بسيف الإمام على ـ رضى الله عنه ـ [١] .

لقد كان علاء الدين بن عثمان أخو أورخان صاحب الفكرة وكان عالماً فى الشريعة ومشهورا بالزهد والتصوف الصحيح [٢] .

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين، فاختار عدداً من شباب الأتراك، وعدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم فضمهم إلى الجيش واهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية إسلامية جهادية .

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده، وأصبح يضم آلافاً من المجاهدين فى سبيل الله .

لقد كان أورخان وعلاء الدين متفقين على أن الهدف الرئيسى لتشكيل الجيش الجديد هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها، والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا فى نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقوا تربية إسلامية جهادية وترسخت فى قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكاً وجهاداً .

وخلاصة القول : إن السلطان أورخان لم ينتزع غلاماً نصرانياً واحداً من بيت أبيه، ولم يكره غلاماً نصرانياً واحداً على اعتناق الإسلام، وأن كل ما زعمه بروكلمان وجب وجببونز كذب واختلاق، ينبغى أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامى [٣]. إن من مقتضيات الأمانة العلمية، والأخوة الإسلامية تضع فى عنق كل مسلم غيور، وخاصة العلماء والمثقفين والمفكرين والمؤرخين والمدرسين، والباحثين، والإعلاميين، أمانة نسف هذه الفرية ودحض هذه الشبهة التى ألصقت بالعثمانيين وأصبحت كأنها حقيقة لا تقبل النقاش والمراجعة والحوار .

---

(١) انظر: جوانب مضيئة، ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٥ .

ثانياً : سياسة أورخان الداخلية والخارجية :

كانت غزوات أورخان منصبة على الروم ولكن حدث فى سنة (٧٣٦هـ - ١٣٣٦م) أن توفى أمير قره سى - وهى إحدى الإمارات التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم واختلف ولده من بعده وتنازعا الإمارة. واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخل فى النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه، واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه .

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته فعمد إلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شئون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية (١) وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام فى الدولة، وكانت كل قرية بها مدارسها وكل مدينة بها كليتها التى تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوى والبلاغة والهندسة والفلك (٢) وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة والفقه والعقائد .

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سى عشرين سنة دون أن يقوم بأى حروب، بل قضاها فى صقل النظم المدنية والعسكرية التى أوجدتها الدولة، وفى تعزيز الأمن الداخلى، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة، مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه، وحكمته وبعد نظره فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعاً فى التوسع وإنما حرص على تعزيز سلطانه فى الأراضى التى يتاح له ضمها. وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدنى والعسكرى والتربوى والثقافى وبذلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من أملاكهم. بحيث أصبحت أملاك الدولة فى آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة.

وهذا يدل على فهم واستيعاب أورخان لسنة التدرج فى بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب .

وما أن أتم أورخان البناء الداخلى حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الامبراطور « كونتاكوزينوس » مساعدة السلطان أورخان ضد خصمه، فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثمانى فى أوروبا، وفى عام ١٣٥٨ أصاب زلزال مدن تراقيا

---

(١) انظر:محمد الفاتح ، الدكتور سالم الرشيدى، ص ٢٥ .

(٢) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، محمد عبدالرحيم ، ص ٤٠ .

فانهارت أسوار غاليبولى وهجرها أهلها مما سهل على العثمانيين دخولها. وقد احتج الامبراطور البيزنطى على ذلك دون جدوى - وكان رد أورخان أن العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته، وما لبثت غاليبولى أن أصبحت أول قاعدة عثمانية فى أوروبا، ومنها انطلقت الحملات الأولى التى توجت فى النهاية بالاستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان. وحين انفرد حنا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقر كل فتوح أورخان فى أوروبا فى مقابل تعهد السلطان بتسهيل وصول الطعام والمؤن إلى القسطنطينية، وأرسل أورخان أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة بغية الدعوة إلى الإسلام ومنع تمكن النصارى من طرد العثمانيين من أوروبا (١) .

ثالثاً: العوامل التى ساعدت السلطان أورخان فى تحقيق أهدافه:

١- المرحلية التى سار عليها أورخان واستفادته من جهود والده عثمان ووجود الإمكانيات المادية والمعنوية التى ساعدتهم على فتح الأراضى البيزنطية فى الأناضول وتدعيم سلطتهم فيها. ولقد تميزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة فى توسيع دولته ومد حدودها، ولم ينتبه العالم المسيحى إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولى (٢) .

٢- كان العثمانيون - يتميزون - فى المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية - بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الدينى وهو المذهب السنى .

٣- وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد وكان المجتمع البيزنطى قد أصابه تفكك سياسى وانحلال دينى واجتماعى فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة.

٤- ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة فى الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر، ولذلك تعذر فى معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف فى جبهة واحدة ضد العثمانيين (٣) .

٥- الخلاف الدينى بين روما والقسطنطينية أى بين الكاثوليك والأرثوذكس الذى استحكمت حلقاته وترك آثاراً عميقة الجذور فى نفوس الفريقين .

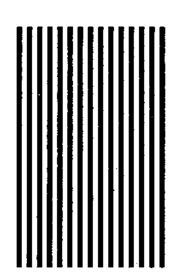
٦- ظهور النظام العسكرى الجديد على أسس عقدية، ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين .

---

(١) انظر: أصول التاريخ العثمانى ، ص ٤٧ .

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٣ .



المبحث الثالث

السلطـان مـراد الأول

٧٦١-٧٩١هـ / ١٣٦٠ - ١٣٨٩م

كان مراد الأول شجاعا مجاهدا كريما متدينا، وكان محبا للنظام متمسكا به، عادلا مع رعاياه وجنوده، شغوفا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين، شكل منهم مجلسا لشورته، وتوسع فى آسيا الصغرى وأوروبا فى وقت واحد.

ففى أوروبا هاجم الجيش العثمانى أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنه فى عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية فى البلقان، وكانت ثانى مدينة فى الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنه عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة:

١- استغلال مناعة استحكامات أدرنه الحربية وقربها من مسرح العمليات الجهادية.

٢- رغبة مراد فى ضم الأقاليم الأوروبية التى وصلوا إليها فى جهادهم وثبتوا أقدامهم فيها.

٣- جمع مراد فى هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية.

واستمرت أدرنه على هذا الوضع السياسى والعسكرى والإدارى والثقافى والدينى حتى فتح العثمانيون القسطنطينية فى عام (٨٥٧هـ-١٤٥٣م)، فأصبحت عاصمة لدولتهم [١].

أولا: تحالف صليبى ضد مراد:

مضى السلطان مراد فى حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم فى أوروبا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكون تحالف أوروبى بلقانى صليبى باركه

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، د. إسماعيل باغى، ص ٣٨.

البابا أوربا الخامس، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول الأعضاء فى التحالف الصليبى أن تحشد جيشا بلغ عدده ستين ألف جندى تصدى لهم القائد العثمانى «لالاشاهين» بقوة تقل عددا عن القوات المتحالفة، وقابلهم على مقربة من «تشيرمن» على نهر مارتيزا، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا فى نهر مارتيزا، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت أما السلطان مراد فكان فى هذه الأثناء مشتغلا بالقتال فى بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدة مدن ثم عاد إلى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم(١).

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمة منها:

١- تم لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا إلى جنوبى بلغاريا وإلى شرقى صربيا.

٢- أضبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط فى أيديهم كأوراق الخريف(٢).

أول: معاهدة بين الدولة العثمانية والمسيحية:

لما اشتد ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها، خصوصا الضعفاء منهم، فبادرت جمهورية (راجوزه)(٣) وأرسلت إلى السلطان مراد رسلا ليعقدوا مع السلطان مراد معاهدة ودية وتجارية تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب وهذه أول معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية(٤).

•• معركة قوصرة:

كان السلطان مراد قد توغل فى بلاد البلقان بنفسه عن طريق قواده مما أثار الصرب، فحاولوا فى أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا فى الهجوم على الجيوش العثمانية فى البلقان وما جاورها ولكنهم فشلوا فى تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين، فتحالف الصرب والبوسنيون البلغار وأعدوا جيشا أوروبيا صليبيا كثيفا لحرب السلطان الذى

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص ١٣١.

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٣٧.

(٣) تطل على البحر الأدرياتيكى.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، د. محمد فريد، ص ١٣٢.

كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعدادا قويا إلى منطقة كوسوفو فى البلقان ومن الموافقات التى تذكر أن وزير السلطان مراد الذى كان يحمل معه مصحفا فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴾ [الأنفال: ٦٥] فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمى وطيسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصارا باهرا حاسما[١].

ثانيا: استشهاد السلطان مراد:

بعد الانتصار فى قوصوه، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة يدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعو لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفى أثناء ذلك قام جندى من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام فى حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله فى ١٥ شعبان ٧٩١هـ[٢].

(أ) الكلمات الأخيرة للسلطان مراد:

«لا يسعنى حين رحيلى إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتى على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابنى يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذى يحفظ دولتنا من كل سوء»[٣] لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عاما.

(ب) دعاء السلطان مراد قبل اندلاع معركة قوصوه:

كان السلطان مراد يعلم أنه يقاتل فى سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السطان مراد بربه وتحقيقه لمعانى العبودية، يقول السلطان مراد فى مناجاته لربه :«يا الله

---

(١) انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى، ص ٣٠، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٨٩.

(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى، ص ١٦.

(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٩١.

يارحيم يا رب السماوات يا من تتقبل الدعاء لا تخزنى يا رحمن يا رحيم، استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة، أرسل السماء علينا مدرارا، بدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، أنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفى الصدور، ليس لى فى غاية لنفسى ولا مصلحة ولا يحملنى طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا فى رضاك يا الله يا عليم يا موجود فى كل الوجود(١) أفديك روحى فتقبل رجائى ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو. يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلنى سببا فى موتهم، بل اجعلهم المنتصرين، إن روحى أبذلها فداء لك يا رب إنى وددت ولا زلت دوما أبغى الاستشهاد من أجل جند الإسلام، فلا ترنى يا إلهى محنتهم واسمح لى يا إلهى هذه المرة أن أستشهد فى سبيلك ومن أجل مرضاتك..»(٢).

وفى رواية: (يا إلهى، أننى أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبتغى من جهادى هذه الدنيا الفانية، ولكننى أبتغى رضاك، ولا شىء غير رضاك يا إلهى، أننى أقسم بعزتك وجلالك أننى فى سبيلك فزدنى تشريفا بالموت فى سبيلك»(٣).

وفى رواية: «يا إلهى، ومولاى، تقبل دعائى وتضرعى، وأنزل علينا برحمتك غيثا يطفئ من حولنا غبار العواصف، وأغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات، حتى نتمكن من إبصار مواقع عدونا فنقاتله فى سبيل إعزاز دينك العزيز.

إلهى ومولاى، إن الملك والقوة لك، تمنحها لمن تشاء من عبادك، وأنا عبدك العاجز الفقير، تعلم سرى، وجهرى، أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبتغى من جهادى حطام هذه الدنيا الفانية، ولكنى أبتغى رضاك ولا شىء غير رضاك.

إلهى، ومولاى، أسألك بجاه وجهك الكريم، أن تجعلنى فداء للمسلمين جميعا، ولا تجعلنى سببا فى هلاك أحد من المسلمين فى سبيل غير سبيلك القويم.

إلهى، ومولاى، إن كان فى استشهادى نجاة لجند المسلمين فلا تحرمنى الشهادة فى سبيلك، لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك.

إلهى، ومولاى، لقد شرفتنى بأن هديتنى إلى طريق الجهاد فى سبيلك، فزدنى شرفا بالموت فى سبيلك»(٤).

---

(١) أى موجود بعلمه فى كل الوجود.
(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص٣٩٠.
(٣) انظر: جوانب مضيئة، ص ١٩٠.
(٤) جوانب مضيئة، ص٤٠، ٤١.

إن هذا الدعاء الخاشع دليل على معرفة السلطان مراد لله عز وجل، وعلى أنه حقق شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولقد اجتمعت شروطها فى سلوكه وحياته فهو على:

– علم بمعناها المراد بها نفيا وإثباتا المنافى للجهل بذلك قال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٦] أى بـ « لا إله إلا الله » وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

– اليقين المنافى للشك، فقد كان السلطان مراد مستقينا بمدلول هذه الكلمة، يقينا جازما، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن(١). قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٥].

– قبوله لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وانقياده لما دلت عليه من أوامرو اجتناب للنواهى قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

– كان صادقا مع ربه، مخلصا إخلاصا طهر به شوائب الشرك من نفسه قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة: ٥]

– كان مخلصا لخالقه مستعدا لبذل النفس والمال فى سبيله قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾ [المائدة: ٥٤]

---

(١) معارج القبول (٢/ ٤١٩).

وفي الحديث الصحيح :« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »(١).

لقد فهم السلطان مراد حقيقة الإيمان وكلمة التوحيد وذاق آثارها في حياته، فنشأت في نفسه أنفة وعزة مستمدة من الإيمان بالله، فايقن أنه لا نافع إلا الله، فهو المحيي والمميت، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة، ومن ثم نزع من قلبه كل خوف إلا منه سبحانه، فلم يطأطئ رأسه أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يرتع من كبريائه وعظمته، لأنه على يقين بأن الله هو القادر العظيم، ولقد أكسبه الإيمان بالله قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع إلى معالي الأمور ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، فكان في المعارك التي خاضها ثابتا كالجبال الراسية وكان على يقين راسخ بأن المالك الوحيد لنفسه وماله هو الله سبحانه وتعالى لذلك لم يبال بأن يضحي في سبل مرضاة ربه بكل غال ورخيص.

إن السلطان مراد عاش حقيقة الإيمان ولذلك اندفع إلى ساحات الجهاد، وبذل ما يملكه من أجل دعوة الإسلام.

لقد قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره، قال المؤرخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول :(قام مراد بأعمال هامة كثيرة. دخل ٣٧ معركة سواء في الأناضول أو في البلقان، وخرج منها جميعا ظافرا، وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون النظر لفوارق العرق والدين)(٢).

ويقول عنه المؤرخ الفرنسي كرينارد :(كان مراد واحدا من أكبر رجالات آل عثمان، وإذا قومناه تقويما شخصيا، نجده في مستوى أعلى من كل حكام أوروبا في عهده)(٣).

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت ٩٥,٠٠٠ كيلو متر مربع وعند استشهاده، تسلم ابنه با يزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠ كيلو متر مربع بمعنى أنها زادت في مدى حوالي ٢٩ سنة أكثر من خمسة أمثال ما تركها له والده أورخان(٤).

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١ / ١١) رقم ١٦.

(٢ ، ٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص١٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٠.

* **أما النتائج التى ترتبت على انتصار المسلمين فى معركة قوصوه ما يلى:**

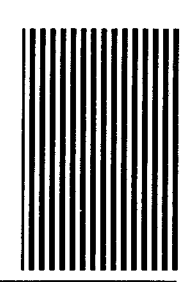
١- انتشار الإسلام فى منطقة البلقان وتحول عدد كبير من الأشراف القدامى والشيوخ إلى الإسلام بمحض إرادتهم.

٢- اضطرت العديد من الدول الأوروبية إلى أن تخطب ود الدولة العثمانية، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، وقام ا لبعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم.

٣- امتدت سلطة العثمانيين على أمراء المجر ورومانيا والمناطق المجاورة للإدرياتيك حتى وصل نفوذهم إلى ألبانيا(١).

******

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمرى، ص ٣٨٨.



المبحث الرابع

السلطان بايزيد الأول

٧٩١-٨٠٥هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢م

بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحكم ابنه بايزيد، وكان شجاعا شهما كريما متحمسا للفتوحات الإسلامية، ولذلك اهتم اهتماما كبيرا بالشئون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية فى الأناضول وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان با يزيد كمثل البرق فى تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب «الصاعقة» (١).

أولا: سياسته مع الصرب:

شرع با يزيد فى إقامة علاقات ودية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب فى قيام تحالف بلقانى ضد الدولة العثمانية وكان غرض با يزيد من هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له فى سياسته العسكرية النشطة التى استهدفت الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية فى آسيا الصغرى، لذلك وافق با يزيد على أن يحكم الصرب ابنا الملك (لازار) الذى قتل فى معركة قوصوة وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب وأعرافها وتقاليدها وعاداتها، وأن يدينا له بالولاء ويقدما له جزية وعددا معينا من الجنود يشتركون فى فرقة خاصة بهم فى حروبه (٢) وتزوج ابنة الملك لازار.

ثانيا: إخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية:

بعد أن تم التفاهم مع الصرب وجه با يزيد ضربة خاطفة فى عام (٧٩٧هـ/١٣٩٣م) إلى بلغاريا، فاستولى عليها وأخضع سكانها، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسى. وكان لسقوط بلغاريا فى قبضة الدولة العثمانية صدى هائل فى أوروبا وانتشر الرعب والفزع والخوف أنحاءها وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثمانى فى البلقان (٣).

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٤٠.

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤١.

ثالثا: التكتل الدولي المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية:

قام سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع بالدعوة لتكتل أوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التى واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التى اشتركت فيه، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات وبلغ العدد الاجمالى لهذه الحملة الصليبية ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا وإنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضى المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية) (١) .

وتحركت الحملة عام (٨٠٠هـ/١٣٩٦م) إلى المجر، ولكن زعماءها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان وبدؤوا فى حصارها وتغلبوا فى أول الأمر على القوات العثمانية، إلا أن با يزيد ظهر فجأة ومعه حوالى مائة ألف جندى، وهو عدد يقل قليلا عن التكتل الأوروبى الصليبى، ولكنه يتفوق عليهم نظاما وسلاحاً، فانهزم معظم النصارى ولاذوا بالفرار والهروب وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة واستلوا على ذخائر العدو (٢). وفى نشوة النصر والظفر قال السلطان با يزيد إنه سيفتح إيطاليا ويطعم حصانه الشعير فى مذبح القديس بطرس بروما (٣).

لقد وقع كثير من أشراف فرنسا منهم الكونت دى نيفر نفسه فى الأسر، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى والكونت دى نيفر وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته وقال له إنى أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين فأنت فى حل من الرجوع لمحاربتى إذ لا شىء أحب إلىّ من محاربة جميع مسيحيى أوروبا والانتصار عليهم (٤).

أما سيجسموند ملك المجر الذى كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه قوته أن قال: لو انقضت السماء علياءها لأمسكناها بحرابنا – فقد ولى هاربا ومعه رئيس فرسان رودس ولما بلغا فى فرارهما شاطئ البحر الأسود وجدا هناك الأسطول النصرانى فوثبا على إحدى السفن

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ص ٤٢ .

(٣) انظر : محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدى ، ص ٣٣ .

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص ١٤٤ .

وفرت بهما مسرعة لا تلوى على شىء، وتضاءلت مكانة المجر فى عيون المجتمع الأوروبى بعد معركة نيكوبوليس وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة [١]. لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على با يزيد والمجتمع الإسلامى، فقام با يزيد ببعث رسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامى يبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلا ماديا على انتصاره، واتخذ با يزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل إلى الخليفة العباسى المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التى مارسها هو وأجداده من قبل طابعا شرعيا رسميا فتزداد هيبته فى العالم الإسلامى، وبالطبع وافق السلطان المملوكى برقوق حامى الخليفة العباسى على هذا الطلب لأنه يرى با يزيد حليفه الوحيد ضد قوات تيمور لنك التى كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية وهاجر إلى الاناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية، وكانت الهجرة مليئة بالجنود وممن أسهموا فى الحياة الاقتصادية والعلمية والحكومية فى إيران والعراق وما وراء النهر - هذا بالإضافة إلى الجموع التى فرت من أمام الزحف التيمورلنكى على آسيا الوسطى [٢].

رابعاً: حصار القسطنطينية:

استطاع با يزيد قبل معركة نيكوبوليس أن يشدد النكير على الامبراطورية البيزنطية وأن يفرض على الامبراطور أن يعين قاضيا فى القسطنطينية للفصل فى شئون المسلمين وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية وقبل الامبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية، كما تنازل لبا يزيد عن نصف حى غلطة الذى ضعت فيه حامية عثمانية قوامها ٦,٠٠٠ جندى وزيدت الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية، وفرضت الخزانة العثمانية رسوما على الكروم ومزارع الخضراوات الواقعة خارج المدينة. وأخذت المآذن تنقل الآذان إلى العاصمة البيزنطية [٣].

وبعد الانتصار العظيم الذى حققه العثمانيون فى معركة نيكوبوليس ثبت العثمانيون أقدامهم فى البلقان، حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدى، ص ٣٣ .
(٢) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، أحمد عبدالحليم، ص ٥٤ ، ٥٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٣ .

وبلغاريا إلى الدولة العثمانية واستمر الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى فى ارتدادهم. وعاقب السلطان با يزيد حكام شبه جزيرة المورة الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبى (١) وعقاباً للامبراطور البيزنطى على موقفه المعادى طلب بايزيد منه أن يسلم القسطنطينية وإزاء ذلك استنجد الامبراطور مانويل بأوروبا دون جدوى، والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً فى البرنامج الجهادى للسلطان بايزيد الأول. ولذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصاراً محكماً حول العاصمة البيزنطية وضغط عليها ضغطاً لا هوادة فيه واستمر الحصار حتى أشرفت المدينة فى نهايتها على السقوط - بينما كانت أوروبا تنتظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر إذا السلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية لظهور خطر جديد على الدولة العثمانية (٢) .

خامساً: الصدام بين تيمورلنك وبايزيد:

ينتمى تيمورلنك إلى الأسر النبيلة فى بلاد ما وراء النهر، وفى عام ١٣٦٩م جلس على عرش خراسان وقاعدته سمرقند. واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامى؛ فقد انتشرت قواته الضخمة فى آسيا من دلهى إلى دمشق، ومن بحر آرال إلى الخليج العربى واحتل فارس وأرمينيا وأعالى الفرات ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود، وفى روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكاً له وكان يردد: «أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد فى السماء» (٣) ، وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية وكان قبل أن يقرر أمرا كان يجمع المعلومات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعد تروٍ وتأنٍ بعيدة عن العجلة وكان من الهيبة بحيث أن جنوده كانوا يطيعون أوامره أيا كانت .

وكان تيمور باعتباره مسلماً يرعى العلماء ورجال الدين وبخاصة اتباع الطريقة النقشبندية (٤) .

* وكانت هناك عوامل وأسباب ساهمت فى إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد منها:

---

(١) الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ص ٤٢ .
(٢) الدولة العثمانية ، د. إسماعيل أحمد ، ص ٤٣ .
(٣ ، ٤) فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ٥٦ .

١- لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسيا الصغرى - وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون من استجاروا به على شن الحرب ضد الطرف الآخر .

٢- تشجيع النصارى لتيمورلنك ودفعه للقضاء على بايزيد .

٣- الرسائل النارية بين الطرفين، ففي إحدى الرسائل التي بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمنياً حين ذكره بغموض أصل أسرته، وعرض عليه العفو على اعتبار أن آل عثمان قد قدموا خدمات جليلة إلى الإسلام، ولو أنه اختتم رسالته - بصفته زعيماً للترك - باستصغار شأن بايزيد الذى قبل التحدى وصرح بأنه سيتعقب تيمور إلى تبريز وسلطانية (١) .

وكان الزعيمان تيمورلنك وبايزيد يسعى كل منهما لتوسيع دولته .

سادساً: انهيار الدولة العثمانية:

تقدم تيمورلنك بجيوشه واحتل سيواس، وأباد حاميتها التى كان يقودها الأمير أرطغرل بن بايزيد والتقى الجيشان قرب أنقرة فى عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م وكانت قوات بايزيد تبلغ ١٢٠,٠٠٠ مجاهد لملاقاة خصمه وزحف تيمورلنك على رأس قوات جرارة فى ٢٠ يوليو ١٤٠٢ (٨٠٤هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد فى الأسر وظل يرسف فى أغلاله حتى وافاه الأجل فى السنة التالية (٢) .

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع وعجلة بايزيد فلم يحسن اختيار المكان الذى نزل فيه بجيشه الذى لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف، ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء، وكان الوقت صيفاً شديد القيظ، ولم يكد يلتقى الجيشان فى أنقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا فى جيش يزيد وجنود الإمارات الآسيوية التي فتحها منذ عهد قريب وانضموا إلى جيش تيمورلنك ولم يجد السلطان العثمانى بعد ذلك ما أظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة والاستماتة فى القتال (٣) .

---

(١) فى أصول التاريخ العثمانى، ص٥٧ .
(٢) الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٢، ٣ .
(٣) محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى، ص ٣٥ .

لقد فرحت الدول النصرانية فى الغرب بنصر تيمورلنك وهزها الطرب لمصرع بايزيد وما آلت إليه دولته من التفكك والانحلال وبعث ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة وامبراطور القسطنطينية إلى تيمورلنك يهنئونه على ما أحرزه من النصر العظيم والظفر المجيد واعتقدت أوروبا أنها قد تخلصت إلى الأبد من الخطر العثمانى الذى طالما روعها وهددها (١) .

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على أزنيق وبروسة وغيرها من المدن والحصون ثم دك أسوار أزمير وخلصها من قبضة فرسان رودس (٢) (فرسان القديس يوحنا) محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأى العام الإسلامى الذى اتهمه بأنه وجه ضربة شديدة إلى الإسلام بقضائه على الدولة العثمانية وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القديس يوحنا أن يضفى على معارك الأناضول طابع الجهاد (٣) .

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصغرى إلى أملاكهم السابقة، ومن ثم استرجاع الإمارات التى ضمها بايزيد لاستقلالها كما بذر تيمور بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش (٤) .

سابعاً: الحروب الداخلية:

لقد تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلى تمثل فى نشوب حرب أهلية فى الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦ - ٨١٦هـ/١٤٠٣ - ١٤١٣م) (٥) .

كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه فى القتال، أما مصطفى فقد ظن أنه قتل فى المعركة، أما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون فى الفرار. أما أكبرهم سليمان فقد ذهب إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً هناك، وذهب عيسى إلى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه، وأما محمد وهو أصغرهم فقد انسحب مع بعض الجند إلى أماسيا فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ونشبت الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة يتنازعون بينهم أشلاء الدولة الممزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب. ثم أطلق تيمورلنك الأمير موسى

---

(١) محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدى، ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥ .

(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ٥٩ .

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٥٩ .

(٥) الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ص ٤٣ .

ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراً وشدة وأخذ يحرضهم على القتال ويغرى بعضهم ببعض(١) .

وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه الأخضر واليابس وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى (٢) .

لقد كانت هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلى المتمثل فى فتح القسطنطينية، ولقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها فى بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهى سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبتلى المؤمنين ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين فى الأرض بعد ذلك .

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمى من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكين ورسوخ قال تعالى :

﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣]

« الفتنة : الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الأنفس والأمور، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم » (٣) .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « والاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ** ﴾ إنكارى ومعناه : أن الله سبحانه لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان » (٤) كما جاء فى الحديث الصحيح : « **أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء** » (٥) .

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن، حيث قال : « **مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز**

(١، ٢) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٦ .

(٣) تفسير النسفى ٣/ ٢٤٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٥ .

(٥) سنن الترمذى ٤/ ٦٠١ حديث حسن صحيح .

حتى تستحصد» (١) .

إن سنة الابتلاء جارية فى الأمم والدول والشعوب والمجتمعات ولذلك جرت سنة الله بالابتلاء بالدولة العثمانية .

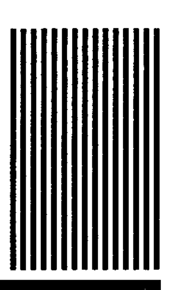
صمد العثمانيون لمحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية، إلى أن انفرد محمد الأول بالحكم فى عام ١٤١٣م، وأمكنه لم شتات الأراضى التى سبق للدولة أن فقدتها، إن إفاقة الدولة من كارثة أنقرة يرجع إلى منهجها الربانى الذى سارت عليه حيث جعل من العثمانيين أمة متفوقة فى جانبها العقدى والدينى والسلوكى والأخلاقى والجهادى وبفضل الله حافظ العثمانيون على حماستهم الدينية وأخلاقهم الكريمة (٢) ثم بسبب المهارة النادرة التى نظم بها أورخان وأخوه علاء الدين دولتهما الجديدة وإدارة القضاء المثيرة للإعجاب والتعليم المتواصل لأبناء وشباب العثمانيين وغير ذلك من الأسباب التى جعلت فى العثمانيين قوة حيوية كاملة فما لبثت هذه الدولة بعد كارثة أنقرة إلا أن بعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال وانتعشت وسرى فى عروقها ماء الحياة، وروح الشريعة، واستأنفت سيرها إلى الأمام فى عزم وإصرار حيَّر الأعداء والأصدقاء (٣) .

******

(١) مسلم شرح النووى كتاب القيامة والجنة والنار ١٧ / ١٥١ .

(٢) فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ٦١ .

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٧.



المبحث الخامس

السلطان محمد الأول

ولده السلطان محمد الأول عام (٧٨١هـ/١٣٧٩م) [١]، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ «بمحمد جلبى» .

كان متوسط القامة، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، أبيض البشرة، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوى فى غاية النشاط وجسوراً، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس. اشترك أثناء حكمه فى ٢٤ حرباً وأصيب بأربعين جرحاً [٢]. استطاع السلطان محمد جلبى أن يقضى على الحرب الأهلية بسبب ما أوتى من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سنى حكمه الثمانى فى إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها [٣] ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثانى للدولة العثمانية [٤] .

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم فى معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث فى يمينه [٥]، وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ولذلك سالم امبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود، وفى تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام كليتبولى وقمع الفتن والثورات فى آسيا وأوروبا وأخضع بعض الإمارات الآسيوية التى أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء [٦] .

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ص ٣٣ .

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص ٤١ .

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٧ .

(٤) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٤١ .

(٥) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٤٩ .

(٦) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٧ .

وظهر فى زمن السلطان محمد شخص يسمى بدر الدين انتحل صفة علماء الدين الإسلامى وكان فى جيش موسى أخى السلطان محمد وتولى منصب قاضى العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضى قد احتضنه موسى بن بايزيد.

قال صاحب الشقائق النعمانية: «الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل.. المشهور بابن قاضى سيماونه ولد فى قلعة سيماونه فى بلاد الروم إحدى قرى أدرنة التى تقع فى الجزء الأوروبى من تركيا، كان أبوه قاضياً لها وكان أيضاً أميرا على عسكر المسلمين (فيها) وكان فتح تلك القلعة على يده أيضاً.. ولادة الشيخ بدر الدين كانت فى زمن السلطان الغازى خداوندكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان ثم أخذ الشيخ العلم فى صباه عن والده. وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدى، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل إلى الديار المصرية وقرأ هناك مع «أى مزمل» السيد الشريف الجرجانى على مولانا مبارك شاه المنطقى المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيعلى، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع السيد الجرجانى على الشيخ أكمل الدين «البايبورى» وقرأ على الشيخ المذكور «أى تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين» السلطان فرج بن السلطان برقوق ملك مصر «سلطان مصر المملوكى برقوق».

ثم أدركته «أى الشيخ بدر الدين» الجذبة الإلهية، والتجأ إلى كنف الشيخ سعيد الأخلاطى الساكن بمصر وقتئذ وحصل عنده ما حصل «أى أصبح مريده» وأرسله الشيخ أخلاطى إلى بلدة تبريز للارشاد «الصوفى» حكى أنه لما جاء تيمورلنك تبريز.. نال «أى بدر الدين» من الأمير المذكور «تيمورلنك» مالاً جزيلاً بالغاً إلى نهايته. ثم ترك إلى الشيخ الكل، ولحق ببدليس ثم سافر إلى مصر.. ثم إلى حلب ثم إلى قونية ثم إلى تبرة من بلاد الروم ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز «وهو نصرانى» فأسلم على يدى الشيخ.. ثم لما تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازى نصب الشيخ «أى جعل من الشيخ بدر الدين» قاضياً لعسكره ثم أن أخا موسى «محمداً» قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق» (١).

وفى أزنيق - وهى مدينة فى تركيا - بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل يدعو إلى مذهبه الفاسد، فكان يدعو إلى المساواة فى الأموال، والأمتعة، والأديان، ولا يفرق بين المسلم

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ١٣٣، ١٣٤، نقله عن الشقائق النعمانية مخطوط (لا له لى) بالسليمانية رقم ٢٠٧٦.

وغير المسلم فى العقيدة، فالناس أخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ما تدعو إليه الماسونية اليهودية، وانضم إلى هذه الدعوة الباطلة كثير من الأغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة وأصبح للمفسد بدر الدين تلاميذ يدعون إلى منهجه ومذهبه، ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى «بير قليجة مصطفى» وآخر يقال إنه من أصل يهودى هو «طوره كمال» واليهود دائماً خلف المؤامرات من زمن النبى ﷺ وحتى عصرنا هذا .

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محمد جلبى لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد سيسمان الذى أرسله محمد جلبى على يد الخائن «بير قليجة» وهزم جيشه وأعد السلطان محمد جلبى جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول «بايزيد باشا» فحارب «بير قليجة» وانتصر عليه فى موقعة «قره بورنو» وبعدها أقيم حد الحرابة على «بير قليجة مصطفى» امتثالاً لأمر الله (١) الذى يقول :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٣]

واستمر الشيخ بدر الدين فى غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ما تمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها فى كل أرجاء البلاد وكان بدر الدين يقول: «إنى سأثور من أجل امتلاك العالم، وباعتقاداتى ذات الإشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدى بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل ـ باتساع مشاربى ـ بعد المحرمات» (٢) .

وكان أمير الأفلاق «فى رومانيا» يدعم هذا المنشق وهذا المبتدع وهذا الزنديق مادياً وعسكرياً وكان السلطان محمد جلبى لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق عليها الخناق، حتى اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلى أورمان «فى بلغاريا الآن» (٣) يقول محمد شرف الدين فى مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلى أورمان : «إن هذه المنطقة وما يحيط

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ص ٣٥ .

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٠ .

بها من مناطق هي مأوى الباطنية، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحق التى قامت ضد الدولة العثمانية فى منتصف القرن السابع الهجرى، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات » (١) .

وفى دلى أورمان بدأت المعونات الأوروبية تفد إلى الشيخ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثمانى محمد الأول، ووصلت فلول المنشقين أعداء الإسلام الصحيح إلى ما بين ٧ ـ ٨ آلاف مقاتل (٢) .

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين وكان هذا على رأس جيش عظيم فى دلى أورمان .

اتخذ السلطان محمد من سيروز « فى اليونان الآن » مركزاً لقيادته . أرسل السلطان قواته إلى الثوار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته فى منطقة دلى أورمان فراراً من السلطان (٣) .

واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين فى الأسر (٤) .

وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له : مالى أرى وجهك قد اصفر؟

أجابه بدر الدين: إن الشمس يا مولاى، تصفر عندما تقترب من الغروب .

وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء التى أستندت إلى توجيه رسول الله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه » (٥) .

إن المذهب الفاسد الذى كان يدعو إليه « بدر الدين » هو نفس مذهب الماسونية اليهودية المعاصرة « القرن الخامس عشر الهجرى / العشرون الميلادى » وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ١٤٠ .

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤١ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٥) مسلم: كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين ٣ / ١٤٨٠ ، رقم ١٨٥٢ .

أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقول بالأخوة بين المسلمين واليهود والنصارى وعباد البقر والشيوعيين، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التى تؤكد أنه لا أخوة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة، لأنه كيف يكون هناك أخوة بين ما يحاربون الله ورسوله، وبين المؤمنين الموحدين (١) .

كان السلطان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثمانى أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التى يطلق عليها اسم الصرة، وهى عبارة على قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة (٢) .

وقد أحب الشعب العثمانى السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان «ومعناها البطل» وذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته، كما أن أعماله العظيمة، وعبقريته الفذة التى قاد من خلالها الدولة العثمانية إلى بر الأمان، كما أن جميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقد جلبى أيضاً وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة، إلا أن بالإمكان اعتباره من أنبل حكام العثمانيين ـ فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته، واعتبره المؤرخون العثمانيون (٣) بمثابة القبطان الماهر الذى حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية والفتن الباطنية .

•• وفاتــه:

بعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده فى محو آثار الفتن التى مرت بها الدولة العثمانية وشروعه فى إجراء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب فى المستقبل، وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهام السليمة شعر بدنو أجله دعا الباشا بايزيد وقال له : «عينت ابنى مراد خليفة لى فأطعه وكن صادقاً معه كما كنت معى. أريد منكم أن تأتونى بمراد الآن لأننى لا أستطيع أن أقوم من الفراش بعد. فإن وقع الأمر الإلهى قبل مجيئه حذارى أن تعلنوا وفاتى حتى يأتى» (٤) .

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ (الدولة العثمانية) ص ٣٨ .

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٢ .

(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٦٢ .

(٤) السلاطين العثمانيون ، ص ٤١ .

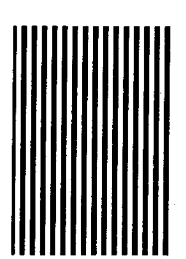
وفاجأه الموت فى سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م فى مدينة أورنة وأسلم روحه لخالقه وعمره ٤٣ سنة .

وخوفاً من حصول ما لا تحمد عقباه لو عُلم موت السلطان محمد الأول اتفق وزيراه إبراهيم وبايزيد على إخفاء موته على الجند حتى يصل ابنه مراد الثانى فأشاعا أن السلطان مريض وأرسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوماً وتسلم مقاليد الحكم (١) .

ولقد كان السلطان محمد الأول محباً للسلام والعلم والفقهاء ولذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة « مدينة الغزاة » إلى بروسة « مدينة الفقهاء » (٢) وكان على خلق رفيع، وحزم متين، وحلم فريد، وسياسة فذة فى معاملة الأعداء والأصدقاء .

*****

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٢ .
(٢) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ٦٣ .



المبحث السادس
مراد الثاني

تولى السلطان مراد الثانى أمر الدولة بعد وفاة أبيه «محمد جلبى» عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) وكان عمره لا يزيد على ثمانى عشرة سنة وكان محباً للجهاد فى سبيل الله، والدعوة إلى الإسلام فى ربوع أوروبا (١).

كان معروفاً لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة (٢)، استطاع السلطان مراد أن يقضى على حركات التمرد الداخلية التى قام بها عمه مصطفى والتى كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية، وكان الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التى تعرض لها السلطان مراد، فهو الذى دعم عم السلطان مراد الذى اسمه مصطفى بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولى ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له إلا أن السلطان مراد قبض على عمه وقدمه للمشنقة ومع ذلك، فقد مضى الامبراطور مانويل الثانى يكيد للسلطان واحتضن شقيقاً لمراد الثانى، ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا فى الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقضى على قواته واضطر خصمه للاستسلام ثم قتل. ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلقن الامبراطور درساً عملياً، فأسرع باحتلال سلولنيك، فهاجمها ودخلها عنوة فى مارس (١٤٣١م/٨٣٣هـ) وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطا مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد فى بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثمانى فى تلك الديار، واتجه الجيش العثمانى نحو الشمال لإخضاع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد «ستيف لازار ميتش» إلى الخضوع للعمثانيين والدخول تحت حكمهم وجدد ولاءه للسلطان، واتجه جيش عثمانى نحو الجنوب حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثمانى فى بلاد اليونان.

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ص ٣٨ .

(٢) انظر : السلاطين العثمانيون ص ٤٣ .

ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوى وقام بالقضاء على العوائق فى كل من ألبانيا والمجر.

واستطاع العثمانيون أن يفتحوا ألبانيا عام (٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) وركزوا هجومهم على الجزء الجنوبى من البلاد. أما شمالى ألبانيا فقد خاض العثمانيون فيه جهاداً مريراً، وتمكن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين فى جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب، ووقفت الدول النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضد العثمانيين وخصوصاً من حكومة البندقية التى كانت تدرك خطورة الفتح العثمانى لهذا الإقليم الهام بشاطئيه وموانئه البحرية التى تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجى، وأنهم فى استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثانى استقراراً للحكم العثمانى فى ألبانيا (١) .

وأما ما يتعلق بجبهة المجر، فقد استطاع العثمانيون فى عام (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) أن يهزموا المجريين ويأسروا منهم سبعين ألف جندى وأن يستولوا على بعض المواقع ثم تقدم لفتح بلغراد عاصة الصرب، ولكنه أخفق فى محاولته وسرعان ما تكون حلف صليبى كبير باركه البابا واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوروبا كلية، وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوة والبندقية والامبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا، وانضمت إلى الحلف أيضاً كتائب من الألمان والتشيك. وأعطت قيادة قوات الحلف الصليبى إلى قائد مجرى قدير هو يوحنا هنيادى. وقد قاد هنيادى القوات الصليبية البرية وزحف جنوباً واجتاز الدانوب وأوقع بالعمثانيين هزيمتين فادحتين عام (٨٤٦هـ/ ١٤٢م) واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح (٢) وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات فى « سيزجادن » وذلك فى شهر يوليو عام (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) تنازل فيها عن الصرب، واعترف « بجورج برانكوفيتش » أميراً عليها. كما تنازل السلطان مراد عن الافلاق للمجر، وافتدى زوج ابنته « محمود شلبى » الذى كان قائداً عاماً للجيوش العثمانية، بمبلغ ٦٠ ألف دوقية.. وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية، والمجرية. وأقسم « لاديسلاسى » ملك المجر على الإنجيل كما أقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعى شروط المعاهدة بذمة وشرف.

---

(١) انظر : الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٦ .

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوروبيين عاد إلى الأناضول وفجع بموت ابنه الأمير علاء واشتد حزنه عليه وزهد فى الدنيا والملك ونزل عن السلطنة لابنه محمد وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره، ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأى والنظر من رجال دولته ثم ذهب إلى مغنيسيا فى آسيا الصغرى ليقضى بقية حياته فى عزلة وطمأنينة ويتفرغ فى هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل فى ملكوته بعد أن اطمأن إلى استتباب الأمن والسلام فى أرجاء دولته، ولم يستمتع السلطان طويلاً بهذه الخلوة والعبادة (١) حيث قام الكاردينال سيزارينى وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهود مع العثمانيين وطردهم عن أوروبا، خصوصاً وأن العرش العثمانى قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى الذى لا خبرة له، ولا خطر منه، وقد اقتنع البابا أوجين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية (٢)، وطلب من النصارى نقض العهد، ومهاجمة المسلمين، وبين للنصارى أن المعاهدة التى عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح فى الأرض وكان الكاردينال سيزارينى عظيم النشاط دائم الحركة لا يكل عن العمل، يجد ويسعى للقضاء على العثمانيين ولذلك كان يزور ملوك النصارى ويحرضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين ويقنع كل من يعترض عليه نكث المعاهدة، ويقول له إنه باسم البابا يبرئ ذمتهم من نكثها ويبارك جنودهم وأسلحتهم، وعليهم أن يتبعوا طريقه فإنه طريق المجد والخلاص ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشى الإثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه (٣) .

لقد نقض النصارى عهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين، وحاصروا مدينة « فارنا » البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، والتى كانت قد تحررت على أيدى المسلمين، ونقض العهود هو سَمْتٌ ظاهر لأعداء هذا الدين، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين قتالهم، يقول سبحانه :

﴿ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢]

لا عهود، ولا مواثيق يرعونها، كما هو طابعهم دائما. إنهم لا يتورعون عن مهاجمة أى أمة، أى إنسان يلمحون فيه ضعفاً، يقتلون ويذبحون (٤) وصدق الله القائل فى تصويرهم:

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٣ .

(٣) انظر: المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٤) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ص ٤١ .

﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة : ١٠]

وعندما تحرك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية وسمع المسلمون فى أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفزع والرعب وبعث رجال الدولة إلى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر وخرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبى . واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطور الجنوى لينقل أربعين ألفاً من الجيش العثمانى من آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبى وبصره فى مقابل دينار لكل جندى .

وأسرع السلطان مراد فى السير فوصل وارنه فى نفس اليوم الذى وصل فيه الصليبويون، وفى اليوم التالى نشبت المعركة بين الجيشين النصرانى والإسلامى وكانت عنيفة حامية وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التى نقضها أعداؤها على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده (١) . واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد يكون فيها النصر للنصارى نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد إلا أن تلك الحمية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين، والتقى الملك «لاديسلاس» ناقض العهود مع السلطان مراد الوفى بالعهود وجها لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة تمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجرى النصرانى، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده فأسرع بعض المجاهدين وجزوا رأسه ورفعوه على رمح مهللين مكبرين وفرحين (٢)، وصاح أحد المجاهدين فى العدو «أيها الكفار هذا رأس ملككم»، وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية بددت شملهم وهزموهم شر هزيمة، وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم بعضا ولم يطادر السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر، وإنه لنصر عظيم (٣) .

كان هذه المعركة فى سهول قوصوه فى ١٧ أكتوبر (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) واستمرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين. وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التى تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين(٤) .

---

(١) انظر : محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى ، ص ٤٥ .
(٢) انظر : محمد الفاتح د. عبدالسلام عبدالعزيز، ص ٢٢ .
(٣) انظر : محمد الفاتح ص ٤٦ .
(٤) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ص ٤٧ .

ولم تفارق السلطان مراد زهادته فى الدنيا والملك فنزل على العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته فى مغنيسيا كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه .

ولقد ذكر لنا التاريخ مجموعة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الملك إلى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ولكن لم يذكر لنا أحد منهم نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد فإنه لم يكد يذهب إلى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية فى أدرنة وشغبوا وهاجوا وماجوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا وكان السلطان محمد فتى يافعاً حديث السن وخشى بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر، ويعظم الخطر ويتفاقم الشر، وتسوء العاقبة فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه (١)، وجاء السلطان مراد وقبض على زمام الأمر وخضع له الانكشارية وأرسل ابنه محمد إلى مغنيسيا حاكماً عليها بالأناضول، وبقى السلطان مراد الثانى على العرش العثمانى إلى آخر يوم فى حياته، وقد قضاها فى الغزو والفتح (٢) .

أولاً: مراد الثانى وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير:

يقول محمد حرب : « مراد الثانى – وإن كان مقلاً وكان ما لدينا من شعره قليلاً – لصاحب فضل على الأدب والشعر لا يجحد، لأن نعمه حلّت على الشعراء الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين فى كل أسبوع ليقولوا ما عندهم، ويأخذوا بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان، فيستحسن أو يستهجن، ويختار أو يطرح وكثيراً ما كان يسدّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر أو بإيجاد حرفة لهم تدرّ الرزق عليهم حتى يفرغوا من هموم العيش ويتوفروا على قول الشعر، وقد أنجب عصره كثيراً من الشعراء » (٣) .

لقد حوّل القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمية ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه فى جهاده (٤) .

ومن أشعاره: « تعالوا نذكر الله لأننا لسنا بدائمين فى الدنيا » (٥) . كان سلطاناً عالماً عاقلاً عادلاً شجاعاً، وكان يرسل لأهالى الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله فى

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٧ .

(٢) السلطان محمد الفاتح ، ص ٢٣ .

(٣) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٤٦ .

(٤) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٤٦ .

(٥) السلاطين العثمانيون الكتاب المصور، ص ٤٣ .

كل عـام ثلاثة آلاف وخـمس مـئـة دينار، وكـان يعنى بشـأن العلم والعلمـاء والمشـايخ والصلحاء، مهد الممالك، وأمّن السبل، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين [1] وقال عنه يوسف آصـاف : « كـان تقـيـاً صـالحـاً، وبطلاً صنديداً، مـحـبـاً للخـيـر، ميّـالاً للرأفـة والإحسان » [2] .

ثانياً : وفاتـه ووصيتـه :

قال صاحب النجوم الزاهرة : فى وفيات عام (٨٥٥هـ) فى مراد الثانى : « وكان خير ملوك زمانه شرقاً وغرباً، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد، وأفنى عمره فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وغزا عدَّة غزوات، وفتح عدّة فتوحات، وملك الحصون المنيعـة، والقـلاع والمدن من العـدوِّ المخذول. على أنه كـان منهـمكاً فى اللذات التى تهـواها النفوس، ولعل حاله كقول بعض الأخيار ـ وقد سئل عن دينه ـ فقال: أُمزقه بالمعاصى وأُرقعه بالاستغفار، فهو أحق بعفو الله وكرمه، فإن له المواقف المشهورة وله اليد البيضاء فى الإسلام ونكاية العدوّ حتى قيل عنه إنه كـان سياجاً للإسلام والمسلمين ـ عفـا الله عنه وعوّض شبابه الجنة. . . » [3] .

توفى السلطان فى قصر أدرنه عن عمر يناهز ٤٧ عاماً وبناء على وصيته رحمه الله دفن فى جانب جامع مرادية فى بورصة، ووصى بأن لا يبنى على قبره شيء وأن يعمل أماكن فى جوانب القبر يجلس فيها الحفـاظ لقراءة القرآن الكريم وأن يدفن فى يوم الجمعة فنفذت وصيته [4] .

وترك فى وصيته شعراً، بعد أن كان قلقاً يخشى أن يدفن فى قبر ضخم، وكان يريد ألاّ يبنى شيء على مكان دفنه، فكتبها شعراً ليقول: فليأتِ يوم يرى الناس فيه ترابى [5] .

لقد قام السلطان مراد ببناء جوامع ومدارس وقصوراً وقناطر فمنها جامع أدرنة ذو ثلاثة شرف وبنى بجانب هذا الجامع مدرسة وتكية يطعم فيها الفقراء والمساكين [6] .

---

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى ، ص ٢٥ .

(٢) تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٥ .

(٣) النجوم الزاهرة (١٦ / ٣) لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى.

(٤) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص ٤٣ .

(٥) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٤٦ .

(٦) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٤٣ .



الفصل الثالث

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية



المبحث الأول

السلطان محمد الفاتح

هو السلطان محمد الثانى (٨٣٣هـ/ ١٤٨١م) يعتبر السلطان العثمانى السابع فى سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبى الخيرات. حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين (١). تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده فى ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته فى كثير من العلوم التى كان يتلقاها فى مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته فى الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً فى التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذى سار عليه والده وأجداده فى الفتوحات، ولقد برز بعد توليه السلطة فى الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف. وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوافرة فى ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين فى أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال وطور البلاط السلطانى وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم فى استقرار الدولة والتقدم إلى الأمام وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة فى الإصلاح الداخلى تطلع إلى المناطق المسيحية فى أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة فى تحقيق أهدافه، منها الضعف الذى وصلت إليه الامبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التى عمت جميع مناطقها ومدنها، ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل إنه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجى الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامى

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٥٣ .

لفترة طويلة من الزمن، والتى طالما اعتزت بها الامبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية (١) .

أولاً: فتح القسطنطينية:

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست فى عام (٣٣٠م) على يد الامبراطور البيزنطى قسطنطين الأول (٢). وقد كان لها موقع عالمى فريد حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها» (٣). ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لها وهى من أكبر المدن فى العالم وأهمها(٤)، عندما دخل المسلمون فى جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها فى عدة مواقف، من ذلك: ما حدث أثناء غزوة الخندق (٥) ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً فى أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ : «**لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**» (٦) .

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبى سفيان فى أولى الحملات الإسلامية عليها سنة ٤٤هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى فى عهده حظيت بنفس النتيجة .

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهى تلك الحملة التى تمت فى أيام سليمان بن عبدالملك سنة ٩٨هـ(٧) .

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسى الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص ٤٣ .

(٢) انظر: أوروبا فى العصور الوسطى، سعيد عاشور، ص ٢٩ .

(٣) فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د. محمد مصطفى، ص ٣٦-٤٦ .

(٤) المجتمع المدنى (الجهاد ضد المشركين) د. أكرم ضياء العمرى، ص ١١٥ .

(٥) أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٥) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣٣٥) .

(٧) ابن خلدون العبر (٣/ ٧٠) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣١٥ .

وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد (١) سنة ١٩٠هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها ألب أرسلان (٤٥٥ – ٤٦٥هـ/١٠٦٣ - ١٠٧٢م) استطاع أن يهزم امبراطور الروم ديمونوس في موقعة ملاذ كرد عام (٤٦٤هـ/١٠٧٠م) ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من امبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية، وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غرباً وإضعاف الامبراطورية الرومانية .

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم (٢) وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد «الصاعقة» الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) (٣)، وأخذ السلطان يفاوض الامبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعبث فسادا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد «الصاعقة» ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة (١٤٠٢م) (٤)، وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين .

وما إن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة (٨٢٤هـ – ٨٦٣هـ/ ١٤٢١م – ١٤٥١م) جرت عدة

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخه ص ٤٥٨ ، تاريخ الطبري ١٠/ ٦٩، ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ٤٦ .
(٣) تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٨ .
(٤) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبدالعزيز العمري ، ص ٣٥٨ .

محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين فى أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الامبراطور البيزنطى فى أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة فى صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان [١]، وبهذه الطريقة نجح فى إشغاله عن هدفه الذى حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا فى زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية فى حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية فى الظروف المختلفة، كما كان على إطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة فى العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالى فمنذ أن ولى السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م [٢] كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر فى فتحها ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام، ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى والورع، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعا على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التى تلاقاها منذ الصغر، بتوجيهات من والده وجهود الشخصيات العلمية القوية التى أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور، ومجاهدتهم لأنفسهم، ممن أشرفوا على رعايته[٣].

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الربانى «أحمد ابن إسماعيل الكورانى» وهو مشهود له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه فى عهد السلطان «مراد الثانى» والد «الفاتح». وفى ذلك الوقت كان محمد الثانى - الفاتح - أميراً فى بلدة «مغنيسيا» وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئاً حتى أنه لم يختم القرآن الكريم فطلب السلطان المذكور رجلاً له مهابة وحدّة فذكروا له المولى «الكورانى» فجعله معلما لولده وأعطاه قضيباً يضربه بذلك إذا خالف أمره. فذهب إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلنى والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمرى، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكورانى فى ذلك المجلس

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٩ .

(٣) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، د. على حسون ص ٤٢ .

ضرباً شديداً حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن فى مدة يسيرة.. (١).

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطانى إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحنى للسلطان، ويخاطبه باسمه ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده. من الطبيعى أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح. وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، مقيدا بالأوامر والنواهى معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين (٢).

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين فى تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

١- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢- الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوى: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**» (٣) لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور (٤).

ثانياً: الإعداد للفتح:

بذل السلطان محمد الثانى جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل فى ذلك جهوداً كبيرة فى تقوية الجيش العثمانى بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد (٥) وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول فى تلك الفترة، كما عنى عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التى تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذى يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير. كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير فى تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقى وفق أوامر الله.

---

(١) كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية، ص ٥٢ نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، ص ٤٣.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون ص ٤٣.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٥).

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٥٩.

(٥) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك ص ١٦١.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة « روملى حصار » فى الجانب الأوروبى على مضيق البسفور فى أضيق نقطة منه مقابل القلعة التى أسست فى عهد السلطان بايزيد فى البر الآسيوى، وقد حاول الامبراطور البيزنطى إثناء السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان فى عبور السفن من شرقى البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أى سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التى تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التى تستطيع دعم المدينة عند الحاجة (١) .

* * *

(أ) اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة :

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التى أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى « أوربان » كان بارعاً فى صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطانى المشهور، والذى ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها(٢) .

* * *

(ب) الاهتمام بالأسطول :

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثمانى حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره فى الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التى لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أن السفن التى أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة (٣).

* * *

---

(١) انظر: سلاطين آل عثمان ، ص ٢٦ .
(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٦١ .
(٣) انظر: محمد الفاتح، ص ٩٠ ، سالم الرشيدى.

(جـ) عقد معاهــدات :

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبى) كما عقد معاهدات مع «المجد» و«البندقية» وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلى على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة فى الدفاع عن القسطنطينية [1] مشاركة لبنى عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين .

فى هذه الأثناء التى كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الامبراطور البيزنطى فى محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره [2] ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الامبراطور البيزنطى شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكى، فى الوقت الذى كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الامبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، فى الوقت الذى لم يكن الأرثوذكس يرغبون فى ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب فى كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس فى المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الامبراطورى الكاثوليكى المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: «إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية» [3] .

ثانياً: الهجــوم:

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية فى ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٨ .

(٢) انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص ٦٩ .

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدى ، ص٨٩ .

مرمرة، والقرن الذهبى الذى كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم فى دخول السفن إليه، بالإضافة إلي ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبى، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلى منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً، وأما السور الخارجى فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند(١) .

وبالتالى فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالى فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة. كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها (٢) .

وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكى تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية فى مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية فى يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندى، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التى تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التى تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما فى فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء (٣).

وكان العلماء مبثوثين فى صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر فى رفع معنوياتهم حتى كان كل جندى ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدى ما عليه من واجب (٤) .

---

(١) انظر: سلاطين آل عثمان، ص ٢، محمد الفاتح، ص ٩٦ .

(٢) انظر: محمد الفاتح، سالم الرشيدى، ص ٨٢، فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص ٥٧ .

(٣) انظر: سلاطين آل عثمان، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) انظر: الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص ٣٦٤ .

وفى اليوم التالى قام السلطان بتوزيع جيشه البرى أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البرى حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطانى العملاق الذى أقيم أمام باب طب قابى، كما وضع فرقاً للمراقبة فى مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفى نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية فى المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبى بسبب وجود السلسلة الضخمة التى منعت أى سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الأسطول العثمانى أن يستولى على جزر الأمراء فى بحر مرمرة (١) .

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثمانى قبضته على المدينة، ولم يخلُ الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب .

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير فى إيقاع الرعب فى قلوب البيزنطيين وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوى جستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل مُتطوع من دول أوروبية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير فى رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جستنيان قائداً للقوات المدافعة عن المدينة (٢) .

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطى السلسلة الضخمة التى تتحكم فى مدخل القرن الذهبى والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا فى تحقيق مرادهم فى البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة (٣) .

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص ٩٨، العثمانيون والبلقان ص ٨٩ .

(٢) انظر: العثمانيون والبلقاء، د. على حسون ، ص ٩٢ .

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٢٠ .

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى فكانوا يطوفون بشوارع المدينة وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الامبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف (١) .

ثالثاً: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع، وحاول الامبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً (٢) . وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة : «فليسلم لي امبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً» (٣) .

كان الحصار لايزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل (٤) تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم (٥) .

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص ١٠٠ .
(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٨ .
(٣) محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي، ص ٩٢ .
(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٦٧ .
(٥) انظر: محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي، ص ١٢٣ .

وفى اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبى بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج استطاعوا جميعاً صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت فى تحقيق مهمتها(١) .

رابعاً: عزل قائد الأسطول العثمانى وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التى حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له : «إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق فى ذلك فلا ترجع إلينا حياً» (٢) لكن السفن الأوروبية نجحت فى الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالى غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول (٣) بعدما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الأسطول بالطة أوغلى واتهمه بالجبن، وتأثر بالطة أوغلى لهذا وقال: «إنى استقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمنى أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت أنا ورجالى بكل ما كان فى وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة»(٤).

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا (٥) .

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطة أوغلى بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم فى الهجوم دون أن يؤثروا فى السفن تأثيراً ليناً (٦) .

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثمانى دور كبير فى محاولة بعض مستشارى السلطان

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٦٨ .
(٢) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٠١ .
(٣) انظر: مواقف حاسمة ، محمد عبدالله عنان، ص ١٨٠ .
(٤) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٠٣ .
(٥ ، ٦) المصدر السابق نفسه ص ١٠٣ .

وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالى رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر فى قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفى الوقت نفسه كان يفكر بجدية فى إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبى، خصوصاً أن الأسوار من ناحية القرن الذهبى متهاوية، وبالتالى سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر فى الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها (١) .

خامساً: عبقرية حربية فذة:

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهى نقل السفن من مرساها فى بشكطاش إلى القرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حى غلطة خوفاً على سفنه من الجنويين، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة .

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثانى فمهدت الأرض وسويت فى ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن (٢) .

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت فى القرن الذهبى، وتمكن العثمانيون فى تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها فى القرن الذهبى على حين غفلة من العدو بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت فى الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته (٣) .

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذى حدث فيه بل معجزة من المعجزات، تجلت

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٦٩ .

(٢) انظر : السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى ، ص ١٠٠ .

(٣) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٠ .

فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة .

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكائه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوافر الأيدى العاملة التى قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك فى ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية (١)، فى القرن الذهبى وفوجئوا بالسفن العثمانية وهى تسيطر على ذلك المعبر المائى، ولم يعد هناك حاجز مائى بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين (٢) ، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: « ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشىء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الإسكندر الأكبر» (٣) .

ظهر اليأس فى أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: « ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة (٤) .

وكان لوجود السفن الإسلامية فى القرن الذهبى دور كبير فى إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكى يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبى إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها فى السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل فى الدفاع عن الأسوار الأخرى (٥) .

وقد حاول الامبراطور البيزنطى تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثمانى فى القرن الذهبى إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى، ص ١٠٢ .

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٠ .

(٣) تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ص ١٣٥ .

(٤، ٥) انظر: محمد الفاتح ، ص ١٠٦ .

واستمر العثمانيون فى دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلُّق أسوارها، وفى الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة فى بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد فى مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس (١) .

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبى، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها فى القرن الذهبى والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً (٢) .

سادساً: اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه:

عقد الملك قسطنطين ومعاونوه ومستشاروه ورجال النصرانية فى المدينة اجتماعاً، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية، ولعله تأتي الجيوش النصرانية فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأى وأصر على أن يقاوم إلى آخر لحظة ولا يترك شعبه فى المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبداً واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة (٣) ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها .

سابعاً: الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثانى الهجوم على الأسوار وجعله مركزاً عنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفانى، وكان أكثر ما يرعب جنود الامبراطور قسطنطين صيحاتهم وهى تشق عنان السماء وتقول: (الله أكبر الله أكبر) فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة (٤).

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧١ .

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص ١١٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٠٦ .

وشرع السلطان محمد الفاتح فى نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع فى دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها فى الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثمانى البرى فى موجات خاطفة وسريعة هجمة تلو الأخرى، وكان السلطان محمد الفاتح يوالى الهجمات وإطلاق القذائف فى البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهارا من أجل إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أى قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهودة تثور لأى سبب، وأصبح كل واحد من الجنود ينظر إلى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

واضطر الامبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمر ثان، اقترح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجى وبينما هم فى مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادى ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطى ودفع بهم إلى مكان القتال، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون (١) .

وكان السلطان محمد - رحمه الله - يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو (٢) .

ففى المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة فى محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الامبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٨ .

الأنفاق التى أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدى إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا (١) .

لكن هذا الفشل لم يفت فى عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفى مواضع مختلفة من المنطقة الممتدة بين « أكرى فبو » وشاطئ القرن الذهبى وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون إنما هى أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملأون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك فى فزع ويقولون : (هذا تركى، ... هذا تركى) ويجرون هربا من أشباح يحسبونها إنها تطاردهم، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعينى رأسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وما هم بسكارى) فريق يجرى، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر فى وجوه البعض الآخر فى عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فإن هذه الأنفاق التى حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحتراقاً فى باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم فى بعض هذه المحاولات فى أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين (٢) .

• مفاجأة عسكرية عثمانية :

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد فى محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال فى كل دور من أدوارها، وكان الذين فى الدور العلوى من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب فى قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة

---

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٢ .

(٢) انظر : السلطان محمد الفاتح، ص ١١٠ .

واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الامبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد واستطاع بعض المسلمين ممن فى القلعة تسلق الأسوار ونجحوا فى ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به إلا أن المدافعين كشفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب[1] .

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع: غداً نصنع أربعاً أخرى[2] .

زاد الحصار وقوى واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً ٢٤ مايو داخل قصر الامبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح فى الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الامبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكى يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الامبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار فى قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث فى يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم)، وأخذوا يتجولون به فى ضواحى المدينة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم فرأوا فى ذلك شؤما ونذيرا بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصاً المدافعين عنها وحدث فى اليوم التالى ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشاءم البطريق، وذهب إلى الامبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط فى يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الامبراطور حتى أغمى عليه[3] .

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٤٤ .

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٢٢ .

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدى ، ص ١١٨ .

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها فى دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض التى يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة فى أى لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد (١) .

ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب إلى الامبراطور رسالة دعاه فيه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه، وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاءون بأمان(٢)، وأن تحقن دماء الناس فى المدينة ولا يتعرضوا لأى أذى ويكونوا بالخيار فى البقاء فى المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الامبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور إلى رأى القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: «إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها» (٣) فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال: «حسناً عن قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر» (٤) .

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعى على المدينة، حتى أن المدفع السلطانى الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجرى أوربان الذى تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون فى ذلك وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع (٥) .

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٥ .
(٢) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١١٩ .
(٣) محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى ، ص ١١٦ .
(٤) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٦ .
(٥) المصدر السابق، ص ٣٧٦ .

تاسعاً: السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماعاً لمجلس الشورى:

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذى دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة إلى غير ذلك من المبررات التى طرحها، وكان متهماً بمواطأة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم (١)، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها، كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما فى التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى «زوغنوش باشا» وهو من أصل ألبانى كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان (٢) .

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت : «ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز فى قعدته وصاح فى لغة تركية تشوبها لكنة أرناؤوطية: حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع، وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً فى نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة. ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال: إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران. إن جيش الإسكندر الكبير الذى قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا، فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولى على تلك الأراضى العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما الدول الغربية هذه؟ وهل هى الدول اللاتينية التى شغلها ما بينها من خصام وتنافس، هل هى دول البحر المتوسط التى لا تقدر على شىء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفى الأيدى بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

---

(١) انظر : فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص ١٠٣ .

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٧ .

يا صاحب السلطنة أما وقد سألتنى رأيى فلأعلنها كلمة صريحة يجب أن تكون قلوبنا كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة، لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئاً غير هذا...» (١) .

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور: إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه يا سلطانى . ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكورانى عن رأيهما . وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأى زوغنوش باشا وقالا: «يجب الاستمرار فى الحرب، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر» (٢) .

وسرت الحمية والحماس فى جميع الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول: من كان من أجدادى فى مثل قوتى؟ (٣).

لقد أيد العلماء الرأى القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته فى مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك (٤) .

عاشراً: محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

فى يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يده، لعل الله أن ييسر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها فى النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثمانى، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية فى قتال الأعداء، كما بعث إلى آل غلطة التى وقفت على الحياد

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٢٢ .

(٢، ٣) انظر: محمد الفاتح، ص ١٢٢ .

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ص ١٦٤ .

مؤكداً عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنا لهم الوفاء بعهده معهم، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث . وفى مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون ناراً كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير (١)، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت فى معسكر العثمانيين، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدماً مما أوقع الرعب فى قلوب الروم، وفى اليوم التالى ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمى البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقداً وموجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد (٢) .

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التى طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندى ينصب راية الإسلام (٣) على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة .

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة فى سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية، وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى ويقولون للمجاهدين: لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة فى دار أبى أيوب الأنصارى، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث فى نفوسهم أشد الحماس والحمية (٤) .

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: «إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون...» (٥) .

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٦٠ .

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٨ .

(٣) انظر : محمد الفاتح، ص ١٢٥ .

(٤) انظر : محمد الفاتح ، ص ١٢٦ .

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٦ .

وفى هذا الوقت كان الامبراطور البيزنطى يجمع الناس فى المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء فى الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجو المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الامبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، حيث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو، والاستماتة فى حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة فى كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم (١) ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهداً مؤثراً وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد، فقال من حضره: «لو أن شخصا قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر» (٢) .

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة فى إحدى الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظا حركة الجيش العثمانى النشطة المتوثبة للهجوم البرى والبحرى. وقبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذاً خفيفاً كأنما كانت ترش الأرض رشا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: «لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك فى أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة» (٣) .

الحادى عشر: «فتح من الله ونصر قريب»:

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار، وخاف البيزنطيون خوفاً عظيماً، وشرعوا فى دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائى متزامناً برياً وبحرياً فى وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون فى الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولى فى منطقة وادى ليكوس،

(١ ، ٢) انظر: محمد الفاتح، ص ١٢٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٠ .

بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة (١)، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدى لمحاولات التسلق، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين فى تلك المنطقة، وفى الوقت نفسه أصدر أمراً إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا، فى الوقت الذى كان المهاجرون دماء جديدة معدة ومستريحة وفى رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال (٢)، كما كان القتال يجرى على قدم وساق فى المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم فى أكثر من جبهة فى وقت واحد، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر، وشرعوا فى مضاعفة جهودهم فى الهجوم، وكان المسلمون فى حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكى يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التى لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة فى الهجوم، واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابى ورفعوا الأعلام العثمانية (٣) .

مما زاد فى حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتّوا فى عضد الأعداء، وفى نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة (٤) مما

---

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨١ .

(٣) انظر المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٢ .

(٤) محمد الفاتح ، ص١٣٧ .

أثر فى بقية المدافعين، وقد تولى الامبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذى ركب أحد السفن فاراً من أرض المعركة، وقد بذل الامبراطور جهوداً كبيرة فى تثبيت المدافعين الذين دب اليأس فى قلوبهم من جدوى المقاومة، فى الوقت الذى كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين .

وقد واصل العثمانيون هجومهم فى ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين فى باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل فى ساحة المعركة (١) .

وكان لانتشار خبر موته دور كبير فى زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح - رحمه الله - مع جنده فى تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول: «الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبى الفخر والشكر» (٢) .

كان هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التى تسببت فى استشهاد عدد من المجاهدين، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م، إلا والسلطان الفاتح فى وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون: ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحى القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى (٣) .

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(٣) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٨٣.

الثانى عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:

توجه محمد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين فى سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها فى الشريعة الإسلامية .

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم فى القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة فى الأقاليم الأخرى ولكنه فى الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع (١) .

لقد حاول المؤرخ الإنجليزى إدوارد شيبردكريسى فى كتابه « تاريخ العثمانيين الأتراك » أن يشوه صورة الفتح العثمانى للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامى المجيد (٢) وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة فى عام ١٩٨٠م فى حمأة الحقد الصليبى ضد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق فى مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك (٣) .

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول: إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس بطريركا، وتوجه هذا بعد انتخابه فى موكب حافل من

---

(١) الفتوح الإسلامية عبر الصعور، ص ٣٨٤ .
(٢) انظر: جوانب مضيئة، ص ٢٦٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٧ .

الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه فى موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية، وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية فى اطمئنان وسلام (١) .

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التى حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أى شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصاري بسبب دينهم (٢) .

إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على جميع حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس دينى لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد فى ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية فى تكلم اللغة التى يريدونها (٣) .

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبى الكريم ﷺ ثم بخلفائه الراشدين من بعده الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم (٤) .

*****

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) انظر: جوانب مضيئة، ص ٢٧٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .



المبحث الثانى

الفاتح المعنوى للقسطنطينية

الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمزة الدمشقى الرومى ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علما من أعلام الحضارة الإسلامية فى عهدها العثمانى .

وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كان مولده فى دمشق عام (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره، ودرس فى أماسيا ثم فى حلب ثم فى أنقرة وتوفى عام ١٤٥٩ هـ .

درّس الشيخ آق شمس الدين الأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية فى ذلك الزمن وهى القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات (العربية، والفارسية، والتركية) وكذلك فى مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب . وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم .

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوى: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**» (١) .

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجّهه شيخه فوراً إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوى فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً. ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً .

وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطى بدخول أربع سفن أرسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية، اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له: «إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ ـ يقصدون آق شمس الدين ـ فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن أتى عون من بلاد الأفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد

---

(١) سبق تخريج الحديث .

هناك أمل فى هذا الفتح » (١). فأرسل السلطان محمد وزيره ولى الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين فى خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: (لابد من أن يمنّ الله بالفتح)(٢) .

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: (هو المعزّ الناصر.. إن حادث تلك السفن قد أحدث فى القلوب التكسير والملامة وأحدث فى الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هى: إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله.. ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هى إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل) (٣) .

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة فى الأمراء والجنود. وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثمانى الاستمرار فى الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال: علمنى يا سيدى دعاءً أدعو الله به ليوفقنى، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام (٤) .

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة فى جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل، فإذا شيخه ساجداً لله فى سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجى ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب (٥) .

وعاد السلطان محمد الفاتح عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية (٦) .

ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحى لفتح المدينة إنما فرحى بوجود مثل هذا الرجل

---

(١) انظر: البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، ص ١٤٦ .
(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ٣٧٣ .
(٣ ، ٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٣ .
(٥ ، ٦) العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، ص ٣٧٤ .

في زمني [١] .

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه [٢] .

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمة المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية [٣] .

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد: (سيد القوم خادمهم). ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الإسلام، اعلموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» [٤] . ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا. ألا لا تسرفوا فيما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه. ثم التفت إلى الفاتح وقال: يا سلطاني، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله، ثم صاح مكبراً بالله في صوت جهوري جليد [٥] .

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية [٦] .

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا [٧] .

•• الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بيَّن السلطان لمن حوله ـ بعد الفتح ـ : «إنكم ترونني فرحاً. فرحي ليس

---

(١) انظر: البدر الطالع ٢ /١٦٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ٢ /١٦٦ .

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٤ .

(٤) سبق تخريج الحديث .

(٥، ٦) انظر: محمد الفاتح ، ص ١٤٩ .

(٧) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٣٧٤ .

فقط لفتح هذه القلعة، إن فرحي يتمثل فى وجود شيخ عزيز الجانب، فى عهدى، هو مؤدبى الشيخ آق شمس الدين» .

وعبر الشيخ عن تهيبه لشيخه فى حديث له مع وزيره محمود باشا. قال السلطان الفاتح: «إن احترامى للشيخ آق شمس الدين احترام غير اختيارى. إننى أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة» (١) .

ذكر صاحب البدر الطالع أن: « ... ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة - أى «آق شمس الدين» - وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة. قال: وما هى؟ قال: إن أدخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال: إنه يأتى إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى علىّ. فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان. قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لى. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذى لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو...» (٢) .

هكذا كان هذا العالم الجليل الذى حرص على تربية محمد الفاتح على معانى الإيمان والإسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحراً فى علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالماً فى النبات والطب والصيدلة، وكان مشهواً فى عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه فى علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض . وبلغت شهرته فى ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول: (إن النبات ليحدث آق شمس الدين) (٣) .

وقال الشوكانى عنه: « ... وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلانى ثم اشتهرت بركته وظهر فضله..»(٤) .

---

(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٣٧٥ .
(٢) البدر الطالع ٢/١٦٧ .
(٣) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٣٧٥ .
(٤) البدر الطالع ٢/١٦٦ .

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض فى عصره تسبب فى موت الآلاف، وألف فى ذلك كتاباً بالتزكية بعنوان «مادة الحياة» قال فيه: «من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى، هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة. لكن هذا يحدث بواسطة بذور حيّة» (١) .

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب فى القرن الخامس عشر الميلادى، وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد. وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائى والبيولوجى الفرنسى لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفى الطب ألف الشيخ كتابين هما: «مادة الحياة»، و«كتاب الطب» وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبع كتب هى: حل المشكلات، الرسالة النورية، مقالات الأولياء، رسالة فى ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة فى شرح حاجى بايرام ولى (٢) .

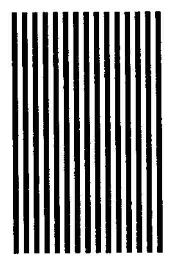
•• وفاته:

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحس بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه فى استنبول ومات عام ٨٦٣هـ/١٤٥٩م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان(٣).

وهكذا سنة الله فى خلقه لا يخرج قائد ربانى، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون فى تعليمه وتربيته وترشيده والأمثلة فى ذلك كثيرة، وقد ذكرنا دور عبدالله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم فى دولة المرابطين، والقاضى الفاضل مع صلاح الدين فى الدولة الأيوبية، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح فى الدولة العثمانية. فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم فى المصلحين.

(١ ، ٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٣٧٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٦ .



المبحث الثالث

أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبى والإسلامى

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة فى وجه انتشار الإسلام فى أوروبا ولذلك فإن سقوطها يعنى فتح الإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذى قبل. ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمى، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة (١) .

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور فى المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب إسلام بول أى مدينة الإسلام (٢) .

لقد تأثر الغرب النصرانى بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزى، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من استنبول، وبذل الشعراء والأدباء ما فى وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب فى نفوس النصارى ضد المسلمين، وعقد الأمراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة وتنادى النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات، وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته فى توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد فى روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين والتى تسببت فى همه وحزنه فمات كمداً فى ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م (٣).

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماساً وحمية واستنفر ملوك النصارى إلى قتال المسلمين، وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزيونا، ص ٣٨٤ .

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص ١٦٤ .

(٣) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم، وتزعمت البابوية فى روما حروب النصارى ضد المسلمين، وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ ما رآه مناسباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمداً أو يتاخمون حدوده فى آماسيا، وبلاد المورة، وطرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقى، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان فى أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم (١) .

وحاول البابا بيوس الثانى بكل ما أوتى من مقدرة خطابية، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبى فى نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنوداً واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد أنهكت حرب المائة عام إنكلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة فى مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهى مشغولة بالقضاء على مسلمى الأندلس وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً فى المال، فكانت تهتم بعلاقتها مع الدولة العثمانية .

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا وأصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صادقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها، وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا إلى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والأفلاق والقرم، والجزر الرئيسية فى الأرخبيل. وقد تم ذلك فى فترة قصيرة، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم وأخذهم أخذاً عظيماً (٢).

وحاول البابا (بيوس الثانى) بكل ما أوتى من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده فى ناحيتين اثنتين: حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصرانى، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض، وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو أعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة. ولما فشل البابا فى خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة،

(١ ، ٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٤٠ .

وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجرى (١) .

وأما آثار هذا الفتح المبين فى المشرق الإسلامى - فنقول: لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين فى ربوع آسيا وأفريقيا، فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأجيال، ولقد تطلعت له طويلاً وها قد تحقق وأرسل السلطان محمد الفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية فى مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبرهم بهذا النصر الإسلامى العظيم - وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة (٢) .

يقول ابن إياس صاحب كتاب «بدائع الزهور» فى هذه الواقعة: «فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح دقت البشائر بالقلعة، ونودى فى القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عين برسباى أمير آخور ثانى رسولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح» (٣).

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغرى بردى يصف شعور الناس وحالهم فى القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: «قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القسطنطينية وهى الكنيسة العظيمة باسطنبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته شوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا فى ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل...» (٤) .

وهذا الذى ذكره ابن تغرى بردى من وصف احتفال الناس وأفراحهم فى القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت فى البلاد الإسلامية الأخرى. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له فى المورة والأفلاق والمجر

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٤١ .

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٢ .

(٤) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ / ٧١ .

والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته (١) .

•• من رسالة الفاتح إلى سلطان مصر:

وإليك مقتطفات من رسالة الفاتح إلى أخيه سلطان مصر الأشرف إينال وهى من إنشاء الشيخ أحمد الكورانى: « .. إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [التوبة: ٢٩] ومستمسكين بقوله عليه السلام: «**من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار**» فهممنا فى هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذى الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء فى الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**﴾ [التوبة: ١٢٣] وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخراً .

فكأنها حصف على الخد الأغر   وكأنها كلف على وجه القمر

.... هذه المدينة الواقع جانب منها فى البحر وجانب منها فى البر، فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والحجور وغيرها من جانب البر، والفلك المشحون والجوار المنشآت فى البحر كالأعلام من جانب البحر، ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

فقلت للنفس جدى الآن فاجتهدى   وساعدينى فهذا ما تمنيت

فلكما دعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين، فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة.

إذا جاء نصر الله والفتح هين   على المرء معسور الأمور وصعبها

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص ١٤٢ .

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين، سخرها الحكم الصديقى ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان قد من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾ وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب، فقتل من قتل وأسر من به بقى وأغاروا على خزاينهم وأخرجوا كنوزهم ودفافينهم موفوراً، فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون..» (١) .

وأرسل السلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكة عن طريق سلطان مصر وقد رد سلطان مصر على خطاب السلطان محمد وهداياه بمقطوعة من النثر الأدبى الرفيع وجاءت فيها بعض الأبيات الشعرية المعبرة مثل قول الشاعر :

خطبتها بكراً وما أمهرتها	إلا قنا وقواضباً وفوارساً
من كانت السمر العوالى مهره	جلبت له بيض الحصون عرايسا
الله أكبر ما جنيت ثمارها	إلا وكان أبوك قبلك غراسا (٢)

وقد جاء فى رسالة سلطان مصر أيضاً هذا البيت.. قال الشاعر :

الله أكبر هذا النصر والظفر	هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر (٣)

وقال شاعر سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينية :

كذا فليكن فى الله جل العزايم	وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم
كتائبك البحر الخضم جيادها	إذا ما تهدت موجه المتلاطم

(١) محمد الفاتح ، ص ١٦٣ - ١٦٧ .
(٢) محمد الفاتح : ص ١٧٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

تحـــيط بمنصـــور اللواء مظفـــر	له النصـر والتـأيـيـد عـبـد وخـادم
فـيــا ناصــر الإسـلام يا من بغـزوه	على الكفــر أيام الزمــان مــواسم
تهنَّ بفـــتح ســار فى الأرض ذكـــره	سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم [1]

•• رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة:

وجه السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية بشره فيها بالفتح، وطلب الدعاء، وأرسل له الهدايا من الغنائم، وهذه بعض فقراتها:

بعد مقدمة فى المدح والثناء على شريف «مكة المكرمة» يقول: «فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرا بما رزق الله لنا فى هذه السنة من الفتوح التى لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهى تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية، فالمأمول من مقر عزكم الشريفة أن يبشر بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى، مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ، والأمجاد الواصلين، والأئمة الخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، والمتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، التى كالعروة الوثقى لا انفصام لها، والمشرفين بزمزم والمقام، والمعتكفين فى قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام، داعين لدوام دولتنا فى العرفات متضرعين من الله نصرتنا، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم، وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفى فلورى من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلورى أخري للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصين للحرمين، والباقى للمساكين المحتاجين فى مكة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم، وإشعار كيفية السير إلينا، وتحصيل الدعاء منهم لنا دائما باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى، والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين» [2] .

وقد رد شريف مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح :

«وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة

---

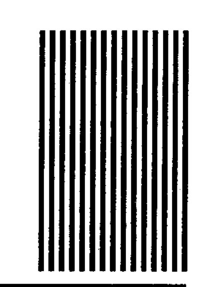
(١) محمد الفاتح ، ص ١٧٧ .

(٢) الدولة العثمانية، الدكتور جمال عبدالهادى، ص ٤٧ .

رسول الله خاتم النبيين وما هى إلا فتح « القسطنطينية » العظمى وتوابعها التى متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام، وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير، وبششنا ذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك مسالك أجدادكم الكرام، روّح الله أرواحهم وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم، فى إظهار المحبة لسكان الأراضى المقدسة » (١) .

******

(١) الدولة العثمانية، الدكتور جمال عبدالهادى ، ص ٤٨ .



المبحث الرابع

أسباب فتح القسطنطينية

إن فتح المسلمين للقسطنطينية لم يأت من فراغ وإنما هو نتيجة لجهود تراكمية قام بها المسلمون منذ العصور الأولى للإسلام رغبة من تلك الأجيال فى تحقيق بشارة رسول الله ﷺ . وزاد الاهتمام بفتح القسطنطينية مع ظهور دولة بنى عثمان ونلاحظ أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أصحاب فقه عميق لسنة الأخذ بالأسباب ومارس محمد الفاتح ذلك الفقه ويظهر ذلك من خلال سيرته الجهادية وحرصه على العمل بقوله تعالى :

﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [الأنفال : ٦٠]

لقد فهم محمد الفاتح من هذه الآية أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها وتنوعها، ولقد قام بشرح هذه الآية شرحاً عملياً فى جهاده الميمون فقام بحشد جيش عظيم لحصار القسطنطيينة ولم يتوان فى جلب كل سلاح معروف فى زمانه من مدافع، وفرسان، ورماة.. إلخ .

ولقد كان الجيش الذى حاصر القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح قد أعد إعداداً ربانياً فتربى على معانى الإيمان والتقوى، وتحمل الأمانة وأداء الرسالة المنوطة به، ولقد تربى على معانى العقيدة الصحيحة وأشرف العلماء الربانيون على تلك التربية، ولقد جعلوا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه منهجاً لهم فى تربية الأفراد، فكانوا يربونهم على :

١ـ أن الله تعالى واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه منزه عن النقائص، وموصوف بالكمالات التى لا تتناهى .

٢ـ وأنه سبحانه خالق كل شيء ، ومالكه، ومدبر أمره ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾
[الأعراف : ٥٤]

٣ـ وأنه سبحانه وتعالي مصدر كل نعمة فى هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣]

٤ـ وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض، ولا فى السماء، وما لا يخفى الإنسان وما لا يعلن ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ [الطلاق : ١٢]

٥ـ وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته فى كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وسينشر ذلك فى اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [سورة ق : ١٨]

٦ـ وأنه سبحانه يبتلى عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون ليعرف الناس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة. ومن منهم يغضب ويسخط فلا يساوى شيئاً ولا يسند إليه شيء: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك : ٢]

٧ـ وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه ونزل على حكمه فى كل ما يأتى وما يذر : ﴿ **إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٦]

٨ـ وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئاً ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [الزمر : ٦٦]

٩ـ وأنه سبحانه حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد فى القرآن العظيم .

ولقد نهج علماء الدولة العثمانية منهج الرسول ﷺ فى تربية الأفراد والجنود على حقيقة المصير وسبيل النجاة وركزوا فى البيان على الجوانب التالية :

١ـ إن هذه الحياة مهما طالت فهى إلى زوال، وإن متاعها مهما عظم فإنه قليل : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [يونس : ٢٤]

﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** ﴾ [النساء : ٧٧]

٢ـ وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون، وفى الجنة أو فى النار مستقرون : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [القيامة : ٣٦]

٣- وأن نعيم الجنة ينسى كل تعب ومرارة فى الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسى كل راحة وحلاوة فى هذه الدنيا : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧]

٤- وأن الناس مع زوال الدنيا، واستقرارهم فى الجنة، أو فى النار سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ [الحج : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا** ﴾ [المزمل : ١٧ ، ١٨]

٥- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار [١] بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ [البروج : ١١]

ومضى العلماء الربانيون فى الدولة العثمانية على منهج الرسول ﷺ فى تبصير الأفراد والجنود والقادة والشعب بدورهم ورسالتهم فى الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله. وظلوا على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح فى ذهنهم، ما لهم عند الله، وما دورهم ورسالتهم فى الأرض. وتأثراً بهذه التربية الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة فى نفوس الأفراد والجنود والقادة فهذا محمد الفاتح نفسه الذى تربى على هذا المنهج يفتخر بهذه المعانى والقيم فى أشعاره فنجده يقول :

وحماسى : بذل الجهد لخدمة دينى، دين الله .

عزمى : أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودى : جند الله .

وتفكيرى : منصب على الفتح، على النصر، على الفوز، بلطف الله .

جهادى : بالنفس وبالمال، فماذا فى الدنيا بعد الامتثال لأمر الله .

وأشواقى : الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله .

---

(١) انظر: منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية، ص ١٩ - ٣٤ .

رجـائـى : فى نصر الله. وسمو الدولة على أعداء الله[1] .

وعندما أراد السطان محمد فتح مدينة طرابزون وكان حاكمها نصرانيا وكان يريد أن يباغتها على غرة فأعد العدة، واستصحب معه عدداً كبيراً من العمال المتخصصين فى قطع الأشجار وتعبيد الطرق. وقد صادف الفاتح فى طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجل عن فرسه وتسلقها على يديه ورجليه كسائر الجند (وكانت معه والدة حسن أوزون زعيم التركمان جاءت للإصلاح بين السلطان محمد وابنها) فقالت له: «فيم تشقى كل هذا الشقاء يا بنى وتتكبد كل هذا العناء، هل تستحق طرابزون كل هذا؟».. فأجاب الفاتح : يا أماه، إن الله قد وضع هذا السيف فى يدى لأجاهد به فى سبيله، فإذا أنا لم أتحمل هذه المتاعب وأؤد بهذا السيف حقه فلن أكون جديراً بلقب الغازى الذى أحمله، وكيف ألقى الله بعد ذلك يوم القيامة؟[2]، وهكذا كان معظم الجنود والقادة بسبب تربيتهم الإيمانية العميقة.

لقد كان جيش محمد الفاتح فى حصار القسطنطينية على جانب عظيم من التمسك بالعقيدة الصحيحة، والعبادات وإقامة شعائر الدين والخضوع لله رب العالمين[3] .

لقد ذكر المؤرخون أسبابا كثيرة فى فتح القسطنطينية، كضعف الدولة البيزنطية، والصراعات العقدية بداخلها، والتآكل الداخلى للدول الأوروبية بسبب القتال الذى نشأ بين الدول الأوروبية لعقود طويلة وغير ذلك من الأسباب .

•• أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمد الفاتح:

إن التأمل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفى حياة الأمم والشعوب تكسب العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله فى الأنفس والكون والآفاق، وكتاب الله تعالى ملئ بسننه وقوانينه المبثوثة فى المجتمعات والدول والشعوب قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾
[النساء : ٢٦]

وسنن الله تتضح بالتدبر فى كتاب الله وفيما صح عن رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٥٨ .

(٢) انظر : محمد الفاتح، ص ٢٦٣ .

(٣) انظر: الحسبة فى العصر المملوكى، د. حيدر الصافح، ص ٢٠٦ .

يقتنص الفرص ويستفيد من الأحداث ليرشد أصحابه إلى شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ـ عليه الصلاة والسلام ـ « العضباء » كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابى على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كاشفاً عن سنة من سنن الله « حق على الله أن لا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه » (١) .

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن فى الأمكنة بالسعى والسَيْر، وفى الأزمنة من التاريخ والسير قال تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨]

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر قال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** ﴾ [يونس: ١٠١ ، ١٠٢]

* ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص :

أولاً : إنها قدر سابق :

قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٨]

أى أن حكم الله تعالى وأمره الذى يقدره كائن لا محالة، وواقع لا حياد عنه، ولا معدل فيما شاء وكان وما لم يشأ لم يكن .

ثانياً : أنها لا تتحول ولا تتبدل :

قال تعالى : ﴿ **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً** ﴾

[الأحزاب :٦٠، ٦١]

وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الفتح : ٢٢ ، ٢٣]

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الجهاد والسير، باب ناقة رسول الله ٦ / ٨٦ .

ثالثاً: إنها ماضية لا تتوقف:

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]

رابعاً: أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥]

خامساً: لا ينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨]

سادساً: إنها تسرى على البر والفاجر:

فالمؤمنون والأنبياء أعلاهم قدراً تسرى عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل أمر الله أو أعرض عنه، وبما أن العثمانيين التزموا بشرع الله فى كل شئونهم ومروا بمراحل طبيعية فى حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية. أما الآثار الدنيوية التى ظهرت لى من خلال دراستى للدولة العثمانية فإنها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد العثمانيين منذ زعيمهم الأول عثمان حتى محمد الفاتح ومن بعده حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم وأهليهم وأخلصوا لله فى تحاكمهم إلى شرعه، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم واستخلفهم فى الأرض، وأقام العثمانيون شريعة الله فى الأرض التى حكموها، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل فى الشعوب والأمم التى تسعى جاهدة لإقامة شرع الله .

وقد خاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه فى سورة النور: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ** (بدلاً من الكفار) **كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [النور: ٥٥] من بنى إسرائيل .

ولقد حقق العثمانيون الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن فأتتهم ثمرة ذلك وأثره الباقى ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ** ﴾ فحققوا التحاكم إلى الدين فتحقق لهم التمكين .

ثانياً: الأمن والاستقرار:

كانت بلاد آسيا الصغرى مضطربة وكثرت فيها الإمارات المتنازعة، وبعد أن أكرم الله تعالى العثمانيين بتوحيد تلك الإمارات وتوجيهها نحو الجهاد فى سبيل الله تعالى يسر الله للدولة العثمانية الأمن والاستقرار فى تلك الربوع التى حكم فيها شرع الله .

حيث نجد أن الدولة العثمانية بعد أن استخلفت مكن الله لها وأعطاها دواعى الأمن وأسباب الاستقرار حتى تحافظ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذى ينشدون فى أنفسهم وواقعهم، فبيده سبحانه مقاليد الأمور وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه، قال تعالى :

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام :٨٢]

فنفوسهم فى أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته .

إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من التأمين، والتطمين والبعد عن الخوف والفزع .

إن العثمانيين عندما حققوا العبودية لله ونبذوا الشرك بأنواعه حقق الله لهم الأمن فى النفوس على مستوى الشعب والدولة .

ثالثاً: النصر والفتح:

إن العثمانيين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون وتحققت فيهم سنة الله فى نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته،

قال تعالى :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ ، ٤١]

« وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة فى نهاية المطاف . . إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [القصص : ٥٧] فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها فى ربع قرن أو أقل من الزمان » (١) .

إن الله تعالى أيد العثمانيين على الأعداء ومنّ عليهم بالفتح، فتح الأراضى وإخضاعها لحكم الله تعالى، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام .

إن العثمانيين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح، واستنزلت عليهم نصر الله .

إن الشعوب الإسلامية التى تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها فى الدنيا والآخرة.

إن مسئولية الحكام والقضاة والعلماء والدعاة فى الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسئولية عظيمة يسألون عنها يوم القيامة أمام الله : (إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم. . وهذا أعظم أسباب تغير الدول كما جرى هذا مرة بعد مرة فى زماننا وغير زماننا، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره) فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه؛ فإن الله يقول فى كتابه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] فقد وعد بنصره من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم » (٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٤ / ٢٧٠٤ .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٣٥ / ٣٨٨ .

رابعاً: العزو والشرف:

إن عز العثمانيين وشرفهم العظيم الذى سطر فى كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذى به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها، وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية فى إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠]

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى تفسير هذه الآية : « فيه شرفكم » (١) إن العثمانيين استمدوا شرفهم وعزهم من استمساكهم بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : « إنا كنّا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله » (٢) . فعمر ـ رضى الله عنه ـ كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزًا وذُلاً مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت فى يوم بغير دين الله، ولا ذلت فى يوم إلا بالانحراف عنه. قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] يعنى من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨]

إن سيرة سلاطين العثمانيين من أمثال عثمان الأول، ومراد، ومحمد الفاتح تبين لنا اعتزازهم بالإسلام وحبهم للقرآن واستعدادهم للموت فى سبيل الله، ولقد عاشوا فى بركة من العيش ورغد من الحياة الطيبة، وما نالوا ذلك إلا بإقامة دين الله . قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦]

خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل فى زمن محمد الفاتح وانحسرت الرذائل؛ فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة متطلعاً إلى ما عند الله من الثواب

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣ / ١٧٠ .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك : كتاب الإيمان ١ / ٦٢ .

(٣) ابن كثير ٢ / ٥٢٦ .

ويخشى من عقاب الله، لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحبه الرحمن وإلى تعاليم الإسلام .

إن آثار تحكيم شرع الله فى الشعوب والدول التى نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التى أصابت الدولة العثمانية لهى من سنن الله الجارية والتى لا تتبدل ولا تتغير، فأى شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده وحكامه ودولته .

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان فى جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله وأخذهم بسنن التمكين وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية والانتقاء من أفراد الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة. إن الانتصارات العظيمة فى تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدى من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وزكى نفسه، ولهذا لم يأت فتح عظيم وفتح مبين إلا لمن توافرت فيهم صفات جيل التمكين التى ذكرت فى القرآن الكريم .

*****

المبحث الخامس

أهم صفات محمد الفاتح

لقد ظهرت بعض الصفات القيادية فى شخصية محمد الفاتح عند البحث والدراسة ومن أهم هذه الصفات :

١- الحزم :

وظهر ذلك عندما غلب ظنه أن هناك تقصيراً أو تكاسلاً من جانب قائد الأسطول العثمانى بالطة أوغلى عند حصاره للقسطنطينية، فأرسل إليه وقال: «إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها وإذا لم توفق فى ذلك فلا ترجع إلينا حياً» (١) .

ولما لم يحقق بالطة أوغلى مهمته عزله، وجعل مكانه حمزة باشا.

٢- الشجاعة :

وكان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ويقاتل الأعداء بسيفه، وفى إحدى المعارك فى بلاد البلقان تعرض الجيش العثمانى لكمين من قبل زعيم البوغدان استفان حيث تخفى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح الجنود على وجوههم وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتباعد عن مرمى المدافع وعنّف رئيس الإنكشارية محمد الطرابزونى على تخاذل جنده، ثم صاح فيهم: «أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله ولتكن فيكم الحمية الإسلامية» (٢) وأمسك بالترس واستل سيفه وركض بحصانه واندفع به إلى الأمام لا يلوى على شيء وألهب بذلك نار الحماس فى جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل .

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شر ممزق ووقع استفان من فوق ظهر جواده ولم ينج إلا بصعوبة وولى هارباً، وانتصر العثمانيون وغنموا غنائم وفيرة (٣) .

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص ١٠١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤٧ .

٣- الذكــاء :

ويظهـر ذلك فى فكرته البـارعـة وهى نـقل السـفن من مـرسـاها فى بشكطاش إلى القـرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حى غلطة خوفاً على سـفنه من الجنويين، وقـد كـانت المسـافـة بين الميناءين نحـو ثلاثة أمـيـال، ولـم تكن أرضـاً مبسوطة سهلة ولكنهـا كـانت وهاداً وتلالاً غيـر ممهدة، وشرع فى تنفيـذ الخطة؛ ومـهـدت الأرض وسـويـت فى سـاعـات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشـحم، ثـم وضعت على الطريق الممهد بطريقـة يسهل بها انزلاج السـفن وجرها، لقد كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذى حدث فيه بل تجلت فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ مما يدل على ذكاء محمد الفاتح الوقّاد (١) .

٤- العزيمـة والإصـرار :

فـعندمـا أرسل السلطان مـحـمـد الفـاتح إلى الامـبـراطور قـسطنطين يطلب منه تسليم القسطنطينيـة حتى يحقن دماء الناس فى المدينة ولا يتعرضـوا لأى أذى ويكونوا بالخيار فى البـقـاء فى المدينة أو الرحـيل عنهـا، فـعندمـا رفض قـسطنطين تسليم المدينة قـال السلطان محمد: « حسناً عن قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر» (٢) .

وعندما استطاع البيزنطيون أن يحرقوا القلعة الخشبية الضخمة المتحركة كان رده « غداً نصنع أربعا أخرى » (٣) .

وهذه المواقف تدل على عزيمته وإصراره فى الوصول إلى هدفه .

٥- عدلـــه :

حيث عامل أهل الكتاب وفق الشريعة الإسلامية وأعطاهم حقوقهم الدينية، ولم يتعرض أحد من النصارى للظلم أو التعدى بل أكرم زعمـاءهم وأحسن إلى رؤسـائهم وكـان شعاره العدل أساس الملك (٤) .

٦- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان :

نجد السلطان محـمـد عند دخول القـسطنطينية يقـول: « حـمداً لله، ليرحـم الله الشـهداء

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٠٢ .

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٣٧٦ .

(٣) السلطان محمد الفاتح ، ص ١٢٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٢ .

ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبى الفخر والشكر» (١) .

فهو أسند الفضل إلى الله ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذى نصره وأيده وهذا يدل على عمق إيمان محمد الفاتح بالله سبحانه وتعالى .

٧- الإخلاص :

إن كثيرا من المواقف التى سجلت فى تاريخ الفاتح تدلنا على عمق إخلاصه لدينه وعقيدته فى أشعاره ومناجاته لربه سبحانه وتعالى حيث يقول :

نيّتى : امتثالى لأمر الله ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [**المائدة: ٣٥**].

وحماسى : بذل الجهد لخدمة دينى، دين الله .

عزمى : أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودى ، جند الله .

وتفكيرى : منصب على الفتح، على النصر، على الفوز، بلطف الله .

جهادى : بالنفس والمال، فماذا فى الدنيا بعد الامتثال لأمر الله .

رجائى : فى نصر الله. وسمو الدولة على أعداء الله (٢) .

٨- علمه :

اهتم والده به منذ الطفولة ولذلك خضع السلطان محمد الفاتح لنظام تربوى أشرف عليه مجموعة من علماء عصره المعروفين، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية - آنذاك - من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، وكان من كرم الله للسلطان محمد الفاتح أن أشرف على تعليمه مجموعة من أساطين العلماء فى عصره وفى مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكورانى (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل يكون موسوعياً فى شتى العلوم المعروفة فى عصره) ولقد تأثر محمد الفاتح بتربية شيوخه وظهرت تلك التربية فى اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية (٣) .

ولقد تبحر السلطان محمد فى اللغات الإسلامية الثلاثة التى لم يكن يستغنى عنها مثقف فى ذلك العصر وهى: العربية والفارسية والتركية، ولقد كان السلطان محمد الفاتح شاعراً وترك ديوانا باللغة التركية (٤) .

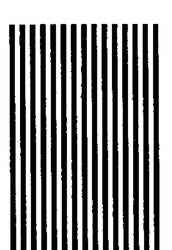
---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص ١٣١ .

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ .

(٣) السلطان محمد الفاتح ، ص ١٣١ .

(٤) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٥٤ - ٢٥٩ . .



المبحث السادس

شيء من أعماله الحضارية

•• اهتمامه بالمدارس والمعاهد :

كان السلطان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد فى جميع أرجاء دولته. وقد كان السلطان أورخان أول من أنشأ مدرسة نموذجية فى الدولة العثمانية وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه وانتشرت المدارس والمعاهد فى بروسة وأدرنة وغيرهما من المدن .

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده فى هذا المضمار وبذل جهوداً كبيرة فى نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد وأدخل بعض الإصلاحات فى التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها وحرص على نشر المدارس والمعاهد فى جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة. ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التى تدرس فى كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة ويخضع لامتحان دقيق، وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها وأحياناً يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس بين الحين والحين ولا يأنف من استماع الدروس التى يلقيها الأساتذة، وكان يوصى الطلبة بالجد والاجتهاد ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم فى كل مدارس الدولة بالمجان وكانت المواد التى تدرس فى تلك المدارس: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والبلاغة، وعلوم اللغة من المعانى والبيان والبديع، والهندسة.. إلخ .

وأنشأ بجانب مسجده الذى بناه بالقسطنطينية ثمانى مدارس على كل جانب من جوانب المسجد، أربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح وفيها يقضى الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسى على طول السنة فى هذه المدارس وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط فى الرجل الذى يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون

من أهل العلم والتقوى متبحراً فى أسماء الكتب والمؤلفين وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة ويسجل أسماء الكتب المستعارة فى دفتر خاص وهذا الأمين مسئول عن الكتب التي فى عهدته ومسئول عن سلامة أوراقها (١) وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل وكانت مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون فى إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية (٢) .

•• اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم فى العطايا والمنح والهدايا ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل ومن بينهم العالم أحمد جلبى بن السلطان أمير على، فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه وأعاده إلى وطنه مع رفقائه معززاً مكرماً .

وبعد أن هزم أوزون حسن زعيم التركمان وكان هذا الزعيم لا يلتزم بعهد ويناصر أعداء العثمانيين من أى ملة كانت، فبعد أن هزمه محمد الفاتح وقع فى يده عدد كبير من الأسرى، فأمر السلطان الفاتح بقتلهم (إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف مثل القاضى محمد الشريحى وكان من فضلاء الزمان، فأكرمه السلطان غاية الإكرام) .

وكان السلطان الفاتح يحترم العلماء وأهل الورع والتقى وقد تستبد به فى بعض الأحيان نزوة جامحة أو غضبة طارئة ولكنه ما يلبث إلا أن يعود إلى وقاره واحترامه لهم .

وتحدثنا كتب التاريخ أن السلطان محمد بعث مع أحد خدامه بمرسوم إلى الشيخ أحمد الكورانى ـ وكان حين ذاك يتولى قضاء العسكر ـ فوجد فيه أمراً يخالف الشرع فمزقه وضرب الخادم. وشق ذلك على السلطان محمد وغضب من فعل الشيخ وعزله من منصبه، ووقع بينهما نفور وجفوة ورحل الكورانى إلى مصر حيث استقبله سلطانها قيتباى وأكرمه غاية

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٤ .

الإكرام وأقام عنده برهة من الزمن. وما لبث الفاتح أن ندم على ما كان منه فكتب إلى السلطان قيتباى يطلب منه أن يرسل إليه الشيخ الكورانى (فحكى السلطان قيتباى كتاب السلطان محمد خان للشيخ الكورانى ثم قال له: لا تذهب إليه فإنى أكرمك فوق ما يكرمك هو. قال: نعم هو كذلك إلا أن بينى وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد، وهذا الذى جرى بيننا شيء آخر وهو يعرف ذلك منى ويعرف أنى أميل إليه بالطبع فإذا لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فتقع بينكما عداوة. فاستحسن السلطان قيتباى هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً وهيأ له ما يحتاج إليه من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة إلى السلطان محمد خان. وأسند إليه الفاتح القضاء ثم الإفتاء وأجزل له من العطاء وأكرمه إكراماً لا مزيد عليه (١).

قال عنه الشوكانى: « .. وانتقل من قضاء العسكر إلى منصب الفتوى وتردد إليه الأكابر وشرح (جمع الجوامع) وكثر تعقبه للمحلى (جلال الدين المحلى المفسر) وعمل تفسيراً، وشرحاً للبخارى وقصيدة فى علم العروض نحو ستمائة بيت. وأنشأ باسطنبول جامعاً ومدرسة سماها دار الحديث وانثالت عليه الدنيا وعمر الدور وانتشر علمه فأخذ عليه الأكابر وحج فى سنة ٧٦١هـ إحدى وستين وسبعمائة ولم يزل على جلالته حتى (مات) فى أواخر سنة ٧٩٣هـ ثلاث وتسعين وسبعمائة وصلى عليه السلطان فمن دونه ومن مطالع قصائده فى مدح سلطانه:

هو الشمس إلا أنه الليث باسلا ... هو البحر إلا أنه مالك البر

وقد ترجمه صاحب «الشقائق النعمانية» ترجمة حافلة.. وإنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحنى له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وإنه كان لا يأتى إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه وكان يقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط. وذكر له مناقب جمة تدل على أنه من العلماء العاملين...» (٢).

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم فى مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح فى شهر رمضان أن يأتى إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص ٣٨٩.
(٢) البدر الطالع: ١/ ٤١.

العلماء المتبحرين فى تفسير القرآن فيقوم فى كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ويناقشه فى ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك فى هذه المناقشات ويشجع هؤلاء العلماء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة .

•• اهتمامه بالشعراء والأدباء:

ذكر مؤرخ الأدب العثمانى أن السلطان محمد الفاتح (راعٍ لنهضة أدبية وشاعر مجيد حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء، وعرف بأبى الفتح لأنه غلب على امبراطوريتين، وفتح سبع ممالك واستولى على مائتى مدينة وشاد دور العلم ودور العبادة. فعرف كذلك بأبى الخيرات) [١] .

وكان الفاتح مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم مثل: أحمد باشا محمود، ومحمود باشا، وقاسم الجزرى باشا، وهؤلاء شعراء [٢]. وكان فى بلاط الفاتح ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم وكان طبيعيا بعد هذا الاهتمام أن يتفنن الشعراء والأدباء فى مدح السلطان محمد لما قدمه إلى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التشجيع .

وكان محمد الفاتح ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب الذى يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاطه [٣] .

•• اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقناً للغة الرومية ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية فى شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية من ذلك كتاب « مشاهير الرجال » لبلوتارك ونقل إلى التركية كتاب التصريف فى الطب لأبى القاسم الزهراوى الطبيب الأندلسى مع زيادات فى صور آلات الجراحة وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية .

وعندما وجد كتاب بطليموس فى الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومى جورج اميروتزوس ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومى) الذى كان يجيد

---

(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٩٣ .

اللغتين الرومية والعربية بترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق فى أسماء البلدان وكتابتها باللغتين العربية والرومية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة. وكان العلامة على القوشجي وهو من أكبر علماء عصره فى الرياضيات والفلك كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح .

وكان الفاتح مهتمًا باللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة فى ذلك العهد. وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من أنه طلب إلى «المدرسين بالمدارس الثمانى أن يجمعوا بين الكتب الستة فى علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها» . ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له فى قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم وعين الشيخ لطفى أميناً عليها، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام ١٤٦٥م وقد وصف الأستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول فى العلم بين الشرق والغرب [١] .

•• اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء، والأعيان على تشييد المبانى وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المبانى التى تعطى المدن بهاءً ورونقاً. واهتم بالعاصمة (استنبول) اهتماماً خاصاً وكان حريصاً على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون. وكثر العمران فى عهد الفاتح وانتشر واهتم بدور الشفاء ووضع لها نظاماً مثالياً فى غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب - ثم زيد إلى اثنين - من حذاق الأطباء من أى جنس كان يعاونهما كحال وجراح وصيدلى وجماعة من الخدم والبوابين ويشترط فى جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوى القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين فى اليوم وأن لا تصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط فى طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهى الأطعمة والأصناف التى توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية فى هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم [٢] .

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص ٣٩٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤١٣ .

•• الاهتمام بالتجارة والصناعة:

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب، وكان بذلك مقتفياً خط آبائه وأجداده السلاطين الذين (كانوا دائماً على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم وأن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيرا عندما خلصها الفتح العثمانى مما أصابها فى عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التى عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة وانشأوا الكبارى الجديدة؛ مما سهل حركة التجارة فى جميع أجزاء الدولة واضطرت الدول الأجنبية من فتح موانيها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة فى ظل الراية العثمانية، وكان من أثر السياسة العامة للدولة فى مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية فى جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة (١) ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقامت القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية فى البلاد) (٢) .

•• الاهتمام بالتنظيمات الإدارية:

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شئون الإدارة المحلية فى دولته، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساسا لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامى أياً كان أصله وجنسه (٣) .

واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التى تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التى تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته وجد فى ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة فى ربوع الدولة العثمانية.

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص ٤١٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٤١٠ .

(٣) السلطان محمد الفاتح ، ص ١٥٤ .

وأبقى السلطان محمد النظام الذى كان سائداً لحكم الولايات أيام أسلافه، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التى تناسب عصره ودولته. وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى «بكلربك» وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء، وكان يسمى «سنجق بك» وكلا الحاكمين كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية فى آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلبية فى أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلى فكان يحكمها بعض أمراء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا فى الثورة على الحكومة العثمانية .

وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعو أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا فى الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبينة فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجة من إيراد إقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس. وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاه وفرسان، وكان المشاه تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية (١) .

وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساساً فى اختيار رجاله ومعاونيه وولاته. واهتم بالنظام المالى ووضع القواعد المحكمة الصارمة فى جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثروات هائلة .

لقد أظهر السلطان محمد فى الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لا تقلان عن كفايته ومقدرته فى الناحيتين السياسية والحربية (٢) .

•• اهتمامه بالجيش والبحرية :

لقد أنشئ الجيش النظامى من زمن السلطان أورخان واهتم من جاء بعده من السلاطين بتطوير الجيش وخصوصاً السلطان محمد الذى أولى الجيش رعاية خاصة، فالجيش فى نظره من أسس الدولة وأركانها المهمة، فأعاد تنظيمه وتربيته وجعل لكل فرقة (آغا) يقودها وجعل لقيادة الإنكشارية حق التقدم على بقية القواد، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذى جعل له السلطان القيادة العليا للجيش .

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص ١٥٥ .

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص ٤٠٦، ٤٠٧ .

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددى، بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة فى تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى «لغمجية» وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها وكذلك السقاءون كان عليهم تزويد الجنود بالماء ولقد تطورت الجامعة العسكرية فى زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة فى الدقة والنظام (١) .

لقد حرص السلطان محمد على تطوير الجيش البرى والقوة البحرية وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية، حيث كان للأسطول البحرى العثمانى دور واضح فى إحكام حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعاً. وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحرى فلم تمض إلا مدة من الزمن حتى سيطر الأسطول العثمانى على البحرين الأسود والأبيض وعندما نطالع كتاب «حقائق الأخبار عن دول البحار» لمؤلفه إسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وإنه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحرى العثمانى، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع فى صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوا أكبر الدول البحرية فى ذلك الوقت (٢) وعندما وجد فى سيئوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر السلطان محمد بأخذها وبناء سفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها (٣) .

وكان الأسطول العثمانى تشرف الترسانة على إدارته وكانت أحد الفروع الخاصة وتسمى بطافة العزب، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندى بحرى تتألف من: القبطان، وقواد السفن، والضباط، والبحارة (٤) .

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص ١٦٢ .
(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص ٤١١ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٤١١ .
(٤) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص ١٦٢ .

•• اهتمامه بالعدل:

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه ـ شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ويمنحهم مرسوما مكتوبا يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحرى والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس في المحاكم، وقد أعطى هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان .

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته .

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأشد الناس حرصاً على إنفاذها، وكان يرى أن العلماء في الدولة بمنزلة القلب في البدن إذا صلحوا صلحت الدولة ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب ليتفرغوا للدرس والتحصيل، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم، وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية (١) .

وتحدثنا كتب التاريخ : أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضرباً شديداً، فما أن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به وأمر

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص ٤٠٩ .

بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة. وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم فالتمسوا من المولى محيى الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه فقال له المولى محيى الدين: إن النائب (أى القاضى) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء فلم يكن هو عند الضرب قاضياً فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله «قتل الغلام» فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه. فأحضر السلطان محمد خان عصاً كبيرة فضربه بنفسه ضرباً شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيراً للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا. وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول: إن رشدى هذا ما حصل إلا من ضربه (١) أما القاضى المرتشى فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

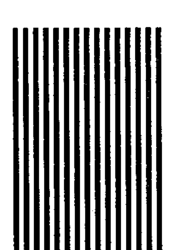
وكان السلطان الفاتح - برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات إلا أنه كان يتتبع كل ما يجرى فى أرجاء دولته بيقظة واهتمام وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوى وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوى، وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاواهم بنفسه (٢) كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذى كان يجمع المعلومات والأخبار التى لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذى كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل فى أفرادها وجماعاتها. وقد استنبط السلطان الفاتح هذه المعانى من حال سليمان عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠] وذلك بحسب ما تقضنيه أمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيه وخاصة الضعفاء (٣).

*****

(١) انظر: محمد الفاتح، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤١٠.

(٣) انظر: تفسير القرطبى ١٣/ ١٧٧.



المبحث السابع

وصية السلطان محمد الفاتح لابنه

هذه وصية محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت والتى تعبر أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة، وقيمه ومبادئه التى آمن بها والتى يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها : « ها أنذا أموت، ولكنى غير آسف لأنى تارك خلفاً مثلك. كن عادلاً صالحاً رحيماً، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامى، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شىء، ولا تفتر فى المواظبة عليه ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها، وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال. حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أى عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ منى هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطانى الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكى، واحذ حذوى، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو، أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك »[1].

١- (كن عادلاً صالحاً رحيماً) :

لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين أصبحوا من رعايا دولته وعندما دخل القسطنطينية فاتحاً كان يحارب حرب الإسلام (التى لا تهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيه

---

(١) السلطان محمد الفاتح ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

صبى ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولا يمثل فيها بإنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح فى وجه المسلمين) (١) .

كان محمد الفاتح وهو يمثل إسلامه وعقيدته ومنهجه الإسلامى فى الحرب على تعاليم الصديق أبى بكر رضى الله عنه فى معاملته للروم : « لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله » (٢) .

لقد دخل محمد الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم الغرب النصرانى دروسا فى العدالة والرحمة وأصبحت معلماً من معالم التاريخ العثمانى.

إن الدولة العثمانية سارت على منهج الإسلام، فأخذت منه العدالة والرحمة بالرعايا الذين حكموهم، ولقد تحدث عبدالرحمن عزام عن رحمة العثمانيين وعدالتهم بالشعوب التي حكموها فقال: « وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق.. ولقد سمعت بنفسى حديث هذه الرحمة فى « بسرابيا » من رومانيا على نهر « الدنيستز » وقيل لى : إن أمثلة الفلاحين فى هذه الأطراف النائية للملك العثمانى لا تزال تعبر عن رحمة التركى وعدله. ومنها ما يشير إلى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض، وقد لفت نظرى فى بولونيا ورومانيا وفى بلاد البلقان فى رحلاتى المتعددة أمثلة وأساطير لاتزال تشير إلى ما استقر فى نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركى المسلم كرحيم عادل .

وفى سنة ١٩١٧م كنت فى فيينا فروى لى أن البوليونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مدداً للنمساويين » (٣) .

« ... بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين فى أوروبا وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف، ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه فى أوروبا الوسطى

---

(١) المسألة الشرقية : محمود ثابت الشاذلى ، ص ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٦.

(٣) الرسالة الخالدة، ص ٢٢ ، ٢٤ .

والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون. وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبلونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من «البويار» إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التى سادوها، فوصلوا على رؤوسهم جميعاً إلى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا» (١).

إن محمد الفاتح سار على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذى يمثل حقيقة الإسلام.

٢- (وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز):

وهذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء مسلمين أو نصارى ومن القصص اللطيفة فى هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار «غلطة» يدعى فرانسسكوا درا بيريو ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم وأرسل إلى الجزيرة عدة سفن بقيادة حمزة باشا إلا أن أهالى جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفع الحقوق. فقال محمد الفاتح للتاجر درابيريو: «أنا الذى سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود الذين هلكوا» (٢).

وسير السلطان إلى هذه الجزيرة أسطولاً وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه إلى الجزر القريبة منها وفتح خيوس بغير حرب ولا قتال وبادرت جزيرتا ايمبروس وساموتراس إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما على مصاريعها للعثمانيين، فاضطرت جزيرة خيوس إلى دفع ما عليها من دين للتاجر الجنوى، ودفعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسفن العثمانية التى غرقت (٣).

إن حماية الرعية والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدولة الإسلامية.

---

(١) انظر: المسألة الشرقية، ص ١٠٧.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص ٢١٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٨.

٣- (واعمل على نشر الدين الإسلامى، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض) :

كان السلطان محمد الفاتح فى حروبه لا ينسى أنه داعية إلى الإسلام ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين والعقيدة والإسلام ويثنى على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا واستولى عليها وضمها إلى الدولة العثمانية وتحرك القائد عمر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم، زار السلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها وقال: «ما أعظم ما يدين به الإسلام لابن طرخان» .

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعوة إلى الله وتركت بصماتها قوية واضحة فى مجال نشر الدعوة فى أوروبا؛ فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تقاوم شتى أنواع الضغوط التى بذلت لتحويلها إلى المسيحية ولازالت هذه الأقليات الإسلامية تعيش إلى يومنا هذا فى بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا يصل أعدادها إلى الملايين من البشر (١) وهذا يرجع إلى فضل الله على تلك الشعوب ثم إلى سياسة السلاطين العثمانيين الذين يحرصون على هداية الناس ودخولهم فى الإسلام .

٤- (قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شىء ولا تفتر فى المواظبة عليه) :

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة إسلامية، خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من أجلها حروباً دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة على ألسن العثمانيين عند التنادى للجهاد الزحف إلى الفتوحات إما غازيا وإما شهيدا، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازى - أى المجاهد فى سبيل الله - وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظماء، وكانت غاية الدولة العثمانية (الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الأنام) .

لذلك صبغت الدولة شعباً وسلطاناً، حكومة وجيشاً، ثقافة وتشريعاً، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة، بصبغة إسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون. لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيماً وقدموه على كل شىء وواظبوا عليه إلى أقصى حدود وأكدوا أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته، وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة تعنى الأمة والدين معاً، وذلك كان هدف المنهج التربوى فى جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم فى الكتاتيب

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية، د. عبدالعزيز الشناوى ١/ ٢٩ ، ٣٠ .

وجميع المسلمين كانوا يسجلون فى دوائر النفوس ـ سجلات المواليد ـ وفى التذاكر العثمانية ـ بطاقات الهوية ـ كمسلمين فحسب . دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك، أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد، إن ما يهم الدولة كان ينحصر فى ملتهم، فى ديانتهم؛ إنهم مسلمون وكفى، واعتبر العثمانيون أى مقاتل مسلم جاهد فى سبيل الله ميراثهم البطولى وخلفيتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت الأزمان؛ من هؤلاء المجاهد «عبدالله البطال» الذى استشهد فى معركة أكرنيون فى آسيا الصغرى عام ١٢٢ للهجرة، زمن الدولة الأموية والذى يقول عنه الطبرى وهو يعلق على حوادث سنة ١٢٢هـ : «وفيها قتل عبدالله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم» (١) .

يعتبره العثمانيون بطلهم القومى وبين «عبدالله البطال» العربى وقيام الدولة العثمانية ما يقرب من سبعمائة عام، لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين نسب الإسلام، وتاريخ الإسلام، ومجاهدى الإسلام (٢) .

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التي تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين (٣) .

٥- (ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش) :

ولذلك اهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة فى الدولة ووضعوا منهجاً تربوياً لإعداد القادة وخصوصاً فى داخل الجيوش، وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهى والتقى وأسندوا إليهم الولايات والقيادات فى الجيوش ومناصب القضاة، وباعدوا عنهم كل من لا يهتم بأمر الدين، ويجتنب الكبائر والفواحش هكذا كان السلاطين الأوائل .

٦- (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها) :

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة وعرفوا خطورة البدع والاقتراب من أصحابها واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة واجتهادات

---

(١) تاريخ الطبرى : الجزء الثانى حوادث سنة ١٢٢هـ .

(٢) المسألة الشرقية ، ص ٥٧ .

(٣) المسألة الشرقية ، ص ٦٥ .

العلماء الراسخين .

٧- (وسع رقعة البلاد بالجهاد) :

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد وبسطوا الأمن وقمعوا الأخطار التى هددت دولتهم، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرماً ويسفكوا دماً مسلماً أو معاهداً، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعداداً جهادياً، وقام بواجبه فى جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا فى ذمة المسلمين ولقد صبغ المجتمع العثمانى بالصبغة الإسلامية الجهادية الدعوية وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة، منذ نعومة أظافرهم، إعداداً دقيقاً، كاملاً. ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة فى الساحات الأوروبية [١]، لقد (حققت الدولة العثمانية إلي عهد سليمان القانونى آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى فى أوروبا وإخضاع كثير من الممالك والإمارات للحكومة الإسلامية وأخذ ظل الإسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين فى شرق أوروبا وغربها أن تلتقى فى الأرض الكبيرة) [٢] .

ومن المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الإسلامية فى استنبول ألقى المجاهد البروفسور المهندس نجم الدين أربكان خطاباً استرجع فيه صدى الماضى الإسلامى الذى مثلته الدولة العثمانية فقال : « ... إن هذا القصر الذى شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الإسلامى الكبير وقد نقشت على بابه كلمة الإسلام الجامعة « لا إله إلا الله » .. هو قصر السلطان محمد الفاتح الذى بناه عقب فتح استنبول .. كيف لا يكون هذا المكان تاريخياً ومنه كانت تدبر شئون العالم الإسلامى ردحاً من الزمن؟ وكيف لا يكون تاريخيا ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين إلى جميع أنحاء الدنيا، مجاهدة فى سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت .. كيف لا يكون تاريخيا وفوق هذا الحجر الذى يرتكز عليه الميكرفون كانت تنصب رايات الجيوش الإسلامية المنطلقة للذب عن ديار المسلمين جميعاً .. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر: أن قرار إرسال الأسطول الإسلامى للحيلولة دون وقوع كل من أندونيسيا والفلبين فى براثن الاستعمار الهولندى اتخذ من هذا المكان، وفيه أيضاً اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل لحماية شمال أفريقيا من الغزاة الطامعين .

---

(١) انظر: المسالة الشرقية ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٣ .

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخى يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم ﷺ وبردته المباركة وسيوفه وكثيراً من آثاره الشريفة » (١) .

لقد كانت الدولة تعطى لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الربانى وحققت من خلاله ثمرات مهمة الإسلام والمسلمين .

٨- (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد) :

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هى الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأى الأمة، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسئولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع وإنما هى مسئولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال.

٩- (وإياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام) :

إن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعة والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التى هى قوام حياتهم، وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعى.

ووظيفة الحاكم حماية أموال الرعية من السرقة والنهب لا أن يمد يده بغير وجه حق ويعتدى على أموال الناس .

١٠- (واضمن للمعوزين قوتهم وابذل إكرامك للمستحقين) :

كان السلاطين العثمانيون يتسابقون فى الإحسان للفقراء والمساكين وأبناء السبيل.. وكل من هو محتاج إلى البر والإحسان، وقامت الدولة بأعمال جليلة فى هذا الباب بل أوقف السلاطين والوزراء أوقافاً عظيمة على طلاب العلم والفقراء والمساكين والأرامل وغير ذلك. وكان الوقف ركناً أساسياً فى اقتصاد الدولة. يقول الأستاذ محمد حرب : « ... نشطت الحركة العلمية فى جوامع استنبول (٢).. وكان صقوللى محمد باشا ـ على سبيل المثال ـ ينفق على الحركة العلمية فى استنبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانية فى تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) وأسعد أفندى قاضى عسكر الروملى « يعنى البلقان » أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتى يصلن إلى سن

---

(١) المسألة الشرقية، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) الجامع فى النظام العثمانى معمارياً وإدارياً وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة، والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيرى العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى .

الزواج، وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة. مثل آخر كانت هناك أوقاف بصرف مرتبات للعائلات المعوزة - غير الأكل - لأن الأكل المجانى له أوقاف عامة أخرى تسمى «عمارت وقفى» أى وقف المطاعم الخيرية وكانت الـ «عمارات» تقدم أكلاً مجانياً لعدد يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يومياً مجاناً، وكان مثل هذا فى كل الولايات.. (١).

وكان المطعم الخيرى بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار أمريكى إلا قليلاً (٢).

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والأمراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام.

١١- (وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال) :

لقد اهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء فى الجوامع الكبرى ووضع لها تقاليد سابقة ونظمها بمرسوم خاص وأهم الوظائف فى المساجد الكبرى: الخطيب والإمام، والقيم والمؤذن ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم فى المدارس الدينية الكبيرة التى كثيراً ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلاً، ويخضع الموظفون الدينيون فى العاصمة لسلطة المفتى مباشرة وكان ينوب عنه فى الولايات الكبرى قضاة العسكر؛ أما فى الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بجميع المهام الدينية وخاصة فى الأرياف.

وكان المدارس التى تعد الموظفين الدينيين يوجد بها ثلاث فئات من طلبة العلم فـ(الصوفتا) وهى أدناها تليها فئة المعيدين الذى يحمل الطالب عند التخرج منها لقب «دانشمند» أو عالم. أما الفئة الأعلى فهى منصب المدرس، وبلغ عدد الصوفتا فى عهد السلطان مراد الثانى ٩٠ ألفاً. وكانوا كثيراً ما يكون لهم أثر فى شئون الدولة (٣).

١٢- (حذارِ حذار لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أى عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا) :

(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٤٢٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢٢.
(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٤٠٥.

إن السلطان محمد الفاتح يحذر وليه من بعده أن ينغمر بالمال أو الجند ويبين له خطورة إبعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم، كما يحذره من أن يخالف أحكام الشريعة لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً فى الدنيا وهلاكاً وعذاباً فى الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو على حياة الأمة فى وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

إن السر فى قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة فى طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته والجهاد فى سبيله والدعوة إليه، ولذلك قال محمد الفاتح لابنه : «فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا» .

١٣- (واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله) :

إن تعزيز هذا الدين وإقامته فى الأرض يحقق نتائج طيبة فى حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الدينى ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة ومحاسبة النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائماً وأبداً ، كما أن تعزيز الدين وإقامة الشرع يحقق المساواة بين الراعى والرعية فى الحقوق والواجبات وتنشر العدالة فى الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها، كما أن فى تطبيق الشريعة نزول البركة، وتوالى النعم إذ ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء فى الآخرة وطريق مستقل لصلاح الحياة فى الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، وفى تطبيقها بركات فى النفوس وبركات فى المشاعر وبركات فى طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامى معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة، كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقى والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة، كما أنها تتضمن نبذ عفن الحياة الحضارى لمجتمعات الرذيلة أيا كانت وأينما وجدت (١).

إن الناس يحتاجون إلى العلماء الربانيين ليعلموهم دينهم ويربوا نفوسهم على طاعة الله ولذلك لابد من القيادة الإسلامية من احترامهم وتقديرهم وإكرامهم، فهم الذين يبينون

---

(١) انظر : تطبيق الشريعة الإسلامية للطريقى، ص ٦٠ ، ٦١ .

للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية قال تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

١٤- (ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك) :

إن هذه الوصية ترشد ولى عهد السلطان محمد الفاتح إلى الاعتدال والتوسط فى الاستهلاك وهذه الوصية فهم لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط.

إن السلطان محمد الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله .

•• وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق :

فى شهر الربيع من عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م غادر السلطان الفاتح القسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أُعد فى اسكدار جيش آخر كبير. وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه من استنبول قد أصابته وعكة صحية إلا أنه لم يهتم بذلك لشدة حبه للجهاد وشوقه الدائم للغزو وخرج بقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد فى خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أمراض إلا أن المرض تضاعف عليه هذه المرة، وثقلت وطأته بعد وصوله إلى اسكدار فطلب أطباءه. غير أن القضاء حم به فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول ٨٨٦هـ (٣مايو ١٤٨١م) وهو فى الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفاً وثلاثين عاماً (١) .

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة فى الشرق والغرب، أحدث دوياً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام، أما النصرانية فقد غمرها الفرح والابتهاج والبشرى وأقام النصارى فى رودس صلوات الشكر على نجاتهم من هذا العدو المخيف (٢) .

وكانت جيوش الدولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كل إيطاليا وضمها للدولة العثمانية إلا أن خبر الوفاة وصلهم فانتاب الجنود هم شديد وحزن عميق، واضطر العثمانيون فى الدخول لمفاوضات مع ملك نابولى لينسحبوا آمنين على حياتهم وأمتعتهم وعتادهم وتمّ الاتفاق على ذلك إلا أن النصارى لم يفوا بما تعهدوا واعتقلوا بعض الجنود

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص ٣٧٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٣ .

الذين كانوا فى المؤخرة وصفدوهم بالحديد [١] .

وعندما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما ابتهج البابا وأمر بفتح الكنائس وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهى تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع وظلت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة فى روما طيلة ثلاثة أيام، لقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظم خطر كان يهددها [٢] .

لم يكن أحد يعلم شيئا عن الجهة التى كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس فى ذلك مذاهب شتى، فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التى امتنعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر فى جنوبى إيطاليا ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالى إيطاليا ففرنسا وأسبانيا؟

لقد ظل ذلك سراً طواه الفاتح فى صدره ولم يبح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك [٣] .

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التى يقصدها ويتكتم أشد التكتم ويترك أعداءه فى غفلة وحيرة من أمرهم لا يدرى أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة فى التنفيذ فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والاستعداد[٤] . وذات مرة سأله أحد القضاة أين تقصد بجيوشك فأجابه الفاتح : «لو أن شعرة فى لحيتى عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها فى النار . . .» [٥] .

كان من أهداف الفاتح أن يمضى بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها فى الشمال ويستمر فى فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وأسبانيا وما وراءها من الدول والشعوب والأمم .

لقد تأثر المسلمون فى العالم الإسلامى لوفاة محمد الفاتح وحزنوا عليه حزناً عميقاً وبكاه المسلمون فى جميع أقطار المعمورة، لقد بهرتهم انتصاراته، وأعاد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح [٦] .

قال عن وفاته عبدالحى بن العماد الحنبلى فى وفيات سنة ستة وثمانية وثمانمائة: « . .كان

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص ٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٤ .

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص ٣٧٧ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٠ .

(٦) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص ١٦٨ .

من أعظم سلاطين بنى عثمان وهو الملك الفاضل النبيل العظيم الجليل، أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداماً واجتهاداً وأثبتهم جأشاً وقواداً وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً، وهو الذى أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق فى أجياد الزمان. وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجرى رخاءً براً وبحراً هجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يوماً أشد الحصار وضيق على من فيها من الكفار الفجار وسل على أهلها سيف الله المسلول، وتدرع بدرع الله الحصين المسبول، ودق باب النصر والتأييد ولج ومن قرع باباً ولج ولج وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح استنبول فى اليوم الحادى والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وصلى فى أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهى آيا صوفيا وهى قبة تسامى قبة السماء، وتحاكى فى الاستحكام قبب الأهرام ولا وهت كبراً ولا هرماً، وقد أسس فى استنبول للعلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمسه الأفول، وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول، فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر إفاقتهم وجعل بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوسلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى، وأنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم، وعطف بإحسانه إليهم كمولانا على القوشجى والفاضل الطوسى والعالم الكورانى وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام فصارت استنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا، واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام وأهل حرفها أدق الفطناء فى الأنام، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام فللمرحوم المقدس قلادة منن لا تحصى فى أعناق المسلمين لاسيما العلماء الأكرمين (١) .

فرحمة الله ومغفرته ورضوانه على السلطان محمد الفاتح وأعلى ذكره فى المصلحين.

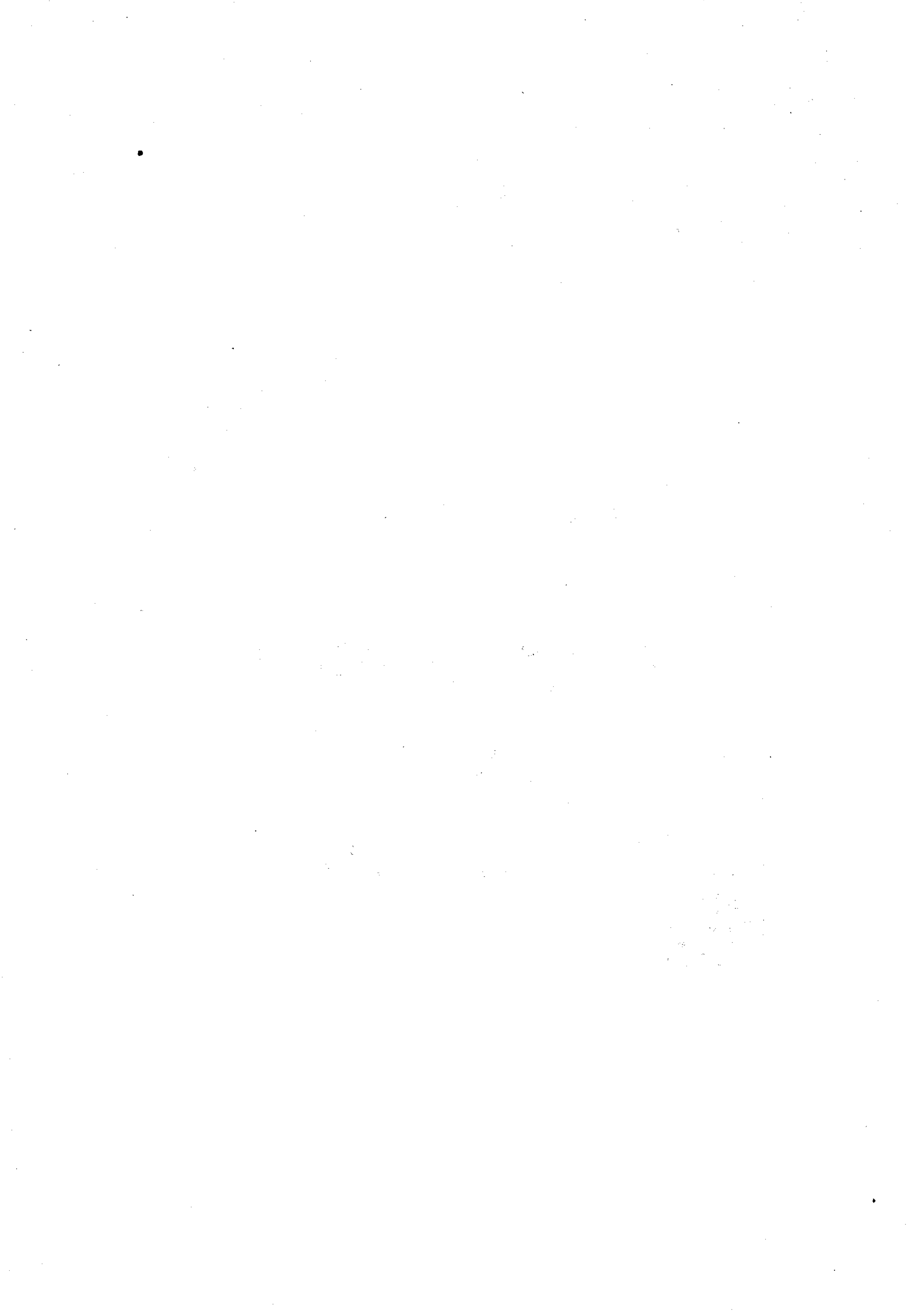
---

(١) شذرات الذهب : ٧/٣٤٥ .



الفصل الرابع

السلاطين الأقوياء
بعد
محمد الفاتح



المبحث الأول

السلطان بايزيد الثانى

بعد فاة السطان محمد الفاتح تولى ابنه با يزيد الثانى (٨٨٦هـ - ٩١٨هـ) السلطة فى البلاد وكان سلطانًا وديعًا، نشأ محبًا للأدب، متفقها فى علم الشريعة الإسلامية شغوفًا بعلم الفلك. واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين فى تحسين شبكة الطرق والجسور لربط أقاليم الدولة ببعضها[١].

أولاً: الصراع على السلطة مع أخيه:

كان الأمير جم عندما بلغه وفاة أبيه يقيم فى بروسة، وقد استطاع أن يتحصل على اعتراف السكان به سلطانًا على الدولة العثمانية فى المناطق الخاضعة له، وبعد أن استتب له الأمر فى بروسة ما حولها، أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصلح، ويقترح عليه التنازل، ورفض السلطان بايزيد ذلك لأن والده أوصى له بالحكم من بعده، لكن الأمير جم لم يقتنع بذلك فعاد واقترح على أخيه با يزيد تقسيم الدولة العثمانية إلى قسمين: القسم الأوروبى لبايزيد والقسم الآسيوى له، لكن با يزيد رفض أيضًا مبدأ التقسيم من أساسه لأن ذلك سوف يعمل على تفتيت الدولة التى سهر أسلافه على بنائها وتوحيدها، وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته وأعد جيشًا ضخمًا سار به إلى بروسة وهاجمها وفر منها جم إلى سلطان المماليك قايتباى فى مصر[٢] فرحب به أكرمه وأمده بجميع ما احتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ولما عاد من الأراضى المقدسة إلى مصر أرسل إليه السلطان با يزيد يقول له: (بما أنك اليوم قمت بواجباتك الدينية فى الحج، فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث أن الملك كان نصيبى بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة الله؟ فأجابه بقوله: هل من العدل أن تضطجع على مهد الراحة النعيم وتقضى أيامك بالرغد واللذات، وأنا أحرم من اللذة والراحة وأضع رأسى على الشوك[٣]؟ وقام جم بالاتصال بكبار

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٥٠.

(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ٥٧.

(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٦٣ إلى ٦٥.

أتباعه فى الأناضول، وأثارهم ضد با يزيد، وتقدم بأتباعه ليغتصب العرش، ولكنه هزم، واستأنف المحاولة فهزم أيضا.

والتجأ جم إلى رودس حيث يوجد بها فرسان القديس يوحنا، وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقًا إلا أنه نقضه تحت ضغط با يزيد وأصبح جم سجينًا فى جزيرة رودس، وكسب فرسان القديس يوحنا بهذه الرهينة الخطيرة امتيازات طوراً من بايزيد الثانى، ومرة أخرى من أنصار جم بالقاهرة، فلما تحصل على أموال ضخمة باع رهينته للبابا أنوست الثامن، فلما مات هذا البابا ترك جم لخلفه إسكندر السادس. ولكن الأخير لم يبق على جم كثيرا حيث قتل واتهم فى ذلك بايزيد الثانى الذى تخلص من خطر أخيه[١].

ثانيًا: موقف السلطان با يزيد من المماليك:

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت فى أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما، الأمر الذى أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة ١٤٩١م ومع أن السلطان المملوكى «قايتباى» قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته فى مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثمانى «بايزيد الثانى» قد بدد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكى سنة ١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التى استولى عليها العثمانيون على الحدود: وقد لقى هذا الأمر ترحيبًا لدى السلطان المملوكى فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين، وأسهمت سياسة با يزيد السلمية فى عقد صلح بين العثمانيين والمماليك فى نفس السنة (١٤٩١م) وظل هذا الصلح ساريًا حتى نهاية عهد السلطان با يزيد الثانى عام ١٥١٢م وأكد هذا الحدث حرص السلطان با يزيد على سياسة السلام مع المسلمين[٢].

ثالثا: السلطان با يزيد الثانى والدبلوماسية الغربية:

كاستمرت راية الجهاد مرفوعة طيلة عهد السلطان با يزيد، وأدرك الأعداء أنهم لا يستطيعون مواجهة القوات الجهادية فى حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم، لهذا لجأوا إلى أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكى ينخروا فى عظام الأمة

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٥١.

(٢) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ٦٦.

ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل، ففى عهد السلطان با يزيد وصل أول سفير روسى إلى (إسلامبول) عام (٨٩٨هـ/١٤٩٢م).

إن وصول السفير الروسى عام (١٤٩٢م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة فى نفوس أبنائها.

وفى عهد با يزيد الثانى فى عام (٨٨٦هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدى المسلمين العثمانيين، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية(١).

لايعنى ذلك أن السلطان (با يزيد) وقف موقفًا ضعيفًا أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة فى محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوروبا الشرقية كلها، فانشغلت بها(٢).

رابعًا: وقوفه مع مسلمى الأندلس:

تطورت الأحداث فى شبه الجزيرة الأيبرية فى مطلع العصور الحديثة، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر فى توحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصًا بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أراغوان، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة فى تصفية الوجود الإسلامى فى كل أسبانيا، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة، التى كانت رمزا للمملكة الإسلامية الذاهبة(٣).

وفرضت أسبانيا أقصى الإجراءات التعسفية على المسلمين فى محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون – المورسكيون – إلى القيام بثورات وانتفاضات فى أغلب المدن الأسبانية والتى يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التى اتخذت وسيلة لتعميق الكره

---

(١) الدولة العثمانية د. جمال عبد الهادى، ص ٤٩، ٥٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٠.

(٣) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبد الحى، ص ١٢٥.

والحقد للمسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يرنو المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لإنقاذهم وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من ظلم، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التى عاثت فى الأرض فسادا وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم(١).

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامى(٢). وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، فى حين أن أبناء دينه فى المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا المسيحيين، إذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم فى تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس، وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثمانى با يزيد الثانى، فوصلته هذه الرسالة: (. .الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيى العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب، والعجم، والترك والديلم، ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامى الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار مشهور المعالى والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السحر والصفاح، وألسنة السلاح بأذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد(٣) وكانت ضمن الرسالة أبيات قصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان با يزيد، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلا:

---

(١) انظر: رسالة من مسلمى غرناطة للسلطان سليمان عبد الجليل التميمى، المجلة المغربية العدد -٣، ص ٣٨.
(٢) انظر: خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب أرسلان، ص ٢١٣.
(٣) انظر: أزهار الرياض فى أخبار عياض للتلمسانى (١/١٠٨,١٠٩).

سـلام كـريم دائم مـتـجـدد	أخص به مـولاى خـيـر خليـفـة
سـلام على مـولاى ذى المجـد والعـلا	ومـن ألبـس الـكـفـار ثـوب المذلـة
سـلام عـلى من وسـع الـلـه ملكـه	وأيـده بـالـنـصـر فى كـل جـهـة
سـلام على مـولاى من دار ملكه	قـسطنطينيـة أكـرم بهـا من مـدينة
سـلام عـلى من زيـن الـلـه مـلكـه	بـجنـد أتـراك من أهـل الرعـايـة
سـلام عليكم شـرف الله قـدركم	وزادكـم مـلـكًـا عـلـى كـل مـلـة
سـلام على القـاضى ومن كـان مـثله	من الـعلـمـاء الأكـرمـين الأجلة
سـلام عـلى أهـل الديـانة والتـقى	ومن كـان ذا رأى من أهـل المشـورة

بعد ذلك وصفت القصيدة الحالة التى يعانى منها المسلمون وما تعرض له الشيوخ والنساء من هتك للأعراض وما يتعرض له المسلمون فى دينهم حيث استطرد قائلاً:

سـلام عليكم من عـبـيـد تخلفـوا	بأنـدلس بالـغـرب فـى أرض غـربة
أحـاط بهـم بحـرٌ من الـردم زاخـر	وبحـرٌ عـمـيق ذو ظلام ولجـة
سـلام عليكم من عـبـيـد أصابهم	مـصـاب عظيم يا لهـا من مـصـيـبة
سـلام عليكم من شـيـوخ تمزقت	شـيـوخـهـم بالنتف من بعـد عـزة
سـلام عليكم من وجـوه تكشـفت	على جـملة الأعـلاج من بعـده سـترة
سـلام عليكم من بنات عـوائق	يسـوقـهـم اللبـاط قـهـراً لخلوة
سـلام عليكم من عـجـائز أكـرهت	على أكـل خنزير ولحم جـيـفـة

بعد ذلك الوصف، أخذت القصيدة تعالج شكلا آخر، إذ أخذت توضح شعور المسلمين نحو الدولة العثمانية وتقدم الشكوى للسلطان قائلة:

نقـبـل نحـن الكـل أرض بسـاطكم	ونـدعـو لكم بالخـيـر فى كل سـاعـة
أدام الإلـه مـلككـم وحـيـاتـكم	وعـافـاكـم من كل سـوءٍ ومـحـنة

وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا وأسكنكم دار الرضا والكرامة

شكونا لكم مولاى ما قد أصابنا من الضر والبلوى وعظم الرزية

ثم تعود القصيدة فى شرح المأساة، وتغيير الدين، وما إلى ذلك، فاستطردت بقولها:

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبى محمد نُقاتل عمال الصليب بنية

ونلقى أموراً فى الجهاد عظيمة بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم بجد وعزم من خيول وعدة

فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد فى كل ساعة وفرسانا فى حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

وجاءوا بأنفاظ عظام كثيرة تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها الحصار بقوة شهوراً وأياماً بجد وعزمة

فلما تفانت خيلنا ورجالنا ولم نر من إخواننا من إغاثة

وقلت لنا الأقوات اشتد حالنا أحطناهم بالكره خوف الفضيحة

وخوفاً على أبنائنا وبناتنا من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة

على أن نكون مثل من كان قبلنا من الدجن من أهل البلاد القديمة

ثم تحدثت القصيدة عن الخيار فى مثل هذه الحالة، فإما القبول بالوضع السابق أو الارتحال، إذ استطردت قائلة:

ونبقى على أذاننا وصلاتنا ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة

ومن شاء منا الجر جاز مؤمناً بما شاء من مال إلى أرض عدوة

إلى غير ذلك من شروط كثيرة تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة

فقال لنا سلطانهم وكبيرهم … لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
فكونوا على أموالكم ودياركم … كما كنتم من قبل دون أذية

إلا أن المالكين الكاثوليكيين لم يفيا بتلك المواثيق إذ بدأ غدرهما على المسلمين فقال:

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم … بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها … ونظرنا كرهًا بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف … وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا … ففي النار ألقوه بهزءة وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابًا لمسلم … ولا مصحفا يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى يعلم حاله … ففي النار يلقوه كل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم … يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله … ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا … بأكل وشرب مرة بعد مرة

وهكذا مضت المسيحية في هتك الإسلام، وذل المسلمين، فمن تدخل في عبادة المسلم إلى شتم الإسلام فقالت القصيدة في ذلك:

وقد أمرونا أن نسب نبينا … ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قومًا يغنون باسمه … فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم … بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي … يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في زبل طريحًا مجدلاً … كمثل حمار ميت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة … قباح وأفعال غزار ردية(١)

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص ١٣٠.

بعد ذلك أخذ الملوك الكاثوليك فى إذابة المجتمع المسلم وذلك بتغيير الهوية الإسلامية إذ قالت القصيدة:

وقد بُدلت أسماؤنا وتحولت ... بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد ... بدين كلاب الروم شر البرية
وآها على أسمائنا حين بُدلت ... بأسماء أعلاج من أهل القيادة
وآها على أبنائنا وبناتنا ... يروحون للباط فى كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية ... ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآها على تلك المساجد سورت ... مزابل للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت ... نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها ... لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلاً ... وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى ... ولا مسلمين منطقهم بالشهادة

ثم تتوجه القصيدة باستجداء السلطان لإنجادهم، وإنقاذهم من تلك المحنة فتقول:

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وثوب المذلة
سألناك يا مولاى بالله ربنا ... وبالمصطفى المختار خير البرية
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا ... لعل إله العرش يأتى برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ ... وما قلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم ... ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة
فبالله يا مولاى منوا بفضلكم ... علينا برأى أو كلام بحجة
فأنتم أولو الأفضال والمجد والعلا ... وغوث عباد الله فى كل آفة

كما طلب المسلمون أن يتوسط السلطان با يزيد الثانى لدى البابا فى روما وذلك لما للسلطان من ثقل سياسى فى أوروبا فقال:

فسل بابهم أعنى المقيم برومة ... بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة

وما لهم مالوا علينا بغدرهم ... بغير أذىً منا وغير جريمة

وجنسهم المقلوب فى حفظ ديننا ... وأحسن ملوك ذى وفاء أجلة

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ... ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة

ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده ... فذاك حرام الفعل فى كل ملة

ولاسيما عند الملوك فإنه ... قبيح شنيع لا يجوز بوجهة

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعلموا منه جميعًا بكلمة

وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقدامًا بكل مساءة

ويشير المسلمون أن توسط ملوك مصر لدى المسيحيين لم تجد شيئًا، بل زادوا تعنتا فقالوا:

وقد بلغت أرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر ولا هتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ... ووالله ما نرضى بتلك الشهادة

لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أكبر فرية

ولكن خوف القتل والحرق روننا ... نقول كما قالوه من غير نية

ودين رسول ما زال عندنا ... وتوحيدنا لله فى كل لحظة

بعد ذلك أوضح المسلمون للسلطان با يزيد أنه مع كل ذلك فإنهم متمسكون بالدين الإسلامى ويؤكدون ذلك بقولهم:

ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ... ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة

وإن زعموا أنا رضينا بدينهم ... بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا ... أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة

وسل بلفيقًا عن قضية أمرها لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة

وضيافة بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضًا بأهل البشرة

وأندرش بالنار أحرق أهلها بجامعهم صاروا جميعًا كفحمة

ويكرر المسلمون ويجددون الاستغاثة بالدولة العثمانية بعد تقديم هذه الشكوى:

فها نحن يا مولانا نشكو إليكم فهذا الذى نلناه من شر فرقة

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

وإلا فيجلونا جميعًا عن أرضهم بأموالنا للغرب دار الأحبة

فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر فى عز على غير ملة

فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة

ومن عندكم نرجو زوال كروبنا وما نالنا من سوء حال وذلة

فأنتم بحمد الله خير ملوكنا وعزتكم تعلو على كل عزة

فنسأل مولانا دوام حياتكم بملك وعز فى سرور ونعمة

وتهدين أوطان ونصر على العدا وكثرة أجناد ومال وثروة

وثم سلام الله قلته ورحمة عليكم مدى الأيام فى كل ساعة(١)

كانت هذه هى رسالة الاستنصار التى بعث بها المسلمون فى الأندلس، لإنقاذ الموقف هناك، وكان السلطان با يزيد يعانى من العوائق التى تمنعه من إرسال المجاهدين، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية فى روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب فى ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبى الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثانى وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا، وما أسفر عنه هذا التحالف(٢) من توجيه القوة العثمانية

(١) رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء أهل الكفر على جميعها إلى السلطان با يزيد . المكتبة الوطنية بالجزائر برقم ١٦٢٠ . وانظر: أخبار عياض (١/١٠٩ إلى ١١٥). نقلا عن جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/٩٠٣).

لتلك المناطق، ومع ذلك قام السلطان با يزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكى الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقا بموجبه يرسل السلطان با يزيد أسطولا على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة أسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكى حملات أخرى من ناحية أفريقيا[١] وبالفعل أرسل السلطان با يزيد أسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذى أدخل الفزع والخوف والرعب فى الأساطيل النصرانية فى أواخر القرن الخامس عشر[٢]، كما شجع السلطان با يزيد المجاهدين فى البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكانوا المجاهدون العثمانيون قد بدأوا فى التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين، وفى نفس الوقت كانا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من النصارى، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثمانى، ودخلوا فى خدمته. بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة فى غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين[٣] وهذا الذى كان فى وسع السلطان با يزيد الثانى فعله.

لا شك أن تصرفات جم المشينة كانت سببًا أعاق حركة التوسع الإقليمى وعرقلت السلطان با يزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصبًا على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكل الوسائل[٤].

وعلى العموم، فقد استطاع با يزيد أن يحرز نصرًا بحريًا على البنادقة فى خليج لبانتو ببلاد اليونان عام ١٤٩٩م/ ٩٠٥هـ وفى العام التالى استولى على مدينة لبانتو وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة فى اليونان، أقام البابا(إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة – حلفًا ضد العثمانيين مكونًا من فرنسا وأسبانيا. وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسى والإسبانى والبابوى واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحًا مع البنادقة[٥].

وكان با يزيد ميالاً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين

---

(١) انظر: علاقات بين الشرق والغرب، عبد القادر أحمد، ص ٢٥٦.

(٢) انظر: خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان، ص ٢١٣.

(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٧٤.

(٤) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، ص ٥٢.

(٥) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٥٢

البابوية وفلورنسا ونابلى وفرنسا وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر.

اهتم با يزيد بإنشاء المبانى العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتى ومن فى رتبته من العلماء فى زمنه كل عام عشرة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرسى المدارس السلطانية ما بين سبعة آلاف وألفى عثمانى، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر رتبته، وصار ذلك أمراً جاريًا ومستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة(١).

وحدثت فى زمانه زلازل عظيمة فى القسطنطينية فأخربت ألفا وسبعين بيتا ومئة وتسعة جوامع، وجانباً عظيماً من القصور وأسوار المدينة، وعطلت مجارى المياه، وصعد البحر إلى البر، فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، ولبثت تلك الزلزلة تحدث يوميًا مدة ٤٥ يومًا، وما أن سكنت الأمور كلف السلطان ١٥ ألفًا من العمال بإصلاح ما تهدم(٢).

عاش سبعًا وستين عامًا، وكان قوى البنية، أحدب الأنف، أسود الشعر، رقيق الطبع، محبًا للعلوم، مواظبًا للدرس، وشاعراً أديبًا، ورعًا تقيا، يقضى العشرة الأخيرة من شهر رمضان فى العبادة والذكر والطاعة، وكان بارعًا فى رمى السهام، ويباشر الحروب بنفسه(٣) وكان يجمع فى كل منزل حلّ من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه، ولما دنا أجل موته، أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر أن توضع معه فى القبر تحت خده الأيمن، ففعل ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله ﷺ :«**من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرم الله عليه النار**». وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياما (٤).

كان السلطان با يزيد الثانى عالما فى العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالمًا فى الفلك، مهتماً بالأدب مكرمًا للشعراء والعلماء، وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالمًا، كما كان هو نفسه شاعراً يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله وقدرته وكانت له أشعار فى الحكمة توصى بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر فى جمال الطبيعة التى أبدعها الله وفى ذلك يقول:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٣.

(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٦٦.

(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٦٦.

(٤) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى، ص ٣٦.

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزينة فى الأشجار

انظر إلى قدرة الله الحق.. انظر إلى رونق الأزهار

وافتح عينيك لتشاهد حياة الأرض بعد الممات (١)

فى ١٨ صفر ٩١٨ هـ الموافق ٢٥ أبريل ١٥١٢م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢- ١٥١٩م) وذلك بدعم من الجيش، الذى كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى فى بعث النشاط الحربى للدولة العثمانية بصورة أوسع، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتولية ابنه سليم مكانه(٢).

وتوفى السلطان با يزيد الثانى وهو ذاهب إلى ديمتوقة (٣) فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن بجوار جامعه الشريف(٤).

*****

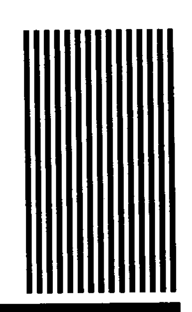
---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٤٩.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص ٥٨.

(٣) ديمتوقة = ديموتيقا.

(٤) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٦٦.



المبحث الثانى

السلطان سليم الأول

(٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م)

تربع السلطان سليم الأول على العرش العثمانى فى عام ٩١٨هـ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا من إخوته وأبنائهم، وكان يحب الأدب والشعر الفارسى والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التى تحكى أمجاد الماضى(١).

عندما ارتقى السلطان سليم الأول العرش العثمانى، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو تستمر فى التوسع الإقليمى فى أوروبا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامى؟

والواقع أن السلطان سليم الأول قد أحدث تغييراً جذرياً فى سياسة الدولة العثمانية الجهادية، فقد توقف فى عهد الزحف العثمانى نحو الغرب الأوروبى أو كاد أن يتوقف، واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامى وقد ذكر بعض المؤرخين الأسباب التى أدت إلى تغير السياسة العثمانية منها:

١- التشبع العسكرى العثمانى فى أوروبا، إذ يرى أصحاب هذا الرأى أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع فى فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها فى أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع وهذا الرأى يخالفه الصواب لأن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً من الجبهة الغربية، ولكن لا ريب فى أن مركز الثقل فى التوسع العثمانى قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشرق (٢) ليس بسبب التشبع كما تقول بعض المصادر غير المدركة للواقع.

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٧٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٢٦.

٢- كان تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامى بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبى الجديد من جانب الأسبان فى البحر المتوسط والبرتغاليين فى المحيط الهندى وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامى، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه(١).

٣- سياسة الدولة الصفوية فى إيران والمتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعى فى العراق وآسيا الصغرى، هى التى دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى المشرق العربى لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنى بصفة عامة(٢).

إن سياسة الدولة العثمانية فى زمن السلطان سليم سارت على هذه الأسس ألا وهى القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضم الدولة المملوكية، وحماية الأراضى المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحرى فى الشمال الأفريقى للقضاء على الأسبان ومواصلة الدولة جهادها فى شرق أوروبا.

أولاً: محاربة الدولة الصفوية الشيعية:

يعد نسب الصفويين إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلى ٦٥٠ - ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢ - ١٣٣٤م الجد الأكبر للشاه إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية.

وقد ألتف حول الشيخ صفى الدين الأردبيلى عدد كبير من الأتباع المريدين نتيجة للدعوة القوية أو الدعاية المؤثرة التى قام بها هو وأتباعه من المتصوفة والدراويش الذين استطاعوا نشر دعوتهم لا فى إيران وحدها وإنما فى بعض أقاليم الدولة العثمانية وفى العراق وبلاد الشام(٣).

استطاع الشيخ صفى الدين عن طريق إحدى الفرق التى تزعمها أن يشق طريقه فى المجتمع الإيرانى، كما استطاع أن يكسب تأييد ومساندة الكثيرين من الإيرانيين مما أدى إلى تحول هذه الفرقة إلى الدعوة للمذهب الشيعى حيث أشيع أن الشيخ صفى الدين وأولاده ينتمون إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، ومن ثم لهم الحق فى المطالبة بالحكم. وكان صفى الدين قد لجأ إلى التقية إذا كان مظهره يوحى بأنه سنى الاتجاه بل إنه من أتباع المذهب الشافعى ولما تمهدت السبل أمام هذه الدعوة الشيعية أعلن أحد أحفاده الشاه إسماعيل

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٦

(٢) انظر: الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، د. محمد نصر. ص٢٤٠.

(٣) انظر: الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، ص ٢٤٠.

الدعوة الشيعية، بل إن السلطان حيدر أكد صلة نسبه بالإمام موسى الكاظم ومن ثم أصبحت الدولة الصفوية فى إيران تعد نفسها من آل بيت رسول الله ﷺ(١).

صمم إسماعيل الصفوى على فرض المذهب الشيعى على شعبه وأعلنه مذهباً رسميا للدولة فى إيران، وقضى بالقوة المسلحة على معارضيه واستطاع الصفويون أن يجمعوا حولهم أعداداً غفيرة من الأتباع والمريدين، وتكاتفت الدعاية الشيعية القوية سواء فى بقايا (العبيديين) الفاطميين فى مصر أو الإسماعيلية أو الأسرة الصفوية نفسها فى إعلان المذهب الشيعى فى إيران لتتحول كلها من بعد ذلك من المذهب السنى إلى مذهب الدولة الجديدة وهو المذهب الشيعى.

وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة أن كثيرين من سكان المدن الرئيسية فى إيران مثل تبريز كانوا من السنة، بل إن علماء الشيعة أنفسهم كانوا يخشون على المذهب من رفض السنة له وإعلان عصيانهم على الحاكم الصفوى شيعى المذهب.

بذل الشاه إسماعيل الصفوى جهوداً ضخمة فى فرض المذهب الشيعى فى إيران، فعلى الرغم من التهيئة الروحية للدعوة الشيعية بين سكان إيران الذين كانوا فى غالبيتهم من السنة فقد رأى إسماعيل الصفوى أن يواجه هذا الموقف بتجنيد العناصر الشيعية للغرض هذا ووجد منها تأييداً ومناصرة واستغل حميتهم لمناصرتهم فدفعهم لضرب معارضيه والتأكيد لمذهبه فى إيران.

لجأ الشيخ إسماعيل الصفوى إلى سياسة ماهرة فى تأكيد دعوته السياسية، والمذهبية فاعتمد على قبائل الترلباش التركية الأصل لتكون نواة لقوته العسكرية، ذلك أن المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت كان يتكون من عناصر مختلفة نتيجة لموجات الغزو المتعاقبة على البلاد مما كان يصعب معه صهر كل هذه العناصر فى بوتقة واحدة. لقد استطاع إسماعيل الصفوى بهذه السياسة أن يجند الطاقة المذهبية عند هذه العناصر لتكون المحور الذى تلتف حوله وتذوب فيها الفوارق العرقية وتحل محلها وحدة مذهبية يمكن له أن يقيم عليها الكيان السياسى الجديد(٢).

لقد كان إسماعيل الصفوى شرساً فى حروبه شديد الفتك بمعارضيه وخصوصاً إن كانوا من أهل السنة (.. افتتح ممالك العجم جميعا وكان يقتل من ظفر به وما نهبه من الأموال

---

(١) انظر: الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، د. محمد نصر. ص٢٤٠.

(٢) انظر: الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، د. محمد نصر. ص٢٤٢، ٢٤٣.

قسّمه بين أصحابه ولا يأخذ منه شيئاً ومن جملة ما ملك تبريز وإذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب خراسان وكاد أن يدعى الربوبية وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره.
قال قطب الدين الحنفى فى الأعلام: إنه قتل زيادة على ألف ألف نفس، بحيث لا يُعهد فى الجاهلية ولا فى الإسلام ولا فى الأمم السابقة من قبل فى قتل النفوس ما قتله شاه إسماعيل وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق من أهل العلم أحد من بلاد العجم وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم وكان شديد الرفض بخلاف آبائه ومن جملة تعظيم أصحابه له أنه سقط مرة منديل من يده إلى البحر وكان على جبل شاهق مشرف على ذلك البحر فرمى بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفس تحطموا وتكسروا وغرقوا وكانوا يعتقدون فيه الألوهية. ذكر ذلك القطب المذكور ولم تنهزم له راية حتى حاربه السلطان سليم المتقدم ذكره فهزمه..)(١).

لقد تزعم الشاه إسماعيل المذهب الشيعى وحرص على نشره ووصلت دعوته إلى الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، وكانت الأفكار والعقائد التى تنشر فى تلك الأقاليم يرفضها المجتمع العثمانى السنى، حيث كان من عقائدهم الفاسدة: تكفير الصحابة، لعن العصر الأول، تحريف القرآن الكريم، وغير ذلك من الأفكار والعقائد. فكان من الطبيعى أن يتصدى لتلك الذعوة السلطان سليم زعيم الدولة السنية، فأعلن فى اجتماع لكبار رجال الدولة والقضاة ورجال السياسة وهيئة العلماء فى عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م أن إيران بحكوماتها الشيعية ومذهبها الشيعى يمثلان خطراً جسيما لا على الدولة العثمانية وحدها بل على العالم الإسلامى كله وأنه لهذا يرى الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية وكان رأى السلطان سليم هو رأى علماء أهل السنة فى الدولة، لقد قام الشاه إسماعيل عندما دخل العراق بذبح المسلمين السنيين على نطاق واسع ودمر مساجدهم ومقابرهم وازداد الخطر الشيعى ضراوة فى السنوات الأخيرة من عهد السلطان بايزيد وعندما تولى السلطان سليم السلطنة قامت أجهزة الدولة العثمانية الأمنية بحصر الشيعة التابعين للشاه إسماعيل والمناوئين للدولة العثمانية ثم قام بتصفية أتباع الشاه إسماعيل، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من انصار الشاه إسماعيل فى الأناضول ثم قام بمهاجمة إسماعيل نفسه، فتداولت الرسائل الخشنة بينهما حسب المعتاد، وكتب السلطان سليم رسالة إلى إسماعيل الصفوى قال فيها: (... إن علماءنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا إسماعيل، بصفتك مرتداً، وأوجبوا على كل مسلم حقيقى أن يدافع عن دينه، وأن يحطم الهراطقة فى شخصك، أنت وأتباعك

(١) البدر الطالع (١/ ٢٧١).

البلهاء، ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم فإننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الأقاليم التى اغتصبتها منا اغتصاباً، ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك...)(١).

وكان رد إسماعيل الصفوى على هذا الخطاب أن بعث للسلطان العثمانى هدية من الأفيون قائلاً: إنه اعتقد أن هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر(٢).

كذلك جاء فى خطاب آخر مشابه: (... أنا زعيم وسلطان آل عثمان، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الإسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الأصنام ومبيد أعداء الإسلام، أنا خوف الظالمين وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذى تذلُّ أمامه الملوك المتصفون بالكبر والجبروت، وتتحكم لدى قوتى صوالج العزة والعظموت، أنا الملك الهمام السلطان سليم خان بن السلطان الأعظم مراد خان، أتنازل بتوجيه إليك أيها الأمير إسماعيل، يا زعيم الجنود الفارسية.. ولما كنت مسلماً من خاصة المسلمين وسلطاناً لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين.. وإذ قد أفتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجوب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا أن ننشط لحربك وتخليص الناس من شرّك(٣).

أعد السلطان سليم الأول لمعركة فاصلة مع الدولة الصفوية حيث وصل إلى استانبول وبدأ فى التحرك مع استانبول تجاه الأراضى الإيرانية وبعد أن غادر اسكوتراى أرسل يهدد الشاه إسماعيل الصفوى فى رسالة يقول فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم قال الله الملك العلام إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، اللهم اجعلنا من الهادين غير المضلين ولا الضالين وصلى الله على سيد العالمين محمد المصطفى النبى وصحبه أجمعين..)(٤).

وفى نفس الوقت أرسل السلطان سليمان الأول إلى أحد أفراد أسرة آق قويونلو وهو محمد بن فرج شاه بيك يحثه على الاشتراك معه فى قتال إسماعيل الصفوى، وبدأت حرب

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص٤٣٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٣٥.

(٣) فتح العثمانيين عدن، محمد عبداللطيف البحراوى، ص١١٣.

(٤) انظر: الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، ص٢٤٦.

الاستطلاع بين المعسكرين المتحاربين، إلا أن سليم الأول قد بدأ التحرك نحو الدخول فى القتال حيث عسكر فى صحراء ياس جمن على مقربة من أذربيجان، ووصلت الأنباء التى أتت بها عيون ياس جمن تقول إن الشاه إسماعيل الصفوى لا ينوى القتال وأنه يؤخره إلى أن يحل فصل الشتاء حتى يهلك العثمانيون برداً وجوعاً(١).

وبدأ سليم الأول يسرع فى تحريك الصراع بينه وبين الشاه إسماعيل فأرسل إليه للمرة الثانية وأرسل مع رسالته خرقة ومسبحة وكشكولاً وعصا رمز فوق الدراويش وهو بهذا يقصد إلى أن يذكره بأصله، وبأهل الأسرة الصفوية التى لا تستطيع الصمود فى الحرب، ومع ذلك فقد رد الشاه إسماعيل بطلب المهادنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين، ولم يقبل سليم الأول هذا من شاه الصفويين، وأهان رسوله وأمر بقتل رسول الشاه الصفوى وقد أدرك سليم الأول أن خطة أعدائه تتلخص فى المهادنة والتباطؤ لتأجيل موعد اللقاء حتى يحين فصل الشتاء، واستمر السلطان سليم فى تحركه ووصلته الأخبار أن إسماعيل الصفوى قد بدأ الاستعداد للقتال والحرب بل إنه على وشك الوصول إلى صحراء جالديران، فبدأ سليم الأول المسير نحوها فوصلها فى أغسطس عام ١٥١٤م، واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الأماكن الهضبية فيها مما مكنه من إيقاع الهزيمة بإسماعيل الصفوى وجنوده وكانت هزيمة ساحقة حلت بالجيش الصفوى الشيعى على أرضه(٢).

واضطر إسماعيل إلى الفرار فى نفس الوقت الذى كان سليم الأول يستعد فيه للدخول إلى تبريز عاصمة الصفويين.

ودخل سليم الأول تبريز وحصر أموال الشاه الصفوى ورجال القلزباس واتخذها مركزاً لعملياته الحربية(٣).

لم ينته الصراع بين السنة فى الدولة العثمانية والشيعة فى إيران بانتهاء معركة جالديران وإنما ازداد العداء حدة وازداد الصراع ضراوة وظل الطرفان يتربص كل منهما بالآخر.

لقد انتصر السلطان سليم بفضل الله تعالى وعقيدته السليمة ومنهجه الصافى، وأسلحته المتطورة وجيشه العقدى المتدرب، وعاد إلى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر، ومرغش وإبلسين وبقى أملاك دلفاود، وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٦.

(٢) انظر: الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٧.

الشرق، وصارت الطرق إلى أذربيجان والقوقاز مفتوحة للعثمانيين[١].

وما أن هزمت فارس فى موقعة جالديران السابقة أمام السلطان سليم حتى كان الفرس أنفسهم أكثر استعداداً وتقبلاً من قبل للتحالف مع البرتغاليين، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز، عندها وصل سفير من لدى شاه إسماعيل وتم الدخول فى اتفاقية محدودة ما بين البرتغاليين والصفويين نصت على ما يلى: أن يقدم البرتغال أسطوله ليساعد الفرس فى غزو البحرين والقطيف كما يقدم البرتغال المساعدة للشاه إسماعيل لقمع الثورة فى مكران وبلوجستان وأن يكوّن الشعبان البرتغالى والفارسى اتحاداً ضد العثمانيين، إلا أن وفاة البوكرك التى أتت بعد ذلك قد أعاقت ذلك التحالف[٢].

لقد أظهر البرتغاليون تودداً للشاه إسماعيل قبل معركة جالديران وكانوا يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم فى إيجاد مراكز لهم فى الخليج العربى، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية فى الخليج قد يؤدى إلى فشل البرتغاليين فى تحقيق أهدافهم ولاسيما أن مشروعاتهم فى إيجاد مراكز نفوذ فى البحر الأحمر منيت بالفشل إلى حد كبير[٣].

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الفرس فى رسالة أرسلها «البوكرك» إلى الشاه «إسماعيل الصفوى» جاء فيها:

(إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام جدة أو فى عدن أو فى البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له كل ما يريد)[٤].

لقد أدت هزيمة الشاه إسماعيل أمام العثمانيين إلى حرصه الشديد للتحالف مع النصارى وأعداء الدولة العثمانية ولذلك تحالف مع البرتغاليين وأقرّ استيلاءهم على هرمز فى

(١) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص٤٣٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٣٧.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص٦٣

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٦٣.

مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف إلى جانب تعهدهم بمساندتهم ضد القوات العثمانية وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالى الصفوى تقسيم المشرق العربى إلى مناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين[١].

يقول الدكتور عبدالعزيز سليمان نواز: (... إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التى أصبحت القوة الكبرى التى تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط وكان مستعداً لأن يتحالف حتى مع البرتغاليون أشد القوى خطراً على العالم الإسلامى حينذاك، وهكذا بينما كان البرتغاليين يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم فى المياه الإسلامية، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم.

ومع أن ملك هرمز - الجزيرة الصغيرة التى أضيرت بشدة فى اقتصادياتها التجارية بمجىء البرتغاليين المريع، إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين فى مقدمة أية تسوية أو تحالف مع البرتغاليين، فلا غرو أن وافق على أن تظل هرمز تحت السيطرة البرتغالية فى مقابل حصوله على الإحساء ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه. وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالى على الخليج..)[٢].

اكتفى السلطان العثمانى بانتصاره فى جالديران واضطر إلى الرجوع إلى بلاده وترك مطاردة الشاه إسماعيل لعدة أسباب:

١ - حدوث نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثمانى على متابعة الحرب فى فارس بعد أن حقق السلطان هدفه وأضعف شوكة إسماعيل الصفوى.

٢ - خوف السلطان سليم من أن يقع جيشه فى كمائن للصفويين إذا توغل فى بلادهم.

٣ - رأى أن يهتم بالقضاء على المماليك لأن جهاز أمن الدولة العثمانية ضبط رسائل بين المماليك والصفويين تدل على وجود تعاون ضد الدولة العثمانية[٣].

*** وكانت نتيجة الصراع بين العثمانيين والصفويين:**

١- ضم شمالى العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٦٤.

(٢) الشعوب الإسلامية، ص٢٢٦.

(٣) الشعوب الإسلامية ص٢٢٥.

٢- أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية.

٣- سيطرة المذهب السنى فى آسيا الصغرى بعد أن قضى على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوى ثم هزيمة الشيعة فى جالديران وهذا أشعر الدولة بمسئوليتها تجاه العالم الإسلامى، وبخاصة بعد أن أعلن نفسه حامياً للمسلمين(١).

٤- شعور الدولة العثمانية بضرورة القضاء على القوة الثانية ألا وهى دولة المماليك(٢).

٥- أثر الصدام المسلح بين الدولة العثمانية والصفويين على قيمة إيرادات جمارك الدولة العثمانية من الطرق القديمة فى الأناضول. لقد هبطت الإيرادات بعد سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م نتيجة الحروب القائمة بين الصفويين والعثمانيين، إذ أقفلت معظم الطرق التجارية القديمة، كما سادها الأخطار، وصار التبادل التجارى بين الأقاليم الإيرانية والعثمانية محدوداً، إذ انخفض إيراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسى(٣).

٦- استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب(٤).

٧- دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر فى زحفها على أوروبا(٥).

ثانياً: ضم دولة المماليك:

بعد أن تغلب السلطان سليم الأول على الصفويين فى شمال وغربى إيران بدأ السلطان العثمانى يستعد للقضاء على دولة المماليك ولقد ساهمت عدة أسباب فى توجه العثمانيين لضم الشام ومصر منها:

١- موقف المماليك العدائى من الدولة العثمانية حيث قام السلطان قانصوه الغورى (٩٠٧ - ٩٢٢ هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م) سلطان الدولة المملوكية بالوقوف مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم وكان فى مقدمتهم الأمير أحمد أخو

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٥٦، ٥٧.

(٢) انظر: تاريخ العرب مجموعة من العلماء، ص ٣.

(٣) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٤٣٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣٨.

(٥) انظر: القوة العثمانية بين البر والبحر، د. نبيل رضوان، ص ١١١.

السلطان سليم، وأرادت السلطات المملوكية أن تتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديها أداة لإثارة مزيد من المتاعب فى وجه السلطان سليم، كما كان الموقف السلبى للدولة المملوكية فى وقوفها المعنوى مع الشاه إسماعيل الصفوى فهى لم تلتزم الحياد التام بين العثمانيين والصفويين، وهى لم تتخذ موقفًا عدائيًا صريحًا من السلطان سليم.

٢- الخلاف على الحدود بين الدولتين فى طرسوس فى المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى وبين شمالى الشام. فقد تناثرت فى هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت فى ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك. وكان هذا التأرجح مبعث اضطراب فى العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر. وأراد السلطان سليم الأول بادئ ذى بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسيطرة التامة على منطقتها وسكانها.

٣- تفشى ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر فى التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلى الدولة العثمانية، فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأى مع الشعب، وتباحثوا فى حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثمانى سليم الأول ويقولون إن الشعب السورى ضاق «بالظلم» المملوكى وإن حكام المماليك «يخالفون الشرع الشريف»، وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه إلى عينتاب – البعيدة عن حلب- ولن يكتفوا بالترحيب به فى بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سراً ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس[1].

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب أن هذه الوثيقة موجودة فى الأرشيف العثمانى فى متحف طوب كابى فى استانبول، رقم ١١٦٣٤ (٢٦) وبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية إلى العربية كما يلى :(يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالى، ببدون استثناء طاعتهم وولاءهم – طواعية – لمولانا السلطان – عز نصره – وبإذنهم جميعًا، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، ص ١٧٠.

أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرد أن تضع أقدامكم فى أرض عينتاب، خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسى، احمنا أيضا من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، إن الشريعة الإسلامية، لا تأخذ مجراها هنا، وهى معطلة، إن المماليك إذا أعجبهم أى شىء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشىء مالا أو نساءً أو عيالا، فالرحمة لا تأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلا من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا، (ونريد) قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزير من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة، مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعيالنا، أرسلوا لنا رجلاً حائزاً على ثقتكم يأتى سراً ويلتقى بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين)(١).

أما علماء وفقهاء مصر فقد ذكر عبد الله بن رضوان فى كتابه: تاريخ مصر (مخطوط رقم ٤٩٧١) بمكتبة با يزيد فى استانبول، إن علماء مصر (وهم نفس الشعب المصرى وممثلوه) يلتقون سراً بكل سفير عثمانى يأتى إلى مصر، ويقصون عليه (شكواهم الشريف) و(يستنهضون عدالة السلطان العثمانى لكى يأتى ويأخذ مصر).

لقد كان علماء مصر يراسلون السلطان سليم الأول لكى يقدم إلى مصر على رأس جيشه، ليستولى عليها، ويطرد منها الجراكسة (المماليك)(٢).

٤- رأى علماء الدولة العثمانية أن ضم مصر والشام يفيد الأمة فى تحقيق أهدافها الاستراتيجية، فإن الخطر البرتغالى على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الإسلامية وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التى دعت السلطان العثمانى لأن يتوجه نحو الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض فى البداية، ثم تحمل العبء الكامل فى مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكى(٣).

ونستدل على ذلك بما قاله السطان سليم الأول العثمانى لطومان باى آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه فى معركة الريدانية (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ١٧٠، ١٧١.

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ١٦٩.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ٧٠.

والأمصار، وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة (ويعنى الصفويين) والفجار (ويعنى بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا)، فلما بغى أميركم الغورى وجاء بالعساكر إلى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى إلى مملكتى التى هى مورث آبائى وأجدادى، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه)[١].

(أ) وقوع الصدام:

بعد التطورات التى حدثت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية كان على السلطان المملوكى قانصوه الغورى أن يتخذ أحد المواقف تجاه الحدث إما:

١- أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين.

٢- أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين.

٣- أن يقف على الحياد بين الطرفين.

وفضل الغورى أن يقف على الحياد فى ظاهره إلا أن المخابرات العثمانية عثرت على خطاب تحالف سرى يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والفرس، والخطاب محفوظ فى أرشيف متحف طوب قابو فى استانبول.

وكان السلطان سليم يريد الكرة على الشيعة الصفوية فى بلاد فارس ومع توتر الأحداث رأى السلطان سليم تأمين ظهره وذلك بضم الدولة المملوكية إلى أملاكه.

والتقى الجمعان على مشارف حلب فى مرج دابق عام ١٥١٧م وانتصر العثمانيون وقُتِل الغورى سلطان المماليك وأكرم العثمانيون الغورى بعد مماته وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه فى مشارف حلب. ودخل سليم حلب ثم دمشق ودعى له فى الجوامع وسكت النقود باسمه سلطانا وخليفة[٢]. ومن الشام أرسل السلطان سليم إلى زعيم المماليك فى مصر طومان باى أن يلتزم بالطاعة للدولة العثمانية وكان رد المماليك السخرية برسول السلطان ثم قتله.

وقرر السلطان سليم الحرب وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين قاصداً مصر ونزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثمانى قطع الصحراء الناعمة الرمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يَسهل اجتيازها.

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ٧١.

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٩.

يروى المؤرخ سلاحثور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب - وكان مصاحبًا لسليم - أن سليم الأول كان يبكى فى مسجد الصخرة بالقدس بكاءً حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر[1].

وحقق العثمانيون انتصاراً ساحقًا على المماليك فى معركة غزة ثم معركة الريدانية.

وتعود الأسباب التى أدت إلى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم إلى:

١- التفوق العسكرى لدى العثمانيين: فسلاح المدفعية المملوكى كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرك، فى حين كان سلاح المدفعية العثمانى يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها فى كل الاتجاهات.

٢- سلامة الخطط العسكرية العثمانية: فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة فى سرعة اضطروا إليها ومحاربتهم فى أرض يسيطر عليها عدوهم ومباغتتهم للمماليك، كل ذلك كان مما يدخل فى عوامل النصر، ومن سلامة التخطيط أيضًا استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة - إذا أريد تحريكها - ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالى الاضطراب فى صفوف الجيش المملوكى لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

٣- معنويات الجيش العثمانى العالية وتربيته الجهادية الرفيعة واقتناعه بأن حربه عادلة بعكس القوات المملوكية التى فقدت تلك الصفات.

٤- حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع فى جميع نواحى حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، بعكس الدولة المملوكية التى انحرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها[2].

٥- قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالانضمام لجيش السلطان سليم وكانوا مستعدين للتعاون مع الدولة العثمانية وتحمل مسئولية الحكم تحت إطار الحكم العثمانى ومن أمثال هؤلاء: فاير بك الذى أسند إليه سليم الأول حكم مصر، وجان بردى الغزالى الذى تولى حكم دمشق[3].

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٣٠.

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ٣١.

(٣) انظر: الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز نوار، ص ٩٣.

لقد تلقى المماليك الهزيمة فى سنة ١٥١٦ / ١٥١٧م وهم فى شيخوخة دولتهم وفى آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء فى الشرق الأوسط أو فى العالم، فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التى كانت تحت حكمهم للنفوذ العثمانى[١].

وقد نقل الدكتور على حسون عن الجبرتى من كتابه تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار فى المجلد الأول وصفًا لفترة حكم العثمانيين فى مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضًا منها:

(.. وعادت مصر إلى النيابة كما كانت فى صدر الإسلام ولما خلص له (أى السلطان سليم) أمر مصر، عفا عمن بقى من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم، ولما توفى تولى ابنه الغازى السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالك وأنار الحوالك، ورفع منار الدين وأخمد نيران الكافرين.. لم تزل البلاد منتظمة فى سلكهم ومنقادة تحت حكمهم.. وكانوا فى صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذبَّ عن الدين وأعظم من جاهد فى المشركين، فلذلك اتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدى نوابهم.. هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحى والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين)[٢].

(ب) مسألة انتقال الخلافة:

إن مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان ترتبط بالفتح العثمانى لمصر وقد قيل إن آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة، فالمؤرخ ابن إياس المعاصر لضم العثمانيين لمصر لم يتطرق إليها، كما أن الرسائل التى أرسلها السلطان سليم إلى ابنه سليمان لم ترد فيها أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان، كما أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الذين لا ينتسبون إلى الرسول ﷺ.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٩٢.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٣.

إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب « خليفة الله فى طول الأرض وعرضها » منذ عام ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أى قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة فى الوقت الذى كان فيه مركز الخليفة فى القاهرة لا يعتد به. كما أن فتوح سليم أكسبته قوة ونفوذاً معنوياً ومادياً وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه، وأصبح السلطان العثمانى مقصداً للمستضعفين المسلمين الذين يتطلعون إلى مساعدته بعد أن هاجم البرتغاليين الموانئ الإسلامية فى آسيا وإفريقيا. ملخص المبحث أن السلطان سليم لم يكن مهتماً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية(١).

(جـ) أسباب انهيار الدولة المملوكية:

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وساعدت فى وضع نهاية لدولة المماليك أهمها:

١- عدم تطوير المماليك أسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذى كان سائداً فى العصور الوسطى كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الأسلحة النارية وبخاصة المدفعية.

٢- كثرة الفتن والقلاقل والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم فى أحرج الأوقات.

٣- كره الرعايا للسلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة أرستقراطية مترفعة منعزلة عن الشعوب.

٤- وقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك، كما فعل والى حلب « خاير بك وجانبرد الغزالى » مما أدى إلى سرعة انهيار الدولة المملوكية.

٥- سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ٦١، ٦٢.

٦- العامل الجامع للأسباب السابقة ضعف التزام المماليك بمنهج الله ويقابله قوة تمسك العثمانيين بشرع الله[١].

(د) خضوع الحجاز للعثمانيين:

كانت الحجاز تابعة للمماليك وعندما علم شريف مكة بمقتل السلطان الغورى ونائبه طومان باى بادر شريف مكة «بركات بن محمد» إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار، فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميراً على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة[٢].

وبذلك أصبح السلطان سليم خادمًا للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الإسلامية وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافًا كثيرة على الأماكن المقدسة، وكانت إيراداتها تصب فى خزانة مستقلة بالقصر السلطانى، وقد أدى ضم الحجاز إلى العثمانيين إلى بسط السيادة العثمانية فى البحر الأحمر مما أدى إلى دفع الخطر البرتغالى عن الحجاز والبحر الأحمر واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر[٣].

(هـ) اليمـن:

بعد انهزام المماليك قدم حاكم اليمن المملوكى الجركسى (اسكندر) وفداً إلى السلطان سليم ليقدم فروض الولاء والطاعة له فوافق السلطان العثمانى على إبقائه فى منصبه وكانت اليمن تشكل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر، وفى سلامتها سلامة للأماكن المقدسة فى الحجاز وكانت السيطرة العثمانية فى بداية الأمر ضعيفة، بسبب الصراعات الداخلية بين القادة والمماليك إلى جانب نفوذ الإمامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلاً عن الخطر البرتغالى الذى كان يهدد السواحل اليمنية وهذا دفع السلطان إلى إرسال قوة بحرية إلا أنها فشلت بسبب النزاع الذى دب بين قائدها «حسين الرومى» متصرف جدة و«الريس سلمان» أحد قادة البحر العثمانيين[٤].

ثم أرسل السلطان سليمان حملة «سلمان باشا أرناؤطى» سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م وقد ضمت الحملة ٧٤ سفينة و٢٠,٠٠٠ شخص وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصة

---

(١) انظر: تاريخ العرب الحديث، مجموعة من العلماء، ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٠.

(٣) انظر: تاريخ العرب الحديث، ص ٤١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤١.

عدن ثم إغلاق مضيق باب المندب أمام السفن البرتغالية ودخل العثمانيون عدن عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م، وتعز عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م، وسقطت صنعاء في قبضتهم عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م وتحرك «سلمان باشا» بأسطوله ليستولى على بعض الموانئ العربية في حضرموت ومنها «الشحر، والمكلا» واجتاح ساحل الحبشة، وسواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الأحمر ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م.

وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني (١٥٣٨ - ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركة المقاومة التي تواجههم(١).

وقد ظلت اليمن في فترة هيمنة الدولة العثمانية عليها (١٥٣٨- ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يسيطروا كليًا على البلاد بسبب تمرد بعض القبائل(٢).

واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي(٣).

ثالثا: الصراع العثماني البرتغالي:

قامت دولة البرتغال في عام ١٥١٤م بتحريك حملة على المغرب الأقصى يتزعمها الأمير هنري الملاح واستطاعت تلك الحملة أن تحتل ميناء سبتة المغربي، وكان ذلك بداية لسلسلة من الأعمال العدوانية المتتالية(٤) ثم واصلت البرتغال حملاتها على الشمال الأفريقي حتى تمكنت من الاستيلاء على أصيل، والعرائش ثم طنجة في عام ١٤٧١ للميلاد(٥). وواصلت بعد ذلك أطماعها في مراكز هامة جداً مثل ميناء «أسفي وأغادير، وأزمورة، وماسة»(٦).

وأما عن توجه البرتغال إلى المحيط الأطلسي ومحاولتهم الالتفاف حول العالم الإسلامي فقد كان العمل مدفوعًا بالدرجة الأولى بدوافع صليبية شرسة ضد المسلمين، حيث اعتبرت

---

(١) انظر: تاريخ العرب، مجموعة من الأساتذة، ص ٤١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢.
(٤) التاريخ الأوروبي الحديث في عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، د. عبد العزيز نوار، ص ٤٨.
(٥) انظر: الكشوف الجغرافية، شوقي عبد الله، ص ٩٩، ١٠٠.
(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٩٩، ١٠٠.

البرتغال أنها نصيرة المسيحية وراعيتها ضد المسلمين، حيث اعتبرت قتال المسلمين ضرورة ماسة وصارمة ورأت الإسلام هو العدو اللدود الذى لابد من قتاله فى كل مكان(١).

وكان الأمير هنرى الملاح شديد التعصب للنصرانية عظيم الحقد على المسلمين وقد تحصل هذا الأمير من البابا نيقولا الخامس حقًا فى جميع كشوفه حتى بلاد الهند، حيث قال: (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنرى أمير البرتغال، إذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التى تملك الأنفس كجندى باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله إلى أقاصى البلاد وأبعادها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة..)(٢)

وقال البوكرك فى خطابه الذى ألقاه على جنده بعد وصوله إلى «ملقا» ما نصه :(إن إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هى الوسيلة التى يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام).

وفى نفس الخطبة قال :(الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب، وذلك لأنى على يقين أننا لو انتزعنا تجارة «ملقا» هذه من أيديهم (يقصد المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرًا بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك)(٣).

وقال فى يومياته :(كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوى وأخذ رفات النبى محمد ﷺ رهينة لنساوم عليها العرب من أجل استرداد القدس(٤).

وقال ملك البرتغال عمانويل الأول معلنًا أهداف الحملات البرتغالية: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق(٥).

وهكذا يظهر للباحث المنصف أن الدافع الدينى للكشوف البرتغالية كان من أهم العوامل التى دفعت البرتغال لارتياد البحار والالتفاف حول العالم الإسلامى، فصدرت المراسيم والأوامر، ورسم الصليب والمدفع كشعار للحملات، وكان القصد من ذلك أن على المسلمين

---

(١) انظر: آسيا الوسطى الغربية، بانيكار، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) دراسات متميزة فى العلاقات بين الشرق والغرب، يوسف الثقفى، ص ٥٨.

(٣) انظر: دراسات متميزة، ص ٥٩.

(٤) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/٦٩٨).

(٥) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، د. يوسف الثقفى، ص ٣٧.

اعتناق المسيحية وإلا عليهم مواجهة المدفع.

وكان الدافع الاقتصادى فى الدرجة الثانية كعامل مؤثر فى سير الكشوف الجغرافية البرتغالية، فقد سهل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٧م بواسطة فاسكو دى جاما مهمة وصول منتجات الشرق الأقصى للأسواق الأوروبية دون الحاجة إلى مرورها عن طريق مصر، ولهذا ساعد تحويل الخط التجارى عن مناطق العبور العربية والإسلامية – ساعد – على تحقيق الهدف الدينى وذلك لما للمجال الاقتصادى من أثر فعال فى إضعاف القوة الإسلامية التى كان لها أبلغ الأثر فى زعزعة أوروبا خلال عدة قرون، فضلاً عن الركود الاقتصادى الذى مُنيت به الدولة المملوكية بسبب هذا التحول المفاجئ(١).

ومما يجدر ذكره أن البرتغاليين استعانوا فى حملاتهم باليهود الذين استخدموا كجواسيس، وقد ساعدهم فى ذلك معرفتهم باللغة العربية، وعلى سبيل المثال فقد أرسل ملك البرتغال يوحنا الثانى خادمه الخاص ومعه رفيق آخر يهودى إلى مصر والهند والحبشة وكان من نتائج رحلتهما تقديمهما تقريرا يتضمن بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندي(٢).

وذكر ابن إياس إنه فى زمن الشريف بركات أمير مكة تسلل ثلاثة أشخاص إلى مكة وكانوا يحومون حول المسجد الحرام وعليهم لباس عثمانى ويتحدثون العربية والتركية، فأمر بالقبض عليهم و بالكشف عن أجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان، وبعد التحقيق معهم ظهر أنهم جواسيس، أرسلوا للعمل كأدلاء للجيش البرتغالى الصليبى عند دخوله لمكة، وتم بعد ذلك إرسالهم إلى السلطان قانصوه الغورى(٣).

ولتحقيق الأهداف البرتغالية رأى رواد الكشوف وساستهم ضرورة التحكم فى مضيقى «هرمز» و«باب المندب» لكى يحكم أعداء الإسلام غزوهم للعالم الإسلامى من الخلف ودق عصب الاقتصاد فى المناطق العربية والإسلامية ثم بالتالى نشر المسيحية فى كل موقع يصلون إليه(٤).

ونجح البرتغاليون فى خططهم وتمكنوا من السيطرة على معابر التجارة فى الساحل الأفريقى والخليج العربى وبحر العرب، وقاموا بمنع وصول المنتجات الشرقية إلى أوروبا عن

---

(١) دراسات متميزة، ص ٦٠، ٦١.

(٢) انظر: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة للشناوى، (١/ ١٢٣).

(٣) انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور (٤/ ١٩١).

(٤) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٣٨.

طريقها، وقد ساعدهم فى تحقيق ذلك عدم وجود منافس بحرى لهم، مما سهل لهم السيطرة على المراكز الهامة بيسر وسهولة، ثم لم يتورع البرتغاليون بعد ذلك عن استخدام العنف فشهدت المناطق التى وصلوا إليها واحتلوها الكثير من المجازر وإشعال النيران والتدمير، والاعتداء على حرمات الناس ومنع المسلمين من الذهاب إلى الحج وهدم المساجد عليهم[١].

أما عن موقف المسلمين من هذا الغزو الغاشم فقد كان المماليك آنذاك فى موقف لا يحسدون عليه حيث أصابهم الوهن الاقتصادى والسياسى، وانشغل السلاطين بمشاكلهم الداخلية ومجابهة الدولة العثمانية وقمع نشاط الفرسان الإسبارتية فى شرق البحر الأبيض المتوسط[٢] ولهذا واجه السكان فى الساحل الأفريقى والخليج واليمن مصيرهم بأنفسهم، فهاجموا الحاميات البرتغالية فى كل مكان، فى شرق أفريقيا وفى مسقط والبحرين وقريات وعدن، ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى[٣].

ثم إن المماليك شعروا بالمسئولية على الرغم من المشاكل التى كانت تعيشها دولتهم، وبذلوا ما فى استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين إلى الأماكن المقدسة، فقام السلطان قانصوة الغورى بإرسال حملة بحرية مكونة من ثلاث عشرة سفينة عليها ألف وخمسمائة رجل بقيادة حسين الكردى الذى وصل إلى جزيرة « ديو » ثم « شول » والتقى مع الأسطول البرتغالى بقيادة « الونز دى الميدا » وذلك فى عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م فكان النصر حليفه[٤]، ثم إن البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة أخرى مما أدى إلى هزيمة الأسطول الإسلامى سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م فى معركة « ديو » المشهورة فى التاريخ[٥].

أما عن الدولة العثمانية فكانت فى البداية بعيدة عن ساحة المعركة ويفصل بينها وبين البرتغال دولة المماليك والدولة الصفوية ومع ذلك لبى السلطان با يزيد الثانى طلب السلطان الغورى مساعدته ضد البرتغال، فأرسل فى شهر شوال سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطارا من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة[٦]. ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها

---

(١) انظر: علاقة ساحل عمان ببريطانيا، عبد العزيز عبد الحى، ص ١٩.

(٢) انظر: دراسات فى التاريخ المصرى، أحمد سيد دراج، ص ١١٤.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٣٨.

(٤) انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور (٤ / ١٤٢).

(٥) انظر: النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى، نوال صيرفى، ص ١٠٦.

(٦) انظر: المماليك الفرنج، أحمد سيد دراج، ص ١١٥.

لقرصنة فرسان القديس يوحنا[١].

وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك إلى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة ومُنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة[٢].

وفي عهد السلطان سليمان القانوني ٩٢٧ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي.

لقد أدرك السلطان سليمان أن مسئولية الدفاع عن الأماكن المقدسة هي مسئولية الدولة العثمانية، فبادر بعقد اتفاق مع حاكمي «قاليقوط» و«كامباى» وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغال، ثم أعقب ذلك الاتفاق إصداره مرسومًا إلى سليمان باشا الخادم والي مصر هذا نصه: (عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه، بتجهيز حقيبتك وحاجتك، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كافٍ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية إلى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر)[٣].

وقام سليمان الخادم بتنفيذ أوامر السلطان العثماني، ووصل بعد سبعة أيام إلى جدة ثم اتجه إلى كمران وبعد ذلك سيطر على عدن وعيّن عليها أحد ضباطه وزودها بحامية بلغ عدد جنودها ستمائة جندي، ثم واصل سيره إلى الهند، وعند وصوله إلى ديو لم يتمكن من الاستيلاء عليها وانسحب عائداً بعد أن فقد حوالي أربعمائة من رجاله، وحاول مرة أخرى الاستيلاء على القلاع الأمامية حتى استسلمت إحداها وتم أسر ثمانين برتغاليًا، ولولا الإمدادات الجديدة للجيش البرتغالي لاستسلمت جميع القلاع، وتم طرد البرتغاليين من

---

(١) انظر: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، شوقي الجمل، ص ١٧٢.
(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٣٩.
(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٤٠.

الهند ولخضعت قلعة ديو للعثمانيين خضوعًا تامًا(١).

وهكذا تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن الممالك الإسلامية والحد من نشاطهم، وهكذا نجحت الدولة العثمانية فى تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالى المبنى على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

إن النجاح الذى حققته الدولة العثمانية فى درء الخطر البرتغالى على العالم الإسلامى يستحق كل تقدير وثناء، فدولة المماليك المتهالكة كانت على وشك الانهيار، ولم تكن على مستوى من القوة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغالى فتحملت الدولة العثمانية أعباء الدفاع عن حقوق المسلمين وممتلكاتهم، ونجحت أيما نجاح فى الحد من مطامع الغزاة ووصولهم إلى الأماكن المقدسة كما كانوا يرغبون(٢).

أما عن الدولة الصفوية فقد تخلت عن مساعدة سكان المناطق التى وصل إليها الغزو البرتغالى، فتركت مدن الخليج العربى تواجه مصيرها بنفسها، وزادت على ذلك أن سارت الدولة الصفوية فى فلك الأعداء ولبت رغباتهم خاصة أنها على عداء وخلاف مذهبى مع المماليك والدولة العثمانية، ولذلك نجد البوكيرك القائد البرتغالى يستغل هذا الموقف ويرسل فى عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م مبعوثه «روى جومير» ومعه رسالة ذكر فيها: (إنى أقدّر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام جدة أو فى عدن أو فى البحرين أو فى القطيف أو فى البصرة، وسيجدنى الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسى، وسأنفذ له كل ما يريد»(٣).

وقد صادف هذا العرض أو هذا الموقف الفترة التى كانت القوات العثمانية تتوجه فيها لمجابهة الصفويين على الحدود، حيث كانت بعد ذلك معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م التى انهزم فيها الفرس هزيمة ساحقة أمام الجيش العثمانى، مما جعلهم - أى الفرس - أكثر استعداداً للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، فكانت فرصة البرتغال التى لا تعوض لا

---

(١) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر، غسان الرمال، ص ٢٢٦.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٤٠.

(٣) التيارات السياسية فى الخليج العربى، صلاح العقاد، ص ١٧.

سيما وأنهم يدركون مدى الخطر الذى يُهددهم ويقلق أمنهم من قبل الدولة العثمانية، فاستغلوا احتلالهم لهرمز عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م وارتبطوا بعد ذلك مباشرة مع الصفويين بمعاهدة كان من أهم بنودها؛ تقديم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاة فى حملته على البحرين والقطيف مقابل اعتراف الشاة بالحماية البرتغالية على هرمز، وتوحيد القوتين فى حالة المواجهة مع الدولة العثمانية عدوهما المشترك(١).

ويظهر أن البرتغال رأوا فى تحالفهم مع الصفويين وسيلة تحقق عدم الوفاق بين الدول الإسلامية التى فيما لو اتحدت ضدها لما تمكنت من السيطرة على مقدرات الشعوب فى مناطق الخليج والبحر الأحمر وعدن وغير ذلك من الأماكن التى خضعت للسيطرة البرتغالية؛ ومن جهة أخرى فإن التحالف الصفوى البرتغالى والوضع السياسى والاقتصادى المتدهور لدى دولة المماليك، كل ذلك جعل الدولة العثمانية تتحمل المسئولية كاملة فى الدفاع عن الأماكن الإسلامية فى كل موقع حاول البرتغاليون الوصول إليه والسيطرة عليه(٢).

لقد كان من نتائج الصراع العثمانى البرتغالى:

١ - احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج.

٢ - حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر.

٣ - استمرار الطرق التجارية التى تربط الهند وأندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربى والبحر الأحمر.

٤ - استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوروبا فى أسواق حلب، والقاهرة واسطنبول، ففى سنة ١٥٥٤م اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل وفى الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدة عشرون سفينة محملة بالبضائع الهندية (توابل، أصباغ، أنسجة)(٣).

•• وفاة السلطان سليم:

فى التاسع من شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، ليلة السبت توفى السلطان سليم -رحمه الله- فأخفى موته الوزراء، وأرسلوا يعلمون ولده السلطان سليمان، فلما وصل إلى

---

(١) التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص ٩٨.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٤١.

(٣) انظر: تاريخ العرب الحديث، مجموعة من العلماء، ص ٤٥، ٤٦.

القسطنطينية أعلنوا موت السلطان سليم، وصلوا عليه فى جامع السلطان محمد، ثم حملوه ودفنوه فى محل قبره، وأمر السلطان سليمان خان ببناء جامع عظيم، وعمارة لطعام الفقراء صدقة على والده.

وكان رحمه الله عالمًا فاضلاً ذكيًا، حسن الطبع، بعيد الغور، صاحب رأى وتدبير وحزم، وكان يعرف الألسنة الثلاثة: العربية والتركية والفارسية، ونظم نظامًا بارعًا حسنًا، وكان دائم الفكر فى أحوال الرعية والمملكة، وقَهَر الملوك وأبادهم، ولما كان بمصر كتب على رخام فى حائط القصر الذى سكن فيه بخطه، فقال:

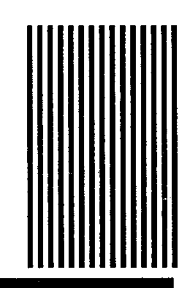
الملك لله من يظفر بنيل منى ... يردده قهرًا ويضمن بعده الدركا

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركًا

توفى رحمه الله تعالى وله من العمر أربع وخمسون سنة، وكانت مدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر[1].

*****

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى، ص ٤٠.



المبحث الثالث

السلطان سليمان القانونى

ولد سليمان القانونى فى مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك واليًا عليها، اهتم به والده اهتمامًا عظيمًا، فنشأ محبًا للعلم والأدب والعلماء والأدباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، ارتقى عرش السلطنة فى السادسة والعشرين من عمره وكان متأنيًا فى جميع شئونه ولا يتعجل فى الأعمال التى يريد تنفيذها، بل كان يفكر بعمق ثم يقرر وإذا اتخذ قرارًا لا يرجع عنه[1].

أولاً: الفتن التى واجهته فى بداية حكمه:

ابتلى سليمان فى السنوات الأولى فى عهده بأربعة تمردات شغلته عن حركة الجهاد، حيث ظن الولاة الطموحون أن فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان بردى الغزالى والى الشام بتمرد على الدولة وأعلن العصيان عليها وحاول أن يستولى على حلب إلا أنه فشل فى ذلك وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة فقمعت وقطع رأس المتمرد جان بردى وأرسل إلى استانبول دلالة على انتهاء التمرد.

وأما التمرد الثانى فقد قام به أحمد شاه الخائن فى مصر وكان هذا عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م وكان هذا الباشا طامعًا فى منصب الصدر الأعظم ولم يفلح فى تحقيق هدفه، وطلب من السلطان أن يعينه واليًا على مصر فعينه. وما أن وصل إلى مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطانًا مستقلاً إلا أن أهل الشرع وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية قاموا ضد الوالى المتمرد وقتلوه وظل اسمه فى كتب التاريخ مقرونًا باسم الخائن.

والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين هو تمرد شيعى رافضى قام به بابا ذو النون عام ١٥٢٦م فى منطقة يوزغاد حيث جمع هذا البابا مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على المنطقة، وقويت حركته حتى أنه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة بابا ذو النون وأرسل رأسه إلى استانبول.

---

(١) انظر: السلاطين العثمانيون، الكتاب المصور، ص ٥١.

والتمرد الرابع ضد الدولة العثمانية فى عهد سليمان القانونى كان تمرداً شيعيًا رافضيًا أيضًا وكان على رأسه قلندر جلبى فى منطقتى قونية ومرعش وكان عدد أتباعه ٣٠,٠٠٠ شيعى قاموا بقتل المسلمين السنيين فى هاتين المنطقتين، ويقول بعض المؤرخين أن قلندر جلبى جعل شعاره أن من قتل مسلماً سنيًا ويعتدى على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب.

توجه بهرام باشا لقمع هذا العصيان فقتله العصاة، ثم نجحت الحيلة معهم إذ أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد استمال بعض رجال قلندر جلبى، فقلت قواته وهزم وقتل.

بعد هذا هدأت الأمور فى الدولة العثمانية وبدأ السلطان فى التخطيط لسياسة الجهاد فى أوروبا[1].

ثانيًا: فتح رودس:

كانت رودس جزيرة مشاكسة إذ كانت حصنا حصينا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، فضلاً عن أعمالهم العدوانية الموجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية، فاهتم السلطان سليمان بفتحها وأعد حملة عظيمة ساعده على تحقيقها عدة أمور:

١ - انشغال أوروبا بالحرب الكبرى بين شارل الخامس (كنت) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرانسوا ملك فرنسا.

٢ - عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية.

٣ - نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول.

وشن سليمان القانونى حربًا كبيرة ضد رودس ابتداء من منتصف عام ١٥٢٢م، وفتحها وأعطى للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا إلى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارل كنت) حق حكم هذه الجزيرة[2].

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، ص ٩١.

(٢) انظر: الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز نوار.

ثالثاً: قتال المجر وحصار فيينا:

كان ملك المجر (فيلاديسلاف الثانى جاجليو) قد عزم على فك أى تعهدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب إلى حد قتل مبعوث السلطان سليمان إليه. وكان المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر. ولهذا رد سليمان فى عام ١٥٢١م بغزوة كبيرة ضد المجر، ولكن استمرت المعارك حتى أحرز الأتراك انتصارهم الكبير، فى موقعة موهاكس عام ١٥٢٦م، ودخل سليمان القانونى (بودا) فى ١١ سبتمبر (أيلول) عام ١٥٢٦م واستمرت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السلطان ضغطه حتى بلغت جيوشه أسوار فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥٢٩م، إلا أن طول خطوط المواصلات وتحول (شارل كنت) من قتال فرانسوا إلى التصالح معه للتفرغ لحرب العثمانيين ولإنقاذ عاصمة الهايسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانونى فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها بينما استمر الصراع بين سليمان والقوى الأوروبية المؤيدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتى وفاة سليمان.

على أن أبرز حدث تاريخى فى السياسة الخارجية العثمانية على عهد سليمان القانونى هو علاقته مع فرانسوا، تلك العلاقة التى تحولت إلى محالفة[١].

رابعاً: سياسة التقارب العثمانى الفرنسى:

كان عهد السلطان سليمان القانونى يمثل رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك. ويعتبر عصر السلطان سليمان هو العصر الذهبى للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من ٩٢٦ - ٩٧٢هـ، الموافق ١٥٢٠ - ١٥٦٦م توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة فى ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة وبالأخص على دول أوروبا التى كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة. وكان تشارلز الخامس ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسى الحكم للامبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألمانى مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية[١].

---

(١) انظر: الشعوب الإسلامية، ص ١٤٧.

وكانت بلغراد تعانى من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثانى مما أدى إلى نشوب النزاع بين الأمراء(٢).

ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانة وقوة الدولة العثمانية ويكسبها صديقًا له، فوقف منه موقف التودد والرغبة فى الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هى التى ستحد من طموحات تشارلز الخامس وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسى ما ذكره للسفير الفينسى عندما قال: (سعادة السفير لا يمكننى أن أنكر أننى أرغب بشدة فى أن أرى الأتراك أقوياء جداً ومستعدون للحرب، ليس فقط لمصلحة السلطان العثمانى الذاتية بل لإضعاف قوة الامبراطور تشارلز الخامس وتكليفه غاليًا، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا «الامبراطور تشارلز»(٣).

بدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة «بافيا» التى أسر فيها ملك فرنسا «فرانسوا الأول» عام ١٥٢٥م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها «جون فرانجيبانى» ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهايسبرج وإطلاق سراح الأسير(٤).

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها فى مدريد بين فرنسا وأسرة الهايسبرج سنة ١٥٢٦م، إلا أن فرانسوا، بعد إطلاق سراحه أرسل فى عام ٩٤١هـ / ١٥٣٥م سكرتيره «جان دى لافوريه» إلى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف فى شكل معاهدة(٥)، سُميت فيما بعد بـ «معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية»، ونظراً لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى بعد ذلك نورد هنا أهم نصوصها:

١ – حرية التنقل والملاحة فى سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

٢ – حق التجارة والمتاجرة فى كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

٣ – تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة فى الدولة العثمانية.

---

(١) انظر: دراسات متميزة، يوسف الثقفى، ص ٩٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٢.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٤٧.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٧.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤٧.

٤ – الضرائب التى يدفعها الفرنسيون فى الدولة العثمانية هى نفسها التى يدفعها الرعايا الأتراك.

٥ – حق التمثيل القنصلى، مع حصانة قنصلية له ولأقاربه وللعاملين معه.

٦ – من حق القنصل الفرنسى النظر فى القضايا المدنية والجنائية التى يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم فى هذه القضايا، وإنما للقنصل الحق فى الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

٧ – فى القضايا المختلفة التى يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثمانى، لا يستدعى ولا يستجوب رعية الملك الفرنسى ولا يحاكم إلا بحضور ترجمة القنصلية الفرنسية.

٨ – إفادات رعية الملك فى القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند إصدار الحكم.

٩ – حرية العبادة لرعايا الملك.

١٠– منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسى والعثمانى وشن الأسطول العثمانى هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولى التى كانت تابعة لـ « شارل كنت » وفى عام ١٥٤٣م، تجمعت وحدات الأسطولين العثمانى والفرنسى وهاجمت نسير التابعة لدوق سافوى حليف شارل كنت[١].

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجارى الذى فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل فى الحماية تحت علمها رعايا الدول الغربية الأخرى، مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوروبى.

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربية، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابل يذكر، وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذى بنى عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التى عقدت فيما بعد بين

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٤٧ .

الدولة العثمانية والدول الأوروبية بصفة عامة[١].

لم يستطع ملك فرنسا أن يلتزم بالعهود مع الدولة العثمانية بسبب الرأى العام النصرانى، فيضطر إلى التراجع ونقض العهود ثم يعود من جديد فيستجدى عطف وتأييد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأى العام. والحقيقة التاريخية تقول إنه لا يمكن للصليبيين أعداء الإسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام تحدِّيه القوى لهم وإن كانوا مختلفين ظاهريًا تبعًا للمصالح والأهواء.

وإن أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين لا أحلاف ولا مواثيق لهم فى تعاملهم مع المسلمين كما يبين لنا الله عز وجل فى كتابه الكريم. وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان ما يقوى ساعدهم كى يجهزوا عليهم، وهم فى الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين وأنه مهما اختلفت المصالح فهم جميعًا يتفقون فى محاربة هذا الدين وتقتيل أهله فى كل زمان ومكان[٢].

لقد كانت تلك الامتيازات التى أعطيت للدولة الفرنسية أول إسفين يدق فى نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد.

وفى أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل فى شئونها تحت حماية الامتيازات، وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدولة الأجنبية وخاصة فى بلاد الشام[٣].

*****

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص ٤٨.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٧٥.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ٧٧، ٧٨.

المبحث الرابع

الدولة العثمانية وشمال أفريقيا

كان من آثار التهجير الجماعى للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقى حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فى ولايات الشمال الأفريقى، ولما كان من بين المسلمين النازحين إلى هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، فكان من الضرورى، أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية فى البحر المتوسط، ويأتى فى مقدمة هذه الأسباب الدافع الدينى بسبب الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الأسبان والبرتغال للمسلمين فى الشمال الأفريقى.

وقد ظلت حركات الجهاد الإسلامى ضد الأسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخَوان خير الدين و عروج بربروسا واستطاعا تجميع القوات الإسلامية فى الجزائر وتوجهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام عن التوسع فى موانئ ومدن الشمال الأفريقى.

وقد اعتمد هذه القوة الإسلامية الجديدة فى جهادها أسلوب الكر والفر فى البحر بسبب عدم قدرتها فى الدخول فى حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدون نجاحًا أثار قلق القوى المعادية، ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين.

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك فى طبيعة الحركة الجهادية فى البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا فى أصل أهم قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذى يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وأثر هذه الحركة على الدور الصليبى فى البحر المتوسط فى زمن السلطان سليم والسلطان سليمان القانونى.

أولاً: أصل الأخوين عروج وخير الدين:

يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يوسف من

بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا فى جزيرة مدللى إحدى جزر الأرخبيل[1].

وأمهما سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها فى تحويل نشاطهما شطر بلاد الأندلس التى كانت تئن فى ذلك الوقت من بطش الأسبان والبرتغاليين[2]. وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحاق ومحمد إلياس ولقد استند المؤرخون المسلمون إلى أصلهم الإسلامى إلى الحجج التالية :

١ - ما ذكره المؤرخ الجزائرى «أحمد توفيق مدنى» مستنداً على أثرين مازالا موجودين فى الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه المجاهد محمود بن فارس التركى فى خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد فى سبيل الله «أوروج بن يعقوب» بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة (١٥١٨م). ونقش على الرخامة الثانية : (اسم «أوروج» بن أبى يوسف يعقوب التركى)». وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ماشيده خير الدين فى الجزائر سنة ١٥٢٠م[3].

٢ - إن اسم «عروج» - «أوروج» مأخوذ من حادثة الإسراء والمعراج التى يرجح أنه ولد ليلتها، وأن الترك ينطقونه «أوروج» ثم عُرب إلى «عروج»[4].

٣ - إن ما ذكر عن الدور الذى لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد فى سبيل الله ومقاومة أطماع أسبانيا والبرتغال فى الممالك الإسلامية فى شمالى أفريقيا. ولقد أبدع الأخوان فى الجهاد البحرى ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحرى فى القرن السادس عشر مراكز مهمة فى شرشال ووهران والجزائر ودلى وبجاية وغيرها فى أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن[5].

---

(١) انظر : المغرب فى بداية العصور الحديثة، د. صلاح العقاد، ص ٣٧.

(٢) انظر : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، ص ١٦٠، ١٦١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) انظر : الدولة العثمانية العلية، ص ٩٥.

(٥) انظر : قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ٧٩، ٨٠.

ثانيًا: دور الأخوين فى الجهاد ضد الغزو النصرانى:

اتجه الأخوان عروج وخير الدين إلى الجهاد البحرى منذ الصغر، ووجها نشاطهما فى البداية إلى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالى سنة ١٥١٠م، لكن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية فى بلاد الأندلس وفى شمالى أفريقيا بين المسلمين هناك، والذى اشتد ضراوة فى مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق وبخاصة بعد أن تمكن الأسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية فى شمالى أفريقيا(١).

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين، الأمر الذى أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة فى هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان «الحفصى» لهم حق الاستقرار فى جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرضه لهجوم أسبانى متواصل اضطره لقبول الحماية الأسبانية بالضغط والقوة، كما يبدو من خلال استنجاد أهالى هذه البلاد بهما، وتأثيرهما داخل بلادهم مما أسهم فى وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة. ويرى بعض المؤرخين أن دخول «عروج» وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التى ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول «عروج» وأخيه كان بناءً على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الأسبانى الشرس، وأن القوى البسيطة التى قاومت وجودهما كانت تتمثل فى بعض الحكام الذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة فى توحيد البلاد حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف فى الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداد كبيرة منهم فى هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبى الأسبانى(٢).

ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الأسبانى سنة ١٥١٢م، وقد نقلا – لهذا الغرض – قاعدة عملياتهما ضد القوات الأسبانية فى ميناء جيجل شرقى الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنوبيين سنة ١٥١٤م لكى تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمى الأندلس من جهة أخرى. ويبدو أن الأخوين

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٥٣.

(٢) انظر: المغرب فى بداية العصور الحديثة، ص ٣٧، ٣٨.

قد واجها تحالفًا قويًا نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه لكن أجبروا عليه بفعل الاستقرار فى حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل «عروج» فى إحدى المعارك سنة ١٥١٨م مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقامة ومواصلة الجهاد، وكانت الدولة العثمانية هى أقوى القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز فى ساحة البحر المتوسط أم لأن القوى المحلية فى الشمال الأفريقى كانت متعاطفة معها[١].

وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية وأن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيدًا من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها فى مزيد من المساعدة لدوره وكذلك لبقايا المسلمين فى الأندلس، ومن منظور دينى أسهم فى إكساب دورها تأييدًا جماهيريًا وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوبًا[٢].

ومن جهة أخرى كانت الظروف فى الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الأول مهيأة لقبول هذا التحالف وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية إلى الشرق العربى، وكان من أبرز أهدافها فى هذا الاتجاه - كما سبق التوضيح - هو التصدى لدور البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا فى المنطقة، وكان من المنطقى التحالف مع أى من القوى المحلية التى تعينها على تحقيق هذه الأهداف[٣].

ثالثًا: التحالف مع العثمانيين:

اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج وخير الدين، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهما إلى الساحل الأفريقى تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقى وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان فى منطقة البحر المتوسط. وعلى الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التى تدور على ساحة البحر المتوسط[٤].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٠٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩٠٢).
(٣) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ٨٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٨٣.

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة ١٥١٤م فى أعقاب فتح عروج وخير لميناء «جيجل» حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التى استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما الهدية بإرسال أربع عشر سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود(١)، وكان هذا الرد من السلطان العثمانى يعكس رغبته فى استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه. على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثمانى لهذه الحركة كان فى أعقاب وفاة «عروج» سنة ١٥١٨م وبعد عودة السلطان العثمانى من مصر إلى استانبول سنة ١٥١٩م(٢).

على أن الرأى الأكثر ترجيحًا أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقًا لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا فى أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما فى فتح «بجاية»، كما أنهما حوصرا فى «جيجل» بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الأسبان وبين «سالم التومى» حاكم الجزائر الذى ارتكز حكمه على دعم الأسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الأسبان وفرسان القديس يوحنا التى تحاصرهم فى البحر؛ فكان لوصول الدعم العثمانى أثره على دعم دورهما وشروعهما فى دخول الجزائر برغم هذه العوامل حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما قبل القوات الأسبانية لموقعها الممتاز من ناحية، ولكى يسبقوا الأسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الأسبانى كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الأسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر فى الجزائر وبويع فى نفس السنة التى هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية فى الشام سنة ١٥١٦م فى موقعة مرج دابق(٣).

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثمانى ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلا من دخول بجاية أمام نفس القوات

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ٨٤.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩٠٩).

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، ص ١٧٤، ١٧٥.

المعادية[1].

بعد أن بويع « خير الدين » فى الجزائر فى أعقاب ما حققه من انتصارات على الأسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التى كانت مازالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان. ومع أن استنجاد الأهالى كان من الممكن أن يكون كافيًا لتدخل « خير الدين » إلا أن موقع تلمسان الاستراتيجى الذى كان يجعل وجود « خير الدين » فى الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر فى التدخل قبل أن يطلب الأهالى نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك[2].

وأعد « خير الدين » جيشًا كبيرًا زحف به إلى تلمسان سنة ١٥١٧م، وأمن الطريق إليها. وبعد أن نجح فى السيطرة عليها تمكن الأسبان، وعملاؤهم من بنى حمود، من استعادتها ولقى أحد إخوة « خير الدين » حتفه وهو « إسحاق »، كما قتل « عروج » وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة ذلك الحصار الذى امتد لستة أشهر أو يزيد امتد حتى سنة ١٥١٨م.

وقد تركت هذه الأحداث أثرًا بالغًا فى نفس خير الدين مما دفعه إلى التفكير فى ترك الجزائر لولا أن أهلها ألحوا عليه بالبقاء. وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الأسبان ومؤيدوهم، كما أن ذلك أدى إلى اتجاهه إلى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن والت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر[3].

رابعًا: سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول:

قام الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمى بترجمة وثيقة تركية محفوظة فى دار المحفوظات التاريخية باستانبول – طوب قابى سيراى – تحت رقم ٤٦٥٦، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة فى أوائل شهر ذى القعدة عام ٩٢٥هـ، فى الفترة من ٢٦ من شهر أكتوبر (تشرين الأول) إلى ٣ من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٥١٩م، وكتبت بأمر من خير الدين إلى السلطان سليم بعد

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٦.

عودته من مصر والشام إلى استانبول وكان الغرض من تلك الرسالة ربط الجزائر بالدولة العثمانية. وجاء فى الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة فى أن يذهب بنفسه إلى استانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصيًا أبعاد قضية الجزائر. ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كى يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا. وطلبوا منه أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة عنه وكانت الرسالة التى حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وجميع سكان مدينة الجزائر العامرة، وهى تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وكان الذى يتزعم السفارة «الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضى» وكان من أكبر علماء الجزائر، كما كان قائداً عسكريًا وزعيمًا سياسيًا وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التى تحيط بها من كل جانب.

لقد أشاد الوفد بجهاد عروج فى مدافعة الكفار وكيف كان ناصرًا للدين وحاميًا للمسلمين وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيداً فى حصار الأسبانيين لمدينة تلمسان وكيف خلفه أخوه «المجاهد فى سبيل الله أبو التقى خير الدين». وكان له خير خلف فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوى الشريف، وهو ينظر إلى مقامكم العالى بالتعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله، ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً إجلالها وتعظيمها. على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالى إقليم بجاية والغرب والشرق فى خدمة مقامكم العالى وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجرى فى هذه البلاد من الحوادث والسلام)[١].

إن الرسالة السابقة تبين للباحث آراء الجزائريين تجاه الدولة العثمانية وكان من تلك الآراء:

- أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل فى شمال أفريقية، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجًا له فى الحكم.
- أن نشاطه يتركز فى قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.
- أنه يكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.
- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية ووضوح الهدف أمام مسلمى الجزائر[٢].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٠).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩١١).

خامساً: استجابة السلطان سليم الأول لأهل الجزائر:

سارع السلطان سليم إلى منح رتبة بكلر بك إلى خير الدين بربروسة وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة فى إقليمه ممثلاً للسلطان، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية وأصبح أى اعتداء خارجى على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية، ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية، إذ أرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وألفين من الجنود الإنكشارية ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩م) بدأ الإنكشاريون يظهرون فى الحياة السياسية والعسكرية فى الأقاليم العثمانية فى شمال أفريقيا وأصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً فى سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم، وأذن السلطان سليم لمن يشاء من رعاياه المسلمين فى السفر إلى الجزائر والانخراط فى صفوف المجاهدين وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين ولقد هاجر سكان الأناضول إلى الجزائر شوقًا إلى عمليات الجهاد ضد النصارى ولقد ترتب على القرارات التى أصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

١ - دخول الجزائر رسميًا تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعى للسلطان سليم على المنابر فى المساجد وضربت العملة باسمه.

٢ - إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم، فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحًا عسكريًا ضد رغبة أهل البلد.

٣ - إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمال أفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية فى البحر المتوسط[١] وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الأفريقى لتوحيده تحت راية الإسلام والعمل على تخليص مسلمى الأندلس من الأعمال الوحشية التى كان يقوم بها الأسبان النصارى.

لقد كان زمن السلطان سليم البداية المتواضعة لمد النفوذ العثمانى إلى أقاليم شمال أفريقيا من أجل حماية الإسلام والمسلمين وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادى.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٢).

لقد استجاب السلطان العثمانى سليم لنداء الجهاد من أخوة الدين وشرعت الدولة العثمانية فى إنشاء أسطول ثابت لهم فى شواطئ شمال أفريقيا والذى ارتبط منذ البداية باسم الأخوين عروج وخير الدين بربروسة(١).

سادساً: التحديات التى كانت أمام خير الدين:

كان أمام خير الدين بربروسة فى وضعه السياسى والعسكرى الجديد أن يحارب على جبهتين:

١ - الجبهة الأسبانية لطرد الأسبانيين من الجيوب التى أقاموها، فضم إليه عنابة وقالة فى شرقى الجزائر وحقق انتصاراً باهراً على الأسبانيين حيث استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الأسبانى على الجزيرة، المواجهة لبلدة الجزائر، وقد كان استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمال أفريقية العثمانية فيما بعد. وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

٢ - الجبهة الداخلية وكانت تتمثل فى محاولة توحيد المغرب الأوسط التى لم تَخْلُ من مؤامرات بنى زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية ودخلت الإمارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكى تحتمى بهذه القوة من الأطماع الصليبية الأسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثمانى إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل القسطنطينية(٢).

لقد نجح خير الدين فى وضع دعامات قوية لدولة فتية فى الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانونى واستطاع إنقاذ آلاف المسلمين من

---

(١) انظر: المشرق العربى والمغرب العربى، د. عبد العزيز قائد، ص ٩٧.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٣).

أسبانيا فقد قام عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الأسبانية للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبى ومغانم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية[١].

لقد تضررت أسبانيا من نجاح خير الدين فى الشمال الأفريقى وكانت أسبانيا يتزعمها شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتى كانت تضم وقتذاك أسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا، وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدافع عن أوروبا المسيحية ضد الخطر العثمانى نحو شرق ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين ببليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية فى الشمال الأفريقى. لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثًا للتجسس فى شمال أفريقيا سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذى طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثمانى على تونس، وذكر أن هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على أفريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحى.

كانت سياسة المملكة الحفصية فى تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان الحفصى الحسن بن محمد قد أساء السيرة فى البلاد وقتل عددًا من إخوته، فاضطربت الأحوال فى تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصى، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفًا من القتل ولجأ عند العرب فى البادية، ثم ذهب إلى خير الدين فى الجزائر وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه[٢]، فمنحه ذلك خير الدين، الذى كان مركزًا اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التى مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس فى نظره أهمية استراتيجية كبيرة لإشرافها على المضيق الصقلى بحيث تسمح له السيطرة عليها فى تحديد وقطع المواصلات بين حوضى المتوسط الشرقى والغربى بالإضافة إلى رغبة خير الدين فى توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس[٣].

(١، ٢) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبد الحى، ص ٣١١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣١٥.

سابعًا: سفر خير الدين إلى استانبول:

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى أسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالمًا بأحوالها، فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الأفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطابًا يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وأن لم يجد من يصلح لذلك، يبعث إليه السلطان نائبًا وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانًا عظيمًا، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان، الذي وجهه إليهم وأعلمهم أنه لا يمكنه التخلف عن أمره، وعندما سمع اندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح أسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك، أراد أن يشغل خير الدين عن سفره إلى حضرة السلطان(١)، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الأسبانية في الهجوم على الجزائر، وتخليصهم من الأسر، ففرح الأسرى الأسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة إعدام أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهرًا أتم الطاعة للسلطان(٢).

عزم خير الدين على السفر إلى استانبول ٩٤٠هـ/١٥٣٣م، وعين مكانه حسن آغا الطوشي، وكان رجلاً عاقلاً وصالحًا، صاحب علم واسع(٣).

أبحر خير الدين شرقًا في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة وهزم في طريقه فرقة من أسطول آل هايسبرج بالقرب من المورة(٤)، واستمر خير الدين في رحلته ووصل إلى مدينة بيروازن، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم أندريا دوريا، الذي

---

(١) انظر: سيرة خير الدين باشا، عبد القادر عمر، ق ٤٨ أ ٤٨ب.

(٢) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سر هنك (١ / ٣٦١).

(٣) انظر: فتوحات خير الدين، محمد أمين ق ٢٧٠أ، ٢٧٠.

(٤) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص ٣١٦.

ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورست مراكبه فى قلعة اوارين «انا وارنيه»، فصادف هنالك أسطولاً للسلطان سليمان القانونى وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعًا حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان يعلمه بوصوله ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطابًا يستحثه بالقدوم عليه[1]، أقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافرًا حتى وصل إلى استانبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هى العادة فى ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره وفوض إليه النظر فى دار الصناعة[2]، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية - حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه.

كان الصدر الأعظم فى ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطابًا للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبرًا عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهًا إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين فى حلب وأنزله فى بعض القصور المهيبة، وفى اليوم الثانى من وصول خير الدين، وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة واحتفل به احتفالاً مهيبًا، وأكرم إكرامًا عظيمًا لما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين فى حوض البحر المتوسط.

ثم رجع خير الدين إلى استانبول وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام وشرع خير الدين فى النظر فى أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان[3].

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثمانى الجديد خرج خير الدين بربروسة بأسطوله القوى من الدردنيل متجهًا نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزير صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو[4]، وكان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسة بأهمية تونس وضرورة دخولها فى إطار استراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتى أهمية تونس بالنسبة للدولة

(١ ، ٢) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص ٣١٦.

(٣) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣١٧.

(٤) انظر: ليبيا بين الماضى والحاضر، حسن سليمان محمود، ص ١٦٦.

من حيث موقعها الجغرافى إذ تقع فى منتصف الساحل الشمالى لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التى تعتبر أحد جناحى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر أسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس، وأشد الطوائف المسيحية عدواة للمسلمين ثم الإمكانيات الهائلة التى تتيحها موانئ تونس فى التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط، وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء الأهمية العسكرية على تونس[1].

كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هى تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتى تقتضى تطهير الشمال الأفريقى من الأسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق أن أشار خير الدين بربروسة على السلطان سليمان القانونى فى خطابه للسلطان الذى بعثه قبيل استدعاء السلطان له فى ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، إذ قال فيه « ... إن هدفى إذا قدر لى شرف الاشتراك هو طرد الأسبان فى أقصر وقت من أفريقيا ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الأسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك، إننى لا أبغى من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا.. لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولاسيما أن حروبك فى آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافيًا، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضًا....»[2].

وصل الأسطول العثمانى تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة[3]، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس فى نفس الوقت وهرب السلطان الحفصى الحسن بن محمد إلى أسبانيا[4]، ثم عين خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، فى وقت بدت فيه سيادة العثمانيين فى حوض البحر المتوسط الغربى[5].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/٩١٥ - ٩١٦).

(٢) فتح العثمانيين عدن، محمد عبد اللطيف البحراوى، ص ١٢٧.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٣٠.

(٤) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣١٩.

(٥) انظر: فتح العثمانيين عدن، ص ١٢٨.

ثامناً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى:

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدى من الجهود التى بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائرى بقيادة خير الدين بربروسة، فقام بمحاصرة مدينة آسفى بأزمور وذلك سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، وكادت المدينة تقعٍ بيد السعديين لولا النجدات التى بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأن تعاوناً قد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية فى المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم فى الشمال الأفريقى وعندما سمع الملك البرتغالى جان الثالث بوصول الأسطول العثمانى فى ٣ ربيع الأول ٩٤١هـ/ ١٣ سبتمبر ١٥٣٤م بقيادة خير الدين بربروسة إلى الشمال الأفريقى، فكر فى الجلاء عن بعض المراكز مثل سبت وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين فى غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثمانى عن شبه الجزيرة الايبرية بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع الوجهاء والأعيان والأساقفة فى بلاده يستشيرهم فى موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالى فى جنوبى المغرب، وكان المطلوب الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل ينبغى ترك آسفى وأزمور للمغاربة، هل ينبغى الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغى الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات، ثم ما هى الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟

تلقى الملك البرتغالى أجوبة عديدة بين مؤيد فى الإبقاء على المناطق الجنوبية فى حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت النصح بالتخلى عن المراكز الجنوبية، ويحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالى لصد الخطر العثمانى بقيادة خير الدين بربروسة، فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز وآسفى وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التى تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة خوفاً من هجوم خير الدين عليها[١].

إن الوجود العثمانى فى الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالى فى المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والإمبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته[٢]، فوصل التهديد العثمانى أقصاه فضلاً عن أن الدولة العثمانية

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣٢٠.

(٢) رسالة غرناطة إلى السلطان سليمان، عبد الجليل التميمى عدد (٣) تونس.

ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وأفريقيا[١].

تاسعاً: استيلاء شارل الخامس على تونس:

كان الموقف ملائماً بالنسبة لأسبانيا وذلك للقيام برد عنيف، فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغى على الصراع في أوروبا ووعد فرنسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد. تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجاد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل استانبول دفع شارل الخامس على اختيار تونس للهجوم[٢]. قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل أسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين[٣]، الأمر الذي أعاد السيطرة الأسبانية على تونس في ٩٤٢هـ/١٥٣٥م[٤] إذ لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، تونس[٥]، ونصب الأسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الأسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس[٦]، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي أسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الوادي وعاد شارل الخامس إلى أسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب فيه الدولة الصفوية الشيعية الرافضية لبلاد فارس[٧].

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣٢١.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، ص ٣٤.

(٣) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٢٠).

(٤) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣٢١.

(٥) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٢١.

(٦) انظر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، عزيز سامح، ص ٣٨.

(٧) انظر: فتح العثمانيين عدن، ص ١٣٠.

عاشراً: عودة خير الدين إلى الجزائر:

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته فى تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الأسبان فى الجبهات التى يحددها، وكان لزاماً على خير الدين وقد استقر مؤقتًا بمدينة الجزائر نظرًا لالتزاماته التى تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامى العثمانى أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها فقام بالهجوم على جزر البليار الأسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الأسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضى الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذى اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة فى ٩٤٢هـ/ ١٩٣٥م[١]، من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية فى تحالف رسمى مع فرنسا فى ٩٤٣هـ/١٥٣٦م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذى قام به الأسبان على تونس[٢] وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد كما صارت أهداف أسبانيا والبرتغال واحدة وذلك فى احتلال مراكز فى بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الايبيرية.

•• الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف فى الشمال الأفريقى:

تلقى الملك أحد الوطاس هزيمة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م من السعديين فى موقعة بير عقبة قرب وادى العبيد، بسبب تخلى قبائل الخلوط التى كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسى، ونشرت الفوضى فى سائر الجيش وأثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسى من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين فى حروبهم ضد الأسبان ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً[٣] تقضى بوضع المغاربة المقيمين فى ضواحى أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسى المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة، وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الأسبان ولا البرتغاليين إلى أراض برتغالية، محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشترى منها شيء، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢.

(٢، ٣) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣٢٣.

ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر ما لم يسمح قوات العدو في مهاجمتها[1].

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه الوطاسيين في موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في ٢٥ ذي القعدة ٩٤٤هـ/ ٢٥ أبريل ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعايا الطرفين[2]. كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف أسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس[3].

******

(١) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص ٣٢٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٤.

المبحث الخامس

المجاهد الكبير حسن آغا الطوشى

اشتغل خير الدين بربروسة بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل فى الأسطول العثمانى وبدأ نشاطه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، بينما استمر حسن آغا الطوشى فى منصبه المستخلف عليه نائب البيلر بك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية، فأبلى فى سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه فى الجزائر مثالاً بارزًا فى البطولة والتضحية الإسلامية فى سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام فى الشمال الأفريقى، فاكتسبت الجزائر مهابة وجلالاً وجعلت الأمم المسيحية تهرع على عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب أمله[١]، مثل ما خاب فى محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سرًا الاعتراف به حاكمًا لشمال أفريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل فى قيام تحالف إسبانى جزائرى يجابه به التحالف الفرنسى العثمانى ويعمل على فصل شمال أفريقيا عن استانبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال أفريقيا إبداء مقاومة قوية ويكون من السهل سقوطها[٢].

انهمك حسن آغا الطوشى فى توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية[٣]، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقى فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصنًا وأقام به حامية.

ركب الجيش العثمانى فى شهر جمادى الأولى ٩٤٩ هـ/ سبتمبر ١٥٣٩ م البحر، وكان قوامه ١٣٠٠ رجل، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا عنها إلى الأسبان، نزل حسن آغا

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالى (٣ / ٦٢، ٦٣).

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٥.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٧٩.

وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين، وتوغل فى جهات الساحل الأسبانى الجنوبى، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الأسبان ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع فى المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان، وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر اعترضت طريقه عمارة أسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت خسائر الأسبان فى هذه المعركة عظيمة[١].

عزم شارل الخامس على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على حركة الجهاد الإسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وقبل أن يشرع فى تنفيذها كان هدوء نسبى يسود القارة الأوروبية إثر عقد هدنة نيس فى محرم ٩٤٥ هـ/ يونيو ١٣٥٨ م مع فرنسا والتى كانت مدتها عشر سنوات[٢]، رسا شارل الخامس أمام مدينة الجزائر فى يوم الثامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٤٨ هـ الموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر ١٥٤١ م وعندما شاهده حسن آغا الطوشى، اجتمع فى ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الإسلام والوطن قائلاً لهم « ... لقد وصل العدو عليكم ليسبى أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا فى سبيل الدين الحنيف.. هذه الأراضى فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا، نحن أهل الحق... »، فدعا له المسلمون وأيدوه فى جهاد العدو، ثم بدأ حسن آغا فى إعداد جيوشه والاستعداد للمعركة[٣].

من ناحية أخرى بدأ الأسبان فى تحضير متاريسهم وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن آغا وأراد أن يستهزئ به، فأمر كاتبه بإعداد خطاب لحسن آغا جاء فيه « ... أنت تعرفنى أنا سلطان.. كل ملة المسيحيين تحت يدى إذا رغبت فى مقابلتى سلمنى القلعة مباشرة.. أنقذ نفسك من يدى وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة فى البحار، ثم لا أبقى عليك ولا سيدك ولا الأتراك، وأخرب كل البلاد... » وصل ذلك الخطاب إلى حسن آغا وأجاب عليه « ... أنا خادم السلطان سليمان... تعال واستلم القلعة ولكن لهذه البلاد عادة، أنه إذا جاءها العدو، لا يعطى إلا الموت »[٤]، وفى رواية: (غزت أسبانيا الجزائر فى عهد عروج

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٨٠.
(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير، ص ٣٦.
(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٢٦.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٦.

مرة، وفى عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله»[١].

وفى الليلة ذاتها، وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل والى الجزائر يطلب إذنًا للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الوادى) وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميرًا تامًا. ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفى الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الأسبانية، فى كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة فى تقريره عن المعركة: «لقد أذهلتنا هذه الطريقة فى الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل»[٢] . وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الأسبانية، وكان المجاهدون يستفيدون فى توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع وسخر الله لجنود الإسلام الأمطار والرياح والأمواج (وهبت ريح عاصفة استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود. وفى وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل..)[٣] وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذى استطاع بجنوده أن يحصد رؤوس النصارى بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وبطولة رائعة، لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن تستفيد من الوضع المحيط بالنصارى، ووجهت جنودها بطريقة متميزة فى الكر والفر أفنت جزءًا كبيرًا من الأعداء واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من أسبانيا. وكان من العوامل التى ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور، القيادة الرشيدة والتفاف الشعب الجزائرى حولها وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى طلبًا للشهادة فى سبيل الله، ودفاعًا عن الإسلام والمسلمين،

---

(١) انظر: خير الدين بربروسة، بسام العسلى، ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٣.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/٩١٩).

وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فقالوا فى رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان: إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده «بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم ريحًا عاصفًا وموجًا قاصفًا، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل»(١).

لقد قام سكان الجزائر - سواء كانوا أهل الإقليم الأصليين أو مسلمى الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة فى الشهر التالى لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التى تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم فى أسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم، وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التى أداها للإسلام خير الدين باشا «المجاهد فى سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين». ومضت الرسالة تقول: إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم «وكان سببًا فى خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام» وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين. وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

١ - إرسال نجدات عسكرية «لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة»(٢).

٢ - إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بيلر بك الجزائر - «فهو المتمثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار، ..... وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر»(٣).

وصل خير الدين بربروسة إلى مدينة الجزائر للإسهام فى الدفاع عنها بتوفيق الله للمسلمين وسواعدهم قد قضت على أسطول الأسبان فاكتفى بتفقد أمور البليربكية واطلع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الأسبانية يذيقها العذاب الأليم، وأنعم السلطان

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢ / ٩٢٠).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢ / ٩٢١).

(٣) المصدر السابق نفسه (٢ / ٩٢١).

سليمان على حسن آغا الطوشى برتبة الباشوية، لدوره الفعال فى النصر وخلو البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الأسبانية التى كانت تضمد جراحها وتحاول استرجاع قوتها، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الأسبانية والإيطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفزع تلك النواحى التى بقيت مفتوحة فى وجه العثمانيين يتوغلون داخلها ويغنمون ما فيها[١]، كما صارت الدول الأوروبية تعمل للعثمانيين حساباً، فاهتز بذلك مركز الأسبان فى وهران وغيرها من مناطق نفوذهم فى الشمال الأفريقى[٢]، وحقق السعديون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتا كروز، وما أن علم الملك البرتغالى جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفى وأزمور بالجلاء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث فى هذا الشأن إلى سفيره بمدريد رسالة مؤرخة فى الثانى والعشرين من رمضان ٩٤٨هـ/ ديسمبر سنة ١٥٤١ م، يطلع فيها الإمبراطور الأسبانى شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للأسباب التى أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتى آسفى وأزمور فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدى يملك المدفعية العثمانية، والآلات الحربية، ومعه جنود مدربون وظهرت تلك الإمدادات عند حصار سانتا كروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقًا وصعباً، ثم أن الجلاء عن آسفى وأزمور ليس معناه التخلى عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة[٣]، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية فى تقديم المساعدة للقوى الإسلامية فى المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها وذلك لأن الدولة ترغب فى تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا فى مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالى فى المراكز الجنوبية من المغرب، ثم ليعبروا للأندلس، لأنه المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور[٤].

•• مصير شارلكان:

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) فى حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الأسبانية، ولا على ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الأحداث العالمية. وقد حفظ الشعر العربى هذا الحدث الذى قيل فيه:

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢١٣.

(٢) انظر: المغرب العربى الكبير، شوقى عطا الله الجمل، ص ٩.

(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٢٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٨.

سلوا شـــارلكان كم رأى من جنودنا فـلـيـس لـه إلا هُـمُ مـن زواجـــــــر

فـجـهـز أسطولاً وجـيـشًـا عـرمـرمًـا ولـكـنـه قـــد آب أوبـة خـــاســـر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث هناك بسرعة. فلم يبق حليف للإمبراطور سوى هنرى الثالث ملك إنجلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دى كليف) وملك الدانمارك وملك اسكندينافيا. وكان فرح الفرنسيين عظيمًا لأن سقوط الجزائر كان يؤدى لا محالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرانسوا الأول لإبرام معاهدات مع السلطان العثمانى وكان لهذه الغارة أيضًا نتائج معنوية داخل الشمال الأفريقى، وأما فى أوروبا (بقى رعب المسلمين فى قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير فى حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفنًا عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركبًا توهم الناس أن خير الدين بربروسة هو الذى أثار البحر وهيجه وأغراه على إغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل أسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب فى ذلك(١) – وكانوا فى نحيبهم يقولون:

بربروسة بربروسة

أنت صاحب كل شر

ما كان من ألم أو عمل

مؤذ وجهنمى مدمر

إلا والسبب فيه

هذا القرصان الذى

لا نظير له فى العالم(٢)

---

(١) انظر: خير الدين بربروسة، ص ٢٠٠.

(٢) مجلة تاريخ وحضارة المغرب فى كلية الآداب فى الجزائر ١٩٦٩ م العدد ٦ ص ٥٩٣٤.

•• وفاة حسن آغا الطوشي:

استمر حسن آغا فى القيام بواجبه المقدس حتى وفاته ٩٥١ هـ/ ١٥٤٤ م فأجمع أهل الديوان فى الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالى باستانبول الحاكم الجديد، الذى عين حسن بن خير الدين وقدم فى نفس السنة[١].

*****

(١) انظر: تاريخ عام الجزائر، عبد الرحمن الجيلالى (٣/ ٨٤).

المبحث السادس

المجاهد حسن بن خير الدين بربروسة

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله، ليستعد للجهاد ومواجهة المسيحيين، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك فى المناطق التى أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها، كما أخذ يعمل على توطيد النظام فى الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الأسبان فى وهران يعيقان حل المشكلة(١).

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثانى قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه ما لبث أن خضع لمؤامرات خارجية وانساق فى تيارها وأخذ يتقرب من الأسبان، مما أدى إلى كره الأهالى له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد أخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان إلى وهران طالبًا للدعم من الأسبان، مقدمًا لهم التعهدات بأن يحفظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشًا، وانضم إليه جموع الخاضعين للأسبان من بنى عامر وفليتة وبنى راشد وعلى رأسهم القائد المنصور من بو غنام، وتقدموا إلى تلمسان لإبعاد الحسن، وإعادة تنصيب أبو زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الأسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامى فى تلمسان ليمنع الأسبان من الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن فى تلمسان(٢)، الذى اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد فى قلعة المشوار فى تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزًا خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بو غنام، الذى يرغب فى مساندة زوج ابنته الأمير مولاى أحمد، حليف الأسبان(٣). قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدى بنحو عشرين ألف مجاهد، فالتفوا حوله،

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر الحديث لمحمد فارس، ص ٣٨، ٣٩.

(٢) انظر: الجزائر والحملات الصليبية، ص ٢١، ٢٢.

(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٢٩.

ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للاستيلاء على أسبانيا، فوافق الشريف السعدى على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم[١].

واستطاع الشريف السعدى أن ينهى الحكم الوطاسى وأصبح الأسبان متخوفين من هجوم عثمانى سعدى مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الاحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحى فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ اعتبروا ذلك نوعًا من الجهاد فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس، إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدى وانتهاء الحكم الوطاسى، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان، فأرسل جيوشًا كبيرة لإنهاء الحكم العثمانى فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع وانحراف الشريف السعدى عن الهدف الإسلامى أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده[٢].

استمر المجاهدون فى شمال أفريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين أسبانيا وإيطاليا وغض المجاهدون من أهالى الشمال الأفريقى الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الأفريقى، وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أمانًا بالقرب من رأسى كورسيكا، ولكن الاحتلال الفرنسى للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا أيضًا الاتصالات بين أسبانيا وإيطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل الخامس فى الدفاع عن الطرق البحرية ضد القسطنطينية التى كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لأسبانيا[٣].

أولاً: آخر أيام خير الدين بربروسة:

استمر خير الدين فى قيادة الأسطول العثمانى وحقق انتصارات رائعة هزت أوروبا كلها وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقرًا لأسطوله وهناك – فى مرسيليا – باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التى

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٦.

حملوها معهم من أسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الأسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدى القوم، واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم أخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة إلى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الامبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وانضم الأسطول الفرنسى إلى الأسطول العثمانى بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الأسطول الفرنسى (الأمير فرانسوا دبو بوربون) قواته تحت قيادة (خير الدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية - الفرنسية) وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الأسبانى وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين بأسطوله فى مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الإسلامى والأسطول الإسلامى، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها فى أيدى المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسى، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الأسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (إن خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع فى طولون إلا أذان المؤذنين) وبقى خير الدين والجند الإسلامى بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقى فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتوتييرى)[١] ثم اضطر للذهاب إلى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتى ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر - إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤م فى مدينة (كريسبى دى فالوا). ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (استانبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين أسبانيا والمسلمين، فقد استمر (خير الدين) فى ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (البا) التى كانت تحت حكم أسبانيا - والتى أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد - فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، ومن بينها مدينة (لبيارى) ورجع إلى العاصمة بسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأم أبناءها البررة.

---

(١) انظر: خير الدين بربروسة للعسلى، ص ١٦٦.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى إلى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشى سنة ١٥٤٤م.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين فى البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد فى سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

لقد قاد خير الدين حروب الإيمان وحقق فوزاً عظيماً واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها، ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له: (يجب ألا تنسى أن الأسبان لم يخذلوا فى معركة، وأنهم قتلوا أخويه إلياس وعروج، وإن تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه). فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة). وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسة خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧] وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين فى المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصارهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام)(١).

(فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الأسبان فأبادوهم عن آخرهم)(٢).

إن هذه الصورة لا تختلف أبداً، لا فى شكلها ولا فى مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين فى سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا إلى الدنيا رسالة الإسلام، غير أن الموقف العام لم يكن فى عهد (خير الدين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه إلى قلوب المسلمين وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لا تسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم فى التأثير على التيار العام. فى حين أصبح لهؤلاء دورهم فى توجيه الأحداث وكان أخطر ما فى الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكز قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم فى الدين.

لقد كان المحال تحقيق النجاح فى مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة فى كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

---

(١) انظر: خير الدين بربروسة، ص ١٧٠، ١٧١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٧١.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد فى سبيل الله، وتطبيق رائع للعقيدة القتالية الإسلامية وقيادة على درجة عالية من الكفاءة.

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر خير الدين، فكتب شعب الجزائر مع خير الدين تحت سيادة الدولة العثمانية قصته الرائعة فى الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد، وما كان شعب الجزائر ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادة حازمة، مارس (خير الدين) دوره فى تكوينها ووضعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خير الدين إلى جوار ربه راضياً مرضيا، وبقى وبقيت الأمة الإسلامية تردد على مدى الدهر تلك المواقف البطولية التى صنعتها العقيدة ومبادئ الجهاد وقيمه فى سبيل الله(1).

ثانيًا: عزل حسن بن خير الدين عن الجزائر:

كان حسن بن خير الدين بربروسة بعد أن هزم السعديين فى تلمسان ووطد دعائم الحكم العثمانى فيها ٩٥٩هـ/ ١١٥١م، انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التى كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التى منحت لها مع استانبول والتى شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا فى مناسبات عديدة فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد فى استانبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الذى سيصل إليه حسن بن خير الدين فى عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربكية الجزائر.

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية فى مهاجمة أسبانيا، ونجدة مسلمى الأندلس، لكن حسن رفض هذا العرض، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هى قضية خاصة بالمسلمين، وبين بأنه لا ينتصر بكافر على كافر، ورجع السفير الفرنسى إلى استانبول، حتى أوغر صدر الباب العالى بقوله: (إن السلطة الواسعة المطلقة التى يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم

(1) انظر: خير الدين بربروسة للعسلى، ص ١٧٦.

وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام)[1] خاصة أن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية أنه لزامًا عليها من تغيير سياستها فى المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفًا قويًا للأسبان، مما أدى إلى قلب الموازين الاستراتيجية رأسًا على عقب فاتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانونى بيلر بك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا إلى الوحدة الإسلامية وإلى حسن الجوار[2].

أسندت الدولة العثمانية بيلربيكية الجزائر إلى صالح رايس فى صفر ٩٦٠هـ/ يناير ١٥٥٢م، بدلاً من حسن بن خير الدين[3].

ثالثا: رسالة السلطان سليمان القانونى إلى حاكم فاس محمد السعدى:

(... هذا مثالنا الشريف العالى السلطانى وخطابنا المنيف السامى الخاقانى لازال نافذًا مطاعًا بالعون الربانى والصون الصمدانى أصدرناه إلى الجناب العالى الأميرى الكبير الأكرمى الأفخمى الأكملى الأرشدى، الأعدلى الهامى الماجد النصيرى الذخيرى الحسبى النسبى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه.

أصدرنا هذا المثال الشريف العالى إلى جنابة العالى نخصه منا بسلام بتكميل صلاة (الصلات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزكيات وبعد.. فإن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ أقامنا فى دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة تسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعية كالقمر إذا تليها، وخصنا خلافة جليلة عضد الإيمان بها منصور منحنا سلطة ساعد الإسلام بها مرفوع لا جرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا أداء (شكر) هذا اللطف الجسيم والإحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ودائمًا عادتنا الاهتمام بإجراء الشرع المبين وإنقاذ سيد الأولين عليه الصلاة وعلى آله أجمعين والقيام فى إطفاء نايرة الكفر

---

(١) انظر: الجزائر والحملات الصليبية للعسيلى، ص ٣٠ – ٣٢.

(٢) انظر: بداية الحكم المغربى للسودان الغربى لمحمد الغربى، ص ٩٠ – ٩١.

(٣) انظر: المغرب فى عهد السعديين، عبد الكريم كريم، ص ٧٩.

والطغيان وطى الظلم والعدوان ونشر العدل والإحسان، ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقًا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام أعتابنا الجليلة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذى الجلال والإكرام والاحترام صاحب الفرد والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا دام إقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا إليه تلك الديار وأمرنا بإقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، وإحياء تواقر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى وأن يكون مع الأهالى الإسلام على أكمل اتحاد وأجمل اتفاق مجداً فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مثابراً على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على أن أقصى مراد حضرتنا العلية إحياء مراسم الإسلام وإطفاء ثائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون باتفاق أمراء الإسلام واتحاد أمناء شرع الأنام ويتم به النظام ولا ينفى لآثارهم فى الشهور والأعوام.

وأمرناه أيضًا أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفاق والمراحم وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا فى أيام دولتهم العادلة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء، وأحفاد سيد الأصفياء سمعنا عدلكم وإنصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم، ولذلك الشأن كتبنا إليكم منشوراً يوجب مضمونه المصافات ويشفى مكنونه أن تكون المودة فى أقصى الغايات ولك أن تنبئوا بأخبار صحتكم الغالية إلى أعتابنا العالية...)[1].

تحريراً فى أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير ١٥٥٢م بمقام أدرنة. كما بعث السلطان سليمان القانونى بخطاب آخر إلى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدى، يمنحه بخلع، والخطاب عبارة عن مرسوم سلطانى قال فيه: (.. هذا مثالنا الشريف .. إلخ أصدرنا إلى الجناب العالى حاكم فاس يومئذ الشريف محمد... نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد.

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٦٤.

فإن الله جلت قدرته وتعالت عظمته منذ أقامنا فى دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضحيها.

وإمضاء سنى سنن سيد الأولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع سيادتنا العلية حسن إقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك فى الذب عن المسلمين وقمع أعداء الدين ولذلك الشأن حباك إحساننا الشريف العالى السلطانى ورعاك جزيل فضلها السامى الخاقانى فأنعمنا عليك وعلى والديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسببًا لنسج المودة بيننا، على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالى الإسلام وحماة دين النبى عليه السلام فى أيام دولتنا العادلة فى أكمل الراحة وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إن شاء الله تعالى...)[1].

رابعًا: مرسوم السلطان العثمانى بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية:

بعث السلطان العثمانى مرسومه إلى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية وقد جاء فى ذلك المرسوم ما يلى:

(.... هذا مرسومنا.. أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم يتضمن إعلامهم أن صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارضنا السنية السامية السلطانية قد أنعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية أمير الأمراء الكرام.. صالح باشا دام إقبالاً، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا إليه تلك الأرض وأمرناه بإحياء السنن والفروض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الأمور، لتكون رعايا أهل الإسلام ثمة فى أيام دولتنا العادلة فى أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع أمير الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتفاق، مراد حضرتنا قيام قاموس الشرع القويم والصراط المستقيم وإحيائه مراسم الإسلام وطريقة سيد الأنام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد وتقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة الشريف حجة بمضمونه)[2].

تحريرًا فى أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير ١٥٥٢م.

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦٦.

المبحث السابع
سياسة صالح رايس

عمل صالح رايس فى سياسته الداخلية على تحقيق أمرين:

١ – تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر.

٢ – إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للأندلس، أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمى إلى ثلاثة أهداف:

أولها: إبعاد الأسبان نهائيا عن أراضى الجزائر.

ثانيها: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التى تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها: إعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس[١].

ابتدأ صالح رايس فى مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع أن يخضع الإمارات المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية وأصبح وضع العثمانيين فى الجزائر أقوى مما كان عليه ثم بدأ صالح رايس فى مخططه نحو المغرب الأقصى واستفاد من الظروف التى تمر بها تلك الديار، ووقف مع أحد أفراد أسرة بنى وطاس الذى فقد أمله فى وقوف الأسبان والبرتغاليين معه.

وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع أبى حسون الوطاسى وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التى رسا بها الأسطول العثمانى إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكى يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهى سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٣م، سقطت مدينة تازة فى يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين فى معارك متواصلة أهمها بكدية المخالى فى ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبو حسون نحو فاس التى دخلتها فى ٣صفر سنة ٩٦٤هـ/ ٨ يناير ١٥٥٤م[٢].

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٦٦.

(٢) انظر: المغرب فى عهد الدولة السعدية، ص ٨٠ – ٨١.

وأعلن الباب العالى ضم المغرب إلى الدولة العثمانية بعد أن خطب الإمام للسلطان العثمانى[1].

ازداد فزع الأسبان والبرتغال لرؤية الأساطيل العثمانية وهى تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التى سيطر عليها العثمانيون ومن ثم التوجه للأندلس، وقد جاء فى الرسالة التى بعثها الملك البرتغالى (جان الثالث) إلى الامبراطور شارل الخامس، ما يدل على هذا الفزع إذ كتب إليه يحثه على التدخل فى المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لأقدامهم فى هذه البلاد، لأن ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين[2].

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدولة العثمانية، وفى خلال تواجده فى فاس لم يترك الجهاد ضد الأسبان فأرسل فرقة من جيشه إلى الريف المغربى استرجع من الأسبان معقلهم الكبير باديس أو صخرة فالين كما يدعونها[3]، كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثمانى بوحسون بالشريف الإدريسى الراشدى مولاى بوبكر، بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثمانى، إلا أن ثورة الأهالى اضطرت صالح رايس لإعادة بوحسون إلى حكم فاس، فأذعن بوحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثمانى وإقامة حامية عثمانية فى مقر بلاطة[4].

•• تمهيده للعمل المشترك فى استرداد الأندلس:

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الأسبان، ولا يهدف من وراء أى عمل إلا جمع القوى الإسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحى، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الأسبان من وهران، من النزول إلى الأندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بنى عباس ببلاد بجاية يعلن انفصاله واستقلاله، ترامت لصالح رايس يومئذ الأنباء عن ضعف القوى الأسبانية بمدينة بجاية، علاوة عن معاناة الحامية بالضيق، فرأى صالح أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ بتطهير الشرق من الأسبان قبل أن يطهر الغرب ولعل إنقاذ بجاية سيكون له أثر فى عودة ملك بجاية

---

(١) انظر: بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى، ص ٩١.

(٢) انظر: المغرب فى عهد الدولة السعدية، ص ٨١.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٤٢.

(٤) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، إبراهيم شحاتة، ص ١٤٧.

إلى حظيرة الوحدة الإسلامية، تحت ضغط السكان سار صالح رايس فى ربيع أول سنة ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥م نحو مدينة بجاية على رأس قوة كبيرة بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم فى الطريق بالمجاهدين فى إمارة كوكو، فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة، بينما جاء الأسطول العثمانى يحمل الأسلحة والمدافع بجانب الجيش وصوب المسلمون قذائفهم على القلعة[١] ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس فى انتزاع بجاية من الأسبان فى ذى القعدة سنة ٩٦٣هـ/ سبتمبر ١٥٥٥م، ولم يستطع حاكم نابولى من نجدة حاكمها فى الوقت المناسب[٢]، كما استسلم الحاكم الأسبانى للقوات العثمانية[٣].

أولاً: مقتل بوحسون الوطاسى:

واجه بوحسون منافسة محمد الشيخ السعدى الذى جمع قوات من السوس والحوز وأتى بجنوده إلى أن وصل رأس الماء من أحواز فاس[٤] وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيين قد أخذ فى إعداد الجيوش وآلات الحرب إلى أن قضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاى محمد الشيخ والوصول إلى مراكش، ولما تقابل الجيشان قام بينهم قتال عظيم و استطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم أرسل بوحسون لمولاى محمد الشيخ وقال له: أخرج أنت وأولادك إلى لقائى وأنا أخرج إليكم بنفسى ونترك المسلمين بدون قتال، فتظاهر محمد ورجع إلى والده وأخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فاجتزوا رأسه وأتوا به جيشه، فانهزموا بلا قتال، وأخذ محمد الشيخ فاس[٥]، وهكذا مات بوحسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وإن كانت ضاعت بموته الفرصة الأولى لإعلان السيادة العثمانية على فاس، إلا أن أحداث هذه الوقائع كانت تعنى أن الفرصة مازالت واسعة أمام العثمانيين لتطبيق غزوهم المحلى للمغرب، لاسيما وأن محمد الشيخ السعدى باسم القضاء على الحزب العثمانى بين المغاربة أنزل القتل فى أكثر من مائتين من كبار أعيان فاس فضلاً عن الفقيهين المرينيين والى محمد عبد الوهاب الزقاق قاضى فاس، والى الحسن على حزوز خطيب فاس[٦].

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.
(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث محمد خير فارس، ص ٤١.
(٣) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/ ٨٨).
(٤) انظر: تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل جوليان (١/ ٣٤٤).
(٥) انظر: تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص ٢٠، ٢١.
(٦) انظر: أطوار العلاقات المغربية، ص ١٤٨.

ثانياً: التعاون البرتغالى الأسبانى السعدى ضد العثمانيين:

بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية فى بلاد المغرب، بل والأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدى العثمانى على شمال أفريقيا، بل وعلى الخلافة الإسلامية كان فى صالح الأسبان والبرتغال، ولا عجب إذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين(١).

بعث الملك جون الثالث رسالة إلى حاكم مازكان البرتغالى الفارودى كالفولو رداً على الطلب الذى تقدم به المولى محمد الشيخ إلى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين، كما حددت الرسالة بعض الشروط التى يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش، بالإضافة إلى تموين القوات المسيحية التى سيرسلها لمساعدته، وأخيراً يختتم الملك البرتغالى يوحنا الثالث بضرورة إخبار الإمبراطور الأسبانى بذلك للتنسيق فى عمل مشترك ضد العثمانيين، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك فى مطلع ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذى قام بدور الوساطة مع السعديين فإن المزوار بوغانم هو الذى كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الأسبان، وأول رسالة للمنصور فى هذا الصدد، تلك التى بعثها إلى حاكم وهران الأسبانى الكونت دى الكودين فى مطلع ربيع أول ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥م، وقد أخبر المزوار الكونت الأسبانى بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله الذى أعربا عن سرورهما لقدوم وفد أسبانى للتفاوض معه، وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاءوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة أسبانية - مغربية ضد العثمانيين(٢).

وقد جاء فى التقرير الذى رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الأسبانى الذى أشرف على سير المحادثات (. . . بعد أن أسلمناه الرسائل. . طلب إلينا الملك السعدى أن نقول له شفوياً عن سبب المهمة التى قدموا من أجلها إلى فاس. . إننا جئنا استجابة لطلب مولاى

---

(١) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص ٨٣.

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٣، ٨٤.

عبد الله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض فى أمر الجزائر.

أجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكرته وأنه يرغب فى طرد العثمانيين من بقايا أفريقيا ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الإمبراطور إمداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أى الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الإمبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات، ذلك لأن طرد العثمانيين إنما هو عمل تستفيد منه ممالك الإمبراطور والمسيحية جمعاء... وطالت المذكرات كثيراً وأخيراً علمنى القائد برشميده، بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الإمبراطور على ذلك وأن الأمر مستعجل جداً...).

(... جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها، فكان من رأى الملك السعدى تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا ورفض الملك السعدى أن يؤخذوا عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم فى حالة استسلامهم دون مقاومة. إلا أن الملك السعدى أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أى عربى عبداً، لأن هذا مخالفة للشريعة)[1].

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدى على العثمانيين، الذى لم يتورع فى الاستنجاد بالقوى المسيحية أسبانيا والبرتغال فى سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ومصالح المسلمين.

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك إلى الأمير فليب بن الإمبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه: (... يجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جداً فى الوقت الذى يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على أسطول السلطان العثمانى، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الإمبراطور وكون أمير عربى يعرض علينا نفوذه فى مهاجمة العثمانيين فى الجزائر ومحاربتهم وإبعادهم عن الأرض التى يحتلونها فى أفريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له أثنى عشر ألفا من المقاتلين الأسبان على حسابه، كذلك يتعهد الشريف السعدى فى حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائى رهينة لديه، وأن يصنع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة، بما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٦١، ٦٢.

وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد فى قبول طلب الشريف وأرسل إليه ابنى رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه بل أننى وجميع من حولى مستعدون لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً....)[١].

ثالثًا: المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة:

اطلع صالح رايس على تلك المؤامرة التى كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والأسبان والتى كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة فى الجزائر معناه خطر على أسبانيا، فبعث صالح رايس للباب العالى يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعًا وحاسمًا بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تسفر المحادثات بين الجانبين السعدى والأسبانى عن نتيجة عملية، فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة لمساعدته فى الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعى من مختلف أنحاء الدولة العثمانية هى التى تغذى الأوجاق، الذى كان تبعًا لذلك يتجدد على الدوام[٢].

رابعًا: وفاة صالح رايس:

استعد صالح رايس لفتح وهران، وضم أسطوله إلى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين ألف جندى، وكان ينوى من إتمام زحفه هذا بالمسير إلى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات وإخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهله فتوفى صالح رايس بالطاعون فى شهر رجب ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م عن عمر سبعين سنة[٣].

إن الدولة العثمانية سعت إلى ضم المغرب فى نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفًا واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره فى قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسى، يعنى فى حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية فى اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو أسبانيا مع العالم الجديد والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد أساسًا على وصول العثمانيين إلى تلك السواحل ليشاركهم فى ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت أمرة أمراء البحر العظام، أمثال خير الدين

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٦٤، ٣٦٥.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٨١.

(٣) تاريخ الجزائر العام للجيلالى (٣/٨٨ - ٨٩).

وعروج بربروسة وصالح رايس[١].

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح رايس فأبحر نحو وهران وفى الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباى، ووصلت الجيوش البرية والبحرية إلى وهران وحوصرت حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدات المتواصلة التى كانت تبعثها أسبانيا إلى المدينة المحاصرة[٢].

خامساً: احتلال محمد الشيخ السعدى لتلمسان:

انتهز الشريف السعدى محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثمانى إلى استانبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان التى كان رجالها قد انضموا إلى صفوف المجاهدين فى محاولتهم لاسترجاع وهران، فدخلها الشريف السعدى على غفلة ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم قبائل بنى راشد، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتمين بأسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة فى تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود فى وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدى.

إن السعديين كانوا يرون فى ضم تلمسان عاملاً قويًا فى توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقى لصد كل تدخل عثمانى فى المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون فى التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم فى الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب[٣]، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس، كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والأسبان[٤].

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانونى برسالة إلى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان فى نصرتهم وقد سبق وأن ظهر ذلك فى آخر ملوك دولتهم بوحسون، الذى زوده بأربعة آلاف جندى كان ذلك فى محاولة من السلطان لتكوين اتحاد إسلامى كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من السلطان السعدى محمد الشيخ، الذى رد على مبعوث السلطان بقوله:

---

(١) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر، ص ٣٤٣.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

(٣) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر، ص ٣٤٥.

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٧٨.

(سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له إن سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام)[١].

يظهر من ذلك استياء محمد الشيخ الذى لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذى كان يحلم بإمامة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها[٢].

سادسًا: مقتل محمد الشيخ:

قتل محمد الشيخ فى عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص وتطورت الأحداث بالمغرب وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك فى أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقى فحسب، بل ولأهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد الأسبان والبرتغال[٣].

•• عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

رأى السلطان العثمانى ضرورة إعادة حسن بن خير الدين إلى الجزائر وذلك بعد مصرع حسن قور عام ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧م بعد انقطاع استمر لعدة أعوام قضاها فى الجهاد فى مواطن أخرى، واستبشر الناس برجوعه، وشرع فى ترتيب أمور الجزائر، فنظم الإدارة، ورتب الجيش ترتيبًا أعانه على ضبطه وبدأ فى رحلته الجهادية ووضع أمامه هدفين عظيمين، تطهير الشمال الأفريقى من الوجود المسيحى واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين[٤].

سابعًا: الثورات الداخلية فى المغرب الأقصى:

اندلعت الثورات المناهضة للإمارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ فى تارودانت، فقامت ثورة المولى عثمان فى السوس بالجنوب فى جمادى الأولى عام ٩٦٥ هـ/ فبراير عام ١٥٥٨م، وثورة المولى عمر فى دبدو بالمشرق فى رجب عام ٩٦٥ هـ/ أبريل عام ١٥٥٨م وثورة المولى عبد المؤمن فى مراكش فى ربيع الأول عام ٩٦٦ هـ/ ديسمبر عام ١٥٥٨م، ثم كانت المذبحة الجديدة التى أنزلها عبد الله الغالب بثلاثة من أخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر أخوته للهروب إلى تلمسان والجزائر، فهرب المولى عمر

---

(١) تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص ٢٦، ٢٧.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٧٩.

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص ٨٥.

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٨٠.

والمولى عبد المؤمن وعبد الملك وأحمد المنصور، وذلك خوفًا من القتل[1].

قصد عبد الله الغالب إلى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التى نزعها عثمان، ثم عاد سريعاً إلى فاس لإعداد قواته، لصد الحملة العسكرية التى يقودها حسن بن خير الدين الذى حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد[2] وقامت بين الطرفين معركة على وادى اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شىء إلا أن حسن بن خير الدين الذى وصلته أنباء عن تحرك الأسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثمانى إلى مرفأ قصاصة فى الشمال فركب سفينة وعاد للجزائر بينما ذهب قائد تلمسان إلى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة[3].

ثامنًا: مقتل حاكم وهران الكوديت:

كان الكوديت حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الأسبانى تهديداً خطيراً، فقرر الاستيلاء على مستغانم التى جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر[4] لذلك أعد قوة كبيرة تتكون من أثنى عشر ألف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ تكبدت القوات الأسبانية فى ذى القعدة عام ٩٦٥هـ/ أغسطس عام ١٥٥٨م خسائر فادحة وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الأسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك فى تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الأسبان مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبد المؤمن فى مراكش فى ربيع الأول عام ٩٦٦هـ/ ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالى الجزائر الذى لم يمده بأية مساعدة عسكرية بل رحب به فى بلاد الجزائر وزوجه بإحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان[5].

---

(١) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٧.

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص ٨٦.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٧٢.

(٤) انظر: لسان المعرب، لأبى عبد الله السليمانى، ص ٩٤.

(٥) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٧.

المبحث الثامن

سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الأسبان

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الأسباني في وهران وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة[1]، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى، وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو بن القاضي، وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبد العزيز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب[2]، بذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة[3].

عين حسن بن خير الدين في عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م بويحيى الرايس[4] قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الأسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير أسباني بقلم فرانسكوا دي ايبانير أن بويحيى يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانياً مسلحين بالسهام والأقواس والمناجيق، والثانية يقودها قره مامي وعلى ظهرها ٨٠ عثمانياً مسلحين بنفس الأسلحة والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوة ٧٠ جنديا، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة وبالإضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بويحيى سفينتان في باديس ويقوم بصنع سفينة أخرى، ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٧٧.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٤٥.

(٣) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٣١٩).

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٨١.

الأخيرة لم تتبع قيادة بويحيى ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الإسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تجار أشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الأسبانى يشكون فيها الفظائع التى تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الأسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية(١)، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بويحيى، فعم الخوف سكان الساحل الأسبانى، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالبًا ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ(٢).

•• سياسة المولى عبد الله:

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية إلى مقاومة الهدف فى المغرب والاستعانة فى سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من أسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم، والمحافظة على أحوال السلم معهم، وقد دفعته سياسة المهادنة مع النصارى إلى الاستجابة لكثير من المطالب التى تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التى استقبل سفيرها وحمله إلى الأمير أنطونيو دى بربون رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسى معاهدة فى شوال ٩٦٦ هـ/ يوليو ١٥٥٩م مع المولى عبد الله الذى تنازل عن المرسى الصغير لفرنسا مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربى، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد أن فقد ثقته بالحرس التركى الذى سبق أن اغتال والده محمد الشيخ. كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتو كمبر سيس فى ٢١ جمادى الأولى فى سنة ٩٦٦هـ / ١٣ أبريل ١٥٥٩ م مع أسبانيا والتى أنهت الحرب الإيطالية، أخذت تبحث عن أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه فى حالة تجدد النزاع مع أسبانيا، خصوصًا وقد صار لفليب الثانى نفوذ قوى فى أوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ أسبانيا فى إيطاليا والأراضى المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذ فى التقرب من المغرب البلد الإسلامى. ومما لا شك فيه أن فرنسا كانت ترى فى المغرب حليفًا يمكن الاعتماد عليه، كما كانت ترى فى ميناء القصر الصغير الاستراتيجى الذى لا يبعد إلا بضع كيلو مترات عن جبل طارق منطقة هامة يمكن اتخاذها للهجوم على أسبانيا.

ولعل ذلك كان سببًا فى عدم قيام الدولة العثمانية بموقف إيجابى تجاه المعاهدة لأنها

---

(١) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢١٩.

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص ٩٠.

كانت تأمل فى أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد فى مسألة الهجوم على أسبانيا وأن اختلفت من الناحية العقائدية، ففرنسا كانت ترغب فى الهجوم على أسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكرى لتكون سيدة الموقف فى غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف إلى إنقاذ المسلمين من الحكام الأسبان ثم استرداد الأراضى الإسلامية فى الأندلس فحَوَّلَ حسن بن خير الدين أنظاره سنة ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٩م وتحرك بجيوشه نحو النواحى التابعة لأمير قلعة بنى عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبنى برجًا وذلك لتثبيت الوجود العثمانى هناك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندى، ثم عاد حسن بن خير الدين متوجهًا إلى بلاد حمزة فى أنحاء بربرة، عندها انقض أمير قلعة بنى عباس على الحصن العثمانى ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقى فيها الأمير عبد العزيز بن عباس صاحب القلعة حتفه وخلفه أحمد مقران الذى امتلك نواحى بلاد كوكو فاعترف به حسن بن خير الدين(١).

اشتدت حملة إزعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانئ تونس والجزائر وذلك بالإغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانئ ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان فى الشرق(٢).

أولاً: الأسطول العثمانى يهاجم جربة فى تونس:

قام الأسطول العثمانى بقيادة بيالى باشا بالهجوم على جزيرة جربة فى رمضان سنة ٩٦٧هـ/ مايو ١٥٦٠م، ونجح الأسطول فى تحقيق أهدافه ضد الأسبان(٣)، الذين لم يجدوا حرجًا من الاستنجاد بفرنسا(٤)، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالى باشا ببعض الغارات فى البحر المتوسط قبيل عودته للقسطنطينية، ولكن درغوث باشا الذى سبق أن ضايقه الثوار فى الداخل، أقنع بيالى باشا بالتوجه إلى طرابلس لمساعدته فى القضاء على التمرد قرب تاجوراء، وقد وصل بيالى باشا إلى طرابلس وصول الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التى غنمها من الأعداء بينما كانت أعلام الأعداء منكسة فوق سوارى السفن وقام بيالى باشا بطرابلس أيامًا قليلة كافية لمعاقبة سكان تاجوراء، ثم أقلع بأسطوله صوب عاصمته(٥).

---

(١) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩١).

(٣، ٤) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٨٤.

(٥) انظر: ليبيا منذ الفتح العربى، اتورى روسى، ص ١٩٠.

ثانياً: اعتقال حسن بن خير الدين وإرساله إلى استانبول:

استمر حسن خير الدين فى استعداداته لمهاجمة المغرب، فشرع فى تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوى أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالإنكشارية، الذين أحسوا بالخطر فقاموا فى صيف ٦٩٦ هـ/ ١٥٦١م باعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً إلى استانبول ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التى دفعتهم إلى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوى القضاء على الأوجاق والإعتاد على جيش محلى بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا فى اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى استانبول[١].

ثالثاً: عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

أعاد السلطان العثمانى سليمان القانونى حسن بن خير الدين إلى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة فى أواخر سنة ٩٧٠ هـ/ ١٥٦٢ م معزز بعشر سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة[٢] قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيىء العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل ما بقى لأسبانيا ببلاد الجزائر[٣].

خرج حسن بن خير الدين فى سنة ٩٧١ هـ/ ١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت أمرة أحمد مقرن الزواوى، واثنى عشر ألف رجل من زواوة وبنى عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثمانى إلى مدينة مستغانم التى اتخذها قاعدة للعمليات. وفى ١٣ أبريل وصل حسن بن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصار حولها، وكان الأسبان مستعدين لتلقى الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم[٤]، بعد أن توالت النجدات الأسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينهما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التى

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٤٦.
(٢) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٣).
(٣) انظر: حرب الثلاثمائة، ص ٣٧٩.
(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٧٩.

اتخذت من مالطة مركزًا لتجمعها(١)، وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثانى كان قد وضع برنامجًا طموحًا للأسطول الأسبانى، والبناء البحرى فى ترسانات إيطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة أسبانيا إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية فى جلسة غير عادية، وأقرت وجوب إمداد أسبانيا بمعونات مالية، لتساندها فى حربها مع العثمانيين، مما كانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التنظيم لهيكل أسبانيا وهزيمة العثمانيين فى وهران سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.

بدأ فيليب الثانى يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذى حققه فى وهران، ووجه لذلك أسطولاً فى نفس السنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطرت الأسطول إلى التراجع(٢) والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءً هامًا(٣)، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضى الأسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا ما دفع الأسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة كما كانت جزيرة بادپس بالإضافة إلى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدى الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثمانى من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الأسبان أن يخلى لهم الإدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين فى تلك الناحية(٤)، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب إذا هاجمها الأسطول العثمانى الذى علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر(٥) كما عزل بويحيى رايس من منصبه فى باديس فى أواخر عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب فى غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربى إلى جزيرة مالطة فى الشرق(٦).

---

(١) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢١٣.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٨٩.

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص ٣٦.

(٤) انظر: تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص ٨٩.

(٥) انظر: تاريخ المغرب لمحمد بن عبود، ص ١٧.

(٦) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٩٠ – ١٩١.

رابعاً: الصراع على مالطة:

كان السلطان العثمانى سليمان القانونى قد عزم على فتح جزيرة مالطة التى كانت أكبر معقل للمسيحيين فى وسط البحر المتوسط، والتى سبق أن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثمانى أسطوله بقيادة بيالى باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة، وحسن بن خير الدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة فى عملية مالطة وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الإسلامية بعد ذلك. فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل ووصل الأسطول الإسلامى أمام مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقًا شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك فى صقلية، برفقة أسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عددا كبيرا من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الإسلامى من الانسحاب فى ١٨ ربيع الأول ٩٧٣ هـ/ ٨ ديسمبر ١٥٦٥م[١].

خامساً: حسن بن خير الدين بربروسة القائد العام للأسطول العثمانى:

خلف السلطان سليمان القانونى السلطان سليم الثانى، الذى أسند منصب القائد العام للأسطول العثمانى إلى حسن بن خير الدين؛ فترك الجزائر متوجهًا إلى استانبول سنة ٩٧٥ هـ/ ١٥٦٧م[٢]، وتولى منصب بيلر باى الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، فى ذى الحجة ٩٧٤ هـ/ يونيو ١٥٦٧م، وصادف فى تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثمانى وإضراب الشعب، فاضطر إلى صرف وقته فى مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسنطينية المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلر باى وقضى على ثورته وولى على قسنطينية القائد رمضان بن تشولاق، وفى ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ/ سبتمبر ١٥٦٧م، هاجم الأسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس، إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى فى أنحاء الدولة[٣].

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨٥.

(٣) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٤، ٩٥).

سادسًا: قلج على تولى بيلربك الجزائر:

أسند منصب بيلر بك الجـزائر إلى قلج على فى ١٤ صـفـر سنة ٩٧٦ هـ/ الموافق ٨ أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه بالعزم فى تسيير الإدارة والبطولة الحربية والشجاعة[١].

اتخذ قلج على خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامى فى أسبانيا وتحرير الشمال الأفريقى من الجيوب الصليبية فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره وصار بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين[٢]، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم فى المنطقة التى نزلوا فيها تصرف السادة[٣].

سابعًا: إعادة تونس للحكم العثمانى:

صمم قلج على ضرورة تصفية القواعد الأسبانية فى تونس، قبل أن يبدأ نشاطه فى شبه الجزيرة الأيبيرية[٤]، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر وكان الأسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين فى طرابلس والجزائر[٥]، لذلك لابد من تأمينها.

كان قلج على اتصال بالوزير الحفصى أبى الطيب الخضار ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته وأرسل إلى قلج على يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون[٦].

جهز بيلربك الجزائر قلج على جيشًا مؤلفًا من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها أبا العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصى وتقدم قلج على بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثانى ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد إلى مقره بالجزائر[٧]، وبقيت منطقة حلق الوادى بيد الأسبان، لذا فإنه كتب إلى استانبول يطلب مده بقوة تكفى لتحرير الموقع[٨]، وكان

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ٩٥).

(٢) انظر: تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل جوليان (٣/ ٣٤٦).

(٣) انظر: المغرب العربى الكبير، شوقى الجمل، ص ١٠٠.

(٤) انظر: المغرب العربى الكبير، جلال يحيى، ص ٨٤.

(٥) انظر: الأتراك العثمانيون فى شمال أفريقيا، عزيز سامح، ص ٨٤.

(٦) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٤٩.

(٧) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٦).

(٨) انظر: الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية، ص ٨٥.

اهتمام قلج على بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد أضعف التواجد الأسبانى فى الشمال الأفريقى(١).

ثامنًا: ثورة مسلمى الأندلس:

كانت حركة الجهاد فى الشمال الأفريقى قد شجعت مسلمى الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التى بنيت فى نفوسهم على مر السنين وسادت الأقاليم الأسبانية موجة من الظلم والإرهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمى أسبانيا فى الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصِّرين ظاهريًا، يتأهبون للانقضاض على الحكم الأسبانى(٢).

سادت أسبانيا إرهاصات ثورة المسلمين فى غرناطة فشكل الملك الأسبانى فيليب الثانى نوعًا جديدًا من الميلشيات تقيم فى كل مدينة من مدن أسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم فى الولاء لسيادة الأمير السعدى، كما تلقى مسلمو الأندلس مساعدات عثمانية(٣)، أصبح الموقف صعبًا بالنسبة لأسبانيا خاصة غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثانى كانت متفرقة فى أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين.

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمى الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين فى الشمال الأفريقى وفى بعض أقاليم أسبانيا، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمى الأندلس إلى حرب البورشارات التى هى أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة، كانت هذه الحرب فى ١٥٦٨م، وتزعمها محمد بن أمية(٤).

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٩٥.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة، ص ٣٩٢.

(٣) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٧٩ - ٢٠٤.

(٤) انظر: محنة المورسيكوس فى أسبانيا لمحمد قشتيليو، ص ٣٣ - ٣٤ - ٣٥.

تاسعاً: خيانة السلطان السعدى الغالب بالله لمسلمى الأندلس:

بذل السلطان السعدى الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجونه من عتاد وسلاح ورجال... لكن استمر الغالب بالله محافظًا على روابطه الودية مع فيليب الثانى، وعمل على خذلان أهل الأندلس: (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة فى دينهم وأقوالهم وأولادهم وفى نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من فى قلبه ذرة من الإيمان، وأدنى مملكة من الإسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصرانى، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقى المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس، فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقًا وغربًا وهم يناشدونه الله فى الإغاثة وأكثر كتبهم إلى مولاى عبد الله لأنه هو القريب إلى أراضيهم، زمان قد قوى سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشًا منهم بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم فى قولهم ويظهروا فعلهم، فما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وغشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتى فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به فى صالح ملكه)[1].

تسارعت الأحداث فى أسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين فى أوائل سنة ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٩م أكثر من مائة وخمسين ألفا، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الأسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا فى الأراضى المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين فى الجزائر[2].

عاشراً: قلج على يقف موقف الأبطال مع مسلمى الأندلس:

كان قلج على على اتصال مباشرة بقيادة مسلمى الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانية واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار فى أسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمى الأندلس على القيام بثورة عارمة فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية مع الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الأسبانى[3].

---

(١) مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٩٨.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٢٦).

جمع قلج على جيشًا عظيمًا قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستون ألفًا من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم إلى مدينتى مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول فى بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفى اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثمانى أمام مرسى المرية الأسبانى، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه الأسبان، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح[1] بعد أن نجح قلج على فى إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الأسبانى[2]، لم تقع الثورة فى الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الأسبان[3].

لقد قام قلج على فى شعبان سنة ٩٧٦ هـ/ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين فى محاولتهم الأولى، وحاول إنزال الجند العثمانى فى الأماكن المتفق عليها، لكن الأسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلج على عن النزول وكان الثورة فى عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية فى البحر فالأسطول الجزائرى صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدون[4].

استمر قلج على فى إمداد مسلمى الأندلس رغم الكارثة التى حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من إنزال أربعة آلاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل فى مراكز قيادة جهاد مسلمى الأندلس[5].

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعمًا جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلج على بذلك فى ٢٣ شوال ٩٧٧ هـ/ ٣١ مارس ١٥٧٠م (... عليك بالتنفيذ بما جاء فى هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل ما

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.
(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٢٦).
(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٩٩.
(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٣.
(٥) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٤.

يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار أصابهم الدمار غير جائزة...) وكان القائد المجاهد قلج على قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك لكن ما شاع عن تجمع الأسطول الصليبى للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثمانى له بالاستعداد للمشاركة فى هذه المعركة جعله مضطرا للبقاء فى الجزائر منتظرًا لأوامر استانبول(١).

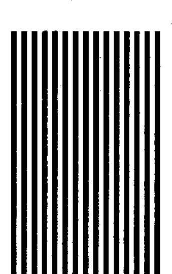
وفى غمرة الثورة الأندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهاد وهاجمه المتآمرون وقتل فى منزله واختير مولاى عبد الله بن محمد بن عبو بدلاً منه وبعث قلج على تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد فى حملاته الأولى ضد النصارى الأسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الأسبانية لهذا التطورات وعينت دون جوان النمساوى على قيادة الأسطول الأسبانى (وهو ابن غير شرعى للأمبراطور شارل) فباشر قمع الثورة فى سنواتها ٩٧٧ - ٩٨٧ هـ/ ١٥٦٩ - ١٥٧٩م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة. وانتهى الأمر باذعان مسلمى الأندلس، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاى عبد الله أن عاد الكرة، فاحتال الأسبان عليه، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه منصوبًا فوق أحد أبواب غرناطة زمنًا طويلاً(٢).

*****

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٠٠.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٥.



المبحث التاسع

المتوكل على الله ابن عبد الله الغالب السعدى

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذى كان يضمر الشر لعميه عبد الملك أبى مروان وأحمد المنصور فخرجا من المغرب واتجها إلى السلطان العثمانى يستنجدان به[١]، وما من شك فى أن انتصار العثمانيين فى تونس ضد الأسبان واستتباب الأمر فيها، قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربى، لبسط نفوذه على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية، ويوطد أقدام العثمانيين فى مجموع الشمال الأفريقى علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب فى قلوب الأسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان فى استانبول[٢].

تابع المتوكل على الله خطة والده فى التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين، حيث لم يعد لديه شك فى أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية، فعقد اتفاقًا مع إنجلترا، التى كانت ترغب فى تجارتها مع المغرب للفوائد تعود على التجار الإنجليز من وراء ذلك، زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى للمغرب، خصوصًا وقد كانت إنجلترا فى حالة حرب ضد أسبانيا[٣]، وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الإنجليز، يعد العمل الوحيد الذى قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار أن الإنجليز كانوا من بين التجار الأجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل فى هذا الوقت إلى السلاح لصد الخطر العثمانى ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

وجدت الدولة العثمانية فى انشغال ملك أسبانيا فيليب الثانى بأحداث أوروبا الغربية

---

(١) انظر: الحروب الصليبية فى المشرق العربى لمحمد العمروسى، ص ٢٦٥.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص ٣٦٨.

(٣) انظر: بداية الحكم المغربى فى السودان، ص ٩٤.

حيث ثورة الأراضى المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل فى المغرب(١)، فأمدوا المولى عبد الملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة، ودخل المولى عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش أدراجه إلى الجزائر(٢).

وقام عبد الملك بإصلاحات فى دولته من أهمها :

١ - أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

٢ - اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التى غنمها من حروبه على سواحل المغرب سبب فى انتعاش ونمو الميزان الاقتصادى للدولة.

٣ - أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم فى التسليح والرتب.

٤ - استطاع أن يبنى علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين فى المغرب.

٥ - فرض احترامه على أهل عصره، حتى على الأوروبيين، احترموه وأجلوه، قال الشاعر الفرنسى أكبريبا دوبين المعاصر لأحداث هذه الفترة: (كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الأسبانية والإيطالية والأرمنية والروسية، وكان شاعراً مجيداً فى اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك)(٣).

٦ - اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى دراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التى لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب فى كتب التاريخ بالذهبى ساعده الأيمن فى كل شئون الدولة)(٤).

---

(١) انظر: المغرب فى عهد الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص ٩٧، ٩٩.
(٢) انظر: بداية الحكم المغربى فى السودان، ص ٩٤.
(٣) وادى المخازن، ص ٣٧.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٩، ٤٠.

أولاً: تحالف محمد المتوكل السعدى مع ملك البرتغال سبستيان:

كان محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبد الملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان واتفق معه على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغرب، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربى[1].

انتقل المتوكل إلى سبته وأقام بها أربعة شهور، ومنها اتجه إلى طنجة فى انتظار دون سبستيان على رأس القوات العسكرية.

وفى أثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوثوب على المغرب، وإخضاعه بالكامل، أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة، وأشفعوا فى ذلك بفيلق عسكرى[2]، حيث تتجلى هنا الروح الإسلامية فى الدفاع عن عقيدتهم، لأن المعركة معركة المسلمين جميعًا وخصوصًا الدولة العثمانية التى كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين وأراضيهم بعيدة عن المصالح المادية[3].

ثانيًا: معركة وادى المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التى قامت بها الدولة السعدية فى زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال فى معركة الملوك الثلاثة، والتى تسمى فى كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادى المخازن بتاريخ: ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ الموافق ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨م.

* **لقد كان لتلك المعارك أسباب من أهمها:**

١ - أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزى الذى لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتى جعلتهم بنسحبون من آسفى وأزمور وأصيلا وغيرها فى زمن يوحنا الثالث آب (١٥٢١ - ١٥٥٧م).

٢ - أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حربًا مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامى يدفعه فى ذلك

(١) انظر: تاريخ المغرب، محمد بن عبود (٢/ ١٩).
(٢) انظر: بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى، ص ٩٤.
(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٧١.

حقده على الإسلام وأهله عمومًا، وعلى المغرب خصوصًا، لقد جمع ذلك الملك بين الحقد الصليبى والعقلية الاستعمارية التى ترى أن يدها مطلقة، فى كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أى خطر خارجي من أى جهة، ومن جهة أخرى خطط لغزو واحتلال المغرب(١).

ثالثا: حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الأسبان والبرتغاليين والطليان والألمان وجهز هذه الألوف بجميع الأسلحة الممكنة فى زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب(٢).

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا فى عام ١٥٧٨م.

رابعًا: الجيش المغربى:

كانت الصيحة من جنبات المغرب الأقصى: «أن اقصدوا وادى المخازن للجهاد فى سبيل الله».

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المخلوع أن يخترق ذلك التلاحم فكتب إلى أهل المغرب ما استنصرت النصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين وقد قال العلماء: إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقا بكل ما أمكنه وتهددهم(٣) قائلاً: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

فأجابه علماء المغرب عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيه: (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله وبعد:

فهذا جواب من كل الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب. لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوب والمصاب.. وأما قولك فى النصارى فإنه رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، فيه المقت الذى لا يخفى، وقولك رجع إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظورات يحضر عندهم غضب

---

(١) انظر: وادى المخازن، ص ٤٥، ٤٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥١.

الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله.

والثانى: إنك استعنت بالكفار على المسلمين: قال عليه الصلاة والسلام: إنى لا استعين بمشرك.. الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديمًا: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان وأشرق عليهم شعاع الإيقان؛ فمن قائل يقول لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ [العنكبوت: ١١] وقد افتخرت فى كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم، وأنى لك هذا[١] مع قول الله تعالى: ﴿ **وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢] ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطأوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن فى الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك بالله المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: (إن سطوتك قد ظهرت فى خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن تقدم عليك، فأنت نصرانى حقيقى شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب)[٢]. فليس من الشجاعة ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن العزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين، وكان لذلك الخطاب أثر فى غضب سبستيان وقرر أخيرًا التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرائش والقصر[٣].

وتحركت قواد عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

---

(١) انظر: وادى المخازن، ص ٥٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٣.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥٤.

خامساً: قوى الطرفين (البرتغالى النصرانى والإسلامى المغربى):

*** الجيش البرتغالى:**

١٢٥,٠٠٠، وما يلزمهم من المعدات والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهى تتحدث عن ١٤,٠٠٠ راجل، و٢٠٠٠ فارس، و٣٦ مدفعًا، مقابل ٥٠,٠٠٠ راجل فى الجيش المغربى و٢٢,٠٠٠، ١,٥٠٠ من الرماة، ٢٠ مدفعًا. ذكر أبو القاضى فى (المنتقى المقصور): (عدد الجيش البرتغالى مائة ألف وخمسة وعشرون ألفًا)[١].

وقال أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى (مرآة المحاسن): أن مجموعهم كان مائة وعشرين ألفًا، وأقل ما قيل فى عددهم ثمانون ألف مقاتل[٢].

كان مع الجيش البرتغالى: ٢٠,٠٠٠ أسبانى، ٣٠٠٠ ألمانى، ٧٠٠٠ إيطالى... وغيرهم عدد كبير.. مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعًا.. وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين ٣٠٠ - ٦٠٠ رجل على الأكثر[٣].

*** الجيش المغربى:**

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد يملكون تفوقًا فى الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعًا فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

١ - ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

٢ - التفاف الشعب حول القيادة، والتحام القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة فى تاريخ الإسلام وفاصلة فى تاريخ المغرب، كان الشيخ أبو المحاسن الفاسى زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل فى شحذ الهمم ورفع المعنويات وقد قاد هذا الشيخ أحد جناحى الجيش المغربى وأبلى بلاءً حسنًا رائعًا وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئًا[٤].

---

(١) انظر: وادى المخازن، ص ٥٦.

(٢) انظر: الاستقصاء (٥/ ٦٩) نقلاً عن وادى المخازن، ص ٥٦.

(٣) انظر: وادى المخازن، ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨.

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله وأخوه أبو العباس والقادة العثمانيون عبقرية فذة فى المعركة.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميدانًا للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكمًا عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها»(١).

لقد جعل عبد الملك المدفعية فى المقدمة، ثم صفوفا للرماة المشاة، وجعل قيادته فى القلب، وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة، وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض فى الوقت المناسب وهى فى غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر(٢).

كان صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ يومًا مشهودًا فى تاريخ المغرب، ويومًا خالدًا فى تاريخ الإسلام.

وقف السلطان عبد الملك المعصتم بالله خطيبًا فى جيشه، مذكرًا بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر(٣):

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠].

* **كما ذكر بوجوب الثبات:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

* **وبضرورة الانتظام:**

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

وذكر أيضًا حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

---

(١) انظر: وادى المخازن: ص ٦٢.

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦٢.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[1].

ولم يأل القسسُ والرهبان فى إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من أوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم فى هذه الحروب التى اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذانًا ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقًا كالسهم شاهرًا سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذى سايره من مراكش ودخل خيمته وما هى إلا دقائق حتى فاضت روحه فى ساحة الفدا، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً: ومتى كان المرض يثنى المسلمين عن الجهاد فى سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب فى الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيرًا أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلانًا أن يذهب إلى موضع كذا، وفلانًا يلزم الراية، وفلانًا يتقدم وفلانًا يتأخر)[2].

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالى، وأوقدت النار فى برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادى المخازن وأصبحت تلك القنطرة أثرا بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصُرع سبستيان وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقًا فى نهر وادى المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[3].

جاء فى (درة السلوك) لأحمد بن القاضى، وهو معاصر لأحداث المعركة «مخطوط بدار الوثائق بالرباط د ٤٢٨، ص ١٤»[4]:

---

(١) انظر: وادى المخازن، ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦، ٦٧.

(٤) دعوة الحق السنة ١٩، العدد ٨، رمضان ١٣٩٨ هـ، ص ٥٦ نقلاً عن وادى المخازن، ص ٦٧.

وابن أخيـه[١] بالنصارى اعـتـصـمـا	وصـار يسـتـجـدهم لمن سَـمَـا
أجـابه اللعينُ بسـتـيـان[٢]	بجـيـشـه ومـعـه الأوثان
وعـدد الجـيـوش الذى جـمـعـا	ينيف عن مـائة ألف سُـمِـعـا
فـخلص الإسـلام من يَدِ اللعين	بصـبـره على لقـاء المشـركين
مـا منهم إلا قـتـيل وأسـيـر	فى سـاعـة من الزمـان[٣] ذا شـهـيـد
مـات بهـا بسـتـيـان اللعين	فـمـاله عن الردى مـعـين
ثم محـمـد[٤] الـذى أتـى بـه	مـات غـريقًـا يومًـا فـانتـبهِ
لحكمـة الله العظيم القـاهر	أفـادهـم وزيَّـنَ المنـابـر
بذكـر عـمـه أبى العـبـاس	الحـازم الرّأى شـديد البـاس
نجلُ الرسـول المصطفى المختـار	بـه زهـا المغـربُ على الأقطار[٥]

سادساً: أسباب نصر وادى المخازن:

١ – القيادة الحكيمة التى تمثلت فى زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبى العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال أبى على القورى، والحسن العلج، ومحمد أبى طيبة، وعلى بن موسى، الذى كان عاملاً على العرائش.

٢ – التفاف الشعب المسلم المغربى حول قيادته بسبب أبى المحاسن يوسف الفاسى والذى استطاع أن يبعث روح الجهاد فى القوى الشعبية.

٣ – رغبة المسلمين فى الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم فى الأندلس.

---

(١) إشارة إلى المتوكل.

(٢) بستيان (لضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان.

(٣) إشارة إلى قصر مدة المعركة.

(٤) محمد المتوكل المخلوع.

(٥) برده الغزو الصليبى وانتصاره الباهر فى معركة وادى المخازن.

٤ – اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة فى الرمى بالمدفعية، وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمى والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

٥ – الخطة المحكمة التى رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادى المخازن.

٦ – القدوة والأسوة المثالية التى ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركا بالفعل فى القتال فكان حالهما له أثر أشد فى أتباعهم من قولهم.

٧ – تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أى فرصة للفرار.

٨ – استبداد سبستيان بالرأى وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

٩ – وعى الشعب المغربى المسلم بخطورة الغزو النصرانى البرتغالى واقتناعه بأنه جهاد فى سبيل الله ضد غزو صليبى حاقد(١).

١٠ – دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم، وغير ذلك من الأسباب.

سابعًا: نتائج المعركة:

١ – أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبى وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.

٢ – وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبى إلى مقر السلطنة العثمانية، وفى زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب وغيرها، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد فى ديارهم ووردت الرسائل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربى نصرهم العظيم.

---

(١) انظر: وادى المخازن، ص ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

٣ – ارتفع نجم الدولة السعدية فى آفاق العالم وأصبحت دول أوروبا تخطب ودها واضطر ملك البرتغال الجديد وملك أسبانيا أن يرسلوا وفوداً محملة بالهدايا الثمينة. ثم قَدِمَتْ رسل السلطان العثمانى مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسى على أعتاب تلك القصور)[١].

٤ – سقط نجم نصارى البرتغال فى بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس ماريه – المؤرخ البرتغالى – واصفًا نتائج المعركة:

« وقد كان مخبوءاً لنا فى مستقبل الأعصار، العصر، الذى لو وصفته – كما وصفه غيره من المؤرخين – لقلت: هو العصر النحس البالغ النحوسة، الذى انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل الذريع، وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذى هلك فيه سبستيان فى القصر الكبير فى بلاد المغرب »[٢].

٥ – مات فى تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبى حاقد سبستيان ملك البرتغال، وملك مخلوع خائن محمد المتوكل، ومجاهد شهيد، عبد الملك المعتصم بالله.

٦ – سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

٧ – سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار فى العلوم والفنون والصناعات فى بلاد المغرب.

٨ – حدث تحول جذرى فى التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية الغزو الفكرى لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية فى المشرق والمغرب[٣].

استمر أحمد المنصور على منهج أخيه فى بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب الأقاليم وتنظيمها، وكان

---

(١) الاستقصاء (٥ / ٩٢) نقلاً عن وادى المخازن، ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه (٥ / ٨٥ – ٨٦) نقلاً عن وادى المخازن، ص ٧١.

(٣) انظر: وادى المخازن، ص ٧٦.

أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير فى الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروفا لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت فى يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصى بجهاز الأمن والاستخبارات التى تحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائى، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تمامًا، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل فى السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسى بين القضاء الأوروبى والقضاء المغربى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين (١٦، ١٧م) فقال: «فى الوقت الذى كانت أوروبا فى العصر السعدى يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم فى عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا فى القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم[١].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله فى جامع القصبة فى مراكش، بجوار قصره وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء فى الأقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية، واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه وعمل على إقامة محطات فى أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلو مترًا بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادى بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانونى للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله، وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلى المدن والمراكز القروية عندما يقتضى الأمر استشارات على نطاق شعبى واسع[٢].

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثمانى فى التسليح والرتب واللباس، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك

---

(١) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادى المخازن، ص ٤١.

(٢) انظر: وادى المخازن، ص ٤٢، ٤٣.

ومن أهم هذه القيادات، إبراهيم محمد السُّفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد العمري المعقلي.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب، واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصًا في ميناءى العرائش وسلا[١].

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الأسبان والإنجليز والعثمانيين، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده[٢].

ثامنًا: اقتراح عثماني على السعديين:

بدأت القوات الأسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو مقاومة تلك القوات الأسبانية، التي ضمت أراضيه سنة ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٠م عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الأسبان على أساس إمداده بأسطول حربي وقوات عسكرية فبعث برسالتين في رجب ٩٨٨هـ/ سبتمبر ١٥٨٠م، قال فيها: « . . . فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغال، أو كاد وأنه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد، وأنه لكم جار وعدو مضرار، حركنا الحمية الإسلامية.. لإظهار الألفة الأزلية أن تتخذ عهدًا وتؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة... فإذا تم هذا الشأن.. نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية (سفن من الأسطول العثماني) وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس..».

كان قلج على بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت أنظاره تتطلع إلى المغرب[٣]، وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، لضمه إلى الدولة العثمانية[٤]، خاصة بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدولة، صدرت

---

(١) انظر: وادي المخازن، ص ٤٤.

(٢) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، نور الدين حسام، ص ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨.

(٣) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، ص ٥٢.

(٤) انظر: تاريخ الجزائر الحديث للجيلاني، ص ١٠١.

الأوامر إلى قلج على قائد الأسطول العثمانى بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج على إلى الجزائر فى جمادى الآخرة ٩٨٩ هـ/ يونيو ١٥٨١م، بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثمانى، إذ جهز المنصور جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مدخل مملكته، وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لأستانبول، وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكرى مع الملك الأسبانى الذى انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة فى ٢٧ جمادى الآخرة ٩٨٩ هـ/ ٣١ يوليو ١٥٨١م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل العثمانى، مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى. وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثمانى بداً من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج على[١]، وجعفر باشا نائب قلج على فى الجزائر، بالتخلى عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق، حيث اضطربت الأمور بالحجاز فتخلى قلج على عن هدفه الطموح فى استرداد الأندلس، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامى[٢].

تردد السفراء بين الأستانة وفاس فتوجهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمى وأبى الحسن على بن محمد التمكروتى بين عامى **٩٩٧ هـ/ ١٥٨٨م**، **٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠م**، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانيا فى **٩٩٨ هـ/ ١٥٨٩م**[٣]، لم تتحقق رغبة السلطان العثمانى فى التحالف مع السعديين لاسترداد الأندلس وذلك بسبب انشغال الدولة بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية فى إيران، والهابسبرج فى وسط أوروبا، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية فى الحجاز، وتدعيم حزامه الأمنى[٤].

تاسعاً: جهاد الوالى الجزائرى وتغير الأوضاع:

جهز الوالى العثمانى فى الجزائر أسطوله فى سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢م لمحاربة أسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون فى برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكنارى الى تحتلها أسبانيا، فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها ولم يكن الأسطول العثمانى يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالأسبانيين ولتدمير منشآتهم بل

---

(١) انظر: المغرب فى عهد الدولة السعدية، ص ١١٢.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر للجيلانى، ص ١٠١.

(٣) انظر: بداية الحكم المغربى بالسودان، ص ٩٧.

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص ٥٣٢.

كان بالدرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من نكبتهم، وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحيانًا(١).

ازداد تطاول الإنكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع(٢)، لذلك حضر حسن فنزيانو من نشاطه البحري، الذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية، وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة ٩٩١ هـ/ أبريل ١٥٨٣م، ولم يعارض الباب العالي في توليه، لما كان له من العقل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتن واستتباب الأمن بالجزائر.

باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاط وحزم، فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الأسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولي عليه من الأسرى والمغانم في غزواته.

وفي ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية وحمل أعدادًا كبيرة من مسلمي الأندلس، إذ أنقذهم من اضطهاد الأسبان، كما استطاع في السنة التالية إنقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر وفي السنة بعدها توغل مراد رايس في المحيط الأطلس فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان في استانبول ليتولى منصب إمارة البحر «قبودان دوريا»(٣) وذلك بعد وفاة قلج علي سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

عاشرًا: انتهاء نظام البيلربك في الجزائر

بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكًا واسعي السلطة والنفوذ، واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس(٤)، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

---

(١) انظر: الجزائر والحملات الصليبية، ص ٥٩.
(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٩.
(٣) انظر: تاريخ الجزائر العام للجيلاني (٣/ ١٠٢، ١٠٣).
(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٤١٠.

وكان الباشا موظفا ترسله الأستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسى أو سند محلى بين القوى التى تسيطر على البلاد[١]، ويكون الباشا فى كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة استانبول.

كانت أحداث ما بعد ٩٩٧ هـ/ ١٥٨٨ م فى نيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطنة فيها على حساب سلطة الباشا إلا أن طبيعة علاقات السلطة فى داخل الولاية مع إمساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية فى الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنويًا والمساهمة فى حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الأستانة ممثلاً أعلى للسلطان فى حكم النيابة وهى جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية[٢].

كان ذلك هو التحول الذى جرى فى الدولة نحو الشمال الأفريقى، إثر معركة ليبانتو سنة ٩٧٨ هـ / ١٥٧١م، فبعد أن كان الشمال الأفريقى تحت مسئولية البيلربك الموجود فى الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هى طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى، لقد كان موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الإنكشاريين من جهة أخرى وجبهات المشرق من جهة ثالثة وغير ذلك من الأسباب سببًا فى إضعاف همة الدولة فى إرجاع الأندلس.

*** لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:**

١ - ظهور شخصية قوية حاكمة فى المغرب ونعنى به المنصور السعدى.

٢ - وفاة قلج على فى ١٥٨٧ م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقى فى نظام الولايات.

٣ - كان النصر الذى أحرزه المغاربة على البرتغاليين فى معركة وادى المخازن سببًا فى تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم[٣].

لقد كانت الدولة العثمانية فى جهودها البحرية فى البحر المتوسط أكثر توفيقًا من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

---

(١) انظر: المغرب العربى للعقاد، ٢٨.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٧٧.

(٣) انظر: الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان، ص ١٢٣.

١ - قرب الشمال الأفريقى من كل من استانبول ومصر يجعل الإمدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال فى المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لا تصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

٢ - كانت للعثمانيين قواعد قوية فى شمال أفريقيا تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية فى محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

٣ - لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة فى شمال أفريقيا بل كانت الهيمنة للمذهب السنى الذى استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها[١].

*****

(١) انظر: الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان، ص ١٢٤.



الفصل الخامس

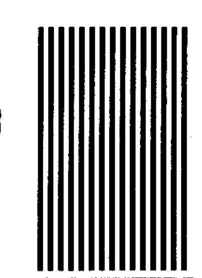
بداية اضمحلال الدولة العثمانية

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثمانى سليمان القانونى عام (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت فى عهد السلطان سليمان، إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا التي تدخلت للتآمر ضد الأمير مصطفى ليتولى ابنها سليم الثانى الخلافة بعد أبيه وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، مما أدى إلى سخط الإنكشارية ونشوب ثورة كبرى ضد السلطان وأخمدها السلطان سليمان، وبذلك تم القضاء على مصطفى وابنه الرضيع، وكذلك قتل السلطان ابنه بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسة من أحد الوزراء (١)، ومن مظاهر الضعف فى عهد سليمان بدء انسحاب السلطان من جلسات الديوان، وبروز سطوة الحريم والعجز عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى أدت إلى نشوب القلاقل الشعبية فى الروميلى والأناضول (٢) .

---

(١) انظر : فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ١٠٢ .

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى ، ص ٩٤ .



المبحث الأول

السلطان سليم الثانى

تولى الحكم فى ٩ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسى القدير محمد باشا الصوقللى [١] لانهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة فى قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة فى عام ٩٧٥هـ/ الموافق ١٥٦٧م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها فى بلاد المجر، ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أمراء تراسلفانيا والأفلاق والبغدان [٢] .

أولاً: تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا :

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا فى عام ٩٨٠هـ الموافق ١٥٦٩م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية، وجرى تعيين هنرى دى فالوا – وهو أخو ملك فرنسا – ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التى أصبحت بذلك ملكة التجارة فى البحر المتوسط، وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة – أى فرنسا – بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى جميع أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام وقامت بزرع محبة فرنسا فى نفوس نصارى الشام مما كان له أثر يذكر فى ضعف الدولة، إذ امتد النفوذ الفرنسى بين النصارى وبالتالى ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات، فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالاستقلال بدعم وتأييد من دول أوروبا النصرانية [٣] .

إن اقتناع الدول الأوروبية بكون نظام الامتيازات الأجنبية، حقاً من حقوقها الطبيعية هو الذى دفع فرنسا لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التى كان السلطان مراد الرابع

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤ .

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٢٤ .

(١٦٢٤–١٦٤٠م) يحاربها، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارة بحرية لإرهاب الدولة العلية ومطالبتها بتحديد الامتيازات. لكن الصدر الأعظم حينئذ والذى كان مازال يمتلك قراره السياسى، أخبر السفير «بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ، ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب، الأمر الذى جعل فرنسا تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام ١٦٧٣م، مما زاد الطين بلة، وبدل أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث، أمر السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م) بتفويض فرنسا حق حماية بيت المقدس [١] تتابع بتجديد الامتيازات، وفى كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة، ففى تجديد عام ١٧٤٠م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسا. ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقى عندما احتل نابليون بونابرت مصر، فقد أوقفت السطنة العمل بها، غير أن نابليون كان قد تراجع فى الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع السلطنة، وذلك حين عرض انسحاب فرنسا من مصر لقاء تجديد الامتيازات، وقد تم ذلك بالفعل فى ٩ تشرين أو (أكتوبر) ١٨٠١م وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضى بمنح فرنسا حرية التجارة والملاحة فى البحر الأسود [٢] .

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السلطنة ولقد بين المؤرخ اليونانى ويمترى كيتسيكس: « .. إن الامتيازات حطمت اقتصاد الامبراطورية بتحطيمها النظام الضريبى العثمانى القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية... » [٣] بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين مادام الأوروبيون لا يخضعون للسلطات العثمانية، فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية [٤] .

ثانياً: حاكم خوارزم يطلب الحماية من السلطان سليم الثانى:

اشتكى حاكم خوارزم للسلطان سليم الثانى من أن شاه فارس يقبض على الحجاج الوافدين من تركستان، بمجرد عبورهم حدوده، وأن موسكو بعد استيلائها على استراخان منعت مرور الحجاج والتجارة، ووضعت العقبات والعراقيل أمامهم، لهذا طلب حاكم

(١ ، ٢) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوى، ص ٢٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧ .

(٤) انظر : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليه (١ / ٧٥) .

خوارزم، وحاكما بخارى وسمرقند من السلطان سليم الثانى أن يفتح استراخان بهدف إعادة فتح طريق الحج [١] ولاقى ذلك الطلب القبول لدى الدولة العثمانية، أعد صوقللى باشا الصدر الأعظم فى الدولة حملة كبرى سنة ٩٧٦هـ - ٩٧٧هـ/ ١٥٦٨ - ١٥٦٩م للاستيلاء على استراخان وتحويلها إلى قاعدة عثمانية للدفاع عن المنطقة، وأن يصل ما بين نهرى الفولجا والدون بقناة صالحة لمرور السفن لتسهل دخول الأسطول العثمانى بحر الخزر (قزوين) عن طريق البحر الأسود، لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسى نحو الجنوب، وتطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان بل وغزو فارس من الشمال، بدلاً من مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويين وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدى إلى إحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب[٢].

شرع العثمانيون فى تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا، وحل شهر جمادى الأولى ٩٧٧هـ/ أكتوبر ١٥٦٩م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، وإن كان موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استراخان إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية، ومع هذا استطاع صوقللى باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال وغرب البحر الأسود [٣].

ثالثاً: فتح قبرص:

كانت إيطاليا وأسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع فى أوروبا عن تكوين حلف ضد السلطان، ولكن لم يعمل شيء فى حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة، نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو الذين واجهوا القوة العثمانية التى وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيون جميع وسائل الحصار المعروفة، من فر وكر، وزرع للألغام ولم ينتج أى تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة، لصار العثمانيون فى خطر، إلا أن المجاعة قامت بعملها، واستسلمت المدينة فى ربيع الثانى ٩٧٩هـ أغسطس ١٥٧١م.

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ١٤٤ .

(٢) انظر: فتح عدن، محمد عبداللطيف البحراوى، ص ١٤٥ .

(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٤٧ .

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الذين لايزال أحفادهم مقيمين فى الجزيرة، ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثمانى الذى أنقذهم من الاضطهاد الكاثوليكى الذى مارسته البندقية لعدة قرون إلا أن احتلال العثمانيين أثار الدولة الكاثوليكية (١) .

رسا الأسطول العثمانى بعد انتهاء مهمته فى ابنانجنى وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء حيث تتوقف ساحة المعارك فى مثل هذا الوقت من السنة والاستعداد للسنة المقبلة (٢) .

رابعاً: معركة ليبانتو (٣):

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامى العظيم الذى هدد القارة الأوروبية، من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحرا، فأخذ البابا بيوس الخامس (١٥٦٦ - ١٥٧٢م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية (٤). وقد كتب يقول: « .. إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا» (٥) عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثانى ملك أسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة فى أوائل ٩٧٩هـ - مايو ١٥٧١م، تعهدوا فيه بالقيام بهجوم بحرى ضد العثمانيين، شارك فى الحلف كذلك بعض المدن الإيطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف، فارتبطت توسكانى وجنوة، وسافوى، وبعض الإيطاليين فى الحلف المقدس (٦)، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فأجابه البابا طالباً منه التحلل من مواثيقه هذه ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الامبراطور عهوده ومواثيقه التى أبرمها مع العثمانيين، واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا واختير (دون جون) النمساوى قائداً للحملة وجاء فى أحد بنود المعاهدة النصرانية: «إنَّ البابا بيوس الخامس وفيليب ملك أسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ١٤٦، ١٤٧ .
(٢) انظر: فلسفة التاريخ العثمانى لمحمد جميل بيهم، ص ١٤٢ .
(٣) تقع فى الطرق الشمالى للفم الغربى لخليج كورنث فى اليونان اليوم .
(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٦ .
(٥) تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢٥ .
(٦) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٢ .

جميع المواقع التى اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس » [١].

سار دون جون إلى البحر الأدرياتيك، حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيد عن ليبانتو والذى اسمها أعطى للمعركة .

كان من رأى قادة الأسطول الإسلامى الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبى، غير أن القائد العام على باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه فى عدد سفنه، ونظم على باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو، ومسيرتها فى عرض البحر، وقد قسمها على باشا إلى جناحين وقلب، فكان هو فى القلب وسيروكو فى الجناح الأيمن وبقى الجناح الأيسر بقيادة قلج على .

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامى ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج على، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو، وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز [٢] .

خامساً: احتدام المعركة:

احتدمت المعركة فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ/١٧ أكتوبر ١٥٧١م، أحاط الأسطول الإسلامى بالأسطول المسيحى وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة [٣]، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت والباقى غنمه العدو، وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة [٤]، وأسر لهم عشرة آلاف رجل[٥]، واستطاع قلج على إنقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التى غنمها ومن بينها السفينة التى تحمل علم البابا، رجع بها لأستانبول التى استقبلته استقبال الفاتحين رغم الشعور بمرارة الهزيمة [٦]، وبادر السلطان سليم الثانى أثر ذلك بترفيع قلج على إلى رتبة قائد البحرية العثمانية « قبودان باشا » مع الاستمرار فى منصبه كبيلربك للجزائر[٧].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٦ .

(٣) انظر : جهود العثمانيين، ص ٤٥٤ .

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢٦ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٦ .

(٦) انظر : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٧) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٤ .

سادساً: أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتفلت القارة الأوروبية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين [١]، فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار، وأقيمت معالم الزينات في كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتحدة الذى أحرز هذا الانتصار إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال فى كنيسة القديس بطرس بمناسبة هذا النصر (إن الإنجيل قد عنى دون جون نفسه حيث بشر بمجئ رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحى ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحرى حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانتو، إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها [٢].

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأنَّ عدوه لايزال عظيماً مرهوب الجانب، وحاول إثارة شكوك الشيعة الاثنى عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدى، فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ما قال له: « .. لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات...» [٣].

وأرسل يستعدى ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته [٤].

إن نتيجة معركة ليبانتو كانت مخيبة لآمال العثمانيين فقد زال خطر السيادة العثمانية فى البحر المتوسط، ومع زوال الخطر زال الخوف الذى كان قوياً، للمحافظة على حلف مقدس دائم واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية [٥].

إن أهمية ليبانتو كانت عظيمة، وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير فى البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا، وأسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كانت فى الحقيقة القوات العثمانية هائلة فى كل المجال البرى، والمجال البحرى [٦]، كما أن الانتصار

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ١٤٧.
(٢) انظر: فلسفة التاريخ العثمانى، ص ١٤٣.
(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢٦.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٦.
(٥) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٥.
(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٤٥٥.

المسيحى فى ليبانتو ١٥٧١ كان إشارة لتحضير حاسم فى ميزان القوة البحرية فى البحر المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة فى البحر المتوسط والتى كانت تكاليفها باهظة [١] .

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة فى إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية [٢]، إذ كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية [٣] .

سابعاً : ظهور أطماع فرنسا فى الشمال الأفريقى :

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامى، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثمانى فى تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعا إلى السلطان العثمانى (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م)، وذلك بواسطة سفيره باستانبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته فى بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها، وأن فرنسا مستعدة فى مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالى، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسى ولم يهتم به، ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحقت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة حتى تحصلت على امتيازات خاصة فى السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائرى وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية [٤].

ثامناً : إعادة بناء الأسطول العثمانى :

قبل القبودان باشا قلج على بهمة ونشاط متزايد، على تجديد الأسطول العثمانى وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م حتى هيأ مائتين وخمسين سفينة جديدة، وخرج قلج على بأسطوله فى البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحرى، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكه [٥]، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التى تسبق فترة الاحتضار البحرى، ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة، وبينها وبين فارس من جهة أخرى، كما أنها انشغلت

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٥ .

(٢) انظر: بداية الحكم المغربى فى السودان، ص ٩٤ .

(٣) انظر: فلسفة التاريخ العثمانى، ص ١٤٣ .

(٤) انظر : تاريخ الجزائر العام ٣ / ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٩ .

بإخماد الثورات الداخلية المستمرة [١] .

تاسعاً: احتلال تونس:

كان فيليب الثانى قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصى أبى العباس الثانى الذى حكم تونس ٩٤٢ - ٩٨٠ / ١٥٣٥ - ١٥٧٢م إليه، وطلب منه المساعدة فى إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلق الواد [٢] فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين قبلها [٣]، بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية فى رجب ٩٨١هـ أكتوبر ١٥٧٣م، على رأس أسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل، ونزل بقلعة حلق الواد التى كانت تحتلها أسبانيا، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج أهلها بوادى تونس فارين بدينهم من شر الأسبان [٤]، كما انسحب الحاكم العثمانى إلى القيروان [٥] وكانت أوروبا قد أدركت أنها لا تستطيع أن تقضى على الدولة إلا مجتمعة [٦] .

عاشراً: قلج على واستعداداته الحربية:

اهتم قلج على بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة، وقد لفت هذا النشاط البحرى أنظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج على حتى أن البابا نصح فيليب الثانى ملك أسبانيا أن يسعى لإغرائه [٧] وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف وإقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الأسبانى ويتوارثها نسله من بعده، مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه[٨]، وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فإنها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلج على وهو الشخص الوحيد القادر على دعم أمور السلطنة ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلج على بدلاً من أن تقربه [٩]، وأنه لا يمكن شراء أمانة المسلم المجاهد إذ أن وجوده فى خدمة الدولة إنما كان يعنى أنه وهب نفسه

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٦ .

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ١٤٣ .

(٣) جهود العثمانيين ، ص ٤٥٧ .

(٤) حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٥) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٠.

(٦) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٧ .

(٧) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥١ .

(٨) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢٨٠ .

(٩) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥١ .

لسبيل الله وهذا ما سارت عليه الدولة فى سياستها فى جميع فتوحاتها، ولعل ذلك كان سبباً مباشراً فى سرعة الفتح ونجاحه، فى كل الأقاليم والميادين التى طرقتها الدولة، وكان العثمانى فى أى موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك إلا خدمة للإسلام [١] .

الحادى عشر: السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس:

أصدر السلطان سليم الثانى أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج على بالاستعداد للتوجه إلى تونس لفتحها نهائياً وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها، كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة، والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانية سفينة مختلفة الأحجام، كما أكد على المكلفين بالخدمة فى الأناضول والروم يلى بالاشتراك فى السفر بحراً، كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم فى المستقبل أى عمل وبينما كان الأسطول يتأهب، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني فى تونس والذى انسحب للقيروان فى حشد المجاهدين من الأهالى الذين التفوا حوله [٢] .

أبحر الأسطول العثمانى بقيادة سنان باشا وقلج على فى ٢٣ محرم ٩٨٢هـ/ ١٤ مايو ١٥٧٤م فخرج من المضائق ونشر أشرعته فى البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا، مسينا، واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية ومن هناك قطعوا عرض البحر فى خمسة أيام [٣]، فى هذا الوقت وصل الحاكم العثمانى فى تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا كما وصل متطوعون من مصر [٤] .

بدأ القتال فى ربيع سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م ونجح العثمانيون فى الاستيلاء على حلق الواد، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً [٥] وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الأسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصى محمد بن الحسن إلى البستيون [٦] التى بالغ الأسبان فى تحصينها وجعلوها من أمنع الحصون فى الشمال الأفريقى.

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون، وضيق العثمانيون الخناق على

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٥٨ .

(٢) انظر: الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية، ص ٢٥١ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٠ .

(٤) انظر : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٤٠٠ .

(٥) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥١ .

(٦) البستيون : قلعة بناها الأسبان بجانب تونس .

أهلها من كل ناحية، وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من فى البستيون، كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك، فقال له سنان: لا تحرمنى من الثواب .

وشدد سنان باشا فى حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه (١) .

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك أسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم، واتخذهم الأسبان آلات طيعة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم، وقضى سقوط تونس على الآمال الأسبانية فى أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتي اقتصرت على بعض الموانىء مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الأسبان نحو إقامة دولة أسبانية فى شمال أفريقيا وضاع بين الرمال (٢) .

الثانى عشر: السلطان سليم الثانى يرسل حملة كبرى إلى اليمن:

اضطربت الأحوال فى اليمن مع ظهور الزعيم الزيدى المطهر الذى كاتب أهل اليمن ودعاهم للخروج عن طاعة السلطان العثمانى فاجتمعت القبائل لدى المطهر الذى دخل صنعاء بعد أن ألقى بالعثمانيين هزيمة ساحقة (٣)، وشعرت الحكومة العثمانية بخطورة الموقف وقررت إرسال حملة كبرى إلى اليمن بقيادة سنان باشا، وقد اهتم السلطان العثمانى سليم الثانى اهتماماً كبيراً بإرسال تلك الحملة، لأن اليمن كان يمثل جزءاً هاماً من استراتيجية العثمانيين فى البحر الأحمر وهى غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالى (٤) علاوة على ذلك يكون درعاً قوية للحجاز، وقاعدة للتقدم فى المحيط الهندى.

وصل الوزير العثمانى سنان باشا إلى مصر تنفيذاً لأوامر السلطان وهناك اجتمعت لديه الجنود فى كل الأنحاء حتي أنه لم يبق فى مصر إلا المشايخ والضعفاء (٥) .

تحركت الحملة ووصلت إلى ينبع واستقبله هناك قاضى القضاة فى مكة وعند وصوله إلى مكة المكرمة استقبله أهلها ودخلت الجيوش العثمانية معه، وكأن جنود مصر انتقلت إلى

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص ٤٠١ .

(٢) انظر: جهود العثمانيين ، ص ٤٦٠ .

(٣) انظر : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، قطب الدين النهروالى ، ص ١٧٣ - ١٧٧ .

(٤) انظر: دراسات فى تاريخ العرب القديم، عمر عبدالعزيز، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٥) انظر: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، يحيى بن الحسين ٢/٧٣٣ .

مكة بالإضافة إلى جنود الشام وحلب وفرمان ومرعش، وضبط سنان باشا الجنود، وأجرى الصدقات وأحسن على العلماء والفقهاء، ومكث عدة أيام فى مكة وغادرها إلى جازان، وعندما اقترب منها هرب حاكمها من قبل الإمام الزيدى المطهر، وأقام سنان باشا فى جازان فأقبلت عليه العربان يطلبون الطاعة وكان منهم أهل صبيا فأكرمهم سنان باشا وخلع عليهم وكساهم كما أقبلت عليه وفود عربان اليمن وبذلوا الطاعة طالبين الأمان .

أسرع سنان باشا إلى تعز، بعد أن ضبط جازان إذ بلغه أن الوالى العثمانى فى تعز ومن معه من الجنود فى ضيق من أمرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة، وحصل عليهم المجاعة، فقطع الوزير سنان باشا المسافة فى غاية السرعة، ونزل خارج تعز، وانتشر جنوده فى جبالها ولما شاهد الزيديون كثافة ذلك الجيش اعتصموا بأحد الجبال المسمى الأغبر .

قام سنان باشا وجزء من جيشه بمتابعة الزيود فى جبل الأغبر، وتمكنوا منه، عند ذلك خرج الزيود من مخابئهم لمواجهة العثمانيين، فانهزم الزيود وولوا هاربين فأنعم سنان باشا على جميع الجنود العثمانيين (١) .

الثالث عشر: الاستيلاء على عدن:

جهز سنان باشا حملتين وذلك للاستيلاء على عدن ، الأولى عن طريق البحر بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلى، وأخى سنان باشا، والثانية عن طريق البر بقيادة الأمير حامى وبرفقته عدد من الفرسان .

وكان حاكم عدن قاسم بن شويع من قبل الإمام الزيدى المطهر، قد أظهر شعار الزيدية فكرهه أهالى عدن لأنهم شافعيون ثابتون على الكتاب والسنة، وبنى مدرسة باسم « مطهر » يدرس فيها بعض من مذهب الزيدية، كما استدعى البرتغاليون الذين أرسلوا سفينة وعليها عشرين جندياً، فأطلعهم قاسم إلى القلعة وأراهم ما فيها من العدد والآلات وأعطاهم المدافع ليدافعوا عن عدن من جهة البحر ويكون البر للزيدية وأشياعهم إلا أن خير الدين القبطان سبق إلى عدن ورأى من وسط البحر عشرين شراعاً للمسيحيين قاصدة عدن ولما تحقق خير الدين من ذلك توجه بسفنه إليهم فولوا هاربين وتتبعهم خير الدين حتى اطمأن على ذلك .

---

(١) انظر: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص ٢١٨ - ٢٢٦ .

لما عاد خير الدين إلى الساحل وأنزل مدافعه فوجهها نحو قلعة عدن منتظراً القوة البرية لتتم محارصة عدن ففاجأهم الزيود، وإذا بالأمير ماحى قد وصل وأحاطوا بعدن من كل جانب فهجموا عليها هجمة واحدة ودخلوا عليها من كل جانب، وأعطى خير الدين الأمان للأهالى الذين جاءوا بقاسم بن شويع وولده وذويه، وإذا بشخص منهم تقدم ليقبل يد خير الدين، فضربه بخنجر فى بطنه وجرح خير الدين على أثرها، وتقدم الأمير ماحى وقطع رأس ابن شويع لاتهامه بهذه الخيانة وأراد قتل ولده وجميع أتباعه فمنعه الأمير خير الدين عن ذلك. فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا وشاركه فى ذلك الجنود وزينوا زبيد وتعز وسائر الممالك السلطانية فى اليمن، ثم عين الوزير سنان باشا ابن أخته الأمير حسين، وأرسل معه مائتين من الجنود ورقى جميع الجنود الذين فتحوا عدن (١) .

الرابع عشر: دخول صنعاء:

فرغ سنان باشا فى هذا الوقت من جنوب اليمن، فاتجه نحو ذمار وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء، فجهز المطهر نفسه للانسحاب منها ونقل ما فيها من الخزائن، وتقدم سنان باشا نحو صنعاء بعد أن وعد أهلها بالأمان فاطمأنت قلوبهم واختاروا عدداً منهم لمقابلته، فأكرمهم سنان ودخل صنعاء بعد ذلك إلا أنه لم يستقر فيها بل نهض بجيوشه الجرارة لحرب كوكبان وثلا (٢) لأن سنان باشا رأى أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله إلا بالقضاء على مقاومة المطهر وأتباعه فأخذ يوالى حشد قواته وتبعه فى ذلك الوالى العثمانى ودامت الحرب سجالاً ما يقرب من عامين، انتهت بموت الإمام الزيدى المطهر فى مدينة ثلا سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م، وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيداً من السيطرة وبسط النفوذ حتى تمكن الوالى العثمانى حسن باشا من الاستيلاء على ثلا ومدع وعفار وذى مرمر والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الإمامة الزيدية فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت واستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الذى استحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر (٣) .

لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربى

---

(١) انظر: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٥ .

(٢) انظر: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، يحيى بن الحسين ٢ /٧٣٦ .

(٣) انظر: الفتح العثمانى لليمن، فاروق أباظة، ص ٢٣ .

كحزام أمنى حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين (١) .

استطاعت الدولة العثمانية أن تبنى درعًا قوية حمت الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية، ومع تلك الدرع فقد احتفظ السلطان بحرس عثمانى خاص فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع، كما أقامت الدولة العثمانية محطات حراسة بجوار آبار المياه على طول الطريق بين مصر وسوريا ومكة المكرمة لحماية القوافل، كما قررت الدولة أن يكون الوالى فى جدة ممثلاً للباب العالى فى الحجاز، عرف الحجاز فى العصر العثماني بثنائية السلطة، وقررت الدولة أن تقسم حصيلة الرسوم الجمركية التى تجمع من السفن فى ميناء جدة بين الوالى العثمانى وشريف مكة المكرمة (٢) .

الخامس عشر: دفاع عن السلطان سليم ووفاته رحمه الله:

وصف المستشرق «كارل بروكلمان» (٣) السلطان سليم الثانى بأنه اشتهر باسم السكير، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصان، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبدالعزيز الشناوى (٤) رحمه الله، ورد الدكتور جمال عبدالهادى على هذه الاتهامات فقال:

١- شهادة الكافر علي المسلم مردودة، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل، ألم يتعلموا فى مدرسة الإسلام، قال تعالى: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور: ١٢].

ويقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات: ٦]

٢- إن المستشرقين ومن سار على نهجهم، دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات (٥)، بل دأبوا على النيل من دين الله، والأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء (٦) .

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص ٤٨٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٨٧ .

(٣) انظر: الأتراك العثمانيون، كارل بروكلمان ٣/١٣٧ .

(٤) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/٦٧٢ .

(٥) انظر: أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، ص ٦٤ .

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٦٤ .

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثانى التى تدل على نفى التهم التى ألصقت به وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لا يتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال: « نصيحة إلى أولئك الذين لا يتحرون الحقيقة، ويرمون الناس فى دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل، أن يتبينوا وليضعوا فى الاعتبار أن القذف جريمة، وعليه تقام الحدود، آمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا عن إيراد أى شبهة أو تهمة تتصل بأى شخص دون دليل أو بينة .

وليضعوا فى الاعتبار أن الله يزن الحسنات، ويزن السيئات، ولا يزن السيئات فقط دون الحسنات، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا، ويدرك أن الكلمة أمانة وهى شهادة أمام الله عز وجل - ومن هنا يلزمه التأكد من الخير قبل أن يورده فى كتابه » (١) .

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليم الثانى يدرك مدى القوة والهيمنة التى كانت عليها الدولة « طلب نائب البندقية الصليبية فى استانبول » - فى أعقاب معركة ليبانتو، وتحطم الأسطول العثماني مقابلة الصدر الأعظم « محمد صوقللى باشا » ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً : إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هى، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة « قبرص » كان بمثابة ذراع قمنا بكسرها وبترها، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما فى الوجه لأول مرة » (٢) . وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفورى الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثمانى، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطانى لتبنى فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته فى البحر المتوسط (٣).

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس، وإنما لابد أن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذى أثمر إعادة بناء الأسطول فى فترة وجيزة، وفى هذا دليل أيضاً على الرخاء الذى كانت تعيش فيه الأمة، ما فرضت ضرائب، وما صودرت أموال، ولا قالوا موتوا جوعاً

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، جمال عبدالهادى، ص ٦٥ .

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية ١ /٦٧٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه ١ /٦٧٧ ، ٦٧٨ .

لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة الإسلام (١)، قال تعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠]

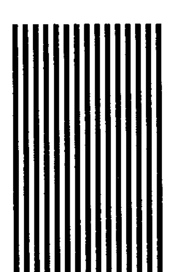
•• وفاتــــه:

إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أياماً ثم توفي عام ٩٨٢هـ (٢) .

******

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص ٦٦ .

(٢) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٨ .



المبحث الثاني

السلطان مراد الثالث

٩٨٢ـ١٠٠٣هـ/١٥٧٤ـ١٥٩٤م

تولى العرش بعد وفاة والده، اهتم بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية، وكان يميل إلى علم التصوف اشتهر بالتقوى واهتم بالعلماء، صرف للجنود عطايا الجلوس ومقدارها (١١٠,٠٠٠) ليرة ذهبية، فمنع الاضطرابات التي كانت تحدث عادة إذا تأخر صرف تلك الهبات (١) .

أولاً: منعه للخمور:

وكان من أول أعماله أن أصدر أمر بمنع شرب الخمور بعدما شاعت بين الناس وأفرط فيها الجنود وخصوصاً الإنكشارية، فثار الإنكشاريون واضطروه لرفع أمره بالمنع وهذا يدل على ظهور علامات ضعف الدولة بحيث السلطان لا يستطيع منع الخمور وإقامة أحكام الشرع عليهم، وكذلك يدل على انحراف الإنكشارية عن خطها الإسلامي الأصيل من التربية الرفيعة، وحبها للجهاد وشوقها للشهادة (٢) .

ثانياً: وضع الحماية على بولونيا وتجديد الامتيازات:

عمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ السياسة التي انتهجها والده من قبل، ففي عهده قام بعدة حروب في أماكن مختلفة. ففي عام (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) هرب ملك بولونيا هنري دي فالوا وذهب إلى فرنسا، فأوصى الخليفة العثماني أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم ففعلوا، وصارت بولونيا (بولندا) فعلاً تحت حماية العثمانيين عام (٩٨٣هـ/١٥٧٥م) واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام (٩٨٤هـ/١٥٧٦م) ومدتها ثماني سنوات، وهاجم التتار حدود بولونيا عام (٩٨٤هـ/١٥٧٦م) فاستنجدت بالسلطان العثماني فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية (٣) وجدد السلطان مراد الامتيازات مع فرنسا والبندقية وزاد بعض الامتيازات القنصلية

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص ١٠٠ .

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص ٢٥٩ .

(٣) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص ١٠٠ .

والتجارية مع زيادة بعض البنود فى صالحهما أهمها: أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كل سفراء الدول الأخرى فى الاحتفالات الرسمية والمقابلات الحكومية، لقد كثر توارد السفراء على الباب العالى للسعى فى إبرام معاهدات تجارية أصبحت ذريعة فيما بعد للتدخل الفعلى فى شئون الدولة، وفى زمن السلطان مراد تحصلت إيزابلا ملكة الإنجليز على امتياز خصوصى لتجار بلادها وأصبحت السفن الإنجليزية تحمل العلم البريطانى وتدخل الشواطىء والموانئ العثمانية [١].

ثالثاً: الصـراع مع الشيعة الصفويـة:

وفى عام (٩٨٥هـ/١٥٧٧م) ونتيجة لحدوث اضطرابات فى بلاد فارس بعد وفاة طهماسب، أرسل العثمانيون حملة عسكرية تمكنت من قطع مفازات شاسعة فى بلاد القوقاز وفتحت مدينة تفليس وكرجستان (الكرج)، ودخل العثمانيون بعدها تبريز عام (٩٩٣هـ/١٥٨٥م) وتمكنت فيها جيوش مراد من السيطرة على أذربيجان والكرج (جورجيا) وشيروان ولوزستان. فلما تولى الشاه عباس الكبير حكم فارس سعى إلى إقامة صلح مع العثمانيين، تنازل بمقتضاه عن تلك الأماكن التى أصبحت بيد العثمانيين كما تعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين - أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم - فى أرض مملكته وبعث بابن عم له يدعى حيدر ميزرا رهينة إلى استانبول لضمان تنفيذ ما اتفقا عليه [٢].

رابعاً: تمرد وعصيان على أيدى الإنكشارية:

قام الإنكشاريون بتمرد وعصيان فى الولايات العثمانية بعد توقف الحروب، وكان السلطان قد كلفهم بحرب المجر غير أنهم هزموا أمام النمسا التى ساندت المجر، واحتلت عدة قلاع حصينة استردها سنان باشا بعد ذلك. كما أعلن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا التمرد وانضموا إلى النمسا فى حربها مع العثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م غير أنه لم يحرز النصر وخسر عدة مدن [٣].

خامساً: مقتل الصدر الأعظم صوقللى محمد باشا:

قتل الصدر الأعظم نتيجة لدسائس حاشية السطان المتأثرة بدسائس الأجانب الذين لا يروق لهم وجود مثل هذا الوزير القدير الذى سار على منهج الاستقامة، وطريق الحكمة، وبناء الدولة، وحسن القيادة، ودقة التخطيط، وضبط الإدارة، ومتابعة الولاة، واستغلال الفرص، فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة، وفتح باب للشر فى تنصيب وعزل

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص ٢٦٠.
(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٠١.

الصدور العظام والتنافس عليه مما أضعف قوة السلطنة، وارتبكت أحوال البلاد، وتمردت بعض فرق الجيش، ولم تتمكن الحكومة من القضاء على هذا التمرد، ونتيجة لهذه الاضطرابات والثورات الداخلية خرجت بولونيا عن الدولة العثمانية واشتبكت فى صراع معها (١).

سادساً: اليهود والسلطان مراد الثالث:

ظن اليهود أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم راودهم طويلاً، فنزحوا فى هجرات متقطعة ومقاربة إلى «سيناء» لاستيطانها، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم فى مدينة الطور، وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً، فهذه المدينة وهى تقع على الشاطئ الشرقى لخليج السويس لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية، وكان تأتيه سفن من جدة، وينبع، وسواكن، والعقبة، والقلزم، كما كانت المدينة ترتبط براً بخط قوافل مع «القاهرة» و«الفرما».

وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالات خارجية فلا يصبحون فى عزلة عن العالم بل تستطيع السفن أن ترسو فى ميناء «الطور» تحمل أفواجاً من اليهود الجدد.

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودى اسمه «إبراهام» استوطن «الطور» مع أولاده وسائر أفراد أسرته، ولما أقام اليهود بالطور تعرضوا بالأذى لرهبان «ديرسانت كاترين» مما دفعهم إلى إرسال شكاوى مكتوبة إلى سلاطين الدولة العثمانية وولاتها يشتكون من إيذاء اليهود لهم مذكرين بعهد العثمانيين لحمايتهم، ومنع اليهود استيطان «سيناء» ومحذرين من تروح اليهود إلى سيناء – وخاصة مدينة «الطور» – فى جماعات كثيرة بقصد إيقاع الفتن.

ولما كانت الدولة الإسلامية مسئولة بحكم الشرع عن حماية أهل الذمة، فقد سارع على الفور المسئولون العثمانيون إلى إصدار ثلاثة فرمانات ديوانية فى عهد السلطان «مراد الثالث» فأمروا بإخراج «إبراهام» اليهودى وزوجته وأولاده وسائر اليهود من «سيناء» ومنعهم فى قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة «الطور» والإقامة بها أو السكنى (٢).

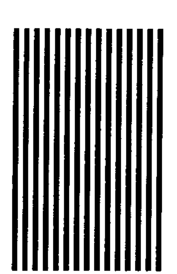
سابعاً: وفاة السلطان مراد الثالث:

توفى السلطان مراد الثالث فى ١٦ كانون الثانى ١٥٩٥ عن عمر يناهز ٤٩ عاماً ودفن رحمه الله فى فناء آيا صوفيا (٣).

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ١٠٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص ٦٨. (٣) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٥٥.



المبحث الثالث

السلطان محمد خان الثالث

ولد عام ٩٧٤ هـ، وجلس على سرير السلطنة عام ١٠٠٣ هـ بعد وفاة والده باثنى عشر يوماً، لأنه كان مقيماً فى مغنيسا[١]، كانت أمه إيطالية الأصل تسمى صفية[٢].

ورغم حالة الضعف والتدهور التى كانت قد بدأت تعترى الدولة العثمانية إلا أن راية الجهاد ضد الصليبيين ظلت مرفوعة، ومما يذكر لهذا السلطان أنه لما تحقق له أن ضعف الدولة فى حروبها بسبب عدم خروج السلاطين وقيادة الجيوش بأنفسهم برز بنفسه وتقلد المركز الذى تركه سليم الثانى، ومراد الثالث، ألا وهو قيادة عموم الجيوش، فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميادين الوغى والجهاد، وبمجرد خروجه دبت فى الجيوش الحمية الدينية والغيرة العسكرية، ففتح قلعة (أرلو الحصينة) التى عجز السلطان سليمان عن فتحها فى سنة ١٥٥٦م ودمر جيوش المجر والنمسا فى سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٩٦ حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة (موهاكز)[٣] التى انتصر فيها السلطان سليمان سنة ١٥٢٦م وبعد هذه المعركة استمرت الحروب دون أن تقع معركة حاسمة[٤].

وتعرضت الدولة فى زمنه لثورات داخلية عنيفة قادها قره يا زيجى وأخرى قام بها الخيالة إلا أن السلطان استطاع القضاء عليهما بصعوبة ومن تلك الأحداث الداخلية يظهر للباحث المدقق اختلال النظام العسكرى وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها من أعدائها.

أولاً: الشيخ سعد الدين أفندى:

كان من شيوخ السلطان محمد الثالث وممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان: (أنا معك أسير حتى أخلص وجودى من الذنوب، فإننى بها أسير)[٥].

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٨٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، ص ٧٠.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٦٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨.

(٥) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى، ص ٦٣.

وفي إحدى المعارك كاد أن يؤسر فيها السلطان وفرّ من حوله الجنود والأعوان، قال الشيخ سعد الدين أفندى: (اثبت أيها الملك فإنك منصور بعون مولاك، الذى أعطاك، وبالنعم أولاك ، فركب السلطان جواده، وحمل سيفه وتضرع إلى القوى العزيز، فما مضت ساعة حتى نزل نصر الواحد القهار وكانت تلك المعركة بعد فتح حصن أكرى[1].

ثانيًا: من شعره:

كان على نصيب عالٍ من التعليم والثقافة والأدب، وكان شديد التدين ويميل إلى التصوف ومن أشعاره ذات المعانى السامية:

لا نرضى بالظلم بل نرغب فى العدل[2].

نحن نعمل لحب الله، ونصغى بدقة لأوامره[3].

نريد الحصول على رضا الله[4].

نحن عارفون وقلوبنا مرآة العالم.

قلوبنا محروقة بنار العشق فى الأزل.

نحن بعيدون من الغش والخديعة وقلوبنا نظيفة[5].

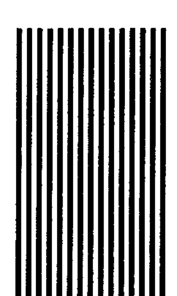
ثالثًا: وفاته:

توفى السلطان محمد الثالث بعد أن أخمد الحركات التمردية، والثورات العنيفة، وقاد الجيوش بنفسه وكانت وفاته فى نهار الأحد الثامن عشر من رجب سنة اثنتى عشرة وألف، ومدة حكمه تسع سنين، وشهران ويومان، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة[6].

وكان هذا السلطان عندما يسمع اسم نبينا محمد ﷺ يقوم إجلالاً واحترامًا لسيد الكائنات[7].

---

(١) أنظر: تاريخ سلاطين آل عثمان القرمانى، ص ٦٣، ٦٤.
(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٥٧.
(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣١.
(٤) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٥٧.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٥٧.
(٦) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى، ص ٦٤.
(٧) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٥٧.



المبحث الرابع

السلطان أحمد الأول

(١٠١٢ - ١٠٢٦هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧م)

تولى الحكم بعد وفاة والده وعمره ١٤ سنة، ولم يجلس أحد قبله من سلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش، وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية في آسيا. فأتم ما بدأ به أبوه من تجهيزات حربية(١).

أولاً: الحرب مع النمسا والدول الأوروبية:

عين السلطان أحمد لالا محمد باشا صدراً أعظم خليفة للصدر الأعظم يمشجي حسن باشا، حيث كان سرداراً عاماً للجيوش التي جاهدت في النمسا وهو من خيرة قواد الجيوش، فاهتم بتقوية الجيوش العثمانية وحاصر قلعة استراغون وفتحها. كما حارب إمارات الأفلاق والبغدان والأردل وعقد صلحاً معهم. ولما مات لالا باشا خلفه قبوجي مراد باشا صدراً أعظم وكان قائداً لإحدى فرق الجيش، وقد نجحت الجيوش العثمانية في هزيمة النمسا واسترداد القلاع الحصينة من مدن يانق واستراغون وبلغراد وغيرها كما نجحت الجيوش العثمانية في جهادها بالمجر وهزمت النمسا هناك. ونجم عن ذلك، قبول النمسا بطلب الصلح ودفع جزية للدولة العثمانية مقدارها مائتا ألف دوكة من الذهب، وبقيت بلاد المجر بموجب هذه المعاهدة تابعة للدولة العثمانية(٢).

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن أسبانيا، ورهبان القديس يوحنا في مالطة، والإمارات الإيطالية، وتراوح النصر بين الجانبين(٣).

ثانياً: تجديد الامتيازات:

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وإنجلترا، على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدى على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق، من التعدى على

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ن ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٥.

الدولة العثمانية[1].

وتحصلت هولندا على امتيازات، واستغلت ذلك فى نشر الدخان داخل ديار الإسلام وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتى فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون، فاضطر العلماء إلى السكوت عنه[2].

وهكذا أصبح الجند ينقادون خلف شهواتهم ويعترضون على العلماء.

إن القوى الأجنبية الكافرة تهتم بنشر كل محرم فى أوساط المسلمين.

إن الله تعالى أحل لنا الطيبات النافعة وحرم علينا الخبائث الضارة لأجسامنا وعقولنا وأموالنا، ولذلك أفتى العلماء - رحمهم الله تعالى - بتحريم شرب الدخان وبيعه وشرائه لما فيه من الأضرار الدينية والدنيوية والاجتماعية والصحية وهى:

١ - إنه دخان لا يسمن ولا يغنى من جوع.

٢ - إنه مضر بالصحة الغالية وما كان كذلك يحرم استعماله.

٣ - إنه من الخبائث المحرمة قال تعالى: ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٤ - إن رائحة الدخان تؤذى الناس الذين لا يستعملونه بل وتؤذى الملائكة الكرام لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم وقد حرم الله تعالى أذية المسلم قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨]

وغير ذلك من الأدلة التى ذكرها العلماء ولكن لضعف الوازع التربوى، وضعف سلطان الدولة التى تشرف على تنفيذ الأحكام يحدث التمرد من قبل الجنود والأفراد.

ثالثا: الحرب مع الشيعة الصفوية (الفرس):

انتهز الشاه عباس الصفوى فرصة اضطراب الدولة العثمانية وباشر فى تخليص عراق العجم واحتل تبريز ووان وغيرهما، واستطاع أن يحتل بغداد والأماكن المقدسة الشيعية فى النجف وكربلاء والكوفة، وقد زارها وسط مظاهر الإجلال والتقديس، وقد أورد بعض

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامي، ص ١٠٥.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧٢.

المؤرخين أنه قضى عشرة أيام فى زيارته للنجف حيث قام بنفسه بخدمة الحجاج فى ذلك المكان ،كما يذكرون أيضًا أنه إمعانًا فى إعلان تمسكه بالمذهب الشيعى وولائه للرفض، وعلى الرغم من تعصبه الشديد للمذهب الشيعى إلا أنه رفع أيدى رجال الدين عن التدخل فى شئون الحكم والسياسة ومارس نوعًا من السلطة المطلقة فى حكم البلاد.

وقد أنزل الشاه عباس الصفوى أقسى أنواع العقاب بأعداء الدولة من السنة؛ فإما أن يقتلوا أو تسمل عيونهم، ولم يكن يتسامح مع أى منهم إلا إذا تخلى عن مذهبه السنى، وأعلن ولاءه للمذهب الشيعى[1]، واضطرت الدولة العثمانية أن تترك للدولة الصفوية الرافضية الشيعية جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التى فتحها العثمانيون فى عهد السلطان الغازى سليمان الأول بما فيها مدينة بغداد. وهذه أول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها وكانت فاتحة الانحطاط والضعف وأولى المعاهدات التى دلت على ضعف الدولة العثمانية[2].

لقد بالغ الشاه عباس الصفوى فى عدائه للمذهب السنى واتصل بملوك المسيحيين، وإمعانًا فى ضرب الدولة العثمانية حامية المذهب السنى فقد عقد اتفاقات تعاون مشترك معهم من أجل تقويض أركان الدولة العثمانية السنية، ولم يكن يعبأ حتى إذا قدم العديد من التنازلات للدول الأوروبية تأكيداً لتعاونه معهم انطلاقًا من عدائه للدولة العثمانية.

وعامل الشاه عباس الصفوى المسيحيين فى إيران معاملة حسنة على عكس معاملته للسنة، وقد كان لمعاملته المتميزة للمسيحيين أن نشطت الحركة التنصيرية المسيحية فى إيران كما شجع التجار الأوروبيين فى عقد صفقات تجارية كبيرة مع التجار فى إيران، وأصبحت إيران سوقًا رائجًا للتجارة الأوروبية، لقد توج تسامحه مع المسيحيين بأن أعلن فى عام ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨م أوامره بعدم التعرض لهم والسماح لهم بحرية التجول فى ربوع الدولة الصفوية وجاء بالمرسوم الذى أصدره شاه الدولة الصفوية ما يلى: (... من اليوم يسمح لمواطنى الدولة المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أى بقعة من وطننا ولا يسمح لأى شخص بأى حال من الأحوال إهانتهم، ونظراً لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول فى جميع أنحاء إيران، ومزاولة نشاطهم التجارى فى أى بقعة من الوطن، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء من أى شخص سواء كان

---

(١) انظر: الإسلام فى آسيا، د. محمد نصر مهنا، ص ٢٤٩، ٢٥٠.
(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٧٢.

حاكمًا أو أميرًا أو خانًا أو موظفًا أو تابعًا للدولة، كما تعفى جميع أموال تجارتهم التى يحضرونها معهم من ضرائب المال وليس لأى شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق، وليس من حق رجال الدين مهما كانت طوائفهم التجرؤ على الإضرار بهم أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية)[1].

لقد جامل الشاه عباس الصفوى المسيحيين وشرب معهم الخمر احتفالاً بأعيادهم كما أنه سمح لهم بالتبشير بالمسيحية فى داخل إيران، وأعطاهم امتيازات ببناء الكنائس المسيحية فى كبرى المدن الإيرانية، وهذه المعاملة للمسيحيين كانت نكاية فى الدولة العثمانية السنية[2].

إن تاريخ الشيعة الأثنى عشرية طافح بالعداوة والبغضاء لأهل السنة ودولتهم الميمونة أينما كانوا وحثيما وجدوا ولا يزال هذا العداء مستمرًا رغم الشعارات السياسية الرّنانة التى يرفعها الروافض بين الحين والآخر.

رابعًا: الحركات الانفصالية:

ظهرت إلى حيز الوجود فى عصر السلطان أحمد الأول حركات داخلية تهدف إلى تقويض كيان الدولة وبنيانها مثل حركة « جان بولاد » الكردى، وحركة والى أنقرة « قلندر أوغلى »، وحركة فخر الدين الدرزى المعنى الثانى حفيد « فخر الدين المعنى الأول » الذى انضم إلى السلطان سليم الأول عندما دخل الشام عام (٩٢٢هـ)[3].

وسبب تلك الحركات اضطرابات داخلية حتى هيّأ الله للدولة وزيرًا محنكًا أكسبه تقدم السن مزيدًا من الخبرات والتجارب، فعين صدرًا أعظم كان عونًا للسلطان الفتى وانتصر على الثائرين وخاصة ثائر الأناضول قلندر أوغلى الذى كان قد عين واليًا على أنقرة فقد نكلت به الدولة، وتمكن الصدر الأعظم قبوجى مراد باشا من تطهير الأناضول من أولئك الثائرين[4].

---

(١) انظر: الإسلام فى آسيا، ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٣.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص ٧٠.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ١٣٢.

خامساً: حركة فخر الدين بن المعنى الثانى الدرزى:

اعتلى فخر الدين بن المعنى الثانى السلطة فى لبنان عام ٩٩٩ هـ ، وكان درزيًا وصوليًا كبيراً واستطاع أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز، وأمثالهم[١].

نبذة عن الدروز:

فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وهى تنتسب إلى نشتكين الدرزى، نشأت فى مصر ثم انتقلت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس[٢].

*** من أهم معتقداتها وأفكارها:**

- يعتقدون بألوهية الحاكم بأمر الله ولما مات قالوا بغيبته وأنه سيرجع.
- ينكرون الأنبياء والرسل جميعًا ويلقبونهم بالأبالسة.
- يعتقدون بأن المسيح هو داعيتهم حمزة.
- يبغضون جميع أهل الديانات الأخرى والمسلمين منهم بخاصة ويستبيحون دماءهم وأموالهم وغشهم عند المقدرة.
- يعتقدون بأن ديانتهم نسخت ما قبلها وينكرون جميع أحكام وعبادات الإسلام وأصوله كلها.
- ولا يكون الإنسان درزيًا إلا إذا كتب أو تلا الميثاق الخاص.
- يقولون بتناسخ الأرواح وأن الثواب والعقاب يكون بانتقال الروح من جسد صاحبها إلى جسد أسعد أو أشقى.
- ينكرون الجنة والنار والثواب والعقاب الأخرويين.
- ينكرون القرآن الكريم ويقولون، إنه من وضع سلمان الفارسى ولهم مصحف خاص بهم يمس المنفرد بذاته.
- يرجعون عقائدهم إلى عصور متقدمة جداً، يفتخرون بالانتساب إلى الفرعونية القديمة وإلى حكماء الهند القدامى.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧١.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة فى الأديان (١ / ٤٠٠).

– يبدأ التاريخ عندهم من سنة ٤٠٨ هـ، وهى السنة التى أعلن فيها حمزة ألوهية الحاكم.

– يعتقدون أن القيامة هى رجوع الحاكم الذى سيقودهم إلى هدم الكعبة وسحق المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض وأنهم سيحكمون العالم إلى الأبد ويفرضون الجزية والذل على المسلمين.

– يعتقدون أن الحاكم أرسل خمسة أنبياء هم حمزة وإسماعيل ومحمد الكلمة وأبو الخير وبهاء.

– يحرمون التزاوج مع غيرهم والصدقة عليهم ومساعدتهم، كما يمنعون التعدد وإرجاع المطلقة.

– يحرمون البنات من الميراث.

– لا يعترفون بحرمة الأخ والأخت من الرضاعة.

– يقولون فى الصحابة أقوالاً منكرة منها قولهم: الفحشاء والمنكر هما (أبو بكر وعمر) رضى الله عنهما.

– لا يصومون فى رمضان ولا يحجون إلى بيت الله الحرام، وإنما يحجون إلى خلوة البياضة فى بلدة حاصبية فى لبنان.

– إن الجذور الفكرية والعقائدية للدروز ترجع إلى المذهب الباطنى، وخاصة الباطنية اليونانية متمثلة فى أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس واعتبروهم أسيادهم الروحانيين، وأخذوا جُلّ معتقداتهم عن الطائفة الإسماعيلية، وتأثروا بالدهريين فى قولهم بالحياة الأبدية، وبالبوذيين فى كثير من الأفكار والمعتقدات، كما تأثروا ببعض الفلاسفة الفرس والهند والفراعنة القدامى[١].

هذه نبذة مهمة عن معتقدات الدروز حتى تعلم الأجيال من هم أعداؤهم، وكيف يتحينون الفرص للقضاء على الإسلام وأهله.

فهذا فخر الدين بن المعنى الثانى، أظهر تقربه من الخليفة العثمانى وأعلن طاعته له حتى تمكن من جبال لبنان، والسواحل وفلسطين، وأجزاء من سورية، ولما قوى أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال وبنى القلاع والحصون، وكون لنفسه جيشًا زاد على الأربعين ألفًا، ثم أعلن

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة فى الأديان (١/ ٤٠٠ إلى ٤٠٤).

الخروج على الدولة العثمانية عام (١٠٢٢م)، غير أنه هزم وفرّ إلى «إيطاليا»، وكان قد تلقى الدعم من إمارة «فلورنسا» الإيطالية، ومن البابا، ورهبان جزيرة مالكة (فرسان القديس يوحنا)[١].

وقد عاد فخر الدين إلى لبنان عام ١٦١٨م بعد أن أصدر السلطان فرمانًا بالعفو عنه واندفع لتغريب البلاد، ثم أعلن التمرد من جديد مستغلاً الحرب العثمانية الصفوية الشيعية ولكنه فشل وأسر وسيق إلى استانبول، ثم اندلعت الثورة عام ١٠٤٥ هـ، ولكنه هذه المرة أسر وشنق، وفشلت الحركة المسلحة التى قادها ابن أخيه ملحم للأخذ بثأره[٢].

سادسًا: وفاة السلطان أحمد الأول:

كان رحمه الله فى غاية التقوى، وكان رجلاً مثابرًا فى الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعًا فى ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة، والقيادة، وكان شديد الحب للنبى ﷺ، وفى عهده بدأ إرسال ستائر الكعبة الشريفة من استانبول، وقبل ذلك كانت ترسل من مصر، توفى رحمه الله فى ١٦١٧م ودفن عند جامع سلطان أحمد[٣].

وكان يحمل هذه الأبيات الشعرية واضعًا إياها تحت عمامته:

أرغب دومًا فى حمل صورة	انطباع أقدام النبى عالى المقام
من هو سيد الأنبياء	فوردة الحديقة الأنبياء ملكة هذه الأقدام الشريفة
فيا أحمدى لا تتردد ولو للحظة	ومرغ وجهك بأقدام الوردة الرفيعة الشريفة[٤]

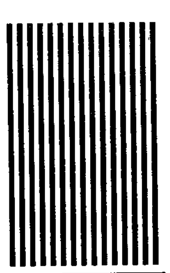
*****

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧١.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٣.

(٣) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٥٩.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٣.



المبحث الخامس

بعض السلاطين الضعاف

أولاً: السلطان مصطفى الأول:

تولى السلطة بعد وفاة أخيه عام (١٠٢٦ هـ)، ومنذ عهده يظهر جليًا أن يداً أجنبية كانت خلف تعيين وإزاحة الخلفاء، فهذا السلطان عزل بعد ثلاثة أشهر، وجيء بابن أخيه (عثمان الثانى) الذى لم يزد عمره على الثالثة عشرة[١].

ثانيًا: السلطان عثمان الثانى (١٠٢٦ - ١٠٣١هـ/١٦١٧ - ١٦٢١م)

تولى الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة، أعلن الجهاد على بولونيا لتدخلها فى شئون إمارة البغدان، وتم الصلح بين الطرفين عام ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م بناء على طلب بولونيا، وطلب الإنكشارية، الذين تعبوا من مواصلة القتال، فغضب الخليفة عليهم[٢] من طلبهم الراحة وخلودهم إلى الكسل وإلزامه على الصلح مع بولونيا، فعزم على التخلص من هذه الفئة الباغية، ولأجل الاستعداد لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة فى ولايات آسيا واهتم بتدريبها وتنظيمها وشرع فعلاً فى تنفيذ هدفه، وعلمت الإنكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على عزل السلطان وتم لهم ذلك فى ٩ رجب سنة ١٠٣١ هـ (٢٠ مايو سنة ١٦٢٢م) وأعادوا مكانة السلطان مصطفى وقتلوا السلطان عثمان الثانى الذى ترك لنا بعض الأشعار منها:

كانت نيتى الخدمة لحكومتى ودولتى وللعجب أن الحسود يعمل لنكبتى[٣]

تولى السلطان مصطفى الحكم وللمرة الثانية إثر فتنة الإنكشارية وصارت الحكومة ألعوبة بأيديهم، ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم، وأصبحت المناصب تباع جهاراً

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ٧٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، ص ١٠٦.

(٣) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٦١.

وارتكبوا أنواع المظالم [١] وتغير الوزراء الصدور فى مدته هذه سبع مرات خلال عام واحد وأربعة شهور، وكان الخلاف قد دب بين أمراء الأناضول وفرقة السباهية على استمرار الوزراء الصدور، حتى أن بعضهم لم يكمل شهراً واحداً. ونظراً لضعف السلطان وعجزه عن إدارة شئون البلاد، تم عزله وتنصيب الأمير مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول[٢].

ثالثاً: مراد الرابع (١٠٣٢-١٠٤٩هـ/١٦٢٢-١٦٤٠م):

تولى أمر السلطنة بعد عزل عمه مصطفى عام ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢م، وهو أخو عثمان الثانى، ولصغر سنه فقد سيطر الإنكشارية عليه. وكانت أحوال الدولة سيئة للغاية، فقام بإصلاح الأحوال الداخلية أولاً حتى تسنى له التفرغ للأحوال الخارجية، ولذلك بدأ بالقضاء على طغاة العسكر الذى قتلوا أخاه السلطان عثمان[٣]، وأعدم جميع المتأسدين فى استانبول وفى جميع أنحاء الدولة، وأسس تشكيلات قوية للمخابرات وثبت من خلالها أسماء جميع المستبدين فى الدولة، وكان إذا صادف بلداً فى أسفاره كان يدعو مستبديها بأسمائهم ويعدمهم[٤].

منع فى عهده الخمر والتدخين وأعدم كل مرتد عن الإسلام[٥].

•• الحرب مع الشيعة الصفوية:

اندلعت الحرب مع الشيعة الصفوية فى العراق عام ١٠٤٤ هـ/ ١٦٣٤م، فقاد السلطان مراد الجيوش بنفسه واتجه إلى بغداد، وكان عباس شاه فارس قد استولى عليها وقتل واليها العثمانى وأذل أهل السنة بها وعمل بهم الأفاعيل، فحاصر مراد بغداد وهدم جزءاً كبيراً من أسوارها بالمدفعية ودخلها عام ١٠٤٨هـ، وقتل من جنود الشيعة عشرين ألفًا، ثم أقام بها مدة جدد عمارتها، وأصلح ما تهدم من أسوارها، وعين لها وزيراً، وكان هذا السلطان يباشر الحروب بنفسه، ويخالط جنوده، وينام أحياناً فى الغزوات على حصانه[٦].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٧٩.
(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ١٠٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٧.
(٤) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٦٣.
(٥) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٦.
(٦) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٦٣.

•• وفاته:

مرض سنة ١٦٤٠م وكان يخشى عليه من الموت ولكن شفى ثم مرض من جديد وتوفى رحمه الله فى شباط ١٦٤٠م[١]، بسبب مرض النقرس وامتد حكمه ١٦ سنة و١١ شهراً. استلم الخزينة عند ارتقائه العرش فارغة وتركها مملوءة عند وفاته[٢]، لقد كان هذا السلطان عاقلاً شجاعًا ثاقب الرأى، استأصل الفساد وقمع العصاة، ولقب بمؤسس الدولة الثانى لأنه أحياها بعد السقوط وأصلح حال ماليتها[٣].

رابعًا: السلطان إبراهيم بن أحمد (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/ ١٦٣٩-١٦٤٨م):

تولى الحكم بعد أخيه مراد الذى لم يعقب ذكوراً، ولم يبق بعد موت السلطان مراد الرابع من نسل آل عثمان سوى أخيه السلطان إبراهيم، الذى كان مسجونًا مدة سلطنة أخيه، ولما توفى أخوه أسرع كبار المملكة إلى مكان الحبس ليخبروه بذلك، فعندما قدموا ظن أنهم قادمون لقتله، فخاف وذعر ولم يصدق ما قالوه له، ولذلك لم يفتح لهم باب السجن، فكسروه ودخلوا عليه يهنئونه، فظن أنهم يحتالون عليه للاطلاع على ضميره، فرفض قبول الملك بقوله: إنه يفضل الوحدة التى هو بها على ملك الدنيا، ولما أن عجزوا عن إقناعه، حضرت إليه والدته وأحضرت له جثة أخيه دليلاً على وفاته، وحين ذلك جلس على سرير السلطنة، ثم أمر بدفن جثة أخيه باحتفال وافر، وساق أمامها ثلاثة أفراس من جياد الخيل التى كان يركبها فى حرب بغداد ثم مضى إلى جامع أبى أيوب الأنصارى، وهناك قلدوه بالسيف، ونادوا له بالخلافة[٤].

كان يقول عند ارتقائه العرش: الحمد لله اللهم جعلت عبداً ضعيفًا مثلى لائقًا لهذا المقام. اللهم أصلح وأحسن حال شعبى مدة حكمى واجعلنا راضيًا بعضًا عن بعض[٥].

ولقد دافع عنه صاحب كتاب «السلاطين العثمانيون» وقال إن الافتراءات الكاذبة التى قيلت فى حقه أكاذيب مختلقة من قبل الذين أرادوا عزله ثم قتلوه بعد ذلك[٦].

---

(١) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٣.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٦.

(٤) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ١٠٥.

(٥، ٦) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٦٤.

كانت الأحوال الداخلية شبه مستقرة بسبب إصلاحات أخيه نحو الإنكشارية، وتجديد الجيش، فاتجه إلى الاقتصاد فى نفقات الجيش والأسطول وإصلاح النقد وإقامة النظام الضرائبى على أسس جديدة[١].

استطاع الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا أن يوقف تدخل النساء فى شئون السلطنة وتمكن من القضاء على محاولات رجال البلاط السلطانى لإفساد الدولة وقضى على العابثين والمفسدين وقاطعى الطريق فى مختلف الولايات[٢].

•• الحرب ضد البنادقة:

كانت جمهورية البنادقة تهيمن على جزيرة كريت وعلى الحركة التجارية فى بحر إيجة مستغلين الصلح مع الدولة العثمانية، فعزم العثمانيون على تدمير نفوذ البنادقة فى الشرق، فجهزت الجيوش والأسطول وأعلنت الحرب على البنادقة واعتقل جميع البنادقة فى طول البلاد وعرضها وأمر بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، ثم سير حملة إلى جزيرة كريت عام ١٠٥٥ هـ/ ١٦٤٥م واستولت على أجزاء منها[٣]. ولكن الجنود تمردوا فى استانبول وهاجوا وماجوا وقرروا عزل السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع الذى لم يتم السابعة من عمره وقتل السلطان إبراهيم وقد امتد حكمه ٨ سنين و٩ شهور وكان عمره ٣٤ سنة[٤].

خامساً: السلطان محمد الرابع (١٠٥٨ - ١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨ - ١٦٨٧م):

ولد هذا السلطان عام ١٠٥١ هـ، وتولى المسئولية وهو ابن سبع سنوات، ورأت أوروبا أن الوقت حان للنيل من الدولة العثمانية؛ لذلك كونت أوروبا حلفًا ضم: النمسا، وبولونيا، والبندقية، ورهبان مالطة، والبابا، وروسيا وسموه (الحلف المقدس) وذلك للوقوف فى وجه المد الإسلامى الذى أصبح قريبًا من كل بيت فى أوروبا الشرقية بسبب جهاد العثمانيين الأبطال، وبدأ الهجوم الصليبى على ديار الدولة العثمانية وقيض الله لهذه الفترة (آل كوبريللى) الذين ساهموا فى رد هجمات الأعداء وتقوية الدولة، فالصدر الأعظم محمد

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٠٨.
(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص ١٥٠.
(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٠٩.
(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٧.

كوبريللى المتوفى عام (١٠٧٢ هـ/ ١٦٦١م) أعاد للدولة هيبتها، وسار على نهجه ابنه (أحمد كوبريللى) الذى رفض الصلح مع النمسا والبندقية وسار على رأس جيش لقتال النمسا، وتمكن عام ١٠٧٤ هـ أن يفتح أعظم قلعة فى النمسا وهى قلعة نوهزل شرقى فينا فى ٢٥ صفر ١٠٧٤ هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٦٦٣م، وفى عهد هذا الصدر الأعظم حاولت فرنسا التقرب من الدولة العثمانية، وتجديد الامتيازات، غير أن الصدر الأعظم رفض ذلك، ثم حاولت فرنسا التهديد حيث أرسل «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا السفير الفرنسى مع أسطول حربى، وهذا مازاد الصدر الأعظم إلا ثباتًا، وقال: (إن الامتيازات كانت منحة، وليست معاهدة واجبة التنفيذ)[١].

لقد تراجعت فرنسا أمام تلك الإرادة الحديدية واستعملت سياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى جددت لها المعاهدات القديمة وأعادت لها امتياز حماية بيت المقدس عام ١٠٨٤هـ[٢].

وبوفاة الصدر الأعظم «أحمد كوبريللى» ضعف النظام العثمانى، وهاجمت النمسا بلاد المجر، واغتصبت قلعة نوهزل ومدينة بست ومدينة بودا، وأغار ملك بولونيا على ولاية البغدان، وأغارت سفن البندقية على سواحل المورة واليونان واحتلت أثينا وكورنثة عام ١٠٩٧ هـ وغيرها من المدن.

وتذكر كتب التاريخ أن العلماء ورجال الدولة قد اتفقوا على عزل السلطان (محمد الرابع) فعزل عام ١٠٩٩هـ، وتولى مكانه أخوه سليمان الثانى[٣].

سادساً: السلطان سليمان خان الثانى:

ولد عام ١٠٥٢ هـ وتولى الحكم بعد أخيه (محمد الرابع) عام ١٠٩٩هـ، واستمر التدهور فى الدولة العثمانية فى عهده، وازدادت شراسة الأعداء على عهده، فاغتصبت النمسا كثيرا من المواقع والمدن ومنها بلجراد عام ١٠٩٩ هـ، كما احتلت البندقية وسواحل دالماسيا السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك وبعض الأماكن فى اليونان وتوالت الهزائم على الدولة، وقيض الله لها رجلاً لهذا الفترة هو الصدر الأعظم (مصطفى بن محمد كوبريللى)

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٤.

الذى سار على نهج أبيه، وسمح للنصارى فى استانبول ببناء ما تهدم من كنائسهم، وأحسن إليهم[1]، وعاقب بأشد العقاب كل من عرض لهم فى إقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحيى الدولة، وكانت نتيجة معاملة المسيحيين بالعدل أن ثار أهالى موره الأورام على البنادقة الكاثوليك، وطردوا جيشها من بلادهم بسبب اضطهادهم وإجبارهم على المذهب الكاثوليكى. ودخلوا فى حماية الدولة العثمانية مختارين طائعين لعدم تعرضها لديانتهم مطلقًا[2].

هذه شهادة من أبناء النصارى على سماحة الإسلام الذى ما نعمت البشرية بنعمة الأمن والطمأنينة على الدين والعرض والمال والدم إلا فى ظله؛ لأن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين علماهم ذلك، قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٨].

وشاء الله تعالى أن يختار الصدر الأعظم شهيدًا فى ساحة الوغى وهو ينافح عن حرمات الدين فى إحدى المعارك ضد النمسا الصليبية عام ١١٠٢ هـ[3].

•• وفاة السلطان سليمان الثانى:

فى ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢ هـ الموافق ٢٣ يونيو ١٦٩١م توفى السلطان سليمان الثانى عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ودفن فى تربة جده السلطان سليمان الأول وتولى بعده أخوه[4].

سابعًا: السلطان أحمد الثانى (١١٠٢-١١٠٦هـ/ ١٦٩٠-١٦٩٤م):

تولى الحكم عام ١١٠٢ هـ بعد وفاة أخيه سليمان الثانى، واستشهد فى زمنه الصدر الأعظم مصطفى كوبر يللى الذى كان عظيم النفع للدولة العثمانية، وتولى بعده الصدر الأعظم جى على باشا عريجى وكان ضعيفًا، واحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجة، ولم تطل أيام السلطان وتوفى عام ١١٠٦ هـ/ ١٦٩٤م، وكان القتال فى أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات، وتولى الحكم بعده ابن أخيه وهو مصطفى الثانى بن محمد الرابع[5].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧٤.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية، ص ٣٠٦.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص ٧٥.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٠٦.

(٥) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، ص ١١٥.

ثامنًا: السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦ - ١١١٥هـ/ ١٦٩٤ - ١٧٠٣م):

ولد عام ١٠٧٤ هـ وتولى الخلافة عام (١١٠٦ هـ/ ١٦٩٤م) وهو ابن السلطان محمد الرابع، وفى عهده بدأ تراجع المد الإسلامى عن ديار أوروبا الشرقية بسبب ضعف الإيمان، وضعف روح الجهاد، وتسرب أسباب الهزيمة فى كيان الأمة، وقسوة الهجمات الصليبية على ديار الدولة العثمانية، وفى عهده تم توقيع معاهدة كار لوفتس جنوب غرب زغرب على نهر الدانوب عام ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩م مع روسيا، وطبقًا لشروط هذه المعاهدة انسحب العثمانيون من بلاد المجر، وإقليم ترانسلفانيا، وهذا مؤشر سيىء فى تاريخ بعض حكام الدولة العثمانية، وهو انسحابهم فى المعارك تاركين المسلمين بين يدى عدو نزعت من قلبه الشفقة والرحمة[1]، وأصبحت كل الدول التى كانت تدفع الجزية عن يد وهى صاغرة ممتنعة من دفعها، وكانت الدول النصرانية تقف فى وجه العثمانيين، وكانت متفقة فيما بينها للوقوف فى وجه تقدم الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها وذلك خوفًا من انتشار المد الإسلامى.

كان تنازل العثمانيين عن أراضيها بداية الانسحاب العثمانى من أوروبا، كما أنه يسجل الانتقال إلى عصر التفكك والاضمحلال السريع. وعلى أثر تدخل الإنكشارية ومطالبتهم بعزل الصدور ورفض السلطان لذلك فقد قرروا عزله وتوفى بعد أربعة أشهر وكان عند وفاته فى التاسعة والثلاثين من عمره ودفن رحمه الله.

تاسعًا: السلطان أحمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣ - ١٧٣٠م):

فى عهده ظلت راية الجهاد مرفوعة، واستطاعت الدولة أن تعيد المورة وآزاق، وواصلت جهادها ضد روسيا وأنزل بها ضربة كادت تكون قاصمة، حينما حاصر المجاهدون العثمانيون قيصر روسيا وخليلته ومعهما ٢٠٠,٠٠٠ مجاهد كادوا يقعون فى الأسر ولكن الخيانة تحت فتنة المال والنساء دفعت الصدر الأعظم إلى رفع الحصار، وخيانة الدولة، ووقع معاهدة (فلكزن) فى جمادى الآخرة عام ١١٢٣ هـ مع الروس، ترتب عليها إخلاء مدينة آزاق للصليبيين الروس وتعهد بعدم التدخل فى شئون القوزاق، ولهذا السبب عزل السلطان أحمد الثالث الصدر الأعظم بلطة جى باشا، واستمر الجهاد ضد الروس، ورأت هولندا وإنجلترا إن مصلحتهما إيقاف الحرب ولذلك تدخلوا، ووقعت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥ هـ/

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص ٧٦.

١٧١٦م[١]، وتنازلت فيها روسيا عن كل ما استولت عليه من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلت فى الوقت نفسه عما كانت تدفعه إلى حكام القرم[٢].

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، واستولوا على كريت وبعض الجزر الأخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا من الدولة العثمانية لإعادة ما أخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين وانتصرت النمسا وسقطت بلغراد عام ١١٢٩ هـ/ ١٧١٧م، ثم جرى الصلح بعد ذلك فى عام ١١٣٠ هـ/ ١٧١٨م، وتوسطت بريطانيا وهولندا فى الصلح. وعقد صلح بساروفتز، وبموجبه انتزع النمساويون بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق وتبقى سواحل دالماسيا (شرق الأدرياتيك) للبندقية، وتعود بلاد المورة للعثمانيين، كما أتاح الصلح لرجال الدين الكاثوليك أن يستعيدوا مزاياهم القديمة فى الأراضى العثمانية، مما أتاح لهم وللنمسا التدخل فى شئون الدولة العثمانية باسم حمايتهم، وقد نص اتفاق منفصل على حرية التجارة لصالح تجار الدول الموقعة على المعاهدة. وهكذا حصلت النمسا على حق حماية التجار الأجانب داخل الدولة العثمانية[٣]. ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس بالمرور فى أراضى الدولة العثمانية دون دفع أية رسوم فوافق العثمانيون على ذلك. واحتل العثمانيون بلاد أرمينيا بلاد الكرج، بينما احتل بطرس الأكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية بسبب ضعف الدولة الصفوية، وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا، وبقى كل فريق فى المناطق التى دخلها دون معارضة الآخر. غير أن الصفويين هبوا وقاتلوا العثمانيين، ولكنهم هزموا وفقدوا تبريز وهمدان وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٨م. وخلال هذه الفترة ثار الإنكشاريون وعزلوا الخليفة ونصبوا مكانه ابن أخيه[٤].

•• الداماد إبراهيم باشا والحضارة الغربية:

كان عدد قليل من العثمانيين قد نادى بالإصلاح للوصول إلى الوسائل التى حققت بها أوروبا قوتها خاصة فى التنظيم العسكرى والأسلحة الحديثة. وكان الداماد إبراهيم باشا الذى تولى الصدارة العظمى فى عهد السلطان أحمد الثالث هو أول مسئول عثمانى يعترف

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧٦.
(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل باغى، ص ١١٧.
(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ١٥٦، ١٥٧.
(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

بأهمية التعرف على أوروبا، لذا فإنه أقام اتصالات منتظمة بالسفراء الأوروبيين المقيمين بالأستانة، وأرسل السفراء العثمانيين إلى العواصم الأوروبية، وبخاصة فينا وباريس للمرة الأولى. وكانت مهمة هؤلاء السفراء لا تقتصر على توقيع الاتفاقات التجارية والدبلوماسية الخاصة بالمعاهدات التى سبق توقيعها، بل أنه طلب منهم تزويد الدولة بمعلومات عن الدبلوماسية الأوروبية وقوة أوروبا العسكرية. وكان معنى ذلك فتح ثغرة فى الستار الحديدى العثمانى والاعتراف بالأمر الواقع الخاص بأنه لم يعد بإمكان العثمانيين تجاهل التطورات الداخلية التى كانت تحدث فى أوروبا[١].

وقد بدأ التأثر بأوروبا فى مجال بناء القصور والإسراف والبذخ اللذين شارك فيهما السلطان أحمد ذاته بنصيب كبير، مما جعل الأغنياء وعلية القوم يسعون إلى اقتباس العادات الأوروبية الخاصة بالأثاث وتزيين الدور وبناء القصور وإنشاء الحدائق[٢].

لقد بدأ ظهور تقليد الغرب فى شهواتهم وإسرافهم تظهر للعيان وطبيعى أن تمضى فيهم سنة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦].

وسجلت هذه الفترة بداية الحركة الأدبية العثمانية الحديثة فنشطت حركة الترجمة إلى اللغة التركية، كما أرسل السلطان أحمد مبعوثين إلى فرنسا للإطلاع على المصانع ومنجزات الحضارة الفرنسية. كما تم إنشاء مكتب للطباعة فى استانبول[٣].

عاشراً: السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ):

تولى الحكم بعد أن هدأت الأحوال بسبب اضطرابات الإنكشارية، فقرر السلطان محمود الأول استقدام مستشار أوروبى فرنسى للشئون العسكرية واسمه الكسندر الكونت دى بونفال، وقد عهد إليه بإحياء فرقة المدفعية، وأدخلت أنظمة جديدة للخدمة العسكرية على أسس فرنسية ونمساوية بهدف جعل الخدمة العسكرية من جديد مهنة حقيقية وذلك بتوفير المرتبات والمعونات. واقترح توزيع فرق الإنكشارية إلى وحدات صغيرة يقودها ضابط شاب، غير أن الإنكشارية عارضوا تنفيذ هذه الخطة وأوقفوها، مما أدى إلى تركيز بونفال

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ الإسلامى، ص ١٥٩.

(٢، ٣) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١١٩.

على فرقة المدفعية واهتم كذلك بصناعة المدافع والبارود والبنادق والألغام وعربات المدافع، وافتتح مدرسة للهندسة العسكرية، إلا أن الإنكشارية عارضوا كل المشروعات، وعلاوة على ذلك أنشأ مصنعا للورق، لكن هذه الإصلاحات سرعان ما اندثرت(١).

اتجهت الدولة العثمانية إلى قتال الشيعة الصفوية، فتغلبت على طهماسب الذى طلب الصلح عام ١١٤٤ هـ/ ١٧٣١م، وتخلى العثمانيون عن تبريز، وهمدان، ولورستان غير أن والى الشاه على خراسان وهو نادر شاه، لم يقبل بهذه المعاهدة. فسار إلى أصفهان، وعزل الشاه طهماسب وولى مكانه ابنه عباس، وعين عليه مجلس وصاية، سار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، طلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام ١١٤٩ هـ/ ١٧٣٦م فى مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكًا على الفرس، واتفقوا على أن يرد العثمانيون كل ما أخذوه إلى الشيعة الإيرانية(٢).

•• الحرب مع الدول الأوروبية:

أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا فى التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولندا من كل من النمسا وروسيا، وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فينا واتفقت من جهة ثانية لقتال الدولة العثمانية، وبدأت روسيا القتال مع الدولة العثمانية، فتمكن العثمانيون من وقف تقدم الروس فى إقليم البغدان، كما أوقفوا تقدم النمسا فى البوسنة والصرب والأفلاق، وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التى انسحبت من الحرب، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتم توقيع معاهدة الصلح فى بلغراد عام ١١٥٢ هـ/ ١٧٣٩م، تنازلت فيها النمسا عن مدينة بلغراد وعن بلاد الصرب والأفلاق، وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن فى البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف(٣).

•• السلطان عثمان الثالث (١١٦٨ - ١١٧١هـ/ ١٧٥٨ - ١٧٦١م):

تولى الحكم وعمره ٥٨ سنة، وبويع فى جامع أبى أيوب الأنصارى، وهنأه سفراء أوروبا، وحكم ثلاث سنوات فقط لم تحدث فيه حروب ولا نزاعات خارجية، واهتم بالإصلاحات الداخلية، وأصدر أوامر بمنع كل ما يخالف الشرع الشريف وقضى على الثورات والانتفاضات التى قامت فى أنحاء الدولة وخاصة ثورات الأكراد(٤) ويذكر عنه أنه كان

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى (٨)، محمود شاكر، ص ١١٠ - ١١٢.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص ٢٠٨ - ٢١٢.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٢١.

يتحسس أحوال الرعية ليلاً متنكراً[١].

الحادى عشر: السلطان مصطفى الثالث (١١٧١ - ١١٨٧هـ/ ١٧٥٧ - ١٧٧٣):

تولى الحكم وعمره اثنتان وأربعون سنة، وكان على دراية واسعة بإدارة الدولة، فعين الوزير قوجه راغب صدراً أعظم لسعة اطلاعه وخبرته بشئون البلاد. وقد استطاع محمد راغب باشا من إخماد ثورة عرب الشام الذين اعتدوا على قوافل الحجاج[٢].

كان السلطان مصطفى يرى أن الخطر الداهم على الدولة العثمانية يتمثل فى ظهور للقوة الروسية الجديدة ويبدو أنه اطلع على المخطط الأسود الروسى لتفتيت الدولة العثمانية الذى وضعه بطرس الأكبر فى وصيته[٣]، ولذلك أعد السلطان مصطفى الثالث لحرب روسيا، فبدأ يعد التنظيمات المزمع تنفيذها بالجيش العثمانى حتى يصبح قادراً على مواجهة الجيوش الأوروبية، لذا فقد تمكن الصدر الأعظم من عقد اتفاق مع حكومة بروسيا لمساعدة الدولة العثمانية عند الحاجة ضد النمسا وروسيا. وعمل على توسيع نطاق التجارة البحرية والبرية. وعمل على وضع مشروع فتح خليج لإيصال نهر دجلة بالأستانة وأن تستعمل الأنهار الطبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات إلى دار الخلافة، ويساعد على نشر التجارة، إلا أن المنية عاجلته قبل البدء فى مشروعه عام ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م. وخلفه فى الصدارة حامد حمزة باشا ثم خلفه مصطفى باهر باشا ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٣م، ثم بعد سنة تولى الصدارة محسن زاده محمد باشا ١١٧٨ هـ/ ١٧٦٤م[٤].

خاضت الدولة العثمانية حرباً مع روسيا بسبب اعتداءات القوزاق على مناطق الحدود، نجح ملك القرم فى غارته وهدم عدداً من الضياع وذلك عام ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٨، كما سار الصدر الأعظم لفك الحصار عن بعض المواقع التى يحاصرها الروس، ولكنه فشل فكان جزاؤه القتل، وهزم الصدر الذى أتى بعده، واحتل الروس إقليمى الأفلاق والبغدان، وأخذ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس للقيام بثورات ضد الدولة، فأثاروا نصارى شبه جزيرة المورة فقاموا بثورة، غير أن الثورة قد أخمدت[٥].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٧٩.
(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٢٢.
(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢.
(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص ٢١٦.
(٥) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، ص ١٢٢.

كما هاجم الروس مدينة طرابزون وفشلوا في احتلالها، ولكنها (روسيا) نجحت في اقتحام بلاد القرم والسيطرة عليها وذلك عام ١١٨٥ هـ/ ١٧٧١م. ثم جرت مفاوضات الصلح ولكنها فشلت بسبب مطالب روسيا التعسفية، وعادت الحرب وانتصر العثمانيون(١).

•• الاهتمام بدعم الثورات الداخلية:

لقد ظهر التآمر الروسي الصليبي ضد ديار الدولة العثمانية واضحًا وقام بمحاولة تمزيق الدولة من الداخل، فقد دفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة وهو « علي بك الكبير » الذي لقب بشيخ البلد إلى الخروج على الدولة العثمانية عام (١١٨٣ هـ/ ١٧٧٠م)، ففعل، وأمر بأن يخطب باسمه على المنابر.

وفي جزيرة (باروس) تم لقاء بين الصليبيين الروس ومبعوثين من قبل (علي بك الكبير) وتم التخطيط الماكر لتدمير الدولة العثمانية من الداخل، يكون فيها علي بك الكبير هو مخلب القط ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا من قبل العثمانيين، وبناء عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال القوات العثمانية في بلاد الشام ودخل « سورية » عنوة في عام ١١٨٥هـ، بل إنه دخل دمشق، وصيدا وحاصر « يافا » بمساعدة طاهر العمر، بل إن الروس حينما قامت قوات الدولة العثمانية بمحاصرة صيدا، عاونوا عميلهم في رفع الحصار ومده بالأسلحة واستولوا على بيروت عام ١١٨٦هـ.

وجاء الوقت الذي أسر فيه علي بك الكبير، وتوفي في أسره، وقتل الخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكا، وذلك على يد محمد بك الشهير بأبي الذهب(٢).

إن الصليبية النصرانية عندما عجزت عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى لجأت إلى تفجير الدولة من الداخل عبر ضعفاء النفوس ممن ينتسبون إلى الإسلام ويظهرون شعائره ويضيعون مفهوم الولاء والبراء في بحر شهواتهم وأطماعهم وإلا كيف يكون ذلك والله يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ** ﴾ [المتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٢٢.

(٢) انظر الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص ٨٠.

إن المسلم الصادق مع نفسه وربه وأمته لا يقف مع الروس الأرثوذكس ضد المسلمين السنيين العثمانيين ويستحل دماءهم(١). إن أعداء الأمة المسلمة يلجأون دومًا إلى إشعال نار الفتنة داخل ديار الإسلام لتدمير قوة الأمة البشرية والاقتصادية والأخلاقية لتصبح الأمة مؤهلة للسقوط بيد الأعداء(٢)، لقد كان السلطان مصطفى الثالث من السلاطين المجاهدين وقد تصدى للهجمات الروسية الصليبية على الدولة، وأنزل بهم هزائم عدة وكان يرى بثاقب بصره وبعد نظره أن الدولة العثمانية بدأت فى عصر التراجع والسقوط وظهرت تلك الرؤية فى شعره:

إن الدنيا منهدمة لا تظن أنها تستقيم لنا

جميع مراتب الدولة بقيت فى أيدى الأراذل

وأن السعداء اليوم كلهم أدناء

ونحن متوكلون على الله جل جلاله

كان هذا السلطان مهتمًا بالتاريخ الإسلامى عمومًا وتاريخ الدولة العثمانية خصوصًا.

لقد استمرت الحرب مع روسيا فترة طويلة حيث بدأت فى عام ١٧٦٨م، وانتهت فى ١٧٧٤م، وفقدت الدولة العثمانية أراضي واسعة ومهمة، وبدأ ظهور الضعف والتأخر والتخلف الحقيقى فى الدولة، ومرض السلطان مصطفى الثالث فى حرب روسيا حزنًا وتوفى وعمره يناهز ٥٧ عامًا تقريبًا(٣). وتوفى الخليفة عام ١١٨٧ هـ وتولى مكانه أخوه عبد الحميد الأول(٤).

الثانى عشر: السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٧ - ١٢٠٣هـ/ ١٧٧٣ - ١٧٨٨م):

تولى الحكم عام ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣م بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، وكان محجوزًا فى قصره مدة حكم إخيه مصطفى الثالث، استطاعت روسيا أن تحقق نصرًا على العثمانيين فى مدينة فارنا فى بلغاريا على البحر الأسود، وطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتم ذلك

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٠.

(٣) انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٧٢.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، إسماعيل ياغى، ص ١٢٣.

فى مدينة قينارجة فى بلغاريا عام ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٤م[١]، وأهم ما جاء فيها:

١ - إزالة العداوة بين الدولة العثمانية وروسيا وحلول الصلح وصيانة الاتفاقات من التغيير والعفو عن الجرائم التى اقترفها رعايا الطرفين.

٢ - عدم حماية الرعايا الملتجئين أو الفارين أو الخونة ضمن شروط.

٣ - اعتراف الطرفين بحرية بلاد القرم بلا استثناء واستقلالها، ولهم الحرية التامة بانتخاب خان لهم دون تدخل ولا يؤدون ضريبة. وباعتبارهم مسلمين فإن أمورهم المذهبية تنظم من قبل السلطان بمقتضى الشريعة الإسلامية.

٤ - سحب القوات العثمانية من القرم وتسليم القلاع وعدم إرسال جنود أو محافظ عسكرى.

٥ - حرية كل دولة فى بناء القلاع والأبنية والتحصينات وإصلاح ما يلزم منها.

٦ - تعيين سفير روسى فى الأستانة من الدرجة الثانية، والاعتذار له رسميًا عما يحدث من خلل.

٧ - تعهد الدولة العثمانية بصيانة الحقوق والكنائس النصرانية فى أراضيها ومنح الرخصة لإصلاح الخلل.

٨ - حرية زيارة رهبان روسيا للقدس والأماكن الأخرى التى تستحق الزيارة مرخص بها دون دفع جزية أو خراج ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك[٢].

٩ - حرية الملاحة للروس فى كافة الموانئ العثمانية فى البحرين الأبيض المتوسط والأسود مضمونة، وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس فى البلاد العثمانية براً وبحراً مكفولة، وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير إليها والإقامة فيها. ويحق لروسيا تعيين القناصل فى كل المواقع التى تراها مناسبة.

١٠ - يجب على الدولة العثمانية التعهد ببذل جهدها فى كفالة حكومات الولايات الأفريقية إذا ما رغب الروس بعقد معاهدات تجارية فيها.

١١ - يحق للروس بناء كنيسة على الطريق العام فى محلة بكل أوغلى فى غلطة باستانبول

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، إسماعيل ياغى، ص ١٢٣.

(٢) انظر: العثمانيون والروس، د. على حسن، ص ٨٣.

غير الكنيسة المخصصة وتكون تحت صيانة سفير روسيا وتؤمن الصيانة الكاملة لها والحراسة التامة خوفًا من التدخل.

١٢ - إعادة بعض المناطق للدولة العثمانية من روسيا بشروط منها: العفو العام عن أهاليها وحرية النصارى منهم من شتى الوجوه وبناء كنائس جديدة، ومنح امتيازات للرهبان وحرية الهجرة للأعيان وعدم التعرض لهم، وإعفاؤهم من تكاليف الحرب والجزية.

١٣ - يرد الروس جزائر البحر الأبيض المتوسط التى هى تحت حكمهم للدولة العثمانية التى يجب أن تعفو عن أهلها وتعفيهم من الرسوم السنوية وتمنحهم الحرية الدينية وترخص لمن يريد منهم ترك وطنهم.

كما ذكرت بنود أخرى تتعلق ببعض المناطق فى القرم وبتدابير الانسحاب وإخلاء الأفلاق والبوجاق والبغدان وبتسريح الأسرى وتعيين السفراء من أجل المصالحة وتعهدت الدولة العثمانية بتأدية خمسة عشر ألف كيس لروسيا فى مدة ثلاث سنين يدفع منها فى كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس[١].

وحين التمعن فى هذه الشروط يمكن ملاحظة ما يلى:

١ - إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الدبلوماسية المقبلة للتدخل الروسى فى القضايا العثمانية الداخلية.

٢ - تمدد الحدود الروسية إلى نهر بوغ الجنوبى واشتمالها آزوف وسهوب كرش ونيكال فى النهاية الشرقية من شبه نهرى الدينيبر وبوغ وسهوب وكينبورن.

٣ - أصبحت بلاد القرم مستقلة ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينيًا فقط.

٤ - أصبح لروسيا حق بناء قناصل فى أى مكان فى الدولة العثمانية والملاحة الحرة فى مياها.

٥ - سمحت المعاهدة للروس بالحصول على الامتيازات ضمن البلاد العثمانية تشمل الأرثوذكس فى الأفلاق والبغدان وجزر بحر إيجة، وبالتالى تحولت روسيا إلى حماية الأرثوذكس فى أى مكان فى الدولة العثمانية[٢].

---

(١) انظر: العثمانيون والروس، ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥.

ولم يكتف الروس الصليبيون بذلك، بل واصلوا تآمرهم، وفاجأوا الدولة العثمانية بدخول قواتهم بلاد القرم وهى جزء من ولايات الدولة العثمانية بسبعين ألف جندى غير مبالين بمعاهدة (كينارجه)[1].

وانبهرت ملكتهم كاترينا بهذا النصر وطافت ربوع القرام وأقيمت لها الزينات وأقواس النصر التى كتب عليها (الطريق بيزنطة). وثارت الدولة العثمانية من جديد فأرسل الباب العالى مذكرة إلى السفير الروسى بالاستانة وذلك فى صيف عام ١٢٠٠ هـ فيها عدة مطالب منها التنازل عن حماية بلاد الكرج التى تخضع للسيادة العثمانية وتسليم حاكم الفلاخ العاصى للدولة ورفضت روسيا المذكرة فأعلن الباب العالى الحرب وسجن السفير الروسى[2].

●● تحالف النمسا مع روسيا:

وكتبت كاترينا إلى القائد العسكرى بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والتقدم باتجاه مدينتى بندر وأوزى وتمكن نتيجة لذلك من دخول (أوزى) وعندها أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية وحاول يوسف الثانى الامبراطور النمساوى احتلال بلغراد ولكنه عاد يجر أذيال الخيبة منسحباً إلى مدينة تمسوار والجيش العثمانى يتعقبه حتى هزمه شر هزيمة.

●● وفاة السلطان عبد الحميد الأول وأثرها على الأحداث:

فى هذه الآونة توفى السلطان عبد الحميد الأول ووهنت عزيمة الجند ودخل اليأس قلوبهم، واستغل الأعداء ما حدث وتضافرت جهودهم لإضعاف العثمانيين وتمكنوا من النصر فى ٣١ تموز وفى ٢٢ أيلول عام ١٧٨٩م، واستولى الروس على مدينة بندر الحصينة، واحتلوا معظم الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون بلغراد وبلاد الصرب التى ردت بعد ذلك بمقتضى معاهدة زشتوى[3].

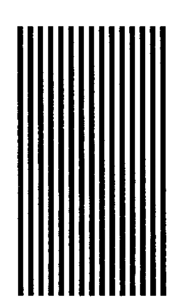
*****

---

(١) انظر: العثمانية، د. جمال، ص ٨٢.

(٢) انظر: العثمانيون والروس، ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٧.



المبحث السادس

السلطان سليم الثالث

(١٢٠٣ - ١٢٢٢هـ/ ١٧٨٨ - ١٨٠٧م)

تولى السلطة بعد وفاة عمه عبدالحميد الأول عام ١٢٠٣ هـ/ ١٧٨٨م وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعدائها شرع فى إحياء الروح المعنوية فى نفوس جنده واعتمد على تاريخ الدولة العثمانية وما قامت به من أعمال بطولية، ففى مراسم توليه عرش الدولة قام السلطان بإلقاء خطبة حماسية أمام قادة الدولة أشار فيها بما حققته الجيوش العثمانية من انتصارات فى الماضى على أعدائها، وتكلم عن سبب هزائمهم المتأخرة أمام أعدائهم وبين أنها بسبب ابتعادهم عن دينهم وعدم اتباع كتابهم وسنة نبيهم، وحثهم على ضرورة التضحية والجهاد ضد أعدائهم، والاعتماد على الله فى كل تصرفاتهم وطاعة أولى الأمر، ومقاومة الأعداء الذين استولوا على أراضى المسلمين وقتلوا وسجنوا الآلاف منهم حتى تستعيد الدولة بلاد القرم منهم(١).

أولاً: إصراره على الجهاد:

هذه الآمال عند السلطان سليم الثالث جعلته يرفض مساعى الصلح التى قام بها سفراء أسبانيا وفرنسا وبروسيا، وطلب من الصدر الأعظم يوسف باشا اتخاذ الترتيبات اللازمة للتصدى لأعداء الدولة.

لقد أدرك السلطان المأساة التى يعيشها شعبه من جراء الهزائم المتوالية على الدولة العثمانية، ولكى يخفف من حدة الغضب والنفور، رفض السلطان مساعى الصلح وقرر التوجه بنفسه على رأس جيش نحو الدانوب.

وقام بزيادة مرتبات الجند وصرف مكافآت إضافية تزيد عما كانت عليه فى عهد سلفه(٢).

---

(١) انظر: تاريخ سياسى، دولة علية عثمانية، كامل باشا (٢/ ٢٥٠).

(٢) انظر: تاريخ نورى فى بيان أحوال دولت العلية، ص١١٠.

ورأى السلطان العثمانى ضرورة تقوية مركزه بتعيين صديقه القديم حسين باشا الكريدلى قائداً للأسطول العثمانى ونقل خدمات القائد السابق حسن باشا إلى قيادة الجيش البرية فى مُولدافيا وتعيينه حاكماً على مدينة «إسماعيل» وتكليفه فى نفس الوقت بإعادة أوزى والتوجه بطريق البر نحو القرم(١).

وكان هذا التغيير فى مناصب قيادة الجيش له أسبابه، فمن جهة كان القائد حسن باشا على خلاف مع الصدر الأعظم يوسف باشا، عندما رأى أن إعلان الحرب على روسيا لم يكن فى وقته المناسب وأنهم بحاجة إلى الاستعداد التام قبل دخول الحرب، ومن جهة أخرى فإن إخفاق الجيش العثمانى بقيادة حسن باشا فى استعادة «أوزى» وعودته قبل الوقت المحدد قد أثر على نفسية السلطان فرأى ضرورة تغيير القيادة، ولكن السبب المعقول والأقرب إلى المنطق أن القائد الجديد كان من أصدقاء السلطان(٢)، مما يجعل تعيينه فى منصب الصدر الأعظم سنداً قوياً وتقوية لمركزه أمام أعدائه فى الداخل والخارج(٣).

أصبح السلطان سليم فى موقف يحتم عليه المواجهة مع أعدائه، ومما قام به فى هذا الشأن تكليفه لصدره الأعظم يوسف باشا بالاهتمام بإقليم ولاشيا وحماية بلغراد من أى هجوم فى منطقة الكوبان بهدف إثارة تتار القوقاز ضد روسيا ومساعدة الدولة العثمانية لاستعادة بلاد القرم.

استبشر الصدر الأعظم بثقة السلطان سليم الثالث فيه وظن كأن النصر قريب وكان يأمل أن يحقق أهداف الدولة المطلوبة منه(٤).

ثانياً: هزيمة الجيوش العثمانية:

عززت القوات الروسية والنمساوية مواقعها، واستنفرت جيوشها وأصبحت قواتهم قريبة من بلغراد مولدافيا ولم يستطع الصدر الأعظم من إبعاد الأعداء عن بلغراد، واضطر السلطان لعزله وعين حسن باشا بدله، لقد منى يوسف باشا بهزائم متتالية على يد القائدين الروسى «سواروف»، والنمساوى «كوبرق».

كان السلطان سليم الثالث حريصا على استعادة القرم وتحقيق النصر على أعدائه، ورأى

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٦٨، ٦٩.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص٢٣٥.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٦٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٦٩.

البدء بإعادة بناء الجيش وأصدر أوامره للصدر الأعظم باتخاذ اللازم نحو تطوير الجيش ومتابعة الجهود فى سبيل الإصلاح وإرسال حملة عسكرية إلى ساحة القتال، ورأى السلطان دعم هذه التوجهات بعقد معاهدة صداقة مع السويد تلتزم فيها الدولة العثمانية بدفع مبالغ نقدية سنوية محددة لمدة عشر سنوات مقابل أن تقاوم السويد روسيا من الناحية الشمالية، واتفقتا أيضاً على مواصلة الحرب معاً ضد روسيا وألا يقوم أى منهما بعقد معاهدة سلام مع دولة أخرى دون علم الثانية(١).

ثالثاً: موقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات:

كانت مواقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات متباينة، فبروسيا رحبت بهذه المعاهدة وذلك لأنها كانت دائماً تحث السلطان سليم الثالث على مواصلة الحرب خوفاً من أن تكون هى الأخرى من فرائس روسيا، وفرنسا لم تؤيد عقد المعاهدة لأنها على هذا الوضع لا تخدم السياسة الفرنسية وأهدافها.

أما بريطانيا فهى كما يقول الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب(٢)

فهى وإن رضيت بالمعاهدة، ورغبت فى بقاء الدولة العثمانية قوية، إلا أنها لا تفضل الوقوف جنباً إلى جنب مع الدولة العثمانية ضد روسيا أو النمسا، ولا تفضل تقديم أى نوع من الدعم.

هذه المواقف الأوروبية يجب ألا تستغربها، فهى طبيعية، لأن علاقاتها مع الدولة العثمانية علاقات مصالح ومطامع فقط، وإذا سعت بعض الدول الأوروبية إلى بقاء الدولة العثمانية قوية الجانب، فذلك ليس حباً فيها ولكنه هدف لخدمة أغراض سياسية تتعلق بتوازن القوى فى القارة الأوروبية وتتعلق بالرغبة فى الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية سواء فى داخل الدولة العثمانية أو خارجها.

على الرغم من تأثير هذه المواقف الأوروبية على الاتجاه العام لسياسة الدولة العثمانية وتقدمها فى المناطق الأوروبية، لم ييأس السلطان العثمانى، وكان يحدوه الأمل بنجاح المهمة في حال توجيه الجيش، فأصدر أمره بتحريك القوات العثمانية عبر البغدان والأفلاق حتى

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٧١.

(٢) انظر: تاريخ دولت عثمانية عبدالرحمن شرف، ص٢١٠، ٢١١.

وصلت مقدمات جيشه إلى نهر «رمينيك» عند حدود النمسا وهناك حدث ما لم يكن فى الحسبان حيث تمكن الجيشان الروسى والنمساوى من مباغتة الجيش العثمانى على غفلة وانتصر عليه وسميت تلك المواجهة بمعركة «يوزا» أو «رمينيك» نسبة إلى النهر الذى وقعت عنده المعركة(١).

كان لهذه المعركة آثارها السيئة على الدولة العثمانية فلم يعد هناك فرصة لتنظيم الجيش، فتوالت الهزائم على الدولة العثمانية وتزحزحت إلى الوراء باتجاه شرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصة لفلك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوروبا(٢).

لقد كانت الحملات الصليبية على الأقاليم العثمانية خلال الشهور الأخيرة من عام ١٧٨٩م من أفظع ما شهدته المناطق الحدودية بين الطرفين، ولذلك تميزت الفترة التى أعقبت هذه الحملات بحالتين مختلفتين:

الأولى: وتتمثل فى قيام نشاط دبلوماسى وحركات دينية وسياسية فى الأوساط الأوروبية تنذر بالخطر، مما جعل الدول القوية تبحث عن السلام وتنادى بإيقاف الحرب بين الدولة العثمانية وعدوتها روسيا والنمسا.

ولاحت الثورة الفرنسية فى الأفق وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة فى أوروبا، وأوجدت شعوراً قوياً عند الدول الأوروبية ومعها روسيا بأن الوقت قد حان للتعاطف مع الدولة العثمانية خوفاً من استفحال الثورة النابليونية وهيمنة فرنسا على شئون القارة الأوروبية(٣).

والثانية: هى ما شهدته الفترة من تطورات واستعدادات عسكرية جديدة بسبب تلك الهزائم المتتابعة التى لحقت بالدولة العثمانية قبل وبعد معركة «يوزا» والتى أدت إلى إثارة السخط والغضب فى أوساط الرعية حتى ارتفعت الأصوات بتصحيح الأوضاع وإقالة الصدر الأعظم من منصبه(٤).

وتوالت الأحداث واستمرت الهزائم، وضعفت الدولة العثمانية، ومع ظهور الثورة

---

(١) انظر: تاريخ دولت عثمانية، عبدالرحمن شرف، ص٢١٠، ٢١١.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٧٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٧٤

الفرنسية رأت الدول الأوروبية ضرورة التوصل إلى معاهدة مع الدولة العثمانية لجمع الشمل الأوروبى أمام الحركة النابليونية التوسعية، والأطماع الفرنسية التى أنستهم أطماعهم فى أراضى الدولة العثمانية كمرحلة أولى، ونجحت الدول الأوروبية فى وساطتها وتم عقد معاهدة «زشتوى المشهورة» فى ٢٢ من ذى الحجة عام ١٢٠٥ هـ الموافق ٤ من أغسطس ١٧٩١م[١].

لما تحقق لهم ذلك بقى عليهم المرحلة الثانية وهى وقف الحرب العثمانية الروسية التى بدون تحقيق ذلك سيكون موضوع المناطق فى أوروبا معرضا للأخطار بسبب المغامرات النابليونية أو بسبب تفوق روسيا على الدولة العثمانية وبالتالى تسبب تهديداً لأوروبا[٢].

وكان وضع الدولة العثمانية بسبب الأحداث التى تعرضت لها أثره على قوتها وعلى سير حملاتها نحو أوروبا وجعلتها فى موقف لا يمانع من الموافقة على أى أمر يؤدى إلى السلام وبأى شروط، وكانت تلك الأحداث مساعدة فى مهمة الوسطاء، فتوصلوا بعد مفاوضات مع كل من روسيا والدولة العثمانية، إلى عقد معاهدة سلام بينهما فى مدينة ياش وذلك بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٠٦ هـ، الموافق التاسع من شهر يناير عام ١٧٩٢م.

*** كان من أهم بنود هذه المعاهدة:**

١ – تبادل أسرى الحرب والسماح للرعايا الذين يعيشون خارج دولتهم بسبب الأزمات السياسية، بالعودة إلى بلدانهم الأصلية أو البقاء حسب رغباتهم.

٢ – تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن ميناء أزوف وبلاد القرم وشبه جزيرة طمان وبلاد القويان وبساربيا والأقاليم الواقعة بين نهرى بجد والدينستر، ويكون النهر الأخير حداً فاصلاً بين الدولتين.

٣ – تُرجع روسيا للدولة العثمانية مناطق: البغدان واكرمان وكيلى وإسماعيل مقابل أن تقوم الدولة بإعفاء رعايا البغدان من الضرائب وعدم مطالبة روسيا بتعويضات حرب أو ما شابه ذلك.

٤ – يمنع الباب العالى رعايا دولته من الغارات على محافظتى تفليس وكاتالينا الروسيتين، وعلى السفن الروسية فى البحر المتوسط، وعليه القيام بدفع تعويضات لأى أضرار تحدث بعد ذلك من قبل رعايا الدولة العثمانية[٣].

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٨٢.

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه، ص٨٣.

وحققت تلك المعاهدة وقف الحرب الروسية العثمانية، وتحققت أهداف الدول الأوروبية وأهمها إيقاف الحرب فى زمن كانت أوروبا تعيش فيه انطلاق الثورة النابليونية وتخشى تطورها على أنظمة الحكم فيها، وهكذا ضاعت آمال الدولة العثمانية وضاعت معها تلك المناطق التى كانت تحت نفوذها حتى أصبح البحر الأسود تحت رحمة العلم الروسى وأصبحت موائنه العثمانية مثل أزوف وأوديسا وسيفاستبول قواعد للأسطول الروسى وأصبحت مصبات الأنهار العظيمة مثل الدانوب وبج والدنيستر وبروت وحركتها الملاحية تحت تصرف روسيا.

وهكذا قلصت هذه المعاهدة حدود الدولة العثمانية فى أوروبا وأعطت فى نفس الوقت الصفة التنازلية الشرعية من مكتسباتها لأعدائها.

وهكذا خطت الدول الأوروبية خطوات ساهمت فى القضاء على الكيان العثمانى فى أوروبا وكأنها بذلك تحقق المشروعات الكثيرة[١] التى نادى بها الساسة والمفكرون الأوروبيون ضد الدولة العثمانية منذ قرون طويلة، وكانت القوى الصليبية والقوى الاستعمارية والقوى اليهودية تعمل فى مثابرة وتنظيم نحو الهدف المنشود وكأنها: (شركة عالمية يتبادل فيها المؤسسون الأوروبيون النظرات الشذراء، قد يختلفون معاً ولكنهم متفقون على آل عثمان، وكل منهم متحفز للنهش والقضاء والابتلاع)[٢].

وإن كانت معاهدة ياش قد أنهت المواجهات الروسية العثمانية لفترة مؤقتة إلا أنها فى حقيقة الأمر بداية لنهاية أكثر فاجعة من الأولى[٣].

رابعاً: الإصلاح الداخلى والمعارضة:

وبعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الإنكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة واتجه نحو تقليد أوروبا التى تجاوزتهم كثيراً فاهتم بصناعة السفن والأسلحة خاصة المدافع على الطريقة الفرنسية، وشهد عهده بدايات التعليم العسكرى الغربى.

ونظراً لإقدام السلطان سليم على الإصلاحات وإنشاء فرقة النظام الجديد، فقد ثار الجنود الإنكشارية وساندهم الأعيان ضد النظام الجديد، ورغم أن السلطان أصدر أمراً بإلغاء النظام

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٨٦.

(٢) المسألة الشرقية للشاذلى، ص١٢٢.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٨٦.

العسكرى الجديد، إلا أن الثوار قرروا عزل الخليفة وخلعه من الحكم[١]، وتولى بعده ابن عمه مصطفى الرابع الحكم مرشح المحافظين الذى أصبح دمية فى أيدى من عينوه على السلطنة ثم صدرت مراسيم سلطانية ألغت النظام الجديد وكل المدارس والمؤسسات والإصلاحيات المرتبطة به، ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل فى عهده أدت إلى الإطاحة به[٢].

خامساً: الغزو الفرنسى الصليبى على الدولة العثمانية فى مصر (١٢١٣هـ/١٧٩٨م):

انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، كانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية، وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين فى حملته هذه بلغ عددهم (١٢٢) عالماً وهو عدد يزيد عن أضعاف العدد الذى اعتاد أن يصحبه فى حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء فى الغالب بالدور الفرنسى الذى يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادى حركات الإصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن السادس عشر، ثم تأثروا فى الفترة السابقة لقدومهم إلى الشرق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكرى الثورة الفرنسية والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات (الحرية، الإخاء، المساواة)، وهى أفكار واتجاهات تعادى فى مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام، وبالتالى فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتّاب التاريخ من أن الهدف الرئيسى لهذه الحملة كان مقصوراً على ضرب المصالح البريطانية فى الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج إلى هذا الحشد الهائل من العلماء[٣]، فكان إلى جانبه هدف إقامة امبراطورية فرنسية فى الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البرجوازية فيها والتى تسللت إلى الحكم فى أعقاب الثورة، وإرضاء للكنيسة، التى وإن كانت الثورة قد وجهت لها بعض الضربات بشكل أضعف دورها داخل فرنسا عن ذى قبل، إلا أنها ظلت لها تأثيرها الواسع والفعال على كثيرين من أبناء الشعب الفرنسى، فضلا عن الدور الذى كانت تقوم به فى تدعيم النفوذ الفرنسى فى المستعمرات وكذلك فى الشرق الإسلامى، ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية، أو بالأحرى غزو عسكرى وفكرى، ولهذا اصطحب نابليون معه فى حملته هذا الحشد الهائل من العلماء[٤].

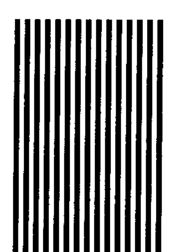
---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص١٢٧.

(٢) انظر: قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية، د. سليمان غانم، ص١٢.

(٣) انظر : قراءة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية ص١٤١، ١٤٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٤١. ١٤٢



المبحث السابع

جذور الحملة الفرنسية الصليبية

لاشك أن هؤلاء المستعمرين كانوا عالمين بطبيعة وأحوال المسلمين فى مصر من خلال وسائلهم المتعددة، منها ما قام به الرحالة الفرنسية (الجواسيس) الذين أكثروا من رحلاتهم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانوا على صلة بالعناصر القبطية المسيحية واليهودية وبعض عناصر المماليك فى مصر، ودرسوا كل الجوانب السياسية، والاقتصادية والفكرية والعسكرية بأدق التفاصيل، ومما يدلنا على ذلك حرصهم الشديد فى ترويج أفكارهم فترة بقاء الحملة، وحتى بعدرحيلها وزرعهم للمحافل الماسونية اليهودية فى مصر التى أصبحت على صلة وثيقة بمحمد على باشا فيما بعد، لقد كانت خطوات الحملة الفرنسية مدروسة بعناية شديدة قبل القدوم ولم تكن مفاجئة وحتى اكتشاف حجر الرشيد الأثرى وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجئا – وهو أمر مازال يحتاج إلى بحث – فإن العناية لهذا الحدث والترويج له وما تبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمراً مدروساً بعناية كذلك، وكان يدور فى إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعلن منها وغير المعلن، ويشير المؤرخ المسلم عبدالرحمن الجبرتى الذى عاصر هذه الحملة إلى هذه الأمور فى معرض حديثه عن المعهد العلمى الذى انشأه الفرنسيون فى حارة « الناصرية » فيقول: (وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم خصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار)[1].

أولا: سر قوة المسلمين:

كان الفرنسيون – والغربيون بصفة عامة – يدركون أن السر فى قوة المسلمين يتمثل فى

---

(١) انظر: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (٣ / ١٢٠).

جانبين هامين: الأول هو تمسكهم بالدين، والثانى فى وحدة بلادهم فى ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعض رجاله[١] اعتناقهم للإسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كى يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام أملاً فى الاستقرار، وقد بدا ذلك واضحاً فى المنشور الأول الذى أعلنه نابليون على شعب مصر حيث ذكر: (أيها المصريون قد قيل لكم إننى ما نزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمغترين إننى ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم)[٢].

كما سعى رجال الحملة إلى زعزعة الدين فى نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم، أما العامل الثانى وهو الرامى إلى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحاً في سعى الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من مسيحيى مصر قادها «المعلم يعقوب» لمساعدة الحملة فى ضرب الثورة الشعبية التى قادها العلماء، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الإسلامية[٣].

ثانياً: تفجير الجيوب الداخلية:

نجح الفرنسيون فى استثارة العناصر القبطية المسيحية على معاونة الحملة بمختلف الوسائل، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التى جنتها مصر خلال سنى الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثمانى، وقد أشاد البعض من هؤلاء العملاء بدور الخسة والنذالة الى قام به المعلم يعقوب فى تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين واعتبروه «تعاوناً يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب فى أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر فى العصر الحديث»[٤]: كان هذا الموقف من النصارى معادياً لرغبة الأغلبية المسلمة بنفس القدر ما يمكن إدراكه من اتجاه أغلب المفكرين النصارى العدائى للأغلبية المسلمة فى مصر المعاصرة والذى يبدو جلياً فى تأييدهم لخيانة بلادهم طالما هى ضد الوجود الإسلامى، وحتى بمفهوم الوحدة الوطنية الذى يسعون للتمسح به فإن

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٣.

(٢) انظر: الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث للعدوى، ص٨٣.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٤.

(٤) انظر: تاريخ الفكر المصرى الحديث د. لويس عوض (١ / ١٨٠ - ١٨٨).

« المعلم يعقوب » يعد من أبرز الذين خانوا بلدهم، وعلى أية حال كانت هذه الحادثة بداية لما عرف فى التاريخ المصرى باسم الفتنة الطائفية[١].

لقد قامت الأقليات غير الإسلامية من النصارى واليونان بمعاونة الاحتلال الفرنسى وقد علق على ذلك الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الشناوى: (أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية فى مصر فى تأييد الفرنسيين إسرافاً وصل إلى حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف، وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة، ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسى لسد النقص فى عدده، نتيجة المعارك التى خاضها فى مصر والشام وإخماد الثورات الشعبية، وفتك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين. وقد نظر الشعب المصرى إلى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسى لمصر، وتزعم هذه الفرق المعلم « يعقوب حنا » إذ كان فرقاً عسكرية من الأقباط، وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزى الجنود الفرنسيين، وقلده « كليبير » قيادة هذه الفرقة ومنحه رتبة أغا ثم رقى على عهد « مينو » إلى رتبة لواء (جنرال) ومنحه رسميا لقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسى)[٢].

ورغم المقاومة الشديدة والحركة الجهادية بقيادة علماء الأزهر، فقد استطاعت القوات الفرنسية بمعاونة « المعلم يعقوب » المصرى من احتلال مصر، وارتكبت من الفظائع ما يستلزم أن يفرد له صفحات من تاريخ هذه الفترة، لترى الأجيال كم من القرى أحرقت، وكم من الدور والأموال قد سرقت، وكم من أعراض النساء الحرائر انتهكت، وكم من الأسر قد شردت على يد فرنسا زعيمة الحرية والإخاء والمساواة والإنسانية.

وبعد احتلال القاهرة واصل نابليون احتلاله لبقية مدن مصر، « وغزة » والرملة، ويافا، وقد حاول احتلال عكا، ولكن يقظة أهلها بقيادة أحمد باشا الجزار حالت بين نابليون الصليبى وبين ما يشتهى.

وحينما وصل نابليون الصليبى إلى عكا أصدر بياناً إلى يهود العالم مُطلقاً عليهم اسم « الورثة الشرعيين لفلسطين » لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، ألا يكشف ذلك عن علاقة وثيقة بين نابليون الذى تستر بالإسلام، واليهود الذين خططوا وقاموا بما تسمى الثورة الفرنسية[٣]؟!

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٤.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢ / ٩٣٨) وما بعدها.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص٨٦.

ثالثا: السلطان سليم الثالث يعلن الجهاد ضد فرنسا:

كان الهجوم الفرنسى على مصر يعتبر أول هجوم صليبى على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية فى التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين (١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨م) واستجاب لدعوته المسلمون فى الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا، فمن الحجاز خرجت جموع من المسلمين بقيادة محمد الكيلانى، يقول الجبرتى فى حوادث (شهر شعبان عام ١٢١٣ هـ/ ٨ يناير إلى ٥ فبراير عام ١٧٩٩م): (لما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم وأن الشيخ الكيلانى صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه وكان مسلمو الحجاز خصوماً أشد للجنرال « ديزيه » الذى عهد إليه « بونابرت » غزو الصعيد والقضاء على قوات الجهاد بقيادة « مراد بك »، وقد صمموا على الظفر بإحدى الحسنيين: الاستشهاد أو الانتصار واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [سورة التوبة: ٤١] وتكونت منهم ومن مسلمى الوجه القبلى فى« مصر » وخاصة عرب « الهوارة » وأهالى النوبة، وقوات « مراد بك » جبهة حربية إسلامية فى مواجهة جبهة حربية نصرانية كانت تتألف من القوات الفرنسية، النهرية والبرية، والفيالق القبطية بقيادة المعلم « يعقوب حنا » فى الجيش الفرنسى [١].

رابعا: استجابة المهدى الدرناوى الليبى لنداء الجهاد ضد فرنسا:

حركته الغيرة الإسلامية والحمية الدينية فقام بدعوة مسلمى شرق ليبيا إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى، فأقبل عليه الناس أفواجاً مثل قبائل أولاد على، والهنادى وغيرهم، كما انضم إليه سكان القرى التى مر بها وسار بهذه الجموع حتى بلغ دمنهور (١٢١٤هـ/ أبريل عام ١٧٩٩م) وكانت تعسكر بها حامية فرنسية أبادها المهدى عن بكرة أبيها، وكان لانتصار الدرناوى الليبى على الفرنسيين الكفار صدى كبير، مما دفع حاكم الإسكندرية العسكرى الفرنسى الجنرال « مارمون » الذى أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدى ولكنها هزمت أيضاً، فأرسل قوات أخرى من رشيد، ودارت معركة « سنهور »، وكانت من أشد المعارك هولاً، ومن أعنف الوقائع التى واجهها الفرنسيون فى « مصر »، واستمر القتال

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢ / ٣٩).

سبع ساعات، انتهت بانتصار المهدى الدرناوى وانسحاب الفرنسيين إلى الرحمانية[١]، وقيل إن المهدى الدرناوى ادعى المهدية.

وقد علق على ذلك أحد المؤرخين بقوله:

« واعترف نابليون بأهمية العازل الدينى بين الفرنسيين والشعب المسلم وخلص إلى رأى أن الحرب ضد المسلمين تعتبر حرب الاستنزاف ضد الفرنسيين ولم يمكن التغلب عليها، وقال آخر: إن المصريين وصفوا « بونابرت » بأنه نصرانى ابن نصرانى »[٢].

وبرغم كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم للفرنسيين، وعبر الجبرتى عن هذه المشاعر حين اعتبر سنى الاحتلال الفرنسى لمصر « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال، وفساد التدبير وعموم الخراب وتواتر الأسباب ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾[٣] [هود: ١١٧].

وقد ذكر الأستاذ الدكتور الشناوى جملة حقائق تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر:

- إن الشعب المصرى بقيادة علماء الأزهر ينظرون إلى الغزوة الفرنسية على أنها غزوة صليبية تستهدف دينهم، وتستهدف الخلافة الإسلامية.
- إن ما تسمى بثورة القاهرة الأولى والثورة الثانية، لم تكن فى الحقيقة إلا حركة جهادية تستهدف إنهاء الحكم الفرنسى النصرانى لمصر، وإعادة « مصر » إلى حظيرة الخلافة العثمانية الإسلامية.
- إن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين، وإن مصر حينما كان يحكمها المماليك، إنما كانوا يحكمونها باسم السلطان العثمانى المسلم.
- إن سكان الولايات العربية لم ينظروا إلى السلطان العثمانى على أنه سلطان المسلمين فحسب بل نظروا إليه على أنه خليفة المسلمين[٤].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص٩٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٩٠.

(٣) عجائب الآثار (٣/١).

(٤) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/٩٤٣).

خامسا: الإنجليز وأطماعهم فى مصر:

كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية فى مصر وغيرها بدقة متناهية، وعندما تحركت الحملة الفرنسية ووصلت إلى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الأميرال نيسلون لتعقب الحملة الفرنسية، وفاجأ نيسلون الأسطول الفرنسى وهو رابض فى خليج أبى قير بعد أن أنزل قوات الحملة فى الأسكندرية، واشتبك معه فى معركة أدت إلى إغراقه فى أول أغسطس ١٧١٨م، وقد كان لمعركة أبى قير البحرية نتائج خطيرة من أهمها:

١ - كبدت البحرية الفرنسية خسارة جسيمة قضت على كل أمل فى إمكان إحيائها، فظل الإنجليز أصحاب السيطرة فى البحار.

٢ - فرض الإنجليز حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية المطلة على البحر المتوسط حتى أصبح من المتعذر تماماً على فرنسا أن ترسل النجدات إلى جيشها فى مصر.

٣ - اضطر الفرنسيون فى مصر إلى الاعتماد اعتمادا كليا فى تدبير شئونهم وسد حاجتهم فى هذه البلاد على مواردها الداخلية وحدها، وكان لذلك أكبر الأثر فى اتباع بونابرت لما عُرف «بالسياسة الإسلامية الوطنية» التى كان هدفها توفير أسباب الحياة للفرنسيين وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبى عنهم ولقد اعتمدت السياسة الفرنسية ثلاث دعائم:

١ - التظاهر باحترام الدين الإسلامى والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم.

٢ - محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية.

٣ - إنشاء حكومة وطنية من «عقلاء» وأفاضل المصريين(١).

غير أن هذه السياسة فشلت فشلاً ذريعاً فى تحقيق أهداف بونابرت، والدليل على ذلك تلك المقاومة الإسلامية الشديدة التى انطلقت تقاتل جنوده إينما ساروا أو حلوا فى الدلتا والصعيد، ثم الثورة التى قام بها المسلمون فى القاهرة (حركة الجهاد الأولى).

وكان بونابرت وقت اندلاع المعركة خارج القاهرة، فعاد إليها مسرعاً ونصب المدافع على تلال المقطم لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق القنابل على حى الأزهر مركز حركة الجهاد وشعلتها المتأججة.

---

(١) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغى، ص٢٠٩.

ويؤخذ من رواية الجبرتى ومن رواية الفرنسيين أنفسهم أنه فى اليوم الثانى للثورة (٢٢ أكتوبر) حين شرع الثوار فى مهاجمة مقر القيادة الفرنسية العامة بحى الأزبكية كان الجنود الفرنسيون يهاجمون الجامع الأزهر ثم دخلوه وهم راكبون الخيول وسلبوا ما كان فيه من الودائع وألقوا الكتب والمصاحف على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وظل الجنود الفرنسيون يحتلون الأزهر حتى ذهب وفد من مشايخه إلى بونابرت يطلبون منه الجلاء عنه، فكان ذلك نهاية للثورة التى استمرت ثلاثة أيام (٢١ - ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨م)، وانتقم الفرنسيون من المسلمين فى القاهرة وضواحيها أبشع انتقام، فنهبوا ديار حى الأزهر والأحياء المجاورة وأعدموا صغار المشايخ الذين حرضوا على الثورة وصادروا ممتلكاتهم، وأحاطوا القاهرة وضواحيها بالحصون والقلاع والمعاقل، وهدموا فى سبيل ذلك الشىء الكثير من المنازل والقصور[١].

سادساً: العثمانيون وسياستهم الدولية:

كانت هزيمة الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية قد شجعت الباب العالى على مهاجمة الحملة الفرنسية فى مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا فى العاصمة العثمانية وإلقائهم فى السجون، ولم تلبث وزارة الخارجية العثمانية أن دخلت مع انجلترا من جهة ومع روسيا من جهة أخرى فى مفاوضات أسفرت عن عقد محالفة دفاعية هجومية بين روسيا وتركيا (٢٥ ديسمبر ١٧٩٨م) وعن عقد محالفة أخرى بين إنجلترا وتركيا (٥ يناير ١٧٩٩م)، وكان العثمانيون يقومون فى بلاد الشام باستعدادات جهادية ضد الحملة الفرنسية فى مصر، مما جعل بونابرت يتخذ قراراً بأن يسبق أعداءه فى شن هجوم عليهم قبل أن يهاجموه، فكانت حملته على بلاد الشام (فبراير - يونيو ١٧٩٩م) التى تمكنت من ضرب القوات العثمانية المتجمعة هناك، إلا أنها لم تستطع أن تحطم قوات أحمد باشا الجزار بسبب فشلها فى الاستيلاء على عكا، وبعد عودة الحملة إلى مصر انتصر بونابرت فى معركة أبى قير البرية ٢٥ يوليو ١٧٩٩م على قوة عثمانية اتخذت طريقها فى رودس إلى مصر، وكان من أهم نتائج هذه الموقعة حصول بونابرت من القائد العثمانى مصطفى باشا الذى وقع فى الأسر على معلومات تفيد بأن حرباً عامة فى أوروبا قد اندلعت ضد فرنسا، فغادر بونابرت مصر سراً إلى

---

(١) عجائب الآثار (٣/ ١٨).

بلاده تاركاً قيادة الحملة إلى الجنرال كليبر[١].

وعلى العموم فبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا أقبل كليبر على تصريف الأمور بكل همة، فأعاد تنظيم الحكومة وقسم القطر المصرى إلى ثمانية أقاليم إدارية، وأبقى الدواوين التى أنشأها بونابرت فى الأقاليم، كما نظم شئون تحصيل الضرائب وعنى بضبط حسابات المديريات المختلفة إلى جانب عنايته بسائر فروع الإدارة والاهتمام بنشاط ديزيه العسكرى فى الصعيد إلا أن الضغوطات المطالبة بالعودة إلى فرنسا أثرت على كليبر وبادر بالكتابة إلى الصدر الأعظم فى ١٧ سبتمبر ١٧٩٩م ينفى رغبة فرنسا فى انتزاع مصر من تركيا، ويذكر الأسباب التى جعلت فرنسا ترسل حملتها إلى مصر وهى محاولة إلقاء الرعب فى قلوب الإنجليز وتهديد ممتلكاتهم فى الهند وإرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا، بالإضافة إلى الانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدى المماليك، وتخليص مصر من سيطرة البكوات وإرجاعها إلى تركيا، ثم طلب كليبر من الصدر الأعظم فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر[٢]، وقد جرت هذه المفاوضات بالفعل فى مدينة العريش وأسفرت عما يسمى باتفاقية العريش (٢٤ يناير ١٨٠٠م) التى نصت على:

١ - جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم، وعودتهم إلى فرنسا.

٢ - هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر، ويتم خلالها نقل الحملة.

٣ - الحصول من الباب العالى أو حلفائه - أى الإنجليز وروسيا - على بلاده على أن تتعهد تركيا وحلفاؤها بعدم التعرض لهذا الجيش بأى أذى.

غير أن الحكومة البريطانية عندما بلغتها أنباء مفاوضات العريش كانت قد اتخذت موقفا من شأنه تعطيل اتفاقية العريش عن إبرامها، إذ كانت تخشى من أن يعود جيش فرنسا المحاصر فى مصر إلى ميادين القتال فى أوروبا، فترجح كفة الجيوش الفرنسية ويختل ميزان الموقف العسكرى فى القارة، ولما كان من المعتقد فى ضوء رسائل الضباط والجنود الفرنسيين إلى ذويهم فى فرنسا، والتى وقعت فى أيدى رجال البحرية البريطانية أن الحملة الفرنسية تمضى ببطء داخل الأراضى المصرية فقد فضلت حكومة لندن أن يبقى الفرنسيون فى مصر أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب، ولذلك أصدرت فى ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ م أوامر صريحة

---

(١) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغى، ص٢١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢١٢.

إلى اللورد كيث القائد العام للأسطول البريطانى فى البحر المتوسط برفض أى اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصر، مادام هذا الاتفاق لا ينص على ضرورة أن يسلّم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب تسليماً مطلقاً دون قيد أو شرط، فأعد كيث رسالة بهذا المعنى إلى كليبر وصلته فى أوائل مارس ١٨٠٠م.

وأمام هذا التحول المفاجئ لم يجد كليبر مفراً من وقف عملية الجلاء التى كان قد بدأها تنفيذاً لاتفاقية العريش، ثم أسرع فى صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠م بالزحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيين الذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة، فوقعت معركة (عين شمس) التى امتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحية، وهزم الفرنسيون فيها العثمانيين هزيمة شديدة، وفى أثناء معركة هليوبوليس كان فريق من جيش الصدر الأعظم وبعض عناصر المماليك قد تسللوا إلى داخل القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين، فكانت ثورة القاهرة الثانية التى استمرت مدة شهر تقريباً من ٢٠ مارس إلى ٢٠ أبريل سنة ١٨٠٠م[١].

ولم يستطع كليبر إخماد الثورة إلا بعد التجائه إلى العنف، فدك القاهرة بالمدافع من كل جانب، وشدد الضرب على حى بولاق حيث تركزت الثورة فاندلعت ألسنة النيران فى كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكالات والخانات، فلم يجد سكان بولاق مفراً من التسليم، وتلاهم سكان الأحياء الأخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبر العفو الشامل والأمان، ولكنه ما لبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً، فأعدم بعضهم وفرض غرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعاً، ولم يستثن منهم الطبقات الشعبية الكادحة[٢]، وعهد كليبر إلى المعلم «يعقوب» أن يفعل بالمسلمين ما يشاء، ومما يذكر أن بطريرك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته، وكثيرا ما بذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه، ولم يزدد إلا إمعاناً فى تأييد الفرنسيين[٣].

ولم يمض على إخماد ثورة القاهرة إلا شهران حتى اغتيل كليبر في ٢٤ يوليو ١٨٠٠م بطعنة قاتلة من أحد طلبة الأزهر الشاميين، وهو سليمان الحلبى، ومن المعتقد أن السلطات

---

(١) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، ص٢١٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢١٤، ٢١٥.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص٨٩.

العثمانية كانت لها يد في مصرع كليبر. وفي ١٧ يونيو احتفل الجيش الفرنسي احتفالاً رهيباً بتشييع رفات كليبر، وبعد دفن الجثة أعدم سليمان الحلبي وآلت القيادة العامة للحملة إلى الجنرال مينو باعتباره أكبر ضباط الحملة سناً(١)، وكان هذا القائد من أنصار البقاء في مصر وخط سياسته استهدفت توطين الفرنسيين فيها إلا أن الضغوطات الداخلية والخارجية اضطرته إلى مغادرة مصر بعد الهجوم المشترك الذي قام به الإنجليز والعثمانيون على الفرنسيين في مصر، لقد تضافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيين على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم أسطولهم في معركة أبي القير البحرية، وسيطرة الإنجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدات والإمدادات إلى فرنسا في مصر، وانضمام الدولة العثمانية إلى أعداء فرنسا، والانقسام الذي حدث في صفوف الحملة وبدأت بوادره منذ بدأ جيش بونابرت زحفه الشاق من الأسكندرية إلى القاهرة، ثم استفحل أمره بعد رحيل بونابرت وخصوصاً عقب مصرع كليبر وإبان قيادة مينو للحملة، وجهاد الشعب المصري المسلم ضد الاحتلال الفرنسي الصليبي ، ذلك الجهاد الذي تمثل في ثورتي القاهرة الأولى والثانية، وفي العمليات الجهادية التي اشتعلت في الدلتا، وفي المقاومة التي اشتدت في الصعيد. ودون أدنى شك كان لجهاد مسلمي مصر للحكم الفرنسي بالغ الأثر في زعزعة أركانه، وفي عجز الفرنسيين عن بلوغ غايتهم وتنفيذ أهدافهم وانهيار آمالهم في تشييد تلك المستعمرة الجميلة التي كانوا يحملون بإتخاذها نواة لامبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة في مصر(٢).

سابعا: آثار الحملة الفرنسية على الأمة الإسلامية:

لقد كان لهذه الحملة آثار بالغة وسبب من أسباب هزيمة الأمة الداخلية، ولقد صور هذه الآثار على الأمة الأستاذ محمد قطب فقال: (ثم كانت الهزيمة الحربية التي وقعت بالمماليك على يد نابليون في إمبابة إيذاناً بالهزيمة الداخلية؛ هزيمة العقيدة في داخل النفوس، لقد روع المسلمون بمدافع نابليون وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغاً إزاء تلك المدافع الجديدة التي لم يكونوا يعرفونها أو يتصورون وجودها، في يد الأعداء، وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً في نفوسهم، فتلك هي المرة الأولى التي تنهزم فيها جيوش المسلمين عن جدارة، وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك قوة حقيقية من العتاد والفن الحربي والمعرفة لا يملكها

---

(١) انظر: عجائب الآثار (٣ / ٣٠).

(٢) انظر : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص١٨٨.

المسلمون ولقد كان ممكناً مع ذلك كله ألا يتغير الميزان فى داخل النفوس، كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ريثما تتجمع للانقضاض من جديد كما حدث مرات كثيرة من قبل، ولكن الرصيد الداخلى للعقيدة فى تلك الفترة لم يكنْ من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد، حقاً لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية، وثارت القاهرة بزعامة العلماء وتأثيرهم الروحى وحدثت بطولات عجيبة، حقاً لقد حدث كل ذلك، ولكنه كان أشبه بالأعمال الفردية الفدائية، أما الكيان الحقيقى للدولة المسلمة المقاتلة التى تنظم القتال وتحبيش الجيوش وتقف للغزاة بوصفها (دولة الإسلام)، أما ذلك كله فكان قد ذاب فى معركة إمبابة ولم يعد له وجود.

وأحس المسلمون بالهزيمة الحقيقية هى هزيمة الحرب، فقد وضع نابليون في فترة إقامته فى مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله، قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسى، وحصر تشريع الله فى أمور الأحوال الشخصية؛ من زواج وطلاق وميراث، وكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ المسلمين التى يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، يضعه وينفذه قوم غير مسلمين، لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضى الإسلامية أحياناً، ويبقون فى بعض الأحيان سنوات، بل وصل بهم الأمر قبيل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطىء البحر الأبيض فى بلاد الشام، ولكنهم لم يجرؤوا قط فى أية مرة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين فقد كانوا فى كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ولم يكونوا قط دولة حاكمة مسيطرة فى الأرض، وفى هذه المرة كانوا – لأول مرة – دولة حاكمة فى أرض الإسلام بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة وذوّبوها فى ميدان القتال.

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية؛ هزيمة العقيدة، وبدء انحسارها فى عالم الواقع، وانحسارها – من ثم – فى داخل النفوس، وفى ظل هذه الهزيمة وتلك كان الانبهار الذى أحدثته الحملة الفرنسية فى نفوس المصريين؛ انبهار بقوة السلاح أولاً، وانبهار بالعلم الغربى الذى حمله رجال البعثة المرافقة للحملة، وانبهار بالمطبعة التى جاء بها نابليون إلى مصر، وانبهار بالتنظيمات التى أحدثها، وفى كلمة واحدة انبهار بكل ما جاء من الغرب وكل ما ليس بإسلام.

وكانت هذه هى الهزيمة الحقيقية الكاملة التى مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار الصليبى بعد ذلك من تدمير مخرب فى حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم فى واقع الحياة، لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً فى عالم

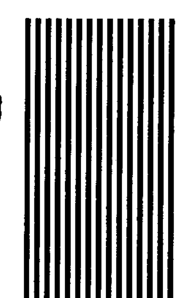
الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التى خلفتها الحملة فى نفوس المسلمين(١).

لقد كانت للحملة الفرنسية أثر بالغ فى مصر خصوصاً والشرق عموماً، وستعرف ذلك فى المباحث القادمة بإذن الله تعالى، وكيف استطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الإسلام بخنجرها المسموم، لقد استطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء فى المنطقة، واستفادوا بعد خروجهم العسكرى من الدور الخطير الذى قام به محمد على باشا حاكم مصر فيما بعد. لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر وخروجها وظهور شخصية محمد على باشا فى زمن السلطان سليم الثالث الذى تم عزله بسبب أنه أدخل أساليب الفرنجة وعوائدهم إلى الجيش ولم يقف عند الاستفادة بالتقنية الحديثة، مما يشكل خطراً على عقائد الأمة، وهذا ما ورد فى نص الفتوى التى أصدرها المفتى: (كل سلطان يدخل نظامات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك) لكن يظل الأمر محاطا بالغموض، بل إن دراسة تاريخ السلطان سليم الثالث تظهر لنا أنه كان حريصاً على إحياء فريضة الجهاد كما كانت على عهد أجداده وآبائه، فهل هذا هو السبب وراء المؤامرة التى أطاحت به فى جمادى الأولى عام ١٢٢٣ هـ/ ٢٨ يونيو ١٨٠٨م(٢).

******

(١) انظر: هل نحن مسلمون، ص١١٥ - ١١٨.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص٩١.



المبحث الثامن

السلطان محمود الثانى

(١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ/ ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م)

تولى الحكم وعمره أربع وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبرية مع سليم الثالث حيث أطلعه الأخير على خطط الإصلاح. إلا أن السلطان الجديد أرغم فى البداية على الانحناء أمام رغبات الإنكشارية، فأمر بإلغاء كل الإصلاحات حتى يرضيهم إلى أن تحين الفرصة لتطبيق وتنفيذ خطط الإصلاح. وكان محمود يتذرع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الإنكشارية الذين هددوا كيان الدولة العثمانية ولكن الفرصة لم تتح له قبل مرور عدة سنوات، خاصة أن عهده قد أمتلأ بالحروب والتطورات المهمة التى استنزفت معظم جهوده وجميع إمكانياته[١].

أولاً: الحرب مع روسيا:

عقد السلطان محمود الثانى صلحًا مع إنجلترا عام ١٢٢٤ هـ/ ١٨٠٩ م وحاول أيضًا عقد اتفاق مماثل مع روسيا ولكنه فشل، واشتعلت نار الحرب بينهما، وهُزم العثمانيون واستولى الروس على بعض المواقع وعزل الصدر الأعظم ضياء يوسف باشا وتولى مكانه أحمد باشا الذى انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التى دخلوها وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعقدت بين الطرفين معاهدة بخارست عام ١٢٣٧ هـ/ ١٨١٢ م والتى نصت على بقاء الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية. وقد مكن الصلح السلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات والقضاء على الثورات والتمردات فى الدولة[٢].

ولما علم الصربيون بمعاهدة بخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية، قاموا بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفر زعماء الحركة إلى النمسا، ولكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين وخضع للسلطة العثمانية وحصل على امتيازات

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية، أحمد سرهنك، ص ٢٢٦ – ٢٢٨.

خاصة من الدولة[١].

•• إلغاء الإنكشارية:

فسدت طبيعة الإنكشاريين وتغيرت أخلاقهم، وتبدلت مهمتهم وأصبحوا مصدراً للبلاء للدولة والشعوب التابعة لها، وصاروا يتدخلون فى شئون الدولة وتعلقت أفئدتهم بشهوة السلطة، وانغمسوا فى الملذات والمحرمات وشق عليهم أن ينفروا فى برودة الشتاء وفرضوا العطايا السلطانية، ومالوا إلى النهب والسلب حين غزوا البلاد وتركوا الغاية التى من أجلها وجدوا، وغرقوا فى شرب الخمور وأصبحت الهزائم تأتى من قبلهم بسبب تركهم للشريعة والعقيدة والمبادئ وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية، وقاموا بخلع وقتل السلاطين من أمثال عثمان الثانى، واستمر الإنكشاريون فى عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشراً سائرين فى طريق الظلال سادرين فى غيهم وطغيانهم، فهم الذين نصبّوه فأصبح الأمر والنهى لهم، وهم الذين قاموا بقتل السلطان إبراهيم الأول خنقاً حينما حاول التخلص منهم، وهم الذين أربكوا الدولة إذ وضعوها فى حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمد الرابع، فقام الإفرنج باحتلال أجزاء من البلاد، فاضطر الصدر الأعظم والعلماء إلى عزله. ثم ثارت الإنكشارية فى عهد السلطان سليم الثانى ودخلت جيوش الأعداء بعضاً من أراضى الدولة واحتلتها. وخلع الإنكشارية السلاطين مصطفى الثانى، أحمد الثالث، مصطفى الرابع، إلى أن قيض الله للسلطان محمود الثانى عام ١٢٤١ هـ للتخلص منهم[٢].

فجمع السلطان مجموعة من أعيان الدولة وكبار ضباط الإنكشارية فى بيت المفتى، وقام الصدر الأعظم سليم أحمد باشا خطيباً؛ فبيّن الحالة التى وصلت إليها الإنكشارية من الضعف والانحطاط، وبيّن ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة، فاقتنع الحاضرون ثم أفتى المفتى بجواز العمل للقضاء على المتمردين. وقد أعلن الموافقة كل من حضر من ضباط الإنكشارية من حيث الظاهر وأبطنوا خلاف ذلك ولما شعروا بقرب ضياع امتيازاتهم وبوضع حد لتصرفاتهم أخذوا يستعدون للثورة واستجاب لهم بعض العوام. وفى ٨ ذى القعدة عام ١٢٤١ هـ بدأ بعض الإنكشاريين بالتحرش بالجنود أثناء أدائهم تدريباتهم ثم بدأوا فى

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٢٨.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ١٠٧، ١٠٨.

عصيانهم، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية المتمردين فشجعوه على استئصالهم فأصدر الأوامر للمدفعية حتى تستعد لقتالهم ملوحاً باللين والتساهل فى الوقت نفسه خوفاً من تزايد لهيب شرورهم. وفى صباح ٩ ذى القعدة تقدم السلطان ووراءه جنود المدفعية وتبعهم العلماء والطلبة إلى ساحة (آت ميدانى) حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون الشغب وقيل إن السلطان سار معه شيخ الإسلام قاضى زادة طاهر أفندى والصدر الأعظم سليم باشا أمام الجموع التى كانت تزيد على ٦٠,٠٠٠ نفس، ثم أحاطت المدفعية بالميدان واحتلت المرتفعات ووجهت قذائفها على الإنكشارية فحاولوا الهجوم على المدافع، ولكنها صبت حممها فوق رؤوسهم فاحتموا بثكناتهم هروباً من الموت، فأحرقت وهدمت فوقهم وكذلك تكايا البكتاشية، وبذلك انتصر عليهم. وفى اليوم التالى صدر مرسوم سلطانى قضى بإلغاء فئتهم وملابسهم واصطلاحاتهم واسمهم من جميع بلاد الدولة وإعدام من بقى منهم هارباً إلى الولايات أو نفيه، ثم قلد حسين باشا الذى كانت له اليد الطولى فى إبادتهم قائداً عاماً (سرعسكر) وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد(١).

ثم أصبح السلطان محمود بعد ذلك حراً فى تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية فاستبدل الطربوش الرومى بالعمامة، وتزيا بالزى الأوروبى، وأمر أن يكون هو الزى الرسمى لكل موظفى الدولة العسكريين والمدنيين، وأسس وساماً دعاه وسام الافتخار(٢) فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان(٣).

وما قام به السلطان محمود من استبدال العمامة بالطربوش وفرض اللباس الأوروبى على جميع المجموعات العسكرية يدل على شعوره العميق بالهزيمة النفسية وسوف نتعرض لأسبابها إن شاء الله تعالى.

ثانياً: محمد باشا والى مصر:

كان محمد على شخصية سيئة السمعة معروفاً بالقسوة وغلظة الكبد ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التى تتأخر فى دفع ما يفرض عليها من المال، فيعسكر هو وأفراد حملته التأديبية حول القرية، ينهبون ويسلبون ويفزعون الآمنين، حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة وإن أثقلتهم وكان محباً للعظمة إلى حد الجنون(٤).

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ١٦٩.

(٢) انظر: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبد الله بن حمد، ص ٧٣.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ١٦٩.

(٤) انظر: واقعنا المعاصر لمحمد قطب، ص ٢٠٥.

جاء محمد على إلى مصر على رأس فرقة من الروملى لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بمكره ودهائه أن يكسب ثقة العلماء فى مصر وسعى فى القضاء على منافسيه على ولاية مصر بطرق ملتوية وماكرة وخبيثة حتى أصبح واليًا على مصر ابتداءً من ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٨٠٥ م[١].

وعلى الرغم من أن محمد على قد أبدى حماسًا شديداً لكى يصبح خادمًا مطيعًا للسلطان[٢]، وأبدى فى سبيل ذلك كثيراً من عبارات التذلل والخضوع للسلطان ودولته[٣]، إلا أن السلطان كان على وشك أن يدرك أبعاد هذه العبارات، مظهراً بذلك تخوفه من هذا الوالى الجديد، فأمر بنقله عن ولاية مصر، إلا أن تدخل العلماء مرة أخرى قد جعل السلطان يصدر فرمانًا آخر بتثبيته على ولاية مصر فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١ هـ/ ٦ نوفمبر ١٨٠٦م[٤].

ومن هنا بدأ محمد على فى تدعيم مركزه الشخصى وتثبيت الولاية فى شخصه، وبالتالى فى سلالته. وهناك أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة منها: ما حقيقة الدور الذى قام به محمد على من أجل المصالح الفرنسية والبريطانية؟ ومن الذى كان خلف القضاء على الدولة السعودية الأولى وعلى ضم الشام إلى مصر؟ هذه أسئلة نحاول حلها من خلال الدراسة التاريخية الواعية.

ثالثا: المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى يصف محمد على:

وصف المؤرخ الجبرتى محمد على بأنه مخادع وكذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لا عهد له ولا ذمة يضمر السوء واستخدم العسف والجور فى نفس الوقت الذى يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ[٥]. ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد على بأنه ميكافللى، أو أنه تعلم على فكر ميكافللى (صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة)، فقيل له - أى محمد على - مرة: إن ميكافللى ألف كتابًا اسمه الأمير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد أعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود، واسمه أرتين بترجمة هذا الكتاب، وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة،

---

(١) انظر: حروب محمد على فى الشام، د. عايض الروقى، ص ٣٢.

(٢) انظر: قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية، د. سليمان الغنام، ص ١٧.

(٣) وثيقة تركية رقم ٥٠ / ١ - ٢٤٨ فى ربيع الأول ١٢٣٠ هـ، الرياض.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٩١.

(٥) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ١٥٩.

فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلاً: بأنه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لميكافللى على بال[١].

ولقد علق بعض الكتّاب على ذلك بأن هذه الصفات التى رشحت محمد على لأن يصبح واليًا على مصر[٢] وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة وإلى حد الجنون، وقسوة القلب، والنظر إلى الذات وعدم المبالاة بالإسلام هى التى تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون الإسلام ودولة الخلافة من داخلها.

رابعًا: محمد على والماسونية:

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل إلى ما وصل إليه محمد على، مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند إلى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره فى نفس الوقت لتحقيق أهدافها، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه (لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة)[٣] وهذه الصفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلات، لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التى يحتل فيها هو الرجل الثانى دون بقية الفرق العثمانية، وأبعدت «خسرو باشا» عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم؟ ولماذا اندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة طاهر باشا قائمقامًا ينوب عن الوالى المطرود ثم يقتل بعد عشرين يومًا؟ ولماذا يطرد الوالى الجديد أحمد باشا بعد توليه بيوم واحد فقط؟ ولماذا يساعد محمد على خورشيد باشا فى تولى الولاية ثم ينقلب عليه؟ وكيف استطاع محمد على أن يفى برواتب الجند وبخاصة بعد استيلاء المماليك فى الصعيد على مخصصات الأهالى هناك؟ ولماذا ولماذا؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض!!!

وتشير كثير من الأدلة إلى أن هذه القوة – التى لم تكن ظاهرة – هى الحركة الماسونية التى انبعثت فى مصر سنة ١٧٩٨م على يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلاً فى القاهرة سمى محفل إيزيسى، وأوجدوا له طريقة خاصة به هى الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة[٤]. وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن

---

(١) انظر: مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤاد شكرى (٢/٨٥٧).

(٢) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٦٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٦١.

(٤) انظر: نهاية اليهود لمحمد عزت، ص ١٣٢.

كانوا قلة، ثم انحل هذا المحفل رسمياً فى أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون فى الخفاء وبسرية.

ويشير المنشور الأول الذى وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه (قولوا لهم – أى المصريين – أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط)[١] ويبدو تزعم الحملة الفرنسية للفكر الماسونى واضحاً منذ بدايتهم ولقد حاولوا فرض العادات الخبيثة التى استهجنها المسلمون فى مصر، كالبغاء والسفور وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علنى واضح، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية[٢].

وتوحى بعض الدلائل على أنهم – أى الفرنسيين – قد نجحوا فى ضم المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار إلى المحفل الماسونى الذى أسسه كليبر سنة ١٨٠٠ م، فبعد أن هرب الشيخ حسن العطار إلى الصعيد فى أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء، ثم عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء، اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفى نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية[٣] وقد اندمج إلى حد كبير فى علومهم، وكثيراً ما تغزل فى أشعاره بأصدقائه منهم[٤]. ولقد دعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد[٥]. وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد على بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التى يعتمد عليها محمد على فى خطواته التجديدية فى مصر، وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين محمد على والمحفل الماسونى المصرى الذى تأسس إبان الحملة الفرنسية[٦].

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع محمد على بالأفكار الماسونية التى كان مهيأ لها بحكم تكوينه الطبيعى فينقل عنه قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر: (ثقوا أن قرارى... لا ينبع من عاطفة دينية، فأنتم تعرفوننى وتعلمون أننى متحرر من هذه

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٦٧.
(٢) انظر: عجائب الآثار (٣/ ١٦١).
(٣) انظر: الصراع الفكرى بين أجيال العصور، إبراهيم العدوى، ص ٨٥.
(٤) انظر: الجبرتى والفرنسيس، د. صلاح العقاد، ص ٣١٦.
(٥) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٦٩.
(٦) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٩.

الاعتبارات التي يتقيد بها قومي... قد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها)[١].

وقد شهد عصر محمد على علي تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر، فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة ١٨٣٠م، على الطريقة الإسكتلدنية وغيرها كثير[٢].

(إن الماسونية هي القنطرة التي عبرت عن طريقها الصهيونية العالمية، إذا أسسها تسعة من اليهود بغية الوصول إلى تحقيق الحلم الصهيوني المتمثل في إنشاء حكومة يهودية عالمية تسيطر على العالم، فأعدت خططها وبرامجها المحققة لأهدافها وأطلقت على نفسها اسم: (القوة الخفية) واتخذت في ذلك السرية والعهود والمواثيق التي كانت تأخذها على العضو المنضم إليها وسيلة ضغط عليه بحيث يصبح آلة توجهه كما تريد. وقد استشرى فساد الماسونية في المجتمعات الغربية واستطاعت أن تجذب الكثيرين من الأعضاء عن طريق شعارها الظاهري: (الحرية، الإخاء، المساواة)[٣] (الماسونية هم أيدي اليهود التنفيذية لمخططات البطش ومؤامرات الاضطهاد والإعدام والسحق السارية المفعول على جميع شعوب العالم)[٤].

(الماسونية آلة صيد بيد اليهود، يصرعون بها كبار الساسة، ويخدعون الأمم الغافلة والشعوب الجاهلة. الماسونية خطر كامن وراء الرموز والألفاظ والطلاسم، وخنجر غمده اليهود في قلب الشعوب، وأقاموا لها عدواً من داخلها وعلة من وسطها. الماسونية عقرب لدغ الشعوب قروناً، متجلياً رداء الحرية والمساواة والإخاء....)[٥].

(فالماسونية ما هي إلا يهودية الأصل والمنبت ومادامت كذلك فهي تجيد المكر والخداع، وتتقن أساليب التشكيك في العقائد، والنيل من الأنبياء والرسل عليهم السلام، وتشيع الإلحاد والكفر في ربوع الأرض، وتدعو إلى الإباحية والفساد والرجس، واليهود تاريخهم معروف في تحريف الكتب السماوية، وقتل الأنبياء، وإطفاء كل باقة من نور، إنهم أتباع الشيفات، وعبدة الذهب وأصحاب الاحتكار وجمع الأموال، وغير ذلك من الرذائل التي

---

(١) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص ١٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٠.

(٣) انظر: الماسونية وموقف الإسلام منها، د. حمود الرجيلي، ص ٣، ٤.

(٤) انظر: اليهود الماسونية، عبد الرحمن الدوسري، ص ٤٢.

(٥) انظر: حقيقة الماسونية لمحمد علي الزعبي، ص ٧٠.

اتصفوا بها. ولم يعد اليوم خافيًا على أحد أن الماسونية منظمة يهودية يُراد منها تخريب العالم اجتماعيًا، وأخلاقيًا، ودينيًا.. وتمتد أذرعتها المسمومة إلى كل المبادئ والقيم بغية تدميرها والقضاء عليها)[١].

لقد انتشرت المحافل الماسونية فى مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهارًا من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة، التى لا تكل ولا تمل. ولقد استطاعت المحافل الماسونية الفرنسية فى مصر أن تجعل فرنسا تحتضن محمد على. يقول الأستاذ محمد قطب: (واحتضنته احتضانا كاملا لينفذ لها كل مخططاتها؛ فأنشأت له جيشًا مدربًا على أحدث الأساليب مجهزًا بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان باشا الفرنساوى)[٢].

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى دعم محمد على ليتحقق لها أطماعها المستقبلية فى حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية، وزرع خنجرها المسموم فى قلب الدولة العثمانية، ولذلك أنشأت لمحمد على أسطولا بحريا متقدمًا متطورًا، وترسانة بحرية فى دمياط، والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الرى فى مصر، هل كان هذا كله حبًا فى شخص محمد على؟ أو حبًا فى مصر؟ إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبى الذى فشلت الحملة الفرنسية فى تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الخروج.

لقد قام محمد على بدور مشبوه فى نقل مصر من انتمائها الإسلامى الشامل إلى شىء آخر يؤدى بها فى النهاية إلى الخروج عن شريعة الله كانت تجربة محمد على قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبد الناصر.. إلخ.

إن المسلم الحق لا يمكن أن يقوم بمثل هذا الدور لا واعيًا ولا مستغفلاً، لأن إسلامه يمنعه أن يتلقى التوجيه من أعداء الإسلام.

لقد كان أعداء الإسلام يريدون القضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب العالم الإسلامى مع الاهتمام الخاص ببلد الأزهر ليقوم بتصدير أفكارهم إلى بقية الشعوب الإسلامية، فأما القضاء على الدولة العثمانية فقد ساهم فى إضعافها وإهدار طاقاتها، وإسقاط هيبتها وتعدى على حرماتها، وأما التقارب مع الأعداء والسير فى فلكهم الفكرى والحضارى والانسلاخ التدريجى عن الانتماء العقدى والفكرى والأخلاقى فقد قطع فيه شوطًا مدحه

---

(١) انظر: الماسونية وموقف الإسلام منها، د. حمود الرحيلى، ص١٨.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٢٠٥.

عليه حلفاؤه من الماسون الفرنسيين والبريطانيين وانهزم أمام الغزو الفكرى المنظم وقام بتنفيذ سياسة الابتعاث بإرسال الطلاب الشبان إلى أوروبا ليتعلموا هناك، وكان هذا من الأمور الخطيرة والمنافذ التى دخل التوجه العلمانى من خلالها، فدخل ساحة التعليم ومن ثم فى ساحة الحياة فى مصر الإسلامية، وأهمل الأزهر وشيوخه وعلماءه واهتم بإرسال الشبان الصغار بأعداد متزايدة إلى أوروبا وهم فى سن المراهقة، غير محصنين بشىء لينغمسوا فى الشهوات، ويتأثروا بالشبهات ثم يرجعون إلى بلادهم ليكونوا رأس الحربة المتجهة إلى الغرب، لقد أرسل معهم مع البعثات أئمة يؤمون الطلاب فى الصلاة ولكن ماذا عملوا الأئمة؟ لقد كان رفاعة رافع الطهطاوى واحداً من أولئك الأئمة ولكنه عاد وهو واحد من دعاة التغريب، وعندما استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين، فأشاح عيهم فى ازدراء ووسمهم بأنهم (فلاحون) لا يستحقون شرف استقباله[١].

ثم ألف كتابه الذى تحدث فيه عن أخبار (باريس) ودعا فيه إلى تحرير المرأة إلى السفور، وإلى الاختلاط، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس، فقال: إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى، فلا ينبغى النظر إليه على أنه عمل مذموم[٢].

لقد استغرقت عملية الانتقال التدريجى ما يقرب من قرن من الزمان، ولكنها كانت عملية مستمرة لا تتوقف، بل تتسع على الدوام[٣].

لقدكان محمد على ثعلبًا ماكرًا همه نفسه وأولاده من بعده ولذلك قام بأعمال شنيعة، وأفعال قبيحة فى إضعاف الأمة، والقضاء على شوكتها وتنفيذ مخططات فرنسا وبريطانيا، وحرص على أن يجمِّل صورته فى أعين الغرب ويقفو آثارهم فى التحديث بل ويفكر كما قال عن نفسه: (بعقل أفرنجى وهو يلبس القبعة العثمانية)[٤].

لقد قام محمد على نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الإسلامى فى كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر فى تهيئة العالم الإسلامى للأطماع الغربية.

خامسًا: محمد على وضربه للإسلام فى مصر:

بعد أن نجح محمد على فى توطيد نفسه فى الحكم وأحاط نفسه ببطانة ومساعدين من

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٠.

(٤) تجربة محمد على الكبير، منير شفيق، ص٣٨.

نصارى الأروم والأرمن وكتبة من الأقباط واليهود، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكامًا للأقاليم، وكان فى كل ذلك مستنفرًا لجموع المسلمين المصريين ومعبرًا عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم، وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين، وصف الجبرتى ذلك بقوله :(فتح بابه للنصارى من الأروم والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه)[١].

وسلك محمد على وأتباعه من غير المسلمين سياسة من أبرز علاماتها الظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصرى، فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة، أو دفع ضريبة بديلة، وحرم عليهم أن يأكلوا شيئا من كد أيديهم، وأبطل التجارة، وزاد فى أسعار المعايش أضعافًا مضاعفة، وفرض الضرائب التى لا يطيقون دفعها، وجعل كل نشاط اقتصادى يؤول إليه، ونقم على الناس[٢]، وأرجع الجبرتى ذلك إلى ما يتسم به محمد على من « داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم »[٣]. وقد نتج عن هذه السياسة كره الفلاحين الشديد لمحمد على وأعوانه، وهروبهم من الأراضى الزراعية، وترك قراهم فرارًا من السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك فى جيشه فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين فى عام واحد هو عام ١٨٣١م ستة آلاف فلاح[٤].

أما فى المدن وبخاصة فى القاهرة فيذكر الجبرتى أن محمد على حين كلف الناس بتعميرها (اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام)[٥].

لقد كان الجبرتى معاصرًا لسياسة الظلم التى مارسها محمد على على الشعب المسلم فى مصر، الذى امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب على مصراعيه لدخول مصر والهيمنة على اقتصادها، وأصبحت مصر هى المزرعة التى تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطًا حضاريًا وتجاريًا، وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة فى مصر على الأسواق الأوروبية من الناحية الاقتصادية وبالتالى السياسية، إلى

---

(١) عجائب الآثار (٤ / ١٥٠).

(٢) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ١٧٩ .

(٣) عجائب الآثار (٤ / ١٥٠).

(٤) انظر: تاريخ الشرق العربى، د. عمر عبد العزيز، ص ٣٤٦ .

(٥) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٨٠ .

جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامى[1]، وأوقف مناهج التعليم القائمة على الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية، وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينى فى قوله : (كان محمد على ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة فى مصر)[2].

لقد حقق الاستعمار الأوروبى هدفه فى الاستفادة من المنشآت والإصلاحات المادية التى قام بها دميتهم محمد على، أما شعب مصر المسلم فقد سيطر عليه اليأس ودفع ثمنًا باهظًا يفوق حجم كل إصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التى صقلها الإسلام والتى ميزت دوره خلال العصور الإسلامية[3].

وفتح باب الدعوة إلى الوطنية والقومية ومارس سياسة التضييق على دعاة الفكر الإسلامى من العلماء والمشايخ، فكان هذا الاتجاه مسايراً لمساعيه الرامية إلى الاستقلال بمصر وبالتالى إبعادها عن الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية[4]، وقد لقى فى اتجاهه هذا عونًا من المحافل الماسونية التى يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها.

ومن أبرز الذين عاونوه فى هذا الاتجاه الشيخ حسن العطار سنة ١٧٧٦ / ١٨٣٥م الذى تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسونى المصرى، فقد كان العطار يرى أن البلاد (لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيه)، وكانت وجهته فى هذا التغيير الاتجاه الكامل إلى الثقافة الأوروبية بعد أن عجز - فى رأيه - المشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل[5].

وتبع العطار فى اتجاهه تلميذه رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣م) حيث ابتعثه محمد على إلى فرنسا خمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١م) عاد بعدها لنشر ما يذكى الفكرة الوطنية وغيرها من الأفكار الاجتماعية التى عايشتها فرنسا التى لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الإسلامى، وقد بدت هذه الأفكار فى العديد من القصائد التى نظمها وكذلك الكتب التى ترجمها بعد توليه الإشراف على مدرسة الألسن[6]، لقد تأثر

---

(١) انظر: تاريخ الشرق العربى، د. عمر عبد العزيز، ص ٣٢٢، ٣٢٣ نقلا عن قراءة جديدة.

(٢) انظر: أرنولد توينى عبد الرحمن الجبرتى وعصره، ص ١٤.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٨٢.

(٤) انظر: مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، محمد فؤاد (٣/١٢٣٢).

(٥) انظر: التيارات السياسية بين المجددين والمحافظين، بيومى، ص ٢٢.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣.

الطهطاوى بتيارات الفكر الأوروبى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الإسلامى، حيث أبدى فى عديد من جوانب فكره، وفى كل مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل، لقد تبنى ما دعا إليه نابليون إبان حملته الشهيرة، ولقد أظهر طهطاوى تأثراً وإعجاباً بآراء مونتسكيو، وتشبعه بالفكر الماسونى.

وتبع الطهطاوى كثيرون ممن واصلوا الدعوة إلى الوطنية وإلى ضرورة الاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية من أمثال (على مبارك) و(إبراهيم أدهم) و(صالح مجدى) و(محمد عثمان جلال) و(عبد الله أبو السعود) (عبد الله فكرى) وغيرهم، وواصل الجميع هجومهم على التيار الإسلامى من جميع الجوانب[١].

سادساً: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصراعها مع الدولة العثمانية:

* **تمهيد:**

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمى سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م فى بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض، بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلو متراً، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب[٢].

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغ وتميز، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلى والتفسير والحديث، وتتلمذ على كتب ابن تيمية فى الفقه والعقائد والرأى وأعجب بها أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم، وابن عروة الحنبلى وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفى[٣].

ورحل فى طلب العلم إلى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء. وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر بآرائه فى العراق ثم رجع بعد ذلك إلى نجد.

وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله، وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء فى حريملاء، وانتقل بعد ذلك إلى بلدته العيينة وتلقاه أميرها بالترحيب وشجعه على أمر الدعوة، فأقام الشرع ونفذ

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ١٨٤.
(٢) انظر: إمام التوحيد محمد عبد الوهاب، أحمد القطان، ص ٣٥.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.

الحدود، وهدم القباب، ولم يستمر فى حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الأحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فخرج ماشيًا على الأقدام إلى الدرعية.

•• تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذى قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد، وكان هذا التحالف على أسس متينة، واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ واستمر على هذا الحال يعلم ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو إلى إزالة المنكر وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده[١]. وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ دعوته للقاصى والدانى، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها[٢]

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجمع المجاهدين من الدرعية إلى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها فى الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة الناس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود، فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكين بعد جهاد طويل[٣]، وقد كان له نظر سياسى ثاقب، وخبرة واسعة فى أمر الحرب والسياسة[٤].

واستمرت الحروب بين أنصار الدعوة وأعدائها سنين عديدة، وكان النصر حليف أصحاب الدعوة فى أغلب المواقف، وكانت القرى تسقط واحدة تلو الأخرى، وفى عام ١١٧٨هـ/ ١٧٧٣م فتحت الرياض بقيادة الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود، وفر منها

---

(١) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٤٥، ٤٦.
(٢) انظر: استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل (٣/ ٢٩٣).
(٣) انظر: إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، ص ٥٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٧٨.

حاكمها السابق دهام بن دواس، وكان حاكما ظالمًا غشومًا، اعتدى على الدعاة مرارًا، ونقض العهود التى أبرمها مع القائمين على الدعوة. وبعد فتح الرياض اتسعت رقعة الأرض التى تخضع للدعوة، ودخل كثير من الناس فى الدعوة مختارين، فقد أزيلت العوائق التى كانت تصدهم عنها، وانفرجت الأمور بعد ضيق، وجاء اليسر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهدأت الأحوال، وأمن الناس فى ظل الدولة الإسلامية الفتية، التى حرم الناس من نعمة الأمن مدة غيابها(١).

وبعد وفاة الشيخ محمد عبد الوهاب واصلت الدعوة مسيرها، ساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلى الحجاز، التى كان يسيطر عليها الشريف غالب بن مساعد والذى شرع فى شن هجمات على السعوديون، دينيًا وعسكريًا. ودام الصراع بينهما حتى عام ١٨٠٣م حين دخل السعوديون مكة من غير أن يتعرضوا لأية مقاومة من جانب الشريف غالب، الذى آثر الهروب إلى جدة وبعد عامين ضم السعوديون المدينة المنورة(٢).

وامتد نفوذ الحركة السلفية على معظم الجزيرة العربية، وشعرت بريطانيا بخطورة هذا النفوذ على مصالحها. لقد أصبحت الدولة السعودية الأولى يمتد نفوذها على الخليج العربى والبحر الأحمر، ودخل القواسم فى الخليج العربى تحت نفوذها ووصل نفوذها إلى جنوب العراق وأصبحت تؤثر على الطريق البرى بين أوروبا والشرق، وفوق هذا وذاك فإن الأسس الدينية التى ترتكز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها، حيث كان العداء للنفوذ الأجنبى فى المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة(٣)، لقد استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية من توجيه ضربات موجعة لأسطول الإنجليز فى عام ١٨٠٦م وأصبحت مياه الخليج تحت سيطرتهم(٤). لقد بلغت الدولة فى زمن سعود بن عبد العزيز الأوج من الناحية السياسية إذ وصلت كربلاء فى العراق، وإلى حوران فى بلاد الشام، وخضعت لها الجزيرة كاملة باستثناء اليمن(٥).

سابعًا: المؤامرة ضد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

فكر شياطين الإنس من أبناء أوروبا فى النتائج التى يصلون إليها لو استمرت الدولة

---

(١) انظر: استمرارية الدعوة، د. محمد الوكيل (٣/ ٢٩٤).

(٢) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، ص ١٧.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ١٥٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٨.

(٥) انظر الدولة العثمانية، د. جمال، ص ٩٤.

السعودية الأولى ورأوا أن ذلك يقضى على مصالحهم فى الشرق عمومًا، ولذلك لابد من تدمير هذه الدولة، فسلكوا مسالك شتى للقضاء على نفوذ الدعوة السلفية منها:

أولا: تأليب الرأى العام داخل ديار الإسلام ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات على أنها من دين الإسلام بالتصدى لدعوة الشيخ ومقاومتها، وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذى يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، يبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين، أتت من سدنة القبور، أتت من المستفيدين من صناديق النذور، أتت من الذين يعيشون على الأطعمة والأموال التى تقدم لهم فى موالد الأموات والزيارات، أتت أيضًا من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها، بل وفى العالم الإسلامى أجمع، حدث كل ذلك بعد أن شاع الإنجليز والفرنسيون أعداء الإسلام الفتاوى التى استصدروها من علماء السوء بفساد ما يدعو إليه أتباع محمد بن عبد الوهاب[1].

ثانيًا: الدس والوقيعة بين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقيادة الدولة العثمانية، لقد ألقى الإنجليز والفرنسيون وغيرهم فى روع السلطان محمود الثانى أن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تهدف إلى الاستقلال بجزيرة العرب، والانفصال عن الخلافة العثمانية، ثم توحيد العالم العربى، وانتزاع لواء الخلافة والقيادة من الدولة العثمانية، وإقامة خلافة عربية، واستجاب السلطان محمود الثانى لوشايات الأعداء، وما كان له أن يفعل ذلك، وكان اللائق به أن يشك فى هذا النصح الكاذب ويرسل من أمناء الدولة من يتحقق فى الأمر ولم ينتبه سلطان المسلمين إلى خطورة تصديق هذا الخبر المدسوس على حركة إسلامية صادقة وتجاوب مع اقتراحات الأعداء بوجوب القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها، وتكلف الدولة الكثير من الأموال والرجال للقضاء عليها[2].

وضعت الدولة العثمانية خطتها لمحاربة الدولة السعودية الأولى ورأت أن تلقى عبء هذه المهمة على كاهل الولاة فى الأقطار المجاورة، هادفة بذلك إلى غرضين: الأول القضاء على

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٩٥.

التوسع السعودى فى المشرق العربى، والآخر: إضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم حتى يظلوا ضعافًا خاضعين للدولة خضوعًا تامًا، فاتجهت أول الأمر إلى والى بغداد، إذ كان أقرب الولاة إلى نجد، إلا أن ذلك الوالى كان مشغولاً بالارتباكات المحلية فى ولايته، وكان جيشه من الضعف بحيث لا يقوى على مجابهة السعوديين، وفشل عدة مرات فى صد هجماتهم على حدود العراق، فاتجهت الدولة إلى والى الشام لعله ينجح فيما فشل فيه والى العراق، فكان نصيبه من الفشل أفدح من زميله ولما يئست الدولة من قدرة ولاتها فى بغداد والشام[١] ولت وجهها شطر مصر، فطلبت من واليها محمد على عام ١٨٠٧م أن يقوم بحملة على بلاد العرب «لتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما» من أيدى السعوديين، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال فى جزيرة العرب. ولكن محمد على لم يلب طلب الدولة إلا فى عام ١٨١١ م بعد تخلصه من بكوات المماليك فى مذبحة القلعة[٢].

إن أتباع الدعوة السلفية لم يطلبوا الخلافة ولم يبدوا اعتراضهم على التبعية لها، ولكن الخلاف قد انحصر فى أمرين أساسيين، الأول هو مطالبة السلفيين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل ما فيه خروج عليه، والأمر الثانى هو شعور الدولة العثمانية بالحرج والضعف أمام سيطرة الوهابيين على المدن المقدسة فى الحجاز حيث أدركوا أن فى ذلك إسقاطًا لهيبتهم ومكانتهم السياسية[٣].

وقد بين الجبرتى أن موقف الوهابيين من وفود حجيج الشام «بألا يأتوا إلا على الشرط الذى اشترطوه عليهم وهو»: أن يأتى بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة، وكل ما كان مخالفًا للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم»[٤] كما ذكر موقفًا مماثلاً من موكب الحج المصرى[٥].

واقتصر مرسوم السلطان العثمانى القاضى بطلب الحرب مع السعوديين من محمد على، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحى وتشجيع من الإنجليز، على «استخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار»[٦]، وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجددًا الاقتصار على

---

(١) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغى، ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٢.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٨٥.

(٤) انظر: من أخبار نجد والحجاز، محمد أديب صالح، ص١١١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص١١١، ١١٢.

(٦) قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص١٨٦.

تخليص الحرمين الشريفين. وفى أعقاب نجاح القوات العسكرية فى الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أرسل السلطان محمود الثانى مرسوماً إلى مصر يقرأ فى المساجد باستعادته للحرمين الشريفين(١)، وهو أمر يوحى بأن السلطان العثمانى ليس له هدف آخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية.

كان من الممكن أن تنتهى هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت قوات محمد على على مدن الحجاز، وعين محمد على شريفًا جديداً على منطقة الحجاز التى اضطر للسفر إليها، وقام بطرد الشريف غالب الذى ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز(٢)، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، ولكن محمد على وضع شروطًا صعبة التحقيق لقبول الصلح، وكذلك ضمن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه الجبرتى فيقول: (وأما الصلح فلا نأباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب إلى وقت تاريخه، وأن يأتى بكل ما أخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التى كانت بالحجرة الشريفة، وكذلك ثمن ما استهلك منها وأن يأتى بعد ذلك ويتلاقى معى وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبى ذلك ولم يأت.. فنحن ذاهبون إليه)(٣).

ثامنًا: حقيقة حملة محمد على على الحجاز ونجد:

إن الحرب بين محمد على وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالإسلام، كما لم تكن حرباً عربية كما يحاول البعض أن يصفها، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة إسلامية ليست لها أية أطماع سياسية ولكنها أبدت غيرة وحرصاً على العودة إلى المبادئ الأساسية للدين الإسلامى وهى القوة السعودية، كما أظهرت حماساً فى دفع خطر المستعمرين (الكفار) عن الديار الإسلامية، أما القوة التى حاربتها والمرسلة من قبل والى مصر - والتى لم تكن مصرية بأى صورة من الصور؛ فأغلبها من الأرناؤوط وبعض الأتراك والنصارى وبعض الضباط الفرنسيين(٤)، ولا يحمل أغلب قادتها من الإسلام سوى الاسم، ويصور لنا المؤرخ الجبرتى طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع، وهو شاهد عيان، على هزيمة هذه القوات فى البداية أمام أتباع الدعوة السلفية

---

(١) انظر: من أخبار الحجاز ونجد، محمد أديب غالب، ص١١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٠٠.

(٣) عجائب الآثار أخبار يوم آخر ذى القعدة سنة ١٣٢٨هـ، أديب غالب، ص١٤٩.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، د. محمد أنيس، ص٢٣٣.

فيقول: (أين لنا النصر.. وأكثر عساكرنا على غير الملة! وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبنا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة، لا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين، والقوم (يقصد الوهابيين) إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة، أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته، وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفاً غير مختونين، ولما وصلوا بدراً واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبوهم وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم)[1].

إن محمد على لم يكن متقيداً بشرع الله في حربه بل كان مخالفاً للشرع متعدياً على حدود الله تعالى غير مبالٍ بأحكام الإسلام، فهذا جيشه يقتل ويدمر ويأخذ الأموال ويهتك الأعراض من المسلمين الموحدين.

فهذا على رضى الله عنه في موقعة الجمل يقول لأصحابه: (لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ومن ألقى سلاحه فهو آمن)[2].

وقال: (.. وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، وإن الرجل ليتناول المرأة بالجريدة أو الهراوة فيعيّر بها هو وعقبه من بعده...)[3].

وعن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال: (شهدت صفين وكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون مولياً، ولا يسلبون قتيلاً.. »[4].

إن السلطان العثماني كان يكفيه خضوع الحجاز لحكمه، ومهاجمة الدرعية لم تكن مطلباً ملحاً أو ضرورياً للدولة العثمانية، وكان محمد على متشدداً في شروط الصلح مما يدل على حرصه على استمرار الحرب، لأن هدفه من هذه الحرب خدمة أطماعه التوسعية في إطار ما تسمح به أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية

---

(١) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٨٨.
(٢) رواه ابن أبي شيبة كتاب الجمل (١٥ / ٢٦٣).
(٣) نصب الراية للزيلعي (٣ / ٤٦٣).
(٤) الحاكم بسند صحيح ووقفه الذهبي في المستدرك (٢ / ١٥٥).

تشكل خطراً بالغاً على الوجود البريطانى فى المنطقة بأسرها سواء فى البحر الأحمر أم فى الخليج العربى أم فى وصولها إلى الطريق البرى عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقى لمصالحها فى الشرق، ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة صليبية فى ثوب إسلامى يعد وصفاً حقيقيا(١).

عندما انهزم طوسون بن محمد على أمام الأمير عبدالله بن سعود وتحطم نصف جيشه، خرج محمد على بنفسه إلى الحجاز عام ١٨١٣م وقبض على شريف مكة غالب بن مساعد واتهمه بالتآمر مع السعوديين، وصادر كل ما يملك من أموال وأثاث ومتاع، وبذلك أصبح شريف مكة من موظفى محمد على فى الحجاز. ولم يلبث أن انتصر محمد على فى يناير ١٨١٥م على القوات السعودية فى موقعه بسل(٢)، وهى الموقعة التى يعتبرها البعض «من أكبر وقائع الحرب الوهابية، بل من أهم المعارك فى تاريخ مصر الحربى»(٣).

ولم يمكث محمد على فى الجزيرة العربية ليتابع النصر الذى أحرزه، بل عاد إلى مصر تاركاً ابنه طوسون بالحجاز(٤) وسرعان ما تمكن طوسون من هزيمة السعوديين هزيمة جديدة لأول مرة، وأسرع بالزحف على القسم الشمالى من نجد فبلغ فى زحفه مدينة الرس، ثم احتل الشبية وأصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحاً أمامه، وأسرع الأمير عبدالله بطلب فتح باب المفاوضات حقناً للدماء وحماية للمدن والقرى، ودارت المفاوضات بين الطرفين على مشروع الصلح بالشروط التالية:

١ - احتلال القوات المصرية الدرعية.

٢ - أن يضع الأمير عبدالله نفسه تحت تصرف طوسون باشا، فيسافر إلى الجهة التى يريده أن يسافر إليها.

٣ - أن يؤمن الأمير عبد الله سبل الحج، وأن يكون خاضعاً لحكم المدينة من قبل محمد على إلى حين الموافقة على الصلح.

٤ - ألا تصبح هذه الشروط - فى حالة الاتفاق عليها - نافذة المفعول إلا بعد إقرارها من محمد على.

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص١٨٩.

(٢) انظر: الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم عبدالرحمن، ص١٩٩ - ٢٣٥.

(٣) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص١٧٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٧٢.

غير أن هذه الشروط لم تقبل من جانب الأمير عبدالله، وقرر إرسال وفد إلى مصر للتفاوض مع محمد على مباشرة حول شروط الصلح، إلا أن الوفد فشل فى مسعاه بسبب تشدد الباشا، وتأهب السعوديون للحرب والقتال، فأرسل محمد على حملة جديدة عام ١٨١٦ م بقيادة ابنه إبراهيم باشا[١].

وزحف إبراهيم باشا بقواته من الحجاز صوب نجد، ونجح فى الاستيلاء على مدن عنيزة وبريدة وشقراء، وإخضاع كل منطقة القصيم، واتبع إبراهيم فى زحفه سياسة الملاينة مع القبائل وهى سياسة كان من شأنها استمالة عدد كبير من أهل نجد، إذ كان يعقد دائماً المجالس ويمنح الهبات للناس، واتخذ فى بداية الأمر أسلوباً استعطف به القبائل فمنع النهب والسلب، واستطاع بخبرائه العسكريين الفرنسيين أن يواصل زحفه حتى الدرعية التى ضرب الحصار عليها لمناعتها، وكان حصاراً طويلاً استمر من ٦ أبريل إلى ٩ سبتمبر ١٨١٨م، وانتهى باستسلام الأمير عبدالله بن سعود ودخول إبراهيم الدرعية، حيث أرسل من هناك الأمير السعودى فى حراسة مشددة إلى مصر، ثم أرسل من القاهرة إلى استانبول[٢] لقد شهر بالأمير عبدالله فى شوارع استانبول ثلاثة أيام كاملة ثم أمر بإعدامه شنقاً، فرحمة الله على ذلك المظلوم[٣] وستظهر حقيقة مقتله يوم الأشهاد. إنه الذى دعا إلى الصلح صلح أهل الجزيرة من خلال رسالة وجهها الشيخ أحمد الحنبلى إلى طوسون لقد بينوا أنهم يعترفون بإمارة السلطان العثمانى وأنهم لا يخرجون على دولة الخلافة، فلِمَ إذن كان الإصرار على توجيه القوات إلى جزيرة العرب؟ وهكذا أزهقت أرواح المسلمين بأيدى بعضهم البعض، نتيجة كيد الأعداء، لقد قام أهل الجزيرة بمساندة مسلمى مصر عندما احتلها الفرنسيون فلماذا هذا الاعتداء المتعمد؟ إن محمد على استطاع بواسطة الزعماء الذين ينسبون إلى الإسلام أن يقنع كثيراً من عوام الناس بأنهم يفعلون ذلك امتثالاً لأمر خليفة رسول الله، الذى له عليهم حق السمع والطاعة وأن الهدف من ذلك منع جزيرة العرب من الانفصال عن جسد دولة الخلافة[٤].

إن قضية الولاء والبراء كانت غائبة تماماً عن محمد على، بدليل أنه أعطى ولاءه لأعداء الإسلام، وسمح لهم بأن يقودوه ويقودوا الأمة معه إلى حتفها، وهذه نتيجة عملية لوصول

---

(١) انظر: الدولة السعودية الأولى، ص٣٣٩ – ٣٤٥.
(٢) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، ص١٧٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٧٤.
(٤) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص٩٦.

تاجر دخان ظل غير معروف النسب إلى سدة الحكم فى بلاد المسلمين[1].

لقد كانت سعادة بريطانيا كبيرة عندما علمت بسقوط الدرعية، عاصمة الدولة السعودية الأولى، فى أيدى قوات إبراهيم باشا[2]، فقد كانت هى الدولة السلفية التى دعمت القواسم فى جهادهم ضد بريطانيا فى الخليج العربى، مما يعنى تهديد المصالح البريطانية فى الهند كما أسلفنا[3]، وهنا يجدر بنا أن نسأل، خاصة فى تلك الأحداث التى عاشها العالم الإسلامى فى تاريخه الحديث، لنقول: لو أن جيوش محمد على وجيوش الدولة العثمانية تعاونت مع الدولة السعودية الأولى بدلاً من أن تحاربها، لتقفا معاً فى وجه الأطماع الأوروبية بشكل عام، وبريطانيا بوجه خاص، أنه لو تم ذلك لتغير وجه التاريخ، خاصة أن الدولة السعودية دولة مسلمة أقامت دعائمها على المبدأ السلفى الصحيح، والعالم الإسلامى فى تلك الفترة فى أمس الحاجة إليها، وعلى أية حال فلقد أدركت بريطانيا مدى الاستفادة من هذه الظروف، فأسرعت بزف التهانى إلى إبراهيم باشا، من مبدأ الاحتواء فى ضوء المصالح الذاتية لها، وبعثت بالكابتن جورج فورستر سادلير[4] لتقديم التهنئة لإبراهيم باشا لاستيلائه على الدرعية، ولمحاولة إيجاد قاعدة يمكن من خلالها التنسيق بين قوات الباشا البرية، والقوات البريطانية البحرية للقيام بعمل حربى مشترك ضد القواسم، أتباع الدولة السعودية الأولى[5].

إن العلاقة بين بريطانيا ومحمد على قديمة، وفى بداية حكمه دخل فى مفاوضات معهم استمرت أربعة أشهر أكد فيها محمد على جديته ورغبته المخلصة فى الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم، وهو ما يؤكده تقرير فريزر الذى تولى التفاوض معه، الأمر الذى أدى - بعد اقتناعهم بذلك - إلى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك، وقد تضمن التقرير الذى أعده قائد الحملة فريزر الذى تفاوض مع رسل مع محمد على والذى أرسله إلى الجنرال مور فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٠٧م أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه: (أرجو أن تسمحوا لى بأن أبسط لكم ليكون.. موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجر جنرال «شريروك» والكابتن «فيلوز» أثناء قيامهما بمهمتهما لدى

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادى، ص٩٧.

(٢) انظر: دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر (١٩٨/١).

(٣) انظر: تاريخ الأحساء السياسى، د. محمد عرابى، ص٤٢ - ٤٣.

(٤) ج ج لوريمر: دليل الخليج التاريخى (١٠٠٩/٢ - ١٠١٠).

(٥) انظر: حروب محمد على فى الشام، د. عايض الروقى، ص١١٢

سموه، ولدى ما يجعلنى أعتقد أن هذه المحادثة، ومن اتصالات خاصة كثيرة أخرى كانت لى معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه، لقد أبدى محمد على باشا والى مصر رغبته فى أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدناه بإبلاغ مقترحاته إلى الرؤساء فى قيادة القوات البريطانية كى يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها، ويتعهد محمد على من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أى جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الأسكندرية من طريق البحر وبعد الاحتفاظ بالإسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لامناص له من الانتظار أن تعاونه إنجلترا بقواتها البحرية إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفناً حربية، ويوافق محمد على باشا فى الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التى تقف على بعد من الإسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها)[١].

وقد علق القنصل الفرنسى دروفتى على ما بلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد على والإنجليز الذى هو من نوع معاهدة بأن (مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض التى توخاها الإنجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة)[٢].

ولم يشأ الإنجليز الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الاتفاقية فى أعقاب توقيعها وإخلائهم الإسكندرية وتسليمها إلى باشا مصر حيث رأت بريطانيا ضرورة التريث فى ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية، لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها فى وقت كانت الدبلوماسية الإنجليزية لها مصالحها الكبرى مع دولة الخلافة والاستفادة منها ومن عميلها الجديد لبسط نفوذها على المنطقة إن أمكن[٣].

تاسعاً: ثورة اليونان:

كانت أوروبا حريصة على تمزيق الدولة العثمانية واتخذت لذلك الهدف وسائل متعددة منها؛ إثارت الفتن الطائفية والدينية وتفجير الثورات الداخلية بدعمها المادى والمعنوى. كانت بلاد اليونان تشكل جزءاً من ديار الإسلام ويؤذن فى مدنها وأريافها للصلوات الخمس فى اليوم والليلة لقرون عديدة، وكانت تحكم بشريعة الإسلام، وكان ذلك لا يروق لزعماء

---

(١) انظر: مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤادى شكرى (٢/٨٥٦، ٨٥٧).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/٨٢٦).

(٣) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص١٧٤.

النصارى سواء من اليونان أو غيرهم من الدول الأوروبية ولذلك شرعوا فى تأسيس جمعيات سرية فى داخل بلاد اليونان وفى روسيا وغيرها، هدفها إحياء الامبراطورية البيزنطية القديمة على أن تكون تحت إدارة البيطريركية الأرثوذكسية الرومية فى استانبول، ولو أصبح كثير من البطارقة والقساوسة ورجال الدين أعضاء أصليين فى هذه الجمعيات السرية المناهضة للدولة العثمانية(١). وقام رجال الدين باستخدام نفوذهم على الشعب وتحريكهم للثورة ضد الدولة العثمانية وكان القساوسة ورجال الدين على صلات وثيقة بزعماء الدول الأوروبية وخصوصاً روسيا ونجد وثيقة تاريخية هامة تدل على هذا الاتصال من أجل التنسيق والتعاون على تدمير الدولة العثمانية وشعبها ومقوماتها:

(وهذا نص رسالة البطريرك «جريجو ريوس» إلى قيصر روسيا يبين له فيه كيفية هدم الدولة العثمانية من الداخل):

(من المستحيل سحق، وتدمير الأتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية، لأن الأتراك العثمانيون ثوريُّون جداً ومقاومون، وواثقون من أنفسهم، وهم أصحاب عزة نفس واضحة، وهذه الخصال التى يتمتعون بها إنما تنبع من ارتباطهم بدينهم، ورضائهم بقضاء الله وقدره وتشبعهم بهذه العقيدة، وأيضا من قوة تراثهم وتاريخهم، وطاعتهم ومؤازرتهم لسلطانهم وقادتهم واحترامهم لكبارهم.

الأتراك العثمانيون أذكياء، وهم مجدّون مجتهدون متجاوبون مع رؤسائهم الذين يوجهونهم ويقودونهم فى الطريق الإيجابى الصحيح مما يجعلهم قوة هائلة يُخشى منها، فهى تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة.

إن كل مزايا الأتراك العثمانيين هذه، بل وبطولاتهم وشجاعتهم إنما تأتى من قوة تمسكهم بدينهم وارتباطهم بأعرافهم وتقاليدهم وصلابة أخلاقهم، ولذا:

أولاً: لابد من كسر شعور الطاعة عندهم تجاه سلطانهم وقادتهم وتحطيم روحهم المعنوية وروابطهم الدينية؛ وأقصر طريق لتنفيذ هذا، تعويدهم التعايش مع أفكار وسلوكيات غريبة لا تتواءم مع تراثهم الوطنى والمعنوى.

ثانيا: لابد من إغراء الأتراك العثمانيين لقبول المساعدات الخارجية التى يرفضونها من إحساسهم بعزتهم، وتعويدهم عليها؛ حتى لو أدى ذلك إلى إعطائهم قوة وقدرة ظاهرتين

---

(١) انظر: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ثريا شاهين، ص٥٦، ٥٧.

فقط لمدة محدودة.

وفى اليوم الذى تهتز فيه معنوياتهم، ستهتز قدراتهم الذاتية، فهذه المعنويات والروابط هى التى تدفعهم نحو النصر، إضافة إلى قدراتهم الأخرى وكثرتهم العددية، التى تبدو فى الشكل أكبر مما هى عليه فى الواقع فى السيطرة والحكم، ووجودهم فى المجتمع الدولى.

كذلك يمكن هدمهم وتدميرهم بإعلاء أهمية وقيمة الأمور المادية فى تصوراتهم وأذهانهم – أى إفسادهم بالإغراءات المادية – فإنه ليس بكاف إحراز انتصارات عليهم فى ميدان الحرب العسكرية فقط، ولكن العكس هو الصحيح، لأنه إذا اتبع طريق الحرب – وحده – لتصفية الدولة العثمانية، يكون سبباً فى تنبههم وسرعة إيقاظهم ووصولهم لمعرفة حقيقة ما يخطط ويُبيَّت فى الخفاء لهم ولوطنهم من تخريب وتدمير.

إن ما يجب علينا عمله هو إكمال هذه التخريبات فى بنيتهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشىء)[١].

لقد كان البطريرك «جريجو ريوس» بطريرك استانبول عضواً فعالا فى خدمة الجمعية، وكان يستخدم كل موظفيه وكل نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعية السرية التى تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى وكان خطوات الجمعية كالتالى:

١ – إنشاء جمعيات سرية فى كل مكان فى الدولة العثمانية، والقيام بتسجيل أغنياء الروم – وأكثرهم نفوذاً – فى هذه الجمعيات، كان هذا من أجل ضمان المساعدات المادية والمعنوية.

٢ – تعيين المشهورين من الهيلينيين من رجال الكنيسة، رؤساء للجمعية

٣ – تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالى للجمعية السرية.

٤ – الإفادة من الشباب الهيلينى الذى يدرس فى أوروبا.

٥ – العمل على تأمين مساعدة الدول الكبرى[٢].

وامتدت شبكات الجمعية السرية فى بلاد الموره وخارجها وعملت المكائد للتخلص من العوائق الداخلية، وأعلنت تمردها عام ١٨٢١م، وفى هذا التمرد قام جرمانوس أسقف باتراس

---

(١) دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية ترجمة محمد حرب تأليف ثريا شاهين، ص٧٠ إلى ٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٠.

- رئيس تنظيم الجمعية السرية فى المورة - بحمل علم عليه صورة مريم بزعمه وأخذ يصيح (يا أيتها الأمة اليونانية! هيا أفيقى واقتلى الأتراك) .. ويدعو كل الروم للحرب ضد العثمانيين، وفى هذا الوقت أيضا كان التمرد قد بدأ يتسع نطاقه وانتشاره.

بدأ هذا التمرد عام ١٨٢١م، مكتسباً شخصية وطنية ودينية وقاده رجال الدين.

وقد صرح مكاريوس رئيس جمهورية قبرص السابق فى حوار أجراه معه الصحفى والمحامى التركى (نوزاد قراكيل) عام ١٩٥١م بقوله: (... ربما تعلمون أن الكنيسة قادت تمرد اليونان - ضد العثمانيين - عام ١٨٢١م، وكان القساوسة هم الذين أخذوا بزمام المبادرة أى أنهم أول من رفع راية التمرد، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدولة العثمانية)[١] ثم قال: إن الحرية هى الفكرة المثلى للمسيحية[٢]، والحق أن هذا هو الواقع، لقد كُلف القساوسة بإبلاغ القرى والقصبات بأن الهجوم على الأتراك - للقضاء عليهم - سيحدث ليلة عيد الفصح، وأخذوا يقسمون بعدم إفشاء هذا السر لأحد قبل موعده المحدد، علم العثمانيون من بعض أصدقائهم بهذا الموقف فانسحبوا - من قبيل الاحتياط - إلى القلاع، ولكن لم تجد هذه القلاع مددا فلم تقو على الصمود فسقطت واحدة تلو الأخرى فى أيدى العصاة المتمردين.

وفى مدة قليلة - حوالى ثلاثة أسابيع - استطاع المتمردون خلالها السيطرة على المورة كلها، باستثناء المقاومة الشديدة التى أبداها العثمانيون فى قلعة (تريبوليجة) - وهى مركز ولاية الموره - حيث استمرت هذه المقاومة شهوراً عديدة وقد قتل الروم - بوحشية منقطعة النظير - العثمانيين الذين وقعوا فى الأسر - أثناء هذا التمرد - وسلبوا أموالهم.

كان رجال الدين على صلة مستمرة وقوية بكبار رجال جمعية (الفكرة العظمى) ودائمًا فى تعاون وثيق معهم. وساعد القساوسة فى الأديرة القوات الرومية فى الأفلاق والبغدان، ودفعت لهم الكنيسة الأموال من صناديقها. كذلك سمح القساوسة للمتمردين باستخدام الأديرة مخازن للمدافع والبارود، كما سمحوا لهم باستخدامها (أى الأديرة) ملاجئ لهم.

وقد أرسل المطران باليابادرا رسالة إلى القنصل الروسى قال له فيها : (من أجل التخلص من الأتراك تمامًا يجب أن تقوم روسيا بمساعدة الشعب المتمرد).

---

(١) دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ص٦٥

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٥.

لعب بطريرك جريجوريوس دوراً كبيراً فى تمرد الروم ضد الحكم العثمانى كما ذكرنا سابقًا، ولكن لابد أن نوضح هنا أن هذا البطريرك رغم أنه كان عضواً فى جمعية مبدأ إقامة اليونان الكبرى أو ما يسميه الروم باسم الفكرة العظمى، فقد خاف عندما أعلنت روسيا - حسب مقتضيات السياسة الروسية وقتها - أنها تستنكر عصيان الأرثوذكس، فاضطر البطريرك جريجوريوس إلى إصدار مرسوم سماه باسم (بيان الحرمان) ضد المتمردين(١).

استطاعت المخابرات العثمانية أن تأتى بمعلومات مؤكدة وموثقة مفادها (أن خطة إقامة دولة اليونان الأرثوذكسية الكبرى، قد أعدها البطريرك بنفسه)(٢).

وعندما وصلت الأخبار للسلطان محمود الثانى أصابته الدهشة وأصدر أوامره لتفتيش مقر البطريرك، واستطاع على باشا أن يقوم بإعداد خطة مداهمة البطريركية بإحكام بالغ، أدت عند تنفيذها إلى وقوع الوثائق المشار إليها فى أيدى المسئولين ورجال الحكومة.

كان من بين هذه الوثائق؛ تلك الخطابات الموجهة إلى القساوسة الذين قادوا العصيان فى المورة، والمعلومات الصادرة لاتخاذ التدابير اللازمة - للعصيان - فى استانبول، والاستعدادات، والترتيبات السرية التى تتكتم الدولة العثمانية عن أخبارها ثم سربها أمراء الروم التابعون للكنيسة، والمراسلات والمعلومات التى وصلت إلى البطريركية من سفارتى إنجلترا وفرنسا - خاصة معلومات مراحل الاستعداد الرومية فى روسيا، وأخبار الأسلحة المرسلة من مركز الجمعية السرية فى مدينة أوديسا، وبيانات ونداءات طلب المعونة الموجهة إلى كل الأرثوذكس فى جميع أنحاء العالم، وإيصالات دفع نقود المساعدات المالية، للبطريركية من أجل العصيان.

وقع كل هذا فى أيدى الحكومة العثمانية ولم ينكر البطريرك أى شىء من هذا، حيث قال: إنه هو الذى قام بعمل كل شىء، وقبل التهم الموجهة إليه، وكان له شركاء فى الجريمة، وقد عرفتهم الحكومة.

وأصدر السلطان محمود الثانى فرمانًا بعزل البطريرك جريجوريوس من منصبه، ثم إعدامه(٣). وقد نفذ حكم الإعدام يوم عيد الفصح عند الروم الأرثوذكس ثم أصدر السلطان فرمانًا آخر لانتخاب شخص يحل محل البطريرك السابق وسلم الفرمان إلى

---

(١) دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ص ٦٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٣.

استافراكى بك ترجمان الديوان الهمايونى، فارتعدت جماعته هلعًا بعد توجيه استافراكى إلى البطريريكية، وقرأ على المسئولين ذلك الفرمان، ثم انتخبوا (أويانيوس) بطريريكًا(١).

وشرعت الحكومة العثمانية فى إعدام بعض قادة التمرد، وقد أثر ذلك تأثيرًا كبيرًا فى إعادة السكون حتى أن البطريرك أصبح واسطة بين المتمردين - فى المورة - وبين الحكومة العثمانية. ووصل به الأمر إلى أن يرسل ما يسمى بـ« عرض حال » يطلب فيه الإذن بالدعوة إلى الاستئمان « طلب الأمان ». ولقد استجابت السلطات العثمانية لمساعى البطريرك الجديد، وتم العفو على كل من أظهر الندم على ما فعله، فاستردوا أموالهم وأملاكهم؛ وأما الموتى فقد أخذ وارثوهم ما يستحقونه، واستمرت الكنائس فى أداء أدوارها، كما سارت الطقوس الدينية النصرانية كما هى عليه، كذلك تعهدت الحكومة براحة هؤلاء الناس واستقرارهم، وتم إبلاغ سفراء الدول الأجنبية بذلك؛ وبرغم كل هذا فقد استمرت الأحداث ولم تتوقف واضطرت الحكومة إلى التدخل(٢).

عاشراً: محمد على باشا واليونان:

قام محمد على بدوره فى القضاء على الدعوة السلفية فى الجزيرة وحان الوقت لإضعافه وتقليم أظافره، ولذلك دفعت الدول الأوروبية السلطان محمود الثانى بالاستعانة بجيشه لإخماده فتنة التمرد فى اليونان وأثارت الدول الأوروبية على محمد على بقبوله المهمة وأوهمته بأنه سيكون أكبر زعيم فى المنطقة ويمكن أن يؤدى به الأمر ليكون خليفة المسلمين بعد أن يضعف سلطان الخلافة، وقبل محمد على باشا عرض السلطان محمود الثانى بشرط أن يحصل على ولاية كل من كريت واليونان. وبمجرد تلقيه خبر القبول - لهذا الشرط - أمر ابنه إبراهيم باشا بتولى مسألة حرب المورة(٣) وتحركت جيوش مصر بقيادة إبراهيم باشا ومستشاره سليمان باشا الفرنساوى بحرًا من الإسكندرية عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م باتجاه كريت وشبه جزيرة المورة مركز التمرد الصليبى، وفتح نافرين عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م، ودخل أثينا عام ١٢٤١هـ/١٨٢٣م رغم معاونة القائد الإنجليزى البحرى اللورد كوشران الصليبيين اليونان؛ وبعد أن أجهضت القوة الإسلامية التمرد اليونانى الصليبى أبانت الصليبية الأوروبية عن وجهها الكالح، فأعلنت بسط حمايتها على بلاد

---

(١) انظر: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٤.

(٣) الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ٩٨.

اليونان. بل إن روسيا كانت تدعم التمرد اليونانى علنًا، ورأت أن الفرصة سانحة لدخول استانبول وإعادتها إلى عهدها السابق مركزًا للصليبية الوثنية، ووقف الإنجليز إلى جانب روسيا[1].

وأجبرت الدولة العثمانية على معاهدة (آق كرمان) فى ٢٨ صفر عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م وأهم بنودها:

يحق لروسيا الملاحة فى البحر الأسود ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، ورغم أن المعاهدة قد عقدت بسبب التمرد اليونانى الصليبى، إلا أنها لم تذكر شيئًا عنه، وبعد قليل تقدمت إنجلترا بطلب إلى الدولة العثمانية فى ٨ رجب ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م :(أن تتوسط الدولة العثمانية لأن هذا تدخل صريح فى شئونها الداخلية[2]، فكان هذا الرفض حجة تذرعت بها أوروبا لإعلان الحرب مرة أخرى.

اتفقت روسيا، وفرنسا، وإنجلترا فى ١١ ذى الحجة على إجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، بمعنى فصلها عن جسد الدولة الأم (الدولة العثمانية) ورفض السلطان العثمانى، فأمرت الدول الأوروبية أساطيلها بالتوجه إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعيًا بأنه يتلقى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرهما، ومع ذلك توقف القتال عشرين يومًا ريثما تصل إليه التعليمات[3].

ودخلت الجيوش الأوروبية المتحالفة إلى مرفأ «نوارين» دون أن ترفع أعلام الحرب؛ لذا فقد كان دخولها دخول خديعة وقامت هذا الأساطيل بمباغتته الأسطول العثمانى المصرى المشترك وغدرت به وأطلقت عليه النيران فهزمته هزيمة نكراء وأغرقت السفن - وهى مفاجأة لم يكن يتوقعها وبالتالى لم يعمل لها أى حساب - وبسبب هذه المعركة الغادرة انقلب الحال، فأصبحت القوات العثمانية فى موضع الضعف والانهزام بعد أن كانت فى موقع القوة والنصر.

واستقبلت الشعوب الأوروبية هذه الحادثة بمظاهر الفرح السرور[4]. لقد قتل من جيش محمد على أكثر من ثلاثين ألف جندى وهكذا تحقق مخطط الأعداء، فأضعفوا قوات محمد على وفصلوا جزءًا من ديار الإسلام عن الدولة العثمانية، لقد قامت فرنسا وإنجلترا

---

(١) الدولة العثمانية، د. جمال، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٠.

(٤) دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ص ٧٧.

بعمل مزدوج حيث شجعوا السلطان على إرسال جيش للقضاء على التمرد فى بلاد اليونان ثم قضوا على ذلك الجيش.

ولما رأى محمد على باشا والى مصر ما حل به أمر ولده بالانسحاب وقامت القوات الفرنسية بأخذ أماكن جيش محمد على المنسحب، وقامت فرنسا وإنجلترا بعقد مؤتمر قرروا فيه فصل بلاد اليونان على الدولة العثمانية على أن يحكمها حاكم نصرانى تختاره الدول الثلاثة(١) وصدق الله حيث يقول: ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله تعالى: ﴿ **لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً** ﴾ [التوبة: ١٠] لقد تآمر الأعداء بالاتفاق مع من ينتسبون إلى الإسلام لاغتصاب واحتلال ديار الإسلام فى عهد السلطان محمود الثانى(٢).

الحادى عشر: محمد على باشا يحتل الشام ويحارب الدولة العثمانية:

رأى الساسة البريطانيون والفرنسيون أن السماح لمحمد على بتوجيه جيوشه إلى الشام ثم الأناضول يخدم مصالحهم للتصدى للنفوذ الروسى المتزايد فى أملاك دولة الخلافة العثمانية وقد لقى هذا التوجه ترحيبًا من محمد على لخدمة أهداف أسياده البريطانيين خصوصًا ومما يدعم وجهة النظر هذه أن إنجلترا عارضت بشدة شروع محمد على فى تنفيذ العرض الفرنسى بغزوه للجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشام بعام واحد، وهددوه بالهجوم على أسطوله وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العملية، الأمر الذى دعاه إلى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يؤكد على أن محمد على ترك احتلال الجزائر بسبب ضغط بريطانيا ومخططاتها وكان ذلك يساعد بريطانيا فى عرقلة النفوذ الروسى المتزايد فى المنطقة وعلى أية حال فقد حاول محمد على أن يخفى حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها هجومه على الشام مثل إيواء «عبد الله باشا» والى عكا لستة آلاف من المصريين الفارين هربًا من التجنيد فى جيش محمد على خلال سنة ١٨٣١م فقط ورفضه إعادتهم، وكذلك قيام «عبد الله باشا» بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا. وكتب محمد على إلى الباب العالى يبلغه بقيامه بمهاجمة «عبد الله باشا» لهذا السبب، ورد عليه الصدر الأعظم ما يدل الباحث على مدى الضعف الذى كانت عليه الدولة العلية وعدم قدرتها على التصدى لمحمد على فقال: (إن شكوى بعض

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، ص ١٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه، د. جمال، ص ١٠١.

التجار لا يمكن أن تسوغ تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وإن ما ينشب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالى)[١]. ولم يقتنع محمد على بما قاله الصدر الأعظم ودفع جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وقام الموارنة بدعم جيش محمد على والوقوف معه، وكان الفرنسيون يشجعون الموارنة المسيحيين بالوقوف مع إبراهيم باشا وأمدوهم بالسلاح، وأعلن نصارى بلاد الشام، بأن إبراهيم باشا صديق لهم، وأبدوا استعدادا تامًا لمساعدته، كما أن إبراهيم باشا، قد ألغى كل القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط فى كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية[٢] وهى دلائل قوية على تأثر إبراهيم باشا بالمحفل الماسونى ودور هذا المحفل - التابع لفرنسا - فى دعم أطماعه وأطماع أبيه[٣].

وعلى الرغم من أن جيش إبراهيم باشا قد تمكن من هزيمة الجيش العثمانى واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين قد تمكنوا من إثارة الأهالى ضد إبراهيم باشا، مستغلين العديد من الأسباب سواءً كانت دينية، أو اقتصادية، خصوصًا بعد أن ضيق «إبراهيم باشا» الخناق على المسلمين فى حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠ التى حددت الوجود المصرى - لوالى مصر - فى الشام بحياة محمد على[٤].

إن مراحل احتلال قوات محمد على للشام أكدت اتجاهه المعادى للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وأكدت أيضًا أنه كان منفذاً للأهداف البريطانية على الصعيد السياسى وكان منفذاً للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافى فى بلاد الشام.

لقد فتح إبراهيم باشا الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وألغى كل القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسرى على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتاب أن عام ١٨٣٤ م عام تحول تاريخى حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الأمريكية، وتم نقل مطبعة الإرسالية الأمريكية من مالطة إلى بيروت، وأسست مدرسة للبنات فى بيروت على يد «إيلى سميث» وزوجته[٥]، وزودت بعض الأديرة بمطابع

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ١٩٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٢.
(٣) انظر: الجامعة الإسلامية، أحمد الشوبكة، ص ١٠١.
(٤) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٩٣
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٣.

أخرى فى إطار حرص الدول الأوروبية على حصر المطابع فى يد المسيحيين فقط[1] حتى تتمكن من تحقيق أهدافها فى ظل عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم أو نشر أفكارهم فى هذا المجال[2].

لقد كان دخول جيوش محمد على باشا إلى الشام نقطة انطلاق لدور المبشرين، وأنه لولا وقوف ابنه معهم لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة، فقد تمكنت كلية «عين طورة» التى أعيد افتتاحها – والتى ما زالت قائمة حتى الآن – من القيام بدور كبير فى تكوين كوادر من الكتاب والمفكرين. وفى نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها الدعوة إلى القومية بين أهالى الشام وجلب أحد الفرنسيين من مصر وهو (كلوت بك)[3] ليشرف على تطبيق هذه السياسة بعد ان اكتسب خبرة تطبيقها فى مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب العربية لتعينه فى تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الأساليب – تشاركه الإرساليات التنصيرية ورجال الكهنوت فى الأديرة – من أن يقلب أساليب التربية والتعليم فى مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية فى حربها للإسلام والمسلمين[4].

بينما كانت جيوش محمد على تمكن النصارى فى بلاد الشام، وتضعف شوكة المسلمين بها، كانت جيوش فرنسا فى عام ١٨٣٠م تغتصب الجزائر بعد ما ضعفت الخلافة العثمانية ودخلت القوات الفرنسية بما يعادل ٢٨ ألف مقاتل، وأسطولا يضم مائة سفينة، وثلاث سفن تحمل ٢٧ ألف جندى بحرى، وكانت الدول الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر فقد حان توزيع تركة الرجل المريض وحل المسألة الشرقية بالطريقة الأوروبية.

وهنا نتساءل أين محمد على باشا والى مصر عندما قام الفرنسيون باحتلال الجزائر؟ لماذا سكت؟ هل لأن إمكانياته لا تسمح بدعم جهاد شعب الجزائر المسلم أم أنها بعيدة عنه؟ أم لأن السكوت ثمن ووعد من دول أوروبا ومنها فرنسا لمحمد على بأن يظل واليًا على مصر، ويتركوا له الفرصة لضم بلاد الشام، أو غير ذلك من الوعود الظلامية التى تحبك خلف الكواليس؟

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٩٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٦
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٦.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٦.

لقد كان محمد على مخلبًا وخنجرًا مسمومًا استعمله الأعداء فى تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه فى نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدى والإسلامى لديه ولدى أعوانه وجنوده (١).

لقد ترتب على دور محمد على فى المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذى أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالى استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية (٢).

وفى أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد على فى الشام والأناضول اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن « محمد على » يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة « انكيار اسكله سى » سنة ١٨٣٣م فى أعقاب هدنة كوتاهية، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعى بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدى لمحمد على خشية المزيد من التدخل الروسى، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م. وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التى حاول السلطان محمود الثانى أن يقوم بها فى الدولة العثمانية واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية فى مقابل حمايتها من أطماع محمد على(٣).
وهكذا كانت سياسة محمد على خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية ما زالت آثارها تعانى منها الأمة حتى اليوم. لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة عميلها المخلص محمد على:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التى كادت تكون خنجرًا مسمومًا فى ظهر الأطماع البريطانية فى الخليج العربى خصوصًا والمشرق عمومًا.

٢- فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامى والمسلمين فى محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس فى بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.

٣- إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم فى الاقتصاد.

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالى مصر والشام من تلك الامتيازات.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ١٩٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

٥- خنق التيار الإسلامى الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

٦- أصبح محمد على نموذجًا تحتذى به الدول الأوروبية فى صنع عملائها فى داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال، غيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد على، حان الوقت لإضعاف قوات محمد على وتحجيمها، فقد تحققت أهدافهم، ووصلوا إلى مقاصدهم، فلابد من إضعاف قوات محمد على، ودخل الإنجليز فى صراع سافر مع قوات محمد على واستطاعت بمساندة أهل الشام من هزيمة قوات محمد على، والاستحواذ على الثغور الشامية وقتل فى هذه المعارك ثلاثة أرباع قوات محمد على.. من شعب مصر وبلاد الشام، وأجبر محمد على تحت ضغوط الإنجليز على توقيع المعاهدة:

١- يتنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثيًا له ولأبنائه.

٢- أن يحدد الجيش المصرى بثمانية عشر ألفًا.

٣- أن لا تصنع مصر سفنًا للأسطول.

٤- أن لا يعين والى مصر فى الجيش ضابطًا أعلى من رتبة ملازم وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنويًا(١).

وشرعت فرنسا وإنجلترا تثير الفتن الطائفية (من عام ١٨٤١ م إلى ١٨٦٠م) بين الأقليات غير المسلمة فى لبنان، الهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التى أرسلت قوات لإنهاء الفتنة وكذلك إيجاد المبرر للتدخل الفرنسى والبريطانى فى لبنان تمهيداً لتمزيقه واحتلاله(٢).

واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان وتم اتفاق عثمانى روسى فى بلطه ليمان قرب استانبول عام ١٢٦٥هـ يونيو عام ١٨٤٨ م يبقى فى الإقليمين جيشًا عثمانيًا روسيًا حتى يستقر الوضع، وما دخل الكفار الروس فى ذلك؟

وبهذا المكر أصبح للنصارى وجود عسكرى فى ديار الإسلام ﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ [إبراهيم: ٤٦].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٠٨.

واشتد صراع الدول الأوروبية على تقسيم ولايات الدولة العثمانية تركة الرجل المريض[1] وكانت الدول الأكثر اهتماما بمصير الدول العثمانية ومصير أملاكها، هي:

١- بريطانيا التى أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصًا، وتأمين تجارتها معها، سواء عن طريق السويس والبحر الأحمر، أو عن طريق الخليج العربى ونهرى دجلة والفرات.

٢- روسيا القيصرية التى أرادت أن تجد لها منفذًا من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالبحر المتوسط، وذلك بالاستيلاء على القسطنطينية ومضايق البسفور والدردنيل، والتى أرادت كذلك أن يكون لها النفوذ الأكبر فى شبه جزيرة البلقان لتؤسس بها دولة سلافية كبرى.

٣- فرنسا التى أخذت على عاتقها من زمن مبكر حماية مصالح رعايا النصارى الكاثوليك فى بلاد الشام بصفة عامة، والمارونيين على الأخص فى لبنان، والتى أرادت رعاية مصالحها فى هذه المنطقة، ثم استعلاء نفوذها فى أملاك الدول الأخرى فى الساحل الشمالى الإفريقى، وبالتحديد فى تونس والجزائر.

٤- وفيما عدا الدول الثلاثة الرئيسية التى ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا، اهتمت بمصير الدولة العثمانية، التى بات من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت لذلك برجل أوروبا المريض[2]. لقد تضافرت عدة عوامل ساهمت فى إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

١- إن الطريق الذى تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذى يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجه، وأخيرًا بالبحر المتوسط، أى بالمرور من مضيقى البسفور والدردنيل، وهما فى حوزة الإمبراطورية العثمانية.

٢- إن الدولة العظمى التى يكون لها قواعد قوية فى البحر الأسود، ويتسنى لها السيطرة على المضايق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط إلى الهند والشرق الأقصى.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص ١٠٨.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٤١.

٣- إن الدولة التى تمد نفوذها إلى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة، وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، ويهدد باختلال التوازن الدولى فى أوروبا(١).

وفى خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول - باستثناء روسيا وفرنسا - تدور حول المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التى ذكرناها.

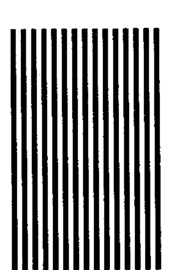
وكانت بريطانيا فى مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية وقتئذ(٢) وعندما بات ممكنًا ملء الفراغ الذى ينجم من تقلص النفوذ العثمانى عن البلقان تخلت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية وسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان. وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر: اليونان، ورومانيا، وبلغاريا، والصرب(٣).

******

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. عبد العزيز الشناوى (١/ ١٩٤ -٢٣٢).

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٤.



المبحث التاسع

السلطان عبد المجيد الأول

(١٢٥٥-١٢٧٧هـ/١٨٣٩-١٨٦٠م)

كان السلطان عبد المجيد الأول، ضعيف البنية شديد الذكاء، واقعيًا ورحيمًا، وهو من أجلّ سلاطين آل عثمان قدراً، أحب الإصلاح، وأدخل التنظيمات الحديثة، ورغب في تطبيقها في الحال. كما أدخل إصلاحات جمة في الجيوش العثمانية. وترقت في أيامه العلوم والمعارف، واتسعت دائرة التجارة، وشيدت الكثير من المباني الفاخرة، ومدَّت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السكك الحديدية[١].

تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني سنة ١٨٣٩م وكان عمره السادسة عشرة من عمره، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء التغريبيين لإكمال ما بدأه والده الراحل من إصلاحات على الطريقة الأوروبية، والتمادي في استحداث الوسائل الغربية، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين (مصطفى رشيد باشا) الذي كان سفيراً للدولة في (لندن) و(باريس)، ووصل إلى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان (محمود الثاني)، وكانت باكورة إصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف (بخط شريف جلخانة) أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام ١٨٣٩م وجاء فيه: (.. لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، ولذا كانت قوة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر...)[٢] ثم جاءت بيانات يمكن تلخيص بعضها فيما يلي:

١ – صيانة حياة وشرف وممتلكات الرعايا بصورة كلية بغض النظر عن المعتقدات الدينية.

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص ١٩٨.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٥.

٢ – ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

٣ – توخى العدل والإنصاف فى فرض الجندية وتحديد أمدها.

٤ – المساواة فى الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم[١].

وبدأ عهد جديد يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التى كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون[٢].

وفى جزيرة متلين اجتمع نفر من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود، وهناك خطبهم « رشيد باشا » – وهو من المنسوبين إلى الإصلاح – باسم السلطان، فقال: (أيها المسلمون والنصارى واليهود، إنكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد، إن السلطان يسوى بينكم جميعًا)[٣].

(ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذى سانده « مصطفى رشيد » وقلة من المحيطين به ترحيبًا أو تأييداً من الرأى العام العثمانى المسلم؛ فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ « رشيد باشا »، واعتبروا الخط الشريف منافيًا للقرآن الكريم فى مجمله وبخاصة فى مساواته المسيحيين بالمسلمين، ورأوا أن ذلك – وبغض النظر عن النواحى الدينية – سيؤدى إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان.

وكان الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية، وهو إثارة الشعور القومى لدى الشعوب المسيحية ضد الدولة)[٤].

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء فى الصميم، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم[٥].

ومما يستلفت النظر أن استصدار خط شريف كلخانة كان « الثمن » الذى حصلت عليه بريطانيا والدول الأوروبية من السلطان العثمانى فى مقابل تسوية النزاع بينه وبين والى مصر « محمد على باشا »، الذى كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة، أثناء أزمة العلاقات

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ١٨٦.
(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، د. على الزهرانى (٢ / ٢٦٦).
(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١ / ٢٥٣).
(٤) انظر: قراءة جديدة فى التاريخ العثمانى، ص ٢٠٨.
(٥) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢ / ٢٦٧).

المصرية العثمانية المعروفة (١٢٥٥ – ١٢٥٧هـ / ١٨٣٩ – ١٨٤١م) وينبغى ألا يفهم من ذلك أن الضغط الأوروبى بوجه عام والبريطانى بوجه خاص، كان وحده منشأ حركة التنظيمات أو حركة التجديد والإصلاح العثمانية، خلال القرن التاسع عشر، فقد أسهم فى هذه الحركة عامل آخر، هو اقتناع الدولة والمتأثرين بالثقافة والحضارة الأوروبية بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الأوروبية أو استلهامها من غير مساس بالأحكام الشرعية[١].

(وبهذا التصريح الخطير الذى أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا.. مس السلطان التقاليد العثمانية فى الشغاف، وتناول الشريعة الإسلامية بالتحريف، فإن التقاليد والشريعة كليهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق فى رعاية خليفة المسلمين، لابد أن يكون تمييز بين المسلمين بنفس الحقوق فى ذمة المسلمين، فأما هذا التصريح الخطير فله دلالته، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزانًا صالحًا للحكم، ولابد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن)[٢].

وقد أنشأ رشيد باشا مجلسًا للنواب، ووضع للدولة قانونًا للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدم رجلاً فرنسيًا ليضع قانونًا حديثًا للدولة، واشتد فى تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقًا مالية[٣]، ثم صدر مرسوم آخر عام ١٨٥٦م أكد فيه السلطان عبد المجيد الأول المبادئ التى سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا، وزاد فيه عدة امتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين[٤]، وعرف فى التاريخ العثمانى بالخط الهمايونى الذى كان أكثر جرأة من الأول وأكثر اندفاعًا نحو الاقتباس من الغرب وقد تضمن الخط الهمايونى ما يلى:

١ – إلغاء نظام الالتزام والقضاء على الرشوة والفساد.

٢ – المساواة فى التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين.

٣ – معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم[٥].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٥٤.

(٢) انظر: الشرق الإسلامى، حسين مؤنس، ص ٢٥٦.

(٣) صدرت بدون رصيد معدنى وبالتالى فقدت قيمتها ولم ينصحهم المستشارون الأجانب.

(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٢٦٨).

(٥) انظر: تاريخ العرب الحديث مجموعة علماء، ص ١٤٠.

٤ - المحافظة على الحقوق والامتيازات التى تمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية.

٥ - القضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطنى الامبراطورية بمواطنة عثمانية متساوية.

٦ - أن تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من الأهالى ورجال الدين المسيحيين يقوم الشعب بانتخابه بنفسه.

٧ - فتح معاهد التعليم أمام المسيحيين، لتفتح أمامهم وظائف الدولة.

٨ - السماح للأجانب بامتلاك الأراضى فى الدولة كما وعد السلطان بالاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية بهدف تطوير اقتصاد الدولة[١].

ويعتبر السلطان عبد المجيد أول سلطان عثمانى يضفى على حركة، تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية، إذ إنه أمر بتبنى الدولة لهذه الحركة، وأمر بإصدار فرمانى التنظيمات، عامى ١٨٥٤م، ١٨٥٦م وبهما بدأ فى الدولة العثمانية ما سمى بعهد التنظيمات، وهو اصطلاح يعنى تنظيم شئون الدولة وفق المنهج الغربى، وبهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية، وبدأت الدولة فى التقنين وإقامة المؤسسات[٢].

والحق أن السلطان عبد المجيد كان خاضعًا لتأثير وزيره «رشيد باشا» الذى وجد فى الغرب مثله وفى الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذى أعد الجيل التالى له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء فى دفع عجلة التغريب التى بدأها هو[٣].

وحينما رأى المسلمون أن الدولة تساوى بهم النصارى واليهود، وتستبدل بالشريعة الحنيفة قوانين النصارى، وتخلع الأزياء القديمة الشريفة لتتخذ زى النصارى، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتى أمرًا إلا راعت فيه خاطر النصارى، وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تنالهم بضيم، نفروا من ذلك نفورًا عظيمًا، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد فى إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبى، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم[٤].

---

(١) انظر: تاريخ العرب الحديث، ص ١٤٠.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/٢٦٨).

(٣) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة محمد حرب، ص ٣.

(٤) انظر: الشرق الإسلامي، حسين مؤنس، ص ٢٥٦.

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد إلى وقف حركة التغريب من استقدام المزيد من الأنظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق، وفتحت لها الأبواب، ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت فى إقصائه سنة ١٨٤١م، إلا أنه عاد بعد أربع سنوات فى عام ١٨٤٥م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا فى طريق التحول العلمانى...[١]، وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦م وعزل منها سنة ١٨٥٨م[٢].

وازدادت الأحواء سوءاً وانحطاطًا، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة فى التغيير والإصلاح فلا يجدون أمامهم غير الطريقة الأوروبية فى الإصلاح، والوجهة التغريبية فى التغيير التى بُدئ فى اتخاذها، خصوصًا إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل فى التمثيل السياسى الخارجى أو للدراسة العسكرية فى الخارج، بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامى يعيد الأمور إلى نصابها، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكرى بتبنى إصلاح جاد يعتمد على المنهج الإسلامى[٣].

وكما قال الكاتب التركى الأستاذ «نجيب فاضل»: ولخلو الامبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكرى أو مصلح اجتماعى كبير وأصيل، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له.. وكانت النتيجة فقدان الروح، وضمور العقل، وذبول الإرادة، وعموم الشلل[٤].

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكرى بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين، حتى إن العلامة العراقى الآلوسى لما زار والى كركوك على باشا عام ١٢٦٧هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء وإكرامهم، وبالأخلاق الفاضلة، ثم قال بعد ذلك: (والظاهر أنه غير منحل العقيدة، ولا منتحل شيئًا من الآراء الإفرنجية الجديدة، حيث إنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس! ويكفى أهل البلد اليوم رحمة أن واليها سالم من تلك الوصمة، وقلما تنال هذه الرحمة فى هذا الزمن الذميم!)[٥].

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص ٢٠٩.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٨١).

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٢٧٠).

(٤) انظر: السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عصره، ص ٤٣.

(٥) انظر: نشوة المدام فى العودة إلى مدينة السلام، ص ١٠٣.

وقد استمر التيار التغريبى فى محاولة إحكام السيطرة على جميع المجالات والأجهزة فى الدولة العثمانية.

وعلى كل حال لقد كانت المعالم الرئيسة لحركة الإصلاح والتجديد العثمانية تدور حول نقاط ثلاثة هامة:

١ - الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليحه فى نظم الحكم والإدارة.

٢ - الاتجاه بالمجتمع العثمانى نحو التشكيل العلمانى.

٣ - الاتجاه نحو مركزية السلطة فى استانبول والولايات[١].

كانت سنة صدور خط كلخانة حدثًا فى الأوساط الأوروبية يسجله أحد المنصرين الفرنسيين بقوله: (كان عام ١٨٣٩م عامًا عظيمًا بالنسبة للتوغل الفرنسى فى تركيا ... لقد كان بداية التنظيمات والسنة الأولى فى الإصلاح... ونحن رجال الدين سنبدأ بالاستفادة من هذه الليبرالية الخجولة، ونبدأ بإرسالية تبشيرية للتعليم الكاثوليكى)[٢]. وقال السيد إيتيان الذى ترأس هذه الإرسالية: (هذه أول إمكانية لتعزيز انتصار الإيمان الذى سنعلمه، ذلك لأن القرآن يحرم حتى ذلك الوقت التعليم[٣]. لقد سافرت أول إرسالية مكونة من سبعة رجال دين فى ٢١ / ١١ / ١٨٣٩م إلى استانبول... الأخوات يفتحن دارًا لليتامى وفصولاً للتدريس فى نهاية ١٨٤٠م يصل عدد التلاميذ إلى ٢٣٠، وعام ١٨٤٢م يصل العدد إلى ٥٠٠)[٤].

وهكذا لم تضيع أوروبا المسيحية وكنيستها وقتًا طويلاً للاستفادة من ظروف التحديث والتنظيمات؛ فبعد سبعة عشر يومًا من صدور الخط، كانت الإرساليات التبشيرية الأولى تغادر مارسيلية باتجاه العاصمة العثمانية، وهى تحمل أفكارها العدائية للمسلمين ولقرآنهم الكريم الذى تتهمه بتحريم التعليم وانتقلت عدوى التنظيمات إلى الولايات العثمانية العربية شبه المستقلة وبسرعة، ففى تونس أصدر محمد باى (عهد الأمان) عام ١٨٥٧م، وبناه على القواعد التالية:

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٥٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، د. قيس العزاوى، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٦١.

أولاً: الحريـة:

إذ أن الإنسان لا يستطيع بلوغ الفلاح إلا إذا كانت الحرية مضمونة له، وكان العدل سياجًا له ضد العدوان.

ثانيًا: الأمان التام.

ثالثًا: المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون:

وهذا متضمن في النقطة الثانية، لأن هذا الحق إنما هو ملك لجميع الناس، ويجب أن يكون للأجانب حقوق التونسيين، وأن يمارسوا الأعمال التجارية على أنواعها، وأن يكون لهم حق التملك[1]، وسارت مصر على هذا المنوال، وبصدور هذه القوانين في استانبول وتونس ومصر، تحول التحديث الذي كان رغبة أوروبا تدعمها بعض فئات نخبوية إلى قوانين رسمية يتعهد فيها السلطان بإجراء التنظيمات اللازمة لتغريب المجتمع الإسلامي. وتحول الصراع من كونه ضغطًا خارجيًا على الدولة العثمانية إلى الداخل أى إلى صراع داخلي عنيف بين سلطة اختارت أو أجبرت على تغريب المؤسسات ومجتمع يرفض هذه المؤسسات مستعينًا بالعلماء والفقهاء والدعاة الذين واجهوا بقوة تيار التحديث من منطلق أنه مخالف للشريعة الإسلامية[2]. إن من أبرز خصائص التنظيمات أنها:

١ - كانت أولى الوثائق الرسمية التي لم تستمد مصدريتها من الشريعة الإسلامية، بل اعتمدت مصدراً وضعيًا للتشريع مستوحى من التجربة الدستورية الأوروبية، وقد احتوت على مفاهيم غربية مثل «وطن» التي تضمنها خط كلخانة بدلاً من «الأمة» فكانت الحالة هي أولى الخطوات نحو فصل الدين عن الدولة.

٢ - إن «إقرار الأمنية الكاملة» و«عهد الأمان» و«مجلس شورى النواب» و المظاهر الأخرى المستوحاة من التجربة الغربية قد سمحت بإضفاء نوع من الشرعية على استمرار الحيف على العامة من ناحية، وفتحت الطريق لطبقة التجار الغربيين والمبشرين لإلحاق المجتمع العثماني بقوانين السوق وبمعايير الفكر التبشيري من ناحية ثانية.

٣ - لقد تكلل خطا كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م. ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجرى العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص ٦١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٢.

لقد وضعت التنظيمات الدولة العثمانية رسميًا على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعلمنة القوانين، ووضع مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامى فى مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها فى أنظار المسلمين، ناهيك أن عدو الدولة أصبح داخليًا، فالتوغل الأوروبى فى مستوياته الثقافية والاقتصادية والسياسية من ناحية، والمسلمون وعلماء الدين الذين يرتابون بمسلك الدولة من الناحية الثانية، سيبدأون صراعًا لن ينتهى حتى بعد نهاية الدولة العثمانية، بل استمر إلى يومنا هذا(١).

إن من الأهمية بمكان أن نقوّم ما حدث ولقد ترك السلطان عبد الحميد الثانى فى مذكراته شهادته التاريخية، لقد حاول إنقاذ الدولة العثمانية، بعد أن دارت عليها الدوائر وأحكم عليها الحصار، لقد كان سلطانًا واعيًا لحقيقة الدعوات التحديثية التى اتخذت لها تسمية «الحركة الإصلاحية» تغطية لنواياها الحقيقية فى ربط الدولة العثمانية بالغرب، وعند ذلك حاربه الدستوريون ويهود الدونمة وعزلوه. وفى أواخر عهده كتب وهو سلطان مسلوب الإرادة يكشف حقيقة التجديد والإصلاح يقول:

(التجديد الذى يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سببًا فى اضمحلالنا. ترى لماذا يوصى أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات. لاشك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء، وأنه كفيل بالقضاء على هذه الامبراطورية إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة فى البلاد، وأن لا نقيس الأوضاع على أساس المستوى الفكرى لحفنة قليلة من الموظفين، ويجب أن يكون فى الحسبان شكوك طبقة العلماء فى كل ما هو أوروبى. الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد فى الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملةً وتفصيلاً. لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا، وأن نستفيد من الظروف الخارجية فى حالات خاصة. ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شىء يأتى من الغرب)(٢).

لقد أصاب ميزان العدل فى تقويمه لحركة الإصلاح العثمانية وبيّن كيفية الاستفادة من حضارة الغرب، وأرى من الفائدة للقارئ الكريم أن يتعرف على موقف الإسلام من الحضارة

---

(١) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٦.

الغربية وغيرها من الحضارات الجاهلية الأخرى وكيف تكون الاستفادة من هذه الحضارات؟

إن الاستفادة من الحضارة الغربية الكافرة وغيرها على ثلاثة أنواع:

الأول: الاستفادة من الصناعات وأصولها والاكتشافات العلمية، والعلوم التجريبية والعسكرية والطبيعية، كالرياضيات والكيمياء والفيزياء، والهندسة والإحياء والفلك بعد أن تمحص وتصفى من شوائب المؤثرات الجاهلية، وتصاغ بقوالب إسلامية صافية، فهذه الأمور ما بين: واجب(١) أخذه واقتباسه، وهو ما يحتاجه المسلمون حاجة ماسة، أولا تقوم بعض الواجبات إلا به، كالسلاح، والنظم العسكرية، فى مجالات الدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيله.. فكل ما يحتاجه المسلمون - من المباحات - فى هذا المجال فيجب أخذه والاستفادة منه، والمنسلمون أحق به.

كذلك ما يتحقق به قيام الدولة الإسلامية - من الوسائل المباحة - مع التحفظ الكامل والوعى التام، يجب الأخذ به، وإلاّ فتركه أولى أو مباح(٢). وهذا قليل لأن الله أوجب على المسلمين الأخذ بالأسباب والحيطة والاكتفاء والاستغناء عما فى أيدى الكفار أيًا كان.

الثانى: التقليد فى العبادات والعقائد والمبادئ والمفاهيم والتصورات والآراء الفلسفية، حول الكون والحياة والإنسان، والتى تتصل بالعقيدة، فهذه الأمور لا تفصيل فيها، فهى محرمة قطعًا، والاستمداد فيها من الكفار ردة أو كفر إذا اعتقد المقلد صحتها ودان بها، وعلى الأقل تكون حرامًا مع جهل حقيقتها.

الثالث: التقليد فى الأخلاق وإنماط السلوك والآداب والثقافة والفكر، والإنتاج الفنى، ونحو ذلك، فهذه الأمور لا تخلو إما أن تتعارض مع أصول الإسلام وقواعده أو توقع فيما نهى الشارع عن تقليد الكفار فيه، فهذا أمر محرم، أو تكون مما يجهل أمره وحكمه فهو على الأقل مكروه، أما الشىء الذى يعتبر فضيلة - فى تلك الحضارة - وما أقله - فقد يكون مباحًا(٣) - والله أعلم.

ولقد تحدث بعض العلماء والمفكرين المسلمين والمعاصرين حول التقليد وكيفية الاستفادة من الحضارة الغربية.

---

(١) انظر: مجلة المنار لمحمد رشيد (١/٥٥١، ٥٥٣).

(٢) المصدر السابق (١/٥٥١، ٥٥٣).

(٣) انظر: التقليد والتبعية، د. ناصر عبد الكريم الغفل، ص ٣٨.

مصطفى صادق الرافعي يقول: (وإنى أرى أنه لا ينبغى لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص. فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا فى الطبقات المنحطة!! على أننا لا نريد من ذلك إلا نأخذ من القوم شيئًا، فإن الفرق بعيد بين الأخذ من زخرف المدينة وأهواء النفس، وفنون الخيال ورونق الخبيث)[1].

حسن البنا يقول: (من الحق أن نعرف أننا بعدنا عن هدى الإسلام وأصوله، وقواعده، والإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع، وأن نأخذ الحكمة أنىّ وجدناها ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه فى كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين)[2].

أبو الأعلى المودودى يقول: إن كان هناك شيء ينبغى ويستحق أن تأخذه أمة من الأمم الأخرى فإنما هو نتاج أبحاثها العلمية، وثمرات قواها الفكرية، ومعطياتها الاكتشافية ومناهجها العلمية التى تكون قد بلغت بها معارج الرقى فى الدنيا. إن أى أمة فى الأرض إذا كان فى تاريخها أو فى نظمها الاجتماعية أو فى أخلاقها درس نافع، فمن الواجب أن نأخذه منها، و من الواجب أن نستقصى أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص، ونأخذ منها ما نراه ملائمًا لحاجتنا وظروفنا.

ولكننا إذا أعرضنا عن هذه الأمور الجوهرية ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها وطرقها للمعيشة وأدواتها للأكل والشرب، بزعم أن فيها السر لنجاح تلك الأمم ورقيها فلا يكون ذلك إلا دليلاً على غباوتنا وبلادتنا وحماقتنا، فهل لأحد عنده العقل أن يعتقد أن كل ما أحرزه الغرب من التقدم والرقى فى مختلف حقول الحياة، إنما أحرزه بالجاكيت والبنطلون وربطة العنق والقبعة والحذاء؟!

أو أن من أسباب رقيه وتقدمه أنه يتناول طعامه بالسكين والشوكة أو أن أدواته للزينة والرفاهية والمساحيق والمعاجين والأصباغ هى التى قد رسمت به إلى أوج الرقى والكمال؟!!

فإن لم يكن الأمر كذلك - والظاهر أنه ليس كذلك - فما للتقدميين المتشدقين بالإصلاح عندنا لا يندفعون أو ما يندفعون إلا بهذه المظاهر[3]؟!

---

(١) انظر: وحى القلم (٣/٢٠٣).

(٢) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ٣٠٧، طبعة دار الأندلس.

(٣) انظر: الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة للمودودى، ص ١٦٣ - ١٦٤.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي قال في (أضواء البيان) عارضًا موقف المسلمين من الحضارة الغربية :

(الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية تشتمل على نافع وضار، أما النافع فيها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه، وما تضمنته من المنافع للإنسان أعظم مما يدخل تحت التصور، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو الإهمال بالكلية الناحية التي هي رأس كل خير ولا خير البتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه »[1].

ثم قال بعد أن ذكر حكم الانتفاع من النافع منها :

(وقد انتفع الرسول ﷺ بدلالة « أبي الأريقط الدؤلي » له في سفر الهجرة على الطريق مع أنه كافر، فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جلَّ وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة، والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين)[2].

سيد قطب يقول : (ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه - رضوان الله عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج بقدر ما يفسح لهم في الرأي والتجربة في شئون الحياة العلمية المتروكة للتجربة والمعرفة كشئون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العلمية البحتة، التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان وفرق بين هذا وذلك بيّن، فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر، والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة . . .)[3].

---

(١) انظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤ / ٤١٢) .

(٢) انظر : التقليد والتبعية، د. ناصر العقل، ص ٤١ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن، سيد قطب (٤ / ٢٠، ٢١) .

ثم أورد قصة عمر، حين رأى النبى ﷺ شيئًا من التوراة وغضب عليه حتى رجع، الحديث وقوله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا...» الحديث.

فقال: (هؤلاء هم أهل الكتاب .. وهذا هو هدى رسول الله ﷺ، فى التلقى عنهم فى أمور تختص بالعقيدة والتصور، أو بالشريعة والمنهج، ولا ضير وفق روح الإسلام وتوجيهه من الانتفاع بجهود البشر كلهم فى غير هذا من العلوم البحتة علمًا وتطبيقًا، مع ربطها بالمنهج الإيمانى: من ناحية الشعور بها وكونها من تسخير الله للإنسان، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها فى خير البشرية، وتوفير الأمن له والرخاء، وشكرا لله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية، شكره بالعبادة، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية.

فأما التلقى عنهم فى التصور الإيمانى، وفى تفسير الوجود، وغاية الوجود الإنسانى، وفى منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها، وفى منهج الأخلاق والسلوك - أيضًا - أما التلقى فى شئ من هذا كله فهو الذى تغير وجه رسول الله ﷺ، لأيسر شىء منه، وهو الذى حذر الله الأمة المسلمة عاقبته، وهو الكفر الصّراح)(١).

إن موجة تقليد الغرب بدأت عارمة حين دبّ الضعف والوهن فى الخلافة العثمانية وتكالبت قوى الهدم بتقويضها - فى الداخل والخارج - وحين شعرت هذه الدولة الضعيفة بالنقص أمام الدول النصرانية الفتية، فاتجهت الدولة العثمانية إلى تقليد تلك الدول وأخذت من إنتاجها الجديد؛ وقد وافق هذا - شلل - فى التفكير لدى المسلمين وبعد عن منهج الله الأصيل، فاستمدت من الكفار، دون وعى أو إدراك أو تفكير فى أسباب تقدم تلك الدول الكافرة ودون أن تجد فى اللحاق بها بالجد والاعتماد على القوة الذاتية، والجهود المسلمة....!(٢).

وبدأت موجة التقليد الأعمى قوية عارمة تدفعها - بحمق وعنف - الأهواء والانحرافات فى الداخل، والجهود الماكرة المخططة من الخارج، فأخذت البلاد الإسلامية تسلك هذا الطريق واحدة تلو الأخرى، ابتداء من تركيا فمصر والشام ثم تونس وإيران والهند.

---

(١) انظر: التقليد والتبعية، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠.

والعجيب أن كل اتجاهات التقليد فى العالم الإسلامى بدأت بالإحساس بالضعف العسكرى والحاجة إلى تنظيم الجيوش فى البلدان الإسلامية ومن ثم نشأت عقدة الاعتماد على الغرب والإعجاب بكل ما هو غربى وافد من بلاد الكفار مهما كان فاسداً وتافهاً، واحتقار كل ما هو شرقى مهما كان صالحًا وعظيمًا(١).

لقد نهى الله – سبحانه وتعالى – فى كتابه الكريم عن التقليد الأعمى، فمقته وحذر من مغبته، فى آيات كثيرة، ومناسبات عديدة، وأساليب متنوعة، ولاسيما تقليد الكفار، فتارة بالنهى عن تبعيتهم وطاعتهم، وتارة بالتحذير منهم، ومن الاغترار بمكرهم والانصياع لآرائهم والتأثر بأعمالهم وسلوكهم وأخلاقهم.

وتارة بذكر بعض خصالهم التى تنفّر المؤمنين منهم، ومن تقليدهم.

وأكثر ما يرد التحذير فى القرآن من اليهود والمنافقين، ثم من عموم أهل الكتاب والمشركين.

وقد بين الله – سبحانه وتعالى – فى القرآن أن تقليد الكفار وطاعتهم منه ما هو ردة فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** ﴾ [محمد: ٢٥، ٢٦]

وحيث جعل الله فى شريعته الكمال فقد نهى عن اتباع غيرها من الأهواء والنظم البشرية، ونهى عن اتباع الكفار والذين لا يعلمون فقال: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

وقال تعالى فى معرض التحذير من أهل الكتاب: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) انظر التقليد والتبعية، ص ٢١.

وكذلك نهى عن طاعتهم واتباع أهوائهم وخصالهم السيئة فقال: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال: ﴿ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩].

وبين خطر موالاتهم واتخاذهم بطانة، وأن ذلك فيه خطر عام يهدد مصالح الأمة وكيانها، فقال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** ﴾ [آل عمران:١١٨].

كما جاء النهى عن التقليد والتحذير منه بأسلوب القصة فإن الله – سبحانه وتعالى – ذكر فى القرآن الكريم الأمم الكافرة الغابرة وأخبارها ومواقفها العدائية ضدّ دعوة التوحيد ومسيرة الإيمان على مدار التاريخ، وما حصل لها من أنواع العقوبات والعذاب جزاء ضلالها وانحرافها، وهو بذلك يأمرنا بأخذ العبرة والعظة، وبالاعتبار بهم والاتعاظ بقصصهم والابتعاد عن تقليدهم، وتجنب سلوك نهجهم(١).

وذلك مثل قوله تعالى لما ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثلات ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ [الحشر: ٢].

وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١].

وقسم العلماء الآيات التى نهت عن تقليد الكفار فى القرآن على قسمين:

قسم بيَّن أن مخالفتهم فى عامة الأمور أصلح للمسلمين، وهذا تدل عليه جميع الآيات.

وقسم بيَّن أن مخالفتهم مطلوبة وواجبة شرعًا، وهذا تدل عليه بعض الآيات(٢).

ووردت فى السنة – عن رسول الله ﷺ – أحاديث عامة تنهى عن التقليد الأعمى، والتشبه الممقوت، وتحذر من مغبة ذلك فقال ﷺ فى معرض النهى عن التشبه بكل ما لم يشرعه أو يقره الإسلام، والنهى عن تقليد كل ما هو على غير سلوك المسلمين، مثل قوله

---

(١) انظر: التقليد والتبعية، ص ٥١.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، ص ١٧.

ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(١) كما وردت أحاديث كثيرة وصحيحة فى النهى عن تقليد الكفار – عمومًا – وأهل الكتاب، والمشركين، والمجوس، وأهل الجاهلية، فقال ﷺ فى مناسبات عديدة:

«خالفوا اليهود»(٢).

«خالفوا المشركين»(٣).

«ولا تتشبهوا باليهود»(٤).

وحين حذر ﷺ من تقليد الكفار وما ينتج عنه من خطر على عقيدة المسلمين وكيانهم، علّل ذلك بما هم عليه من انحراف وضلال، فعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم، ما حل له إلاّ أن يتبعنى)(٥).

كما بيَّن ﷺ – محذرًا – ومشيرًا إلى ما سيحصل للمسلمين بتخليهم عن منهج الله واقتفائهم آثار اليهود والنصارى والأمم المنحرفة، وذلك فيما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا: يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟؟»(٦).

إن من مقاصد الشريعة منع المسلمين من التقليد الأعمى، إذ أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وقد أكمل الله الشريعة للناس: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣].

لقد جعل الله الشريعة مشتملة على كل المصالح فى كل الأزمان والأمكنة ولكل الناس،

---

(١) سنن أبى داود، كتاب لباس الشهرة (٢/٣٦٧).

(٢) وردت فى عدة أحاديث منها قوله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم».

(٣) فى صيح البخارى.

(٤) سنن أبى داود أبواب الاستئذان.

(٥) مسند الإمام أحمد (٢/٣٣٨).

(٦) البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لتتبعن سنن من كان قبلكم، المجلد الثالث، الجزء التاسع، ص٨٣.

فلا حاجة للاستمداد من الكفار أو تقليدهم، وواضح ما يحدثه التقليد من خلل فى شخصية المسلم، من الشعور بالنقص والصغار، والضعف والانهزامية، ثم البعد والعزوف عن منهج الله وشرعه، فقد أثبتت التجربة أن الإعجاب بالكفار وتقليدهم سبب لحبهم والثقة المطلقة بهم، والولاء لهم والتنكر للإسلام ورجاله وإبطاله وتراثه وقيمه، وجهل ذلك كله وهذا ما حدث للدولة العثمانية وولاياتها التابعة لها فى القرنين الماضيين، حين تخلوا عن رسالتهم وحين استسلموا لسلطان الغرب ونهلوا من سمه الزعاف[١].

إن الحكم الشرعى للتقليد يختلف باختلاف نوعه وكيفيته ومدى خطورته وأثره، كما يختلف باختلاف المقلِّد والمقلَّد، والعلاقة الشرعية بينهما، واعتقاد المقلِّد فى تقليده لغير المسلمين. فيكون التقليد كفراً إذا كان فى العقائد لأصول الإيمان وأصول العقيدة، أو الأحكام القطعية فى الشريعة، أو مسائل الغيب الثابتة بالنص، وذلك كتقليد النصارى فى عقيدة التثليث وتقليد الشيوعيين فى إنكار النبوات والأديان.

وكتقليد الدول الكافرة فى تعطيل حدود الله واعتقاد عدم صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق، وغير ذلك.

ويكون التقليد فسقًا حين يكون فى الأخلاق الفاسدة وارتكاب المنكرات والمعاصى كشرب المسكرات ونحوه.

ويكون حراماً مطلقًا، كموافقة الكفار فى أعيادهم واحتفالاتهم وتقليدهم فى ذلك.

ويكون مكروهاً كالتقليد غير المقصود ولا المتعمد فى أمور الحياة العامة، إذ لم يمس العقيدة ولم يكن من خصائصهم وسماتهم.

وإذا خيف أن يؤدى التقليد إلى شىء من الأمور السابقة – الكفر أو الفسوق أو الحرمة أو الكراهة – اتخذ الحكم ذاته، سداً للذريعة.

ويكون التقليد مباحًا بشروط وقيود، كالتقليد فى الإنتاج المادى والعلوم الإنسانية والتجريبية البحتة، والتجارب العسكرية ونحوها، وذلك بعد صياغتها صياغة إسلامية وتنقيتها من شوائب (الجاهلية) وتجريدها من مصالح الكفار وبألاّ تتعارض مع المصالح الشرعية الدينية والدنيوية[٢].

---

(١) انظر: التقليد والتبعية، ص ٨١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٨٣.

إن النظرة الفاحصة فى تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم، يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار، ما يضعف التمايز والاستقلال فى الأمة المقلّدة ويجعلها مهتزة الشخصية، واقتضت سنة الله فى خلقه أن الأمة الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة[1]، ومن تقليدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها فى عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلِّدة مقوماتها الذاتية وحضارتها – إن كانت ذات حضارة – وتعيش عالة على غيرها.

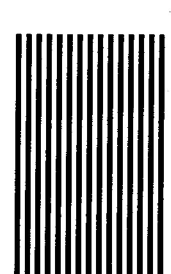
وإذا لم تستدرك الأمة المغلوبة أمرها، وتتخلص بجهودها الذاتية وجهادها من وطأة التقليد الأعمى فإنه – ولابد – أن ينتهى بها الأمر إلى الاضمحلال والاستعباد وزوال الشخصية تمامًا، فتصاب بأمراض اجتماعية خطيرة من الذل والاستصغار والشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس، أضف إلى ذلك كله التبعية السياسية والاقتصادية والانهزامية فى كل شيء، وبالنسبة للأمم الربانية ذات الرسالة الإلهية – كالأمة الإسلامية – فإن تقليدها لغيرها يصرفها عن رسالتها ويصرف جهادها وطاقاتها عن دين الله ويرهقها بالبدع والخرافات وما لم يشرعه الله من النظم والقوانين، والأمراض الخلقية مما يؤدى بها فى النهاية إلى التخلى عن رسالتها ومن ثم الولاء للكفار والطواغيت وهذا إيذان ببطش الله وعقابه، كما ورد فى قصص القرآن عن أمم كثيرة من هذا النوع، والأمة اليوم واقعة بما وقعت فيه تلك الأمم من التقليد الأعمى للكفار والتخلى عن رسالة الله والتبعية والولاء للكافرين فى كل شئون الحياة، والحكم بغير ما أنزل الله واستباحة الزنى والربا والفجور، ومع هذا مازالت تمنُّ على الله بإسلامها[2].

*****

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، فصل اقتداء المغلوب بالغالب، ص ١٤٧.

(٢) انظر: التقليد والتبعية، ص ١١٤، ١١٥.



المبحث العاشر

السلطان عبد العزيز

(١٢٧٧-١٢٩٣هـ/١٨٦١-١٨٧٦م)

تولى الحكم بعد أخيه فى أواخر عام ١٢٧٧هـ. وفى عهده تفجرت ثورة فى جزيرة كريت وأخمدت عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٣م. وتم فتح قناة السويس عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٩م، وصدرت مجلة الأحكام العدلية وقانون التجارة البحرية فى أوائل عهده، وزار أوروبا وفكر فى الاستفادة من خلاف الدول الأوروبية فيما بينها، لكنه وجد أنها تتفق جميعها ضد الدولة لأنها دولة إسلامية، ولم يستطع الأوروبيون أن ينسوا الحقد الصليبى المغروس فى نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة(١).

وكانت الدول الأوروبية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للاستمرار فى خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربى، والفكر الأوروبى، والمبادئ العلمانية. وأكد السلطان عبد العزيز عزمه على مواصلة السير فى الطريق الذى سلكه أبوه محمود الثانى وأخوه عبد المجيد، فأبقى على كل أصحاب المناصب من المتكلفين بتنفيذ الإصلاحات. وكان من أهم الإصلاحات الإدارية فى عهده صدور قانون الولايات عام (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، وفى مجال الإدارة أيضًا أنشئت محكمة عليا قضائية (ديوان الأحكام العدلية). كما أنشئ عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) مجلس للدولة على النسق الفرنسى سمى «شوارى دولت» أى مجلس شورى الدولة، وكان من أهم اختصاصاته مناقشة الميزانية(٢).

أما فى مجال التعليم، فقد أسست مدرسة ثانوية عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م هى مدرسة «غلطة سراى»، كان برنامج الدراسة فيها خيراً من برامج المدارس الثانوية الأخرى، وكانت كل المواد التى تدرس فيها باللغة الفرنسية فيما عدا اللغة التركية. وكانت الغاية من إنشائها هى تخريج طائفة من الشباب القادر على حمل عبء الوظائف العامة، وكان هؤلاء الشباب من مختلف الديانات، فالأغلبية من المسلمين، ولكن كان بها اليونان والأرمن، وهم

---

(١) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٩٠ - ٤٩٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية د. إسماعيل ياغى، ص ١٥٩.

نصارى، كما كان بها أعداد من اليهود. والواقع أن الطلاب قد أقبلوا على هذه المدرسة حتى بلغ عددهم عام ١٨٦٩م ستمائة طالب مسلمين ونصارى ويهود[١].

ورغم هذه الخطوات الإصلاحية التى تمت فى عهد السلطان عبد العزيز، إلا أن الدول الأوروبية لم تعتبرها كافية لتنهض دليلاً على أن الدولة العثمانية إنما تريد الإصلاح، وتعمل لتحسين رعاياها النصارى، ولإزالة المفاسد التى استشرت فى نظام الإدارة والحكومة، وهى مفاسد كانت فى نظر الكثير من المعاصرين الأوروبيين تهدد بانهيار الدولة فى النهاية[٢].

وكان رأى فريق كبير من الإنجليز وغيرهم من المعاصرين، أن زوال الدولة العثمانية قد بات ضرورياً، حيث إنها قد فشلت فى الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبى، فقال لورد كلارندون وزير الخارجية البريطانية فى عام ١٨٦٥م: «إن الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هى بإزالتهم من على سطح الأرض كلية»[٣]. وهذا يؤكد حقد النصارى على الدولة العثمانية المجاهدة لأنها هزمتهم منذ فتح القسطنطينية.

لقد فشلت الدولة العثمانية فى الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبى لانعدام كل صلة بين المبادىء الأوروبية وبين مبادئ الدولة العثمانية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[٤].

•• عزل السلطان عبد العزيز:

كان السلطان عبد العزيز قد زار أوروبا، ورأى اتفاق وتآمر الدول الأوروبية على الدولة العثمانية، فحاول أن يستفيد من الخلاف القائم على المصالح بين دول أوروبا الغربية وروسيا لمصلحة الدولة العثمانية، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسى إلى استانبول، فخافت الدول الأوروبية، وبدأت تشيع الشائعات عنه فى التبذير والإسراف[٥] واستطاع مدحت باشا أن يعزله ثم قام مع عصابته بقتله فى عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)[٦].

إن مدحت باشا كان من يهود الدونمة روجت له الدعاية الماسونية فى أنحاء الشرق العربى والغربى على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية فى السلطنة العثمانية، وسمّته

---

(١) انظر: الدولة العثمانية د. إسماعيل ياغى، ص ١٥٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٩.
(٤) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص ١١٠.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١١٠.
(٦) المصدر السابق نفسه، ص ١١٠.

(أبو الدستور) . وسخّرت له أبواب دعايتها من صحف ومجلات وإذاعات، فوصل بذلك إلى أعلى الرتب منها باشوية سوريا والعراق، ومنصب الصدر الأعظم الذى يعتبر أكبر الرتب فى السلطنة العثمانية. ثم بدأ بعد ذلك يدس ويخرّب كما تملى عليه يهوديته وماسونيته، ويغمز دائمًا بالتعاون مع الماسونية إلى مساوئ الحكم وخاصة حكم السلطان عبد الحميد عدوّ الماسونية الأكبر - الذى لم يترك ثقبًا من بصيص أمل لليهود فى فلسطين إلا وسدّه، ثم أسس « مدحت باشا » ويهود الدونمة الماسونية العالمية حوله « جمعية الاتحاد والترقى » التى حملت نفس شعار الماسونية وجعلت مقرها بسلانيك، وانكشفت جوانب من هذا اليهودى للسلطان عبد الحميد فالقى القبض عليه وعزله ونفاه فيما بعد[١].

•• سبب مقتل السلطان عبد العزيز:

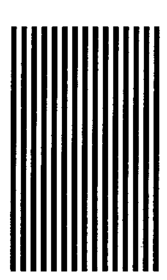
- رفضه للدساتير الغربية برمتها، وكذلك العادات الغربية البعيدة عن البيئة الإسلامية، وتمكنه من إصلاح أحوال الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة، وخاصة فى المجال العسكرى، حيث قوّى الجيش، واستبدل الأسلحة القديمة بأخرى حديثة، واستورد ما يلزم من السلاح من أفضل مصانع السلاح فى أوروبا، ووضع التنسسيقات العسكرية على الطراز الحديث، وشكّل الفرق العسكرية لأبناء العشائر والقبائل من كل الولايات، وسلّح القلاع والحصون بأضخم وأحدث المدافع، فأصبحت مدفعية الدولة العثمانية يضرب بها المثل فى التقدم، وأصلح دار المدفعية « الطوبخانة » وأدخل فيها المعدات والآلات الحديثة، حتى صار بإمكانها صنع جميع الأسلحة على الطراز الجديد، كما قام بإصلاحات فى مجال البحرية وأحل الخبراء العثمانيين محل الخبراء الأجانب رغم اعتراض هؤلاء ودولهم، وأصبحت فى عهده الدولة العثمانية من الدول البحرية الأولى فى العالم، وعمل على إرسال البعثات البحرية إلى الخارج، واشترى المدرعات، وشيد عدة معامل لصنعها ولصنع الآلات والمراجل، وعادت دار صناعة « إزميت » إلى ما كان لها من مجد، كما أصلح الكثير من أحواض السفن، وأسس مجلة الأحكام العدلية، وعمل على إحقاق الحق، وحاكم كبار الحكام، أمثال « خسرو باشا » و« عاكف باشا » و« طاهر باشا » وبذلك ظهر للعموم حبّه للعدل والإصلاح، وهذا لا يرضى الدول الأوروبية ولا تقبل به، لأنها تريد أن يسود الظلم حتى تنهار الدولة بسرعة. وقام بإصلاحات مالية، وأمر بوضع ميزانية منضبطة وألغيت القوائم المالية، وسوّت بذلك الدولة جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنقود وانتظمت الأحوال المالية. لقد هال الدول الأوروبية

(١) انظر: اليهود والماسونية لعبد الرحمن الدوسرى، ص ٧٠، ٧١ .

رؤية ما حدث على يد هذا السلطان فى وقت قصير، فتعرقلت مخططاتهم فى القضاء على الرجل المريض، لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثم قتله[١]. إن جذور المؤامرة فى مقتل السلطان عبد العزيز ترجع إلى تخطيط مدروس من قبل القناصل وممثلى الدول الأوروبية فى العاصمة العثمانية وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعة الماسونية المدعو مدحت باشا[٢] الذى اعترف أثناء محاكمته باشتراكه فى عزل وقتل السلطان عبد العزيز، وهذا أمر معروف تاريخيًا ومدّون فى الوثائق[٣].

******

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٠٥، ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٥.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٨.



المبحث الحادى عاشر
السلطان مراد الخامس
(١٢٩٣هـ) ومدة ولايته ٩٣ يومًا

هو ابن السلطان عبد المجيد ولد فى ٢٥ رجب من عام ١٢٥٦هـ الموافق ١٨٤٠م وارتقى منصب الخلافة فى ٧ جمادى الأولى من عام ١٢٩٣هـ[١].

كان على جانب كبير من الذكاء والثقافة التركية والغربية، كما أبدى اهتمامًا بالأدب والعلوم والشئون الأوروبية، وزار أوروبا والتقى ببعض الأوروبيين، وانخرط فى سلك الماسونية، وكان على اتصال بنامق كامل أحد أعضاء الحركة وغيره، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية[٢]، وكانت الحركة الماسونية هى التى دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلى بعد أن أصابته الدهشة والفزع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع السلطان عبد العزيز ولما بلغه مقتل حسن الجركسى ظهرت عليه اضطرابات عصبية أثّرت على جهازه الهضمى. وكانت صحته فى تدهور مستمر فى الوقت الذى كان مدحت باشا يحاول إعلان الدستور الوضعى بدلاً من الشرع أثناء مرضه ويدرس القوانين والنظم الغربية ويتصل بأعوانه حتى استطاع إعداده بشكل جاهز. وقد قيل إنَّ جنون السلطان ظهر للناس بشكل واضح فكان لابد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام عام ١٨٧٦م وكان نص الفتوى: «إذا جنَّ إمام المسلمين جنونًا مطبقًا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ الجواب: يصح والله أعلم. كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه»[٣] وبعد عزله تعافى من مرضه العقلى، وأمضى باقى حياته فى قصر «جراغان» حتى توفى عن عمر يناهز الرابعة والستين[٤]. لقد أثر الشباب من أعضاء جميعة الاتحاد والترقى على مراد الخامس، فانتسب إلى المحفل الماسونى، وأدمن شرب الخمر وتشبع بالأفكار العلمانية والفلسفية الغربية[٥]. وقد قال عنه السلطان عبد الحميد: «كان من طبيعته أن ينخدع لمن

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية د. إسماعيل ياغى، ص ١٧٧، ١٧٨.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٠٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٠.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٠.

يبتسمون فى وجهه، دون أن يفكر فى المعقول وغير المعقول، حتى أنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله، عدم لياقة اشتراكه، وهو خليفة المستقبل، فى المحفل الماسونى، وتقدير المصيبة التى ستنجم عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص، ممّن يدعون أنهم أنصار التجديد أن يحرِّضوه على إدمان الخمر، وزيَّنوا له جوانب نستخف بها فى الحياة الأوروبية»[1].

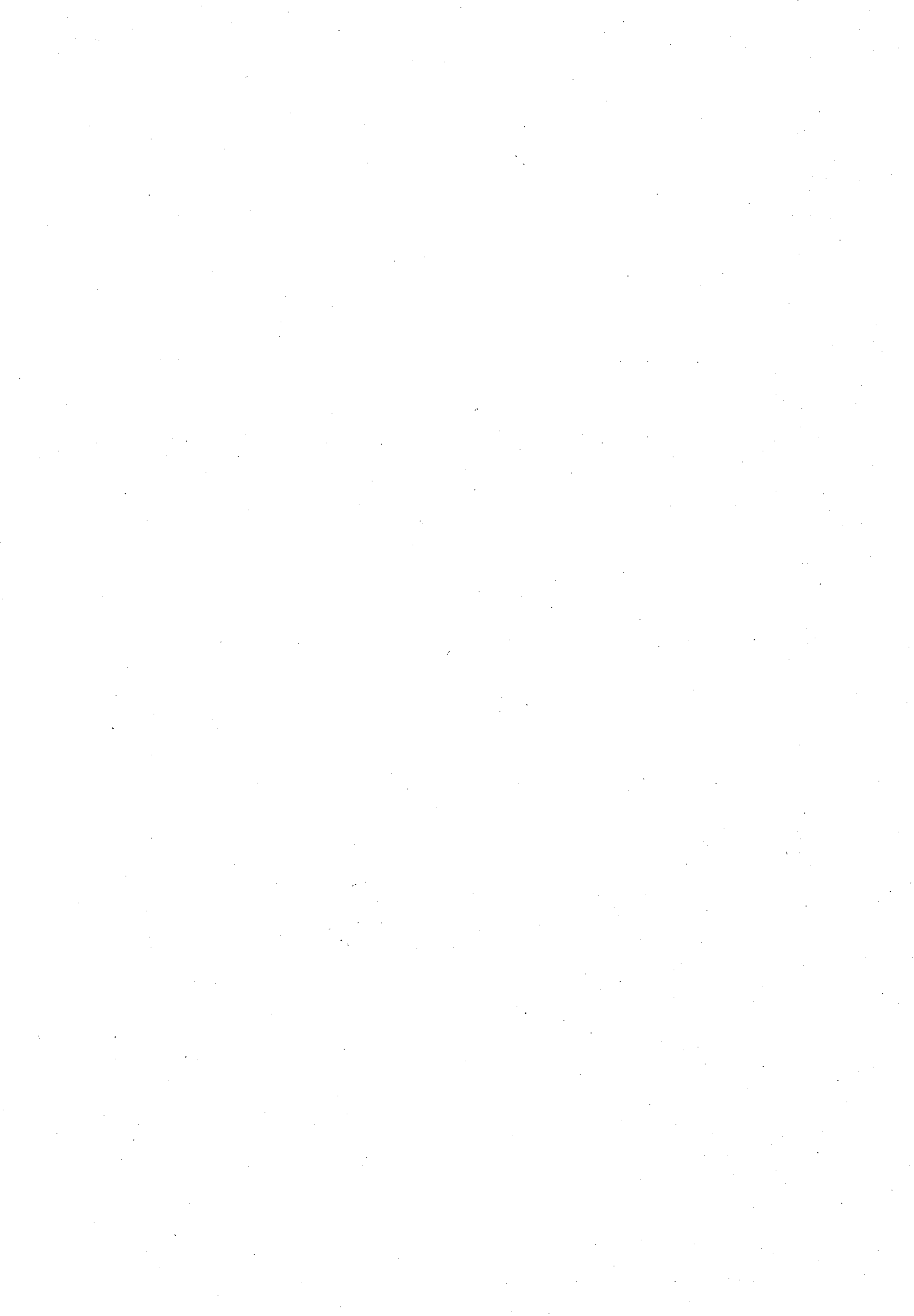
******

(١) انظر: والدى السلطان عبد الحميد، ص ١٧٨.



الفصل السادس

عصر السلطان عبد الحميد



المبحث الأول

السلطان عبد الحميد

(١٢٩٣ - ١٣٢٦ هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٠٩م)

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره. إذ ولد فى ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢م).

ماتت والدة السلطان عبد الحميد وهو فى العاشرة من عمره، فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً. فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أُمًّا، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره.

تلقى عبد الحميد تعليماً منتظماً فى القصر السلطانى على أيدى نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً. وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق فى علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية[١].

وتدرب على استخدام الأسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، ومحافظاً على الرياضة البدنية، وكان مهتماً بالسياسة العالمية ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة.

أولاً: زيارته إلى أوروبا مع عمه السلطان عبد العزيز:

قام السلطان عبد العزيز بزيارة أوروبا يرفقه وفد عثمانى رفيع المستوى وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الذى ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة فى العفة[٢]، وقد استعد الأمير عبد الحميد لهذه الرحلة بمطالعات واسعة، فإنه كان دقيقاً فى رؤيته، وفى حكمه على الأشياء التى رآها فى الغرب، ولقد التقى الوفد العثمانى بساسة ذلك العصر فى

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، محمد حرب، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

أوروبا مثل: نابليون الثالث فى فرنسا، والملكة فكتوريا فى إنجلترا، وليوبلدفى الثانى فى بلجيكا، وغليوم الأول فى ألمانيا، وفرنسوا جوزيف فى النمسا(١)، وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع السلطان عبد العزيز إلى مصر وانتبه أثناء وجوده فى مصر إلى الزيف الكاذب للبريق الأوروبى والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية، مما جعل مصر تستدين وتغرق فى الديون، نتيجة انطلاق الوالى الخديوى إسماعيل باشا فى إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعة من أوروبا، وأما رحلته إلى أوروبا فقد استغرقت من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م. زار الوفد العثمانى: فرنسا وإنجلترا وبلجيكا والدولة النمساوية المجرية.

وفى هذه الرحلة الأوروبية، تفتح ذهن عبد الحميد إلى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك. وهذه الأمور هى:

١ – الحياة الأوروبية بكل ما فيها من طرق معيشة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات.

٢ – التطور الصناعى والعسكرى وبخاصة فى القوات البرية الفرنسية والألمانية وفى القوات البحرية البريطانية.

٣ – ألاعيب السياسة العالمية.

٤ – تاثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون الثالث على عمه السلطان عبد العزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير على باشا. رغم أن السلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحداً أنه تحت تأثير أى قوة غريبة(٢).

اقتنع الأمير عبد الحميد فى هذه الرحلة: أن فرنسا دولة لهو، وإنجلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة. أما ألمانيا فهى دولة نظام وعسكرية وإدارة وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد بتدريب الجيش العثمانى إليها – عندما أصبح سلطاناً – ولقد تأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثر إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة فى دولته فى مختلف نواحى الحياة: تعليمية وصناعية ووسائل اتصالات وعسكرية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراؤه غواصتين وكان سلاح الغواصات جديداً. وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص، وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل إلى البلاد أول سيارة وأول دراجة، وأخذ بنظام القياس المترى. لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربى فى البلاد(٣).

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، محمد حرب، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥٧.

أثرت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا أيضًا فى اتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا. ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أى حاكم أوروبى عليه، مهما كانت صداقته ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذى كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثمانى مع بعض الزعماء الأوروبيين:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة: بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فرد الباشا قائلاً: (بالثمن الذى اشتريناها به). وكان يعنى بذلك: أن العثمانيين حاربوا فى سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عامًا كلها حروب.

وسُئل فؤاد باشا أيضًا: (ما هى أقوى دولة فى العالم الآن؟).

فرد قائلاً: (أقوى دولة الآن هى الدولة العثمانية. ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها)[١].

تعلم عبد الحميد من هذا درس القدرة على إسكات القوى التى تود تحطيم الدولة العثمانية. وتعلم ذكاء الحوار السياسى وهو ما برع فيه بعد ذلك.

وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ٢٥ عامًا[٢].

ثانيًا: بيعته للخلافة وإعلان الدستور:

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣ هـ - ٣١ أغسطس ١٨٧٦م. وكان عمره آنذاك أربعًا وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين فى سراى طوبقبو. وهنأه بالخلافة كذلك رؤساء الطوائف المختلفة، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة. وأقيمت الزينات بجميع جهات استانبول ثلاثة أيام وأرسل الصدر الأعظم برقيات إلى دول العالم لإعلامها بذلك[٣].

وكان السلطان عبد الحميد قد عين مدحت باشا صدراً أعظم، ثم أعلن فى ٢٣ ديسمبر (١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م) الدستور الذى يضمن الحريات المدنية وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨.

(٣) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ١٨٣.

هذا الدستور، كان البرلمان يتكون من مجلسين: مجلس النواب أو المبعوثين ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ[1].

وقد تعرض السلطان عبد الحميد فى بداية حكمه إلى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد، والتى كانت تضم النخبة المثقفة التى تأثرت بالغرب والتى استطاعت الأيدى الماسونية أن تجندهم لخدمة أهدافها، وقد بلغ من استبداد الوزراء بالحكم، أن كتب مدحت باشا، وهو فى مقام. الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد، إلى السلطان عبد الحميد فى أول عهده بالعرش (١٨٧٧م): (لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد إلى مدارج الارتقاء، وإنى أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة...)[2].

ويقول السلطان عبد الحميد فى هذا: (ولقد وجدت مدحت باشا ينصّب نفسه آمراً ووصيًا علىّ. وكان فى معاملته بعيداً عن المشروطية (الديمقراطية) وأقرب إلى الاستبداد)[3].

وكان مدحت باشا وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر، قال السلطان عبد الحميد فى مذكراته: (... ومن المعروف أن أحرار ذلك العهد من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسى فى قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا فى أمور الدولة، بل فى أمور السكر والعربدة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه ومشهور عنه هذا، والتقت نشوة الخمر بالنشوة التى بعثها إعلان القانون الأساسى، وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتى لا يقع على الأرض. وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه فى فمه (بتأثير الخمر):

– يا باشا! من يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلت إليه أن يبعدنى عن منصبى؟! من؟! قل لى كم عامًا سأبقى فى الصدارة العظمى؟

رد عليه طوسون باشا قائلاً:

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص ١٧٨.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٥٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦٠.

- إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع[1]!

(لقد كان مدحت باشا فى مجالس الخمر الخاص به يفشى أدق أسرار الدولة وكانت هذه الأسرار تنتشر فى اليوم التالى بين أهالى استانبول. وفى إحدى الليالى تحدث مدحت باشا عن عزمه على إعلان الجمهورية فى الدولة العثمانية وأنه سيصبح رئيسًا للجمهورية العثمانية الجديدة ثم إمبراطورًا لها. تمامًا مثلما حدث مع نابليون الثالث بفرنسا)[2].

وكان مدحت باشا متهمًا بقتل السلطان عبد العزيز، وشكل السلطان عبد الحميد لجنة للتحقيق فى ذلك ثم قدم المتهمين إلى المحكمة التى أدانتهم وحكم على مدحت باشا بالإعدام وتدخل السلطان عبد الحميد وخفض الحكم إلى السجن ثم نفى إلى الحجاز حيث مقر السجن العسكرى هناك.

كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون، كما أن التغييرات التى طرأت على نظام الحكم طبقًا له كانت من قبيل التطور، فلم يفكر أحد فى تقليص حق السلطان فى السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لا يمس، وأنه لا يسأل أمام أحد عن أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتهنًا بشخصه[3]. فله وحده حق تعيين وإقالة الوزراء، كما أنه هو الذى يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ومعاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ومن حقه كذلك إصدار جميع القوانين فى شتى المجالات دون الرجوع إلى البرلمان. وهكذا ظل السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٠٩م) يتمتع بالسلطة التى سبق لأسلافه أن تمتعوا بها، بحيث إن مدحت باشا ذاته كان أول الضحايا. كما أن الصلاحيات الواسعة التى منحها الدستور للسلطان حدت من سلطة رئيس الوزراء بحيث لم يتح له أن يلعب سوى دور ثانوى فى تسيير دفة الحكم[4].

ونص الدستور على حرية أعضاء البرلمان فى إبداء آرائهم وفى التصويت، وكان لا يمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة التى يجرى بها الحديث فى كل الجلسات، كما نص أن يكون

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص ٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.

(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٢٣٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٤.

التصويت سرياً أو علنياً بحسب الظروف، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال فيما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد فقد أعلن الدستور أن العثمنة هى السياسة الرسمية للدولة فى إطار مبدأ المساواة الذى نصت عليه التنظيمات، فقد خلع الدستور صفة العثمانية على كل رعايا الدولة أيًا كان دينهم، ونص على تمتعهم بالحرية الشخصية، وعلى تساوى كل العثمانيين أمام القانون وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس الواجبات. ونص الدستور كذلك على استقلال القضاء وأبقى على المحاكم الشرعية على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل فى المسائل المتعلقة بشئونهم الدينية(١).

وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجرى انتخابات عامة، كانت الأولى من نوعها فى التاريخ العثمانى، وقد أسفرت تلك الانتخابات عن تمثيل المسلمين بـ (٧١) مقعداً والنصارى بـ (٤٤) مقعداً واليهود بـ (٤) مقاعد، واجتمع أول برلمان عثمانى فى ٢٩ مارس عام ١٨٧٧م (١٢٩٤ هـ) وكان مجلس الأعيان والشيوخ يتكون من ٢٦ عضواً بالتعيين من بينهم ٢١ مسلماً، فى حين كان مجلس النواب يتكون من مائة وعشرين عضواً. وقد قام بعض نواب العرب بدور مهم خلال المناقشات، غير أن مجلس المبعوثين كانت مدته قصيرة؛ فقبل أن يتم المجلس دورة انعقاده الثانية، طلب النواب فى ١٣ فبراير عام ١٨٧٨م (١٢٩٦ هـ) أن يمثل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم، فما كان من السلطان عبد الحميد إلا أن عطل المجلس وأمر بعودة النواب إلى بلادهم، وقام بنفى وإبعاد البارزين منهم(٢).

وبذلك بلغت مدة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثانية عشرة شهور وخمسة وعشرين يوماً، ولم يدع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عاماً، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة(٣).

لقد كان السلطان عبد الحميد مضطراً فى إعلان الدستور بسبب الضغوط التى مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بتعطيل المجلس.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.

(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصرى، ص ٩٩ - ١٠٠.

إن عبد الحميد الثانى كان ضد الديمقراطية والحكم بالدستور الذى يعرف فى المصطلح العثمانى باسم «المشروطية» أى الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار أن هذا فكر وافد من الغرب ولذلك كان ضد المنادين به ورائدهم مدحت باشا وانتقد وزيره هذا بقوله: (لم ير غير فوائد الحكم المشروطى فى أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لا تصلح لكل مرض ولكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بيئة قومية. كنت أظن أنها مفيدة أما الآن: فإنى مقتنع بضررها»[1].

كان للسلطان حججه فى هذا، منها سوء تصرف المنادين بالدستور فى أول استجابة للسلطان لأفكارهم. من ذلك:

أن طلبت الحكومة من السلطان فى وقت إعلان السلطان للدستور، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاة نصارى فى ولايات، أغلب السكان من المسلمين، وعلى قرار بقبول طلبة من النصارى فى الكلية الحربية العثمانية التى هى عماد الجيش العثمانى، فرفض السلطان التوقيع فما كان من مدحت باشا – وهو الوزير – إلا أن قال للسلطان: (إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهى استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم)[2].

ومن الأسباب التى يسوقها السلطان عبد الحميد فى رفضه للفكر الدستورى قوله: (إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوبًا شتى، والمشروطية فى دولة كهذه موت العنصر الأصلى فى البلاد، وهل فى البرلمان الإنجليزى نائب هندى واحد؟ وهل فى البرلمان الفرنسى نائب جزائرى واحد؟)[3].

ولم يغير السلطان عبد الحميد موقفه تجاه الحكم الدستورى، فى دولته حتى بعد أن عزل عن العرش، وأخذ الناس يمارسون الحكم الدستورى، فيقول: (ماذا حدث عندما أعلنت المشروطية؟ هل قلت الديون؟ هل كثرت الطرق والموانئ والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقًا؟! وهل ساد الأمن الشخصى؟ هل الأهالى الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزاد المواليد؟ هل أصبح الرأى العام العالمى الآن بجانبنا أكثر من ذى قبل؟

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص ٨٠.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٩٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٥.

الدواء النافع يصبح سمًا زعافًا إذا كان فى يد غير الأطباء. أو فى أيدى من لا يعرفون أصول استعماله، وإنى لجد آسف فالأحداث قد أظهرت صدق كلامى)[1].

ويبين السلطان عبد الحميد بأن موقفه ليس دائمًا تجاه الحكم الدستورى، فالظروف التى كان يحكم فيها، إذا اختلفت، فستختلف وجهة نظره فى الحكم الدستورى.

وفى هذا يقول: (ينبغى ألا يظن أن فكرى واقتناعى دائمًا ضد الحكم الذى يعتمد على أصول المشروطية)[2].

إن السلطان عبد الحميد مر عصره بظروف عصيبة، وأزمات شديدة، وتآمر عالمى على الدولة العثمانية من الداخل والخارج فشرع فى إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية لمنع التدخل الأوروبى فى شئون الدولة، وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية وقام بإبعاد الكتّاب والصحفيين عن العاصمة وقاوم كل الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية المجيدة فى ولايات الدولة، واستطاع أن يشكل جهازا استخباراتيًا قويًا لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه فى الخارج واهتم بفكرة الجامعة الإسلامية وحقق بها نتائج عظيمة، واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجى العميق وعملوا على تفتيتها.

لقد تكلم السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته وبين الغرض منه فقال: (حسب العرف العثمانى، يتعرف السلطان على تفكير الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب، وعن طريق التكايا المنتشرة فى ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها.

جدّى السلطان محمود الثانى وسع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحل إليها. كان ذلك عندما ارتقيت العرش، وعلى ذلك استمر.

علمت ذات يوم من موسوروس باشا، سفيرنا فى لندن، أن الصدر الأعظم السابق، السَرْ عسكر حسين عونى باشا، تسلم نقودًا من الإنجليز. إذا كان الصدر الأعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته، فإن مخابراته لابد أن تبلغ القصر على أنه يؤدى عمله على الوجه الأكمل، لذلك تكدرت وتأثرت فى أثناء تلك الأيام، قابلنى محمود باشا، وأدلى إلىَّ ببعض معلومات عن بعض أعضاء «تركيا الفتاة»، وكانت الأخبار التى قدمها لى

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٩٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٦.

مهمة. سألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت أنه أنشأ مخابرات خاصة، واحتوى - بالنقود - أقارب لبعض الأشخاص من « تركيا الفتاة »، وهؤلاء كانوا يقابلون أقاربهم ويسمعون منهم ثم يخبرونه، فيدفع لهم.

صحيح أنه زوج أختي، إلا أنه لا يصح أن يقيم أحد باشوات الدولة مخابرات مستقلة عن مخابرات الدولة. قلت له أن يحل جهازه هذا فوراً، وألا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرة أخرى، أحال إليّ جهازه هذا، وهو متضايق كثيراً.

لا يمكن للدولة أن تكون آمنة، إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزير أعظم.

بناءً على هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة، وهذا هو الجهاز الذي يسميه أعدائي بالجورنالجية (الشرطة السرية = المخابرات).

وكان ضرورياً أن أعرف أن بين أعضاء جهاز الجورنالجية (المخابرات) المخلصين الحقيقيين أشخاصاً مفترين، لكني لم أصدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقق دقيق.

كان جدّي السلطان سليم (سليم الثالث) يصيح قائلاً: (إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء إلى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوروبي وعلينا إرسال الرسل إلى الخارج، ولنعمل سريعًا على تعلّم ما وصلوا إليه.

كنت أحس أنا أيضًا بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله. إنهم يشترون صدروي العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي. كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقت عليهم من خزانة الدولة ولا أستطيع معرفة ما يعملونه وما يديرون ويعدون؟

نعم، أنا أسست جهاز الجورنالجية (المخابرات). وأنا أدرته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدروي العظام يرتشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم والتآمر على سلطانهم. أسست هذا الجهاز لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي يعرف ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي، في الوقت الذي كانوا يتسلمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حُلُوقهم[1]!!

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٦٠.

لقد وجهت للسلطان عبد الحميد انتقادات عنيفة من قبل جمعية الاتحاد والترقى بسبب جهاز الاستخبارات الذى شكلته، وفى الحقيقة إن ذلك الجهاز استطاع أن يحقق ايجابيات كبيرة للدولة العثمانية فعندما (... كان مثيرو الشغب والإرهابيون يثيرون الأرمن للتمرد ضد الدولة العثمانية كان الجنود يتصدون لهم وتُراق دماء كثيرة... كان جهاز السلطان عبد الحميد - خلال ثلاثين سنة - يخبر السلطان فور ظهور كل حركة، ولذلك تمكن السلطان من إخماد كل تمرد داخلى فى حينه[١].

ثالثاً: تمردات وثورات فى البلقان:

قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج على الدولة العثمانية وكان ذلك فى عام (١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م) واستطاع العثمانيون إخمادها، ورغب السلطان عبد الحميد فى منع الدول الأوربية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالى، والمساواة فى الضرائب بين المسلمين والنصارى... ولم يرض ذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التى قمعت أيضًا، ولكن النمسا التى كانت وراء الثورة وترغب فى ضم البوسنة والهرسك إليها استمرت فى تحريض السكان ضد الدولة العثمانية، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا بذلك. وهذا يدل على المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل فى شئون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها[٢].

كما قامت ثورة البلغار فى نفس الوقت الذى قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية وخاصة روسيا، فقد تأسست جمعيات فى بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسى بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين، وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والأموال؛ فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على الثورة، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التى ارتكبها العثمانيون ضد النصارى والعكس هو الصحيح. وبهذه الشائعات

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٩.

أثير الرأى العام الأوروبى ضد الدولة العثمانية، وطالبت الحكومات الأوروبية باتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها حصول البلغار على استقلال ذاتى وتعيين حاكم نصرانى لهم(١).

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب فى توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم. وشرع الجنود الروس بالتدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة(٢).

واجتمع مندوبو الدول الأوروبية فى استانبول وقدموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإمارتى البوسنة والهرسك أيضًا، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضى للصرب والجبل الأسود.

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحًا منفرداً مع الصرب سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، وأن يرفع العلم العثمانى والصربى دليلاً على السيادة العثمانية(٣).

لقد كان السلطان عبد الحميد الثانى على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعى لسقوط الدولة العثمانية حيث قال فى مذكراته: (رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذى عقد فى استانبول ما عزمت عليه هذه الدول، وهى ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتى لهؤلاء الرعايا. ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية.

كانوا يعملون على تقسيم هذا الهدف على صورتين:

الأولى: إثارة الأهالى المسيحيين، وتعكير صفاء الجو، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٠.

والثانية : القول بالمشروطية، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم فى كلتا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيئًا من السمن. فلم يستطع بعض الشباب العثمانى المثقف أن يفرق بين التطبيق السهل والحكم الدستورى فى بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذر هذا الحكم فى الدول التى لا تتمتع بوحدة قومية(١).

رابعًا: الحرب الروسية العثمانية:

كانت روسيا ترغب فى الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية وقد نص (بطرس الأكبر) (١٦٢٧ - ١٧٢٥م) فى وصيته للروس (فى الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) على ضرورة الصراع الحضارى ضد العثمانيين، إلى أن تنتهى الدولة العثمانية من الوجود.

يقول (بطرس الأكبر) فى الفقرة التاسعة من وصيته:

(نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان، فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم. بناء على ذلك ينبغى ملازمة الحرب مع العثمانيين).

وفى الفقرة الحادية عشرة يقول: (نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوروبا).

وفى الفقرة الثالثة عشرة يقول: (وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق والبحر الأسود ونشرع فى التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا فى قسمة العالم بيننا)(٢).

إن روسيا اهتمت بتلك الوصية وفى عصر السلطان عبد الحميد الثانى كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوربية فى البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية، ولم تكتف بذلك بل عملت على قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا والصرب واليونان. وبعد أن حقق العثمانيون انتصارات رائعة فى البلقان استعدت روسيا، للحرب ثم أعلنتها حربا لا هوادة فيها ضد الدولة العثمانية وانضمت رومانيا إلى روسيا، ودخل العثمانيون فى حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٤٥.

(٢) انظر: التحفة الحليمية، إبراهيم حلمى بك، ص ٢٤١.

بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها «تيرنوه» و«نيقولبلى بل» التى تقع فى بلغاريا حاليًا، كما استولى الروس على بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية إلى البلقان، وقام السلطان عبد الحميد بتغيير كبير فى قيادات الجيوش العثمانية للتصدى للغزو الروسى، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) التى تقع فى بلغاريا حاليًا وهى من أهم المعابر إلى البلقان، ولكن القائد العثمانى الشجاع الغازى (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح ذلك القائد العثمانى الفذ فى التصدى للروس مرة أخرى، مما جعل السلطان العثمانى يصدر مرسومًا خاصًا فى الثناء على ذلك القائد[١].

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم فى الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وفى الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسى بنفسه على المعركة القادمة، وانضم أمير رومانيا إلى روسيا وكان معه ١٠٠ ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكرية فى صالح الروس، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ففرضوا حصارًا على ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، مع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم أن عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التى انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون، فسقطت أعداد منهم شهداء على أيدى قوات الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين، والخط الثانى، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده ففت ذلك فى عضدهم، وحاولوا الرجوع إلى المدينة، ولكن بعض قوات الروس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون فى العراء بين نيران العدو المختلفة، فاضطروا إلى الاستسلام للقوات الروسية. وكان ذلك فى عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد سلم القائد العثمانى نفسه وهو جريح إلى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه[٢]، حتى إن

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٤١٨.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤١٩.

القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احترامًا لقدرته القتالية وصبره. وأرسل عثمان باشا إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام ولم يعامل «عثمان باشا» معاملة الأسير(١).

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة. وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حاليًا) ولم يكتف الروس بهذا، بل توجهوا جنوبًا ناحية العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا إلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلو مترًا عن استانبول، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئًا إلى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجرى العديد من المعارك بين العثمانين والروس في الجانب الآسيوى حيث وصل الروس إلى الأناضول، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة أحمد مختار باشا على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسومًا في الثناء عليه، وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها(٢).

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوروبا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستفانو عام ١٨٧٨م.

عقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م. ووقعها «صفوت باشا» عن الدولة العثمانية وهو يبكى. وكان لابد بالضرورة أن تحتوى هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية(٣).

•• معاهدة سان ستفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ):

قدم المندوب الروسى شروطًا مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل استانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة:

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٤١.

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص٤١٨.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص١٤٤.

١- تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.

٢- تستقل إمارة الصرب وتصاف إليها أراض جديدة.

٣- تستقل بلغاريا استقلالاً ذاتيًا إداريًا، وتدفع مبلغًا محدداً إلى الدولة العثمانية ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس. وينتخب الأمير من قبل السكان ويخلى العثمانيون جنودهم نهائيًا من بلغاريا.

٤- تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

٥- يتعهد الباب العالى بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس.

٦- يقوم الباب العالى بإصلاح أوضاع النصارى فى جزيرة كريت.

٧- تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدرها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراضى مقابل هذا المبلغ.

٨- تبقى المضائق (البسفور والدردنيل) مفتوحة للسفن الروسية فى السلم والحرب.

٩- يمكن للمسلمين فى بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية[١].

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدولة فى أوروبا، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدول البلقانية الأخرى: النمسا، اليونان، والصرب، كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسى فى البلقان واستعدت لمحاربة روسيا، وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨م) وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية، وذلك فى مقابل تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة فى آسيا فى وجه أى مزيد من التهديدات الروسية، بشرط أن يتعهد السلطان من جانبه بإدخال الإصلاحات اللازمة فى أملاكه الآسيوية بالتشاور مع بريطانيا، وقد تعاهدت بريطانيا بالجلاء عن قبرص فى حالة جلاء الروس عن المناطق التى احتلوها فى آسيا[٢].

لم يكن السلطان عبد الحميد راضيًا فى الأصل بدخول هذه الحرب لذلك لم يصدق على

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٣.

المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا فى الوقوف بجانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانو من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكى تصرف روسيا النظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدولة، وقللت البنود الخسائر فى المعاهدة الأولى.

ودلت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبد الحميد السياسية، التى تمثلت فى إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا أيضًا[1].

يقول الإمبراطور الألمانى «غليوم الثانى» فى مذكراته:

(جرى لى حديث مع أحد كبار القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاد القيصرى فى عهد «الكسندر الثانى» قيصر روسيا، عن العلاقات بين البلاطين الروسى والألمانى وبين الجيشين والبلدين فقلت لهذا القائد: إنى أرى انقلابًا محسوسًا فى هذه العلاقات. فقال لى: (الذنب فى ذلك على مؤتمر برلين! تلك غلطة كبرى ارتكبها «بسمارك» فقد قضى على الصداقة القديمة التى كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط الروسى ومن الحكومة الروسية. وجعل الجيش يشعر بأنه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التى خاض غمارها عام ١٨٧٧)[2].

•• مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م):

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (إنجلترا، فرنسا، ألمانيا والنمسا)، وجرى البحث فى هذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستفانو التى عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لا تتفق مع مصالحها الاستراتيجية.. واتفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان استفانو وعقدت معاهدة برلين والتى تناولت الشروط التالية:

١- استقلال بلغاريا وتعديل فى حدودها، وتتشكل فى جنوب البلقان ولاية باسم الرومللى الشرقى تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسيًا وعسكريًا، ويحكمها نصرانى، يعين لمدة خمس سنوات باتفاق الدولة، وتبقى قوة لروسيا فى بلغاريا والرومللى الشرقى وتحدد بخمسين ألف جندى.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٤٥.

(٢) انظر: مذكرات غليوم الثانى، ص ١٨-١٩.

٢- تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم بأن اليونان لم تدخل فى موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان استفانو أى جزء منها.

٣- ضم البوسنة والهرسك للنمسا.

٤- ضم بسارابيا إلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا، وتضم مقاطعة دوبرجيه وبعض الجزر إلى رومانيا ومنحها الاستقلال التام.

٥- استقلال الصرب والجبل الأسود.

٦- ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا.

٧- قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التى قررتها معاهدة سان ستفانو على الدولة العثمانية ومقدارها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبية.

٨- تعهد الباب العالى بأن يقبل بلا تمييز فى الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم.

٩- الموافقة على تحسين أوضاع النصارى فى جزيرة كريت[١].

وكان المستشار الألمانى بسمارك هو الذى دعا إلى عقد المؤتمر خشية أن يؤدى تصدى بريطانيا لروسيا إلى نشوب حرب أوروبية عامة وتهديد الاتحاد الألمانى الذى جاهد كثيراً من أجل قيامه، فإنه دعا الدول العظمى إلى المؤتمر فى برلين لمراجعة صلح سان ستفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية[٢].

وقد ذكر بعض المؤرخين[٣] أن فى كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبى، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا البوغازين (البسفور والدردنيل) وغير ذلك من أملاك السلطان. غير أن هذه العروض لم تدرج فى مقررات المؤتمر[٤].

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التى أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها. كما أنه يسجل تعهد بريطانيا وفرنسا

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٩٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٥.
(٣) الدكتور إسماعيل ياغى، وأحمد مصطفى عبد الرحيم.
(٤) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ١٩٥.

بالمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية. غير أن بريطانيا فرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعمارية، فقد احتلت فرنسا تونس عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص واحتلت بريطانيا مصر عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) معلنة أن احتلالها مؤقت(١).

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلامية لكى يعمل على تكتل جميع المسلمين من حوله فى الداخل والخارج.

ولا شك أن حركة الجامعة الإسلامية قد لاقت استحسانًا وقبولاً لدى المسلمين الذين اعتقدوا أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الدينى عند المسلمين، الأمر الذى دفع فيه أعداء الإسلام للزحف على دار الإسلام ونهبها بلداً تلو الآخر(٢).

*****

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغى، ص ١٩٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٩٦.

المبحث الثانى

الجامعة الإسلامية

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية، فى معترك السياسة الدولية إلا فى عهد السلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م. فبعد أن التقط السلطان عبد الحميد أنفاسه وجرد المتأثرين بالفكر الأوروبى من سلطاتهم، وتولى هو قيادة البلاد قيادة حازمة، اهتم السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية وقد تكلم فى مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمى العالم فى الصين والهند وأواسط أفريقيا وغيرها، وحتى إيران وفى هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه وإذا أردنا أن نفوّت الفرصة على الإنجليز وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقارب إسلامى فى هذا الأمر)(١)، وتحدث عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا التى تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانية يقول عبد الحميد الثانى: (الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولا يمكن الجمع بينهما فى حضارة واحدة) لذلك يرى أن (الإنجليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن البعض أصبح يقدم القومية على الدين. ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومى فى البلاد الإسلامية إلى هز عرشى... وأن الفكر القومى قد تقدم تقدمًا ملموسًا فى مصر. والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة فى يد الإنجليز، إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الإسلامية ويهزون معها اعتبار الخلافة)(٢).

ويقول عن السياسة الإنجليزية تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الإنكليزية ما نصه: (يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الإنكليزية، ويجب على إنكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة)... إن إنجلترا تعمل لهدفين: إضعاف تأثير الإسلام وتقوية نفوذها.. لذلك أراد الإنجليز أن يكون الخديو فى مصر خليفة للمسلمين ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديو أميرًا للمؤمنين لأنه بدأ دراسته فى جنيف

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣.

وأكملها فى فيينا وتطبع بطابع الكفار)[١].

وعندما ظهر اقتراح إنكلترا (لإعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة المسلمين)[٢] ويعترف السلطان عبد الحميد الثانى بأنه لم يكن لديه الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية.. ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية)[٣]، و (أن الدولة العثمانية تضم أجناسًا متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونانيين وزنوج وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة[٤].

ويُعبر عبد الحميد الثانى عن ثقته فى وحدة العالم الإسلامى بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين فى كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل فى المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتى. سيأتى اليوم الذى يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار)[٥].

كانت فكرة الجامعة الإسلامية فى نظر السلطان عبد الحميد يمكن بها أن يحقق أهدافًا منها:

- مواجهة أعداء الإسلام المثقفين بالثقافة الغربية، والذين توغلوا فى المراكز الإدارية والسياسية الحساسة، فى أجهزة الدول الإسلامية عمومًا، وفى أجهزة الدولة العثمانية خصوصًا، عند حدهم، عندما يجدون أن هناك سدًا إسلاميًا ضخمًا وقويًا يقف أمامهم.
- محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدها عندما تجد أن المسلمين قد تكتلوا فى صف واحد، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعمارية ووقفوا ضدها بالوحدة الإسلامية.
- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية، يحسب لها حسابها فى مواجهة الغزو الثقافى والفكرى والعقدى الروسى – الأوروبى النصرانى.

(١ – ٣) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٢٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤.

- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها فى التأثير على السياسة العالمية[١].

- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها وبذلك يمكن إعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة، فى الميادين كافة وبذلك تستعيد هيبتها وتكون درسًا تاريخيًا. يقول: (إن العمل على تقوية الكيان السياسى والاجتماعى الإسلامى، أفضل من إلقائه أرضًا، وتكوين كيان غريب فكريًا واجتماعيًا على نفس الأرض)[٢].

- إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صوريًا كما حدث لفترة، وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذى يقف فى مواجهة أطماع الغرب وعملائه فى الداخل، وإنما هى وحدة شعورية بين شعوب المسلمين جميعًا. يكون هو الرمز والموجّه والموحّد.

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطانى (آرنولد توينبى) فى قوله: (إن السلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميع مسلمى العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعنى إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربى الى استهدفت عالم المسلمين)[٣].

ولذلك استخدم السلطان عبد الحميد، كل الإمكانيات المتاحة فى ذلك الوقت، من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامى، من العلماء والمبرزين، فى مجالات السياسة، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامى المختلفة، للالتقاء بالشعوب الإسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الإسلامية، ومراكز الدراسات الإسلامية، فى الداخل والخارج، وطبع الكتب الإسلامية الأساسية، ومحاولة اتخاذ اللغة العربية لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية، لغة للدولة أو ما يسمى بالتعبير المعاصر « تعريب » الدولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد فى العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، وإنشاء مدرسة فى عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل، وتدريبهم على الإدارة، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الإسلامية فى الدعاية للجامعة الإسلامية، واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٦٨.

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٩.

والتقنية فى الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضرورى(١).

ولقد ألتفت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الإسلامية إلى دعوة الجامعة الإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغانى، ومصطفى كامل من مصر، وأبى الهدى الصيادى من سوريا، وعبد الرشيد إبراهيم من سيبريا، والحركة السنوسية فى ليبيا وغيرها.

أولاً: جمال الدين الأفغانى والسلطان عبد الحميد:

أيد جمال الدين الأفغانى، دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية، وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان. ولم يكن السلطان يأمل فى أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية، ووحدة حركة بينها. وهى وحدة شعورية عملية، فى نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة، لكن الأفغانى عرض على السلطان مشروعًا، يرمى إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة وكانت نظرة السلطان عبد الحميد لا ترمى فى هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمى(٢).

واستفاد السلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغانى، فى الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغانى، ومن أسباب الاختلاف:

١ – إيمان الأفغانى بقضية وحدة المسلمين، وتأييده فى نفس الوقت للثوار ضد السلطان عبد الحميد، من القوميين الأتراك والعثمانيين عامة.

٢ – دعوة الأفغانى لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلب واحد، فى مواجهة الدول الأوروبية الرامية إلى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على انهيارها، وفى نفس الوقت، لم يتعرض الأفغانى للاستعمار الفرنسى، ولو بكلمة تنديد. فى وقت احتاج فيه السلطان عبد الحميد إلى مقاومة الفرنسيين فى شمال أفريقيا(٣).

٣ – تنديد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزى فى حين يذكر السلطان عبد الحميد أن المخابرات العثمانية، حصلت على خطة أعدت فى وزارة الخارجية الإنكليزية، واشترك فيها جمال الدين الأفغانى وبلنت الإنكليزى وتقضى هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٢.

السلطان عبد الحميد وعن العثمانيين عمومًا. وبلنت هذا سياسى إنكليزى يعمل فى وزارة الخارجية الإنكليزية، ومؤلف كتاب «مستقبل الإسلام» ودعا فيه صراحة إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيين، وتقليدها للعرب. وقد رد مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية فى مصر على «بلنت» فى كتاب مصطفى كامل باشا المشهور (المسألة الشرقية) قائلاً: (وبالجملة فإن حضرة مؤلف كتاب مستقبل الإسلام يرى - وما هو إلا مترجم عن آمال بنى جنسه - أن الأليق بالإسلام أن ينصب إنكلترا دولة له بل إن الخليفة يجب أن يكون إنكليزيًا)(١).

٤ - رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية، ضد الدولة العثمانية واقتطاع الروس لأجزاء من الأراضى العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغانى من مبدأ التوسع الروسى غريبًا على مفهوم الجامعة الإسلامية، لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيوية واستراتيجية فى الهند، تدفعهم لاحتلالها. وأنه ليس لدى الأفغانى اعتراض على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس بأتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تسهمهما فى الغنيمة وتشركهما فى المنفعة.

٥ - الخلاف العقدى الذى ظهر بين العلماء فى استانبول وبين جمال الدين الأفغانى وظهور كتاب الشيخ (خليل فوزى الفيليباوى) المعنون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغانى وسكوت الأفغانى عن هذا، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللغة العربية، ومترجم وقتها إلى اللغة التركية.

مالَ السلطان عبد الحميد، إلى تركيز كل السلطات فى يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدروه العظام المتأثرين بالفكر الغربى، والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطية أوروبية، تضم مجلسًا منتخبًا يمثل كل شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السلطان عبد الحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالى نصف العدد الكلى للبرلمان. فى حين أن جمال الدين الأفغانى يميل إلى الديمقراطية، وعدم تركيز السلطات فى يد شخص واحد بعينه، ويميل الأفغانى إلى الحرية فى التعبير عن الرأى(٢).

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٤.

ولقد ذكر السلطان عبد الحميد فى مذكراته بأن جمال الدين الأفغانى مهرج وله علاقة بالمخابرات الإنكليزية: (وقعت فى يدى خطة أعدها فى وزارة الخارجية الإنكليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغانى وإنكليزى يُدعى بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك. واقترحا على الإنكليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين.

كنت أعرف جمال الدين الأفغانى عن قرب. كان فى مصر، وكان رجلاً خطيراً. اقترح علىّ ذات مرة - وهو يدّعى المهدية - أن يشير جميع مسلمى آسيا الوسطى. وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا. وكان رجل الإنكليز، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختبارى فرفضت فوراً فاتحد مع بلنت.

استدعيته إلى استانبول عن طريق أبى الهدى الصيادى الحلبى، الذى كان يلقى الاحترام فى كل البلاد العربية.

قام بالتوسط فى هذا كل من منيف باشا، حامى الأفغان القديم، والأديب الشاعر عبد الحق حامد. جاء جمال الدين الأفغانى إلى استانبول، ولم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها...)[1].

أما رأى جمال الدين الأفغانى فى السلطان عبد الحميد فإنه يقول: (إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً فى تسخير جليسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته سواء فى ذلك الملك والأمير والوزير والسفير...)[2].

وقال: (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجاً وسلماً، وأعظم ما أدهشنى، ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل، كى لا تتفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها)[3].

ويقول: (أما ما رأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذى فيه نهضة المسلمين عموماً،

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٤٨.

(٢) انظر: جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، ص ١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٧.

فقد دفعني إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك، عالمًا علم اليقين، أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شراك أوروبا، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها، وفى الأخير ازدراؤها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومى وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم...)[1].

إن جمال الدين الأفغانى أمره محير فهناك من يدافع عنه وهناك من يتهمه بالعمالة والانضمام إلى المحافل الماسونية، فمثلاً، كتاب دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الإسلام للمؤلف مصطفى فوزى عبد اللطيف غزال يرى أنه كان من عوامل الهدم فى الأمة فى تاريخها الحديث، أما كتاب جمال الدين الأغانى المصلح المفترى عليه للدكتور محسن عبد الحميد فيراه من المصلحين.

ثانيًا: الطرق الصوفية:

استهدف السلطان عبد الحميد الطرق الصوفية فى كسب ولائها للدولة العثمانية، والدعوة إلى فكرة الجامعة الإسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة - استانبول - وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية فى كل أنحاء العالم الإسلامى واتخذ من حركة التصوف فى العالم الإسلامى وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، كما اتخذ من الزهاد من غير المتصوفة وسيلة أيضًا للدعوة لفكر التجمع الإسلامى، وتكونت فى عاصمة الخلافة لجنة مركزية، مكونة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان فى شئون الجامعة الإسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة فى الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادى) شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسى) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ - رحمه الله - أحد علماء الحرم المكى، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية فى جميع الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة، ومن أهمها التى كانت فى مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية فى موسم الحج بين الحجاج، وأخرى فى بغداد، وتقوم بنفس المهمة بين أتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الأفريقى لزيارة الشيخ عبد القادر الكيلانى مؤسس الطريقة، وقد قدرت أعداد هؤلاء فى إحدى السنوات بحوالى (٢٥,٠٠٠) نسمة. وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا

---

(١) انظر: جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه، ص ١٣٧.

ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الأفريقى من بغداد، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسى بأنها: (استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية)[1].

وللجنة المركزية للجامعة الإسلامية فى استانبول، فرع أفريقى يعمل فى شمال أفريقيا، وهو يعمل فى سرية تامة، مهمته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسى، وهذه الجماعات هى: (الشاذلية والقادرية والمدنية)[2].

وبلغ من نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية فى شمال أفريقيا بقولها: (ويمكن للسلطان عبد الحميد – بصفته رئيساً للجامعة الإسلامية – أن يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية فى شمال أفريقيا جيشاً محلياً منظماً، يتمكن – إذا لزم الأمر – أن يقاوم به أى قوة أجنبية)[3].

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الإسلامية فى شمال أفريقيا وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبد الحميد فى نفوس مسلمى شمال أفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

١ – إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها فى شمال أفريقيا.

٢ – منع الحجيج من الحج، حتى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلامية بالسبل المناسبة. بمعنى: عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[4]، وأرسل السلطان عبد الحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها إلى العرب. واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لا سيما الحجاز[5].

وهناك اتصالات بين السلطان عبد الحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلامية، وخليفة

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٩٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٧.

(٤، ٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٨.

المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية، وبين تجمعات الطرق الصوفية وشيوخها فى تركستان، وفى جنوب أفريقيا، وفى الصين. بعضها كشف عنها النقاب، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كافٍ بعد[١].

لقد نجح السلطان عبد الحميد الثانى فى جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضل السكوت عن كثير من انحرافاتها العقدية بحيث إن الطرق الصوفية فى تلك المرحلة انحرفت عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا ما رحم الله، ولذلك أضعفت الأمة وساهمت فى سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية السنية، سنبين ذلك بإذن الله تعالى فى أسباب السقوط.

ثالثًا: تعريب الدولة:

كان السلطان عبد الحميد يرى – منذ أن تولى الحكم – ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفى هذا يقول: (اللغة العربية لغة جميلة. ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على (خير الدين باشا – التونسى – عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحى هذا. وقال: (إذا عرّبنا الدولة فلن يبقى – للعنصر التركى – شيء بعد ذلك).

كان (سعيد باشا) رجلاً فارغًا، وكلامه فارغًا. ما دخل هذه المسألة بالعنصر التركى؟! المسألة غير هذا تمامًا. هذه مسألة، وتلك مسألة أخرى اتخاذنا للغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه – على الأقل – أن يزيد ارتباطنا بالعرب)[٢].

إن السلطان عبد الحميد الثانى كان يشكو وخصوصًا فى بداية حكمه من أن الوزراء وأمناء القصر السلطانى، كانوا يختلفون عنه فى التفكير، وأنهم متأثرون بالغرب وبالأفكار القومية والغربية وكانوا يشكلون ضغطًا على القصر، سواء فى عهد والده السلطان عبد المجيد، وفى عهد عمه السلطان عبد العزيز، أو فى عهده هو. لم يقتصر الأمر فى معارضة اقتراح السلطان عبد الحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط: بل تعداه إلى معارضة من بعض علماء الدين[٣].

إن من الأخطاء التى وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٩٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٠.

يقول الأستاذ محمد قطب: (ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت اللغة العربية التى نزل بها هذا الدين فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلاً عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما فى حاجة إليه، على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية وما ألف أصلاً بالتركية حول هذا الدين)[١].

رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة وسفور المرأة:

عندما تولى السلطان عبد الحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثراً بالفكر الغربى، وأن التيار القومى هو التيار السائد فى هذه المدارس، فتدخل فى شئونها ووجّهها - من خلال نظرته السياسية - إلى الدراسات الإسلامية. فأمر بالآتى:

- استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونها وسيلة من وسائل الأدب الغربى، والتاريخ القومى للشعوب الأخرى مما يؤثر على أجيال المسلمين سلباً.
- وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق فى برامج الدراسة.
- الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الإسلامى بما فيه العثمانى.

وجعل السلطان عبد الحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية[٢].

واهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهنّ بالرجال، وفى هذا يذكر السلطان فى معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقى له بأنه عدو العقل والعلم بأنه: (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتى لا يختلطن بالرجال، داراً للمعلمات؟!)[٣].

وقام بمحاربة سفور المرأة فى الدولة العثمانية، وهاجم تسرب أخلاق الغرب، إلى بعض النساء العثمانيات، ففى صحف استانبول فى ٣ أكتوبر ١٨٨٣م، ظهر بيان حكومى موجه إلى الشعب يعكس وجهة نظر السلطان شخصياً فى رداء المرأة.

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٣.
(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٠١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٩.

يقول هذا البيان: (إن بعض النساء العثمانيات اللائى يخرجن إلى الشوارع فى الأوقات الأخيرة، يرتدين ملابس مخالفة للشرع. وإن السلطان قد أبلغ الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة. كما أبلغ السلطان الحكومة أيضًا بضرورة عودة النساء إلى ارتداء الحجاب الشرعى الكامل بالنقاب إذا خرجن إلى الشوارع). وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ القرارات التالية:

- (تعطى مهلة شهر واحد يمنع بعده سير النساء فى الشوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الإسلامى القديم. وينبغى أن يكون هذا الحجاب خاليًا من كل زينة ومن كل تطريز.
- يُلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفاف. وبالتالى ضرورة العودة إلى النقاب الشرعى الذى لا يبين خطوط الوجه.
- على الشرطة - بعد مضى شهر على نشر هذا البيان - ضمان تطبيق ما جاء فيه من قرارات بشكل حاسم، وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة فى هذا.
- صدّق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية.
- ينشر هذا البيان فى الصحف ويعلق فى الشوارع)[١].

وفى اليوم التالى لنشر هذا البيان، أى فى ٤ أكتوبر قالت جريدة (وَقتْ) الصادرة فى استانبول: (إن المجتمع العثمانى عمومًا يصوِّب هذا القرار ويراه نافعًا)[٢].

وكان السلطان عبد الحميد يرى: (أن المرأة لا تتساوى مع الرجل من حيث القوامة) ويقول: (ما دام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهية ولا داعى للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل).

ويرى: (إن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب)[٣].

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات، فى وقت كان الإعلام العثمانى يثير هذه القضية معترضًا عليها. ويقول السلطان: (لماذا يعترض بعض المثقفين على هذا الأمر، ولماذا لا يعترضون على وجوده فى أماكن أخرى غير الدولة العثمانية، فى بعض أماكن أوروبا وأمريكا؟) ويؤكد السلطان: إن مبدأ تعدد الزوجات مباح فى الإسلام فماذا يعنى

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٠٠.

(٢) انظر: موسوعة أتاتورك (١/ ٥٩، ٦٠).

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٠٠.

الاعتراض عليه؟)[1].

لقد كان السلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة ولذلك أنشأ داراً للمعلمات، لتخريج معلمات للبنات كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة ولم يكن فى عهده للمرأة رأى فى شئون الدولة مهما كانت هذه الشئون وإنما دور المرأة فى البيت وتربية الأجيال، وكان يعامل المرأة معاملة كريمة نادرة فهذه زوجة أبيه التى احتضنته وقامت بتربيته، عندما تولى السلطان العرش، أعلن زوجة أبيه التى ربته (والدة السلطان) بمعنى الملكة فى المفهوم الحديث وكانت الملكة فى القصر العثمانى، هى أم السلطان وليست زوجته كما فى الدول الأخرى. ومع كل هذا، ففى اليوم التالى لتنصيب السلطان عبد الحميد على عرش الدولة العثمانية، قابل زوجة أبيه وهى التى أحبها حبًا بالغًا، وقبل يدها وقال لها:

(بحنانك لم أشعر بفقد أمى. وأنت فى نظرى أمى لا تفترقين عنها. ولقد جعلتك السلطانة الوالدة. يعنى أن الكلمة فى هذا القصر لك. لكنى أرجوك - وأنا مصر على هذا الرجاء - ألا تتدخلى بأى شكل من الأشكال فى أى عمل من أعمال الدولة، كَبُرَ أم صَغر)[2].

خامساً: مدرسة العشائر:

أنشأ السلطان عبد الحميد فى استانبول، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية، من ولايات حلب، وسورية، وبغداد، والبصرة، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب واليمن، والحجاز، وبنغازى والقدس، ودير الزور.

وكانت مدة الدراسة فى مدرسة العشائر العربية فى استانبول خمس سنوات، وهى داخلية، تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب، ولكل طالب «إجازة صلة الرحم» وهى إجازة مرة كل سنتين. وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة.

* **وبرنامج مدرسة العشائر العربية، فى استانبول كان كالآتى:**

السنة الأولى: القرآن الكريم - الأبجدية - العلوم الدينية - القراءة التركية - إملاء - تدريب عسكرى.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٨.

السنة الثانية : القرآن الكريم – التجويد – العلوم الدينية – الإملاء – الحساب – القراءة التركية – تحسين الخط، تدريب عسكرى .

السنة الثالثة : القرآن الكريم – التجويد – العلوم الدينية – الإملاء – حسن الخط – الحساب – الجغرافيا – الفرنسية – التدريب .

السنة الرابعة : القرآن الكريم – التجويد – العلوم الدينية – الصرف العربى – اللغة الفارسية – الكتابة والنحو التركى – الجغرافيا – الحساب – حسن الخط الفرنساوى – التدريب .

السنة الخامسة : القرآن الكريم – التجويد – العلوم الدينية – النحو العربى – اللغة الفارسية – التاريخ العثمانى – القواعد العثمانية – الكتابة والقراءة التركية – المكالمة التركية – الجغرافيا – الحساب – الهندسة – حسن الخط – المعلومات المتنوعة – حفظ الصحة – أصول إمساك الدفاتر – اللغة الفرنسية – حسن الخط الفرنساوى – الرسم – التدريب[١] .

وكان المتخرجون من هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكرية العالية . ويحصلون بعد ذلك على رتب عالية . كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة المُلكية – وهى مدنية – يدرسون فيها سنة ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثم يعودون إلى بلادهم[٢] .

كما أنشأ السلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) الذى أقيم لإعداد الدعاة للدعوة الإسلامية، وللجامعة الإسلامية ثم يتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامى يدعون للإسلام، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الإسلامية[٣] .

ولقد كانت نظرة السلطان عبد الحميد بعيدة وثاقبة ولذلك اهتم بمسلمى الصين .

خرجت الصحافة فى استانبول، بخبر مفاده أن عددا من مسلمى الصين متحمسون، يحبون العلم ويرغبون الاستفادة من المعارف الإسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية ومدارس، وأن فى بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً وجامعًا، يؤدى المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى، وأن خطبة الجمعة فى مساجد وجوامع بكين تُقرأ باللغة العربية، ثم تترجم إلى اللغة الصينية، وأن الدعاء للسلطان

---

(١) انظر : تاريخ التربية التركية، عثمان أركين، ص ٦١٤ – ٦١٥، ٨٤، ١١٨٠، ١١٨٢ على التوالى .

(٢) انظر : السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٠٢ .

(٣) انظر : الانقلاب العثمانى، مصطفى طوران، ص ٣٧ .

عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل ويمتد إلى كل مساجد الصين وجوامعها[1].

تأسست فى بكين – عاصمة الصين – جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبة إلى السلطان الخليفة عبد الحميد الثانى، أو بتعبير السفير الفرنسى فى استانبول اسم (الجامعة الحميدية فى بكين) وذلك فى تقرير له إلى وزارة خارجيته فى باريس.

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة، الآلاف من المسلمين الصينيين. وحضره أيضًا مفتى المسلمين فى بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك.

وفى مراسم الافتتاح، ألقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبد الحميد. وقام مفتى بكين بترجمة الخطبة والدعاء إلى اللغة الصينية. و (بكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حارًا بدافع فرحتهم) و (إن مسلمى الصين مترابطون فيما بينهم ترابطًا واضحًا برباط الدين المتين. وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة، قد أثر تأثيرًا بالغًا فى هؤلاء الناس الطيبى القلب، وحرك الدموع فى أعينهم)[2].

سادسًا: خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان عبد الحميد على كسب الشعوب الإسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والتبرع لها بالأموال والمنح ورصد المبالغ الطائلة لإصلاح الحرمين، وترميم المساجد وزخرفتها، وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمي العرب بكل الوسائل فكون له من العرب حرسًا خاصًا وعين بعض الموالين له منهم فى وظائف كبرى منهم (عزت باشا العابد) – من أهل الشام – الذى نجح فى أن ينال أكبر حظوة عند السلطان عبد الحميد وأصبح مستشاره فى الشئون العربية. وقد لعب دورًا هامًا فى مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة وهو بهذا المشروع الذى اعتبره السلطان عبد الحميد وسيلة من الوسائل التى أدت لإعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الإسلامية.

---

(١) انظر: جريدة ترجمان حقيقت رسالة من الصين ٢٦ / ١٢ / ١٣٢٥هـ.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٠٥.

وأبدى السلطان عبد الحميد اهتمامًا بالغًا بإنشاء الخطوط الحديدية فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفًا من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هى :

١ – ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التى تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها .

٢ – إجبار تلك الولايات على الاندماج فى الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التى تنص على وجوب الاشتراك فى الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال .

٣ – تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة فى أية جبهة من الجبهات التى تتعرض للعدوان لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها إلى الجبهات[١] .

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التى أنشئت فى عهد السلطان عبد الحميد، ففى سنة ١٩٠٠م بدأ بتشييد خط حديدى من دمشق إلى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الذى كان يستغرق من المسافرين حوالى أربعين يومًا، وطريق البحر الذى يستغرق حوالى اثنى عشر يومًا من ساحل الشام إلى الحجاز، وكان يستغرق من المسافرين أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى مكة والمدينة، وإنما كان السلطان عبد الحميد يرمى من ورائه أيضًا إلى أهداف سياسية وعسكرية، فمن الناحية السياسية خلق المشروع فى أنحاء العالم الإسلامى حماسة دينية كبيرة إذ نشر السلطان على المسلمين فى جميع أنحاء الأرض بيانًا يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لإنشاء هذا الخط[٢]، وقد افتتح السلطان عبد الحميد قائمة التبرعات بمبلغ (خمسين ألفا ذهبًا عثمانيًا من جيبه الخاص) وتقرر دفع (مائة ألف) ذهبا عثمانيا من صندوق المنافع، وأسست الجمعيات الخيرية وتسابق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال)[٣] .

وتبرع للمشروع الشخصيات الهامة فى الدولة، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسين باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهنى باشا)، ورئيس لجنة المشروعات (عزت باشا) .

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، د. موفق بنى المرجَة، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٣ .

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٢٢ .

وتبارى موظفو الشركات فى التبرع، مثل موظفى شركة البواخر العثمانية. وكذلك موظفو الدولة العموميون، والولايات مثل ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم فى مصر، فى حملة التبرعات، وشكلت فى مصر لجنة الدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوى). كما شاركت الصحافة المصرية فى حملة سكة حديد الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة (اللواء) المصرية تبرعات للمشروع بلغت - حتى عام ١٩٠٤م - ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها مصطفى كامل باشا، كما جمع (على كامل) مبلغ (٢٠٠٠) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام ١٩٠١م.

وأسهم فى هذه الحملة، جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصرى) وشكلت لجان تبرع للمشروع فى كل من القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمى العالم حماسًا وعاطفة وتبرعًا للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر أباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة فى المشروع كما تبرع شاه إيران بمبلغ (٥٠,٠٠٠) ليرة عثمانية.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيين الأجانب فى إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأن الأجانب لم يشتركوا إطلاقًا فى المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر - على بعد ٧٦٠ كليو مترًا جنوب دمشق - وحتى نهاية المشروع. ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيين مصريين.

وبلغ عدد العمال غير المهرة عام ١٩٠٧م (٧٥٠٠) عامل. وبلغ إجمالى تكاليف المشروع (٤,٢٨٣,٠٠٠) ليرة عثمانية. وتم إنشاء المشروع فى زمن وتكاليف أقل مما لو تعمله الشركات الأجنبية فى أراضى الدولة العثمانية[١]. وفى أغسطس سنة ١٩٠٨م وصل الخط الحديدى إلى المدينة المنورة وكان مفروضًا أن يتم مده بعد ذلك إلى مكة لكن حدث أن توقف العمل فيه لأن شريف مكة - وهو الحسين بن على - خشى على سلطانه فى الحجاز من بطش الدولة العثمانية فنهض لعرقلة مد المشروع إلى مكة وكانت مقر إمارته وقوته. فبقيت نهاية الخط عند المدينة المنورة حتى إذا قامت الحرب الكبرى الأولى عمل الإنكليز بالتحالف مع القوات العربية التى انضمت إليهم بقيادة فيصل بن الحسين بن على على

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٢٤.

تخريب سكة حديد الحجاز ولا تزال هذه السكة معطلة حتى اليوم والمأمول أن تبذل الجهود لإصلاحها حتى تعود إلى العمل فى تيسير سفر حجاج بيت الله الحرام.

وقد وصف السفير البريطانى فى القسطنطينية فى تقريره السنوى[١] العام ١٩٠٧م أهمية الخط الحجازى فقال: (إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة فى الموقف السياسى العام، أهمها خطة السلطان الماهرة التى استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى للمسلمين، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الدينية، ببناء سكة حديد الحجاز التى ستمهد الطريق فى القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة). فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الإنكليز على ذلك الخط الحديدى وافتعالهم الأزمات لإعاقته، وانتهازهم أول فرصة لتعطيله ونسفه. لقطع الطريق على القوات العثمانية[٢].

وكان أول قطار قد وصل إلى محطة سكة الحديد فى المدينة المنورة من دمشق الشام يوم ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين فى أنحاء العالم كافة، فقد اختصر القطار فى رحلته التى استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها ٨١٤ ميلاً مشقات رحلة كانت تستغرق فى السابق أكثر من خمسة أسابيع كما خفقت فى ذلك اليوم التاريخى قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين إلى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة[٣].

كانت سياسة عبد الحميد الإسلامية محصنة، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعًا فكان مد خط السكة الحديدى بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة فى تحقيق هدفه المنشود[٤].

كان كرومر المعتمد البريطانى فى مصر (١٣٠١ - ١٣٢٥ هـ/ ١٨٨٣ - ١٩٠٧م) من أوائل من ألب أوروبا على الجامعة الإسلامية، وحرص على أن يتحدث فى تقاريره السنوية عن الجامعة الإسلامية ببغض شديد، وفى الوقت نفسه نشرت جريدة الأهرام (المصرية) تصريحات مثيرة لوزير فرنسى هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الإسلامية. وكانت مهاجمة

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ١١٤.

(٢) انظر صحوة الرجل المريض، ص ١١٤.

(٣) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ١١٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١١٤.

الجامعة الإسلامية تستتبع بالتالى بمهاجمة الدولة العثمانية حتى تتفرق الوحدة التى تجمع من حولها الدول الإسلامية لتواجه النفوذ الاستعمارى الزاحف الذى قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات والحيلولة دون إلتقائها مرة أخرى فى أى نوع من الوحدة ليستديم سيطرته عليها[١]؛ فاتخذوا لذلك عدة أعمال أساسية :

١ - تعميق الدعوات الإقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعرق .

٢ - خلق جو فكرى عام لمحاربة الوحدة الإسلامية وتصفيتها .

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائيًا وبالتعاون مع الصهيونية العالمية[٢] ويهود الدونمة وأذنابهم من جمعيات تركيا الفتاة، والاتحاد والترقى . . .

•• سياسة التودد والاستمالة!

انتهج السلطان عبد الحميد الثانى سياسة التودد إلى الشخصيات ذات النفوذ فى الأوساط الشعبية فى مختلف البقاع، فهو من ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلى من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتب رواتب أعضائه، وكان حسن النية مع مرشديهم، وكان أرباب العلم ذوى رتب عالية عنده، وكان يتودد إلى الشخصيات المهمة والتى تشجع وتقف مع فكرة الجامعة الإسلامية، مثل (مصطفى كامل باشا) فى مصر، ويعفو عن أخطاء البارزين - إذا كانوا يحسنون النية معه، ماداموا مقتنعين ومساندين لفكرة الجامعة الإسلامية - مثل (نامق كمال) .

وكان يختار بعض طلاب مدرسة العشائر العربية من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب . وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد والألبان، وحرص على الاتصال بزعماء وشيوخ وأمراء قبائل العرب بواسطة الرسائل والرسل لتقوية روابط الود والمحبة والأخوة الإسلامية، وكان على معرفة تامة بعمل الإنجليز الذين اتصلوا بالشيوخ مثل (شريف مكة) و (الشيخ حميد الدين) فى اليمن، وشيخ عسير وبعض الشيوخ من أجل تحريضهم على الدولة العثمانية وتشجيعهم بالخروج على طاعة الخليفة، والانفصال عن الدولة العثمانية .

وعمل على إبطال مخططات الإنكليز ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشك

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي . د. جميل المصري (١ / ١٠١) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١ / ١٠١) .

فى ولائهم للدولة العثمانية ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة فى استانبول تحت مسميات المناصب والمرتبات، حتى تأمن الدولة مؤامراتهم، كما فعل مع شريف مكة عندما عينه عضواً فى مجلس شورى الدولة فى استانبول، ليمنعه من العودة إلى مكة. وقد عبر السلطان عبد الحميد عن رأيه فى الشريف حسين، أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا. قال السلطان عبد الحميد: (إن الشريف حسين لا يحبنا. إنه الآن هادئ وساكن، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً). لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلى ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد.

فلما حكم حزب الاتحاد والترقى الماسونى، أعاد الشريف حسين إلى مكة واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنكليز ويحدث فجوة كبيرة بين مسلمى العرب والأتراك[1].

سابعًا: إبطاله مخططات الأعداء:

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر فى تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثمانى كردى من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وعندما قامت شركة الهند البريطانية زاد اهتمام الإنجليز بالعراق، وقامت على العمل لإيجاد حركة قومية بين الأمراء وتجول مندوبون بريطانيون بين عشائر الأكراد فى العراق فى محاولة لتوحيد العشائر الكردية ضد الدولة العثمانية، وكانت المخابرات العثمانية تتابع الأمور بدقة متناهية ووضع السلطان عبد الحميد خطة مضادة للعمل التدميرى الإنجليزى فقام بالتالى:

- قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.
- أرسل إلى عشائر الأكراد وفوداً من علماء المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلامية، وأدت هذه الوفود دورها فى إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربية.
- اتخذ السلطان عبد الحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة.
- أسس الوحدات العسكرية الحميدية فى شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٢٧.

● كان موقف الدولة قويًا ضد أطماع الأرمن فى إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون فى نفس المنطقة بالأمان[١].

● عملت الدولة على كشف مخططات الإنجليز الهادفة إلى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات فى تأسيس كل قومية دولة مختصة بها.

استطاع السلطان عبد الحميد أن يضيق على النفوذ البريطانى فى اليمن ويحقق نجاحًا ظاهرًا فى صراعه مع الإنجليز فى تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقة عسكرية فى اليمن قوامها ثمانية آلاف جندى، لإعادة اليمن إلى الدولة العثمانية مرة أخرى، ووصل اهتمامه باليمن إلى إرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و (أحمد فوزى باشا) و(حسين حلمى باشا) و(توفيق باشا) والمشير (عثمان باشا)، و(إسماعيل حقى باشا) وقد حاول الإنجليز إذكاء نيران التمرد فى اليمن ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التى سار عليها السلطان عبد الحميد كفلت له النجاح فى اليمن[٢].

وكانت العقلية العثمانية تسعى لمد خط سكة الحديد من الحجاز إلى اليمن وهذا ما تثبته الوثائق التى دلت على وجود تخطيط ودراسة عميقة لهذا المشروع الكبير[٣].

ثامنًا: الأطماع الإيطالية فى ليبيا:

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال أفريقيا، لأنها تراه ميراث إيطالى هكذا صرح رئيس وزرائها (ماترينى)[٤]. لكن فرنسا احتلت تونس وانجلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

*** رسمت إيطاليا سياستها فى ليبيا على ثلاث مراحل:**

الأولى: الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من « مؤسسات خدمية ».

الثانية: العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا فى احتلال ليبيا، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة: إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلى.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٢٤.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد اثاني ص ٢٢١.

(٤) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٣٨.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية فى ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون «بحكمة» و «هدوء» شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظًا لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين فى «ليبيا» وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التى يقيمونها فى الولايات العثمانية، سواء فى ليبيا أو فى ألبانيا، هدفًا أخيرًا هو تحقيق أطماع إيطاليا فى الاستيلاء على كل من:

١ – طرابلس الغرب.

٢ – ألبانيا.

٣ – مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير – الاسكندرون – أنطاكيا).

قام السلطان عبد الحميد الثانى باتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطاليًا مسلحًا على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية فى ليبيا بـ (١٥,٠٠٠) جندى لتقويتها، وظل يقظًا حساسًا تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصيًا وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشئون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية فى روما، ووالى طرابلس مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا وتم لهم ذلك فى عهد جمعية الاتحاد والترقى[١]، وسنأتى على ذلك بالتفصيل بإذن الله فى الكتاب السابع الذى يتحدث عن الحركة السنوسية وأثرها الدعوى والجهادى فى إفريقيا.

إن فكرة الجامعة الإسلامية كان لها صدى بعيد فى العالم الإسلامى لعدة أسباب منها:

١ – كانت الدول الأوروبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تتنافس على الاستعمار فى الشرق وحدثت سلسلة اعتداءات على الشعوب الإسلامية فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١م) واحتلت إنجلترا مصر (١٨٨٢م)، وتدخلت فرنسا فى شئون مراكش حتى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (١٩١٢م) مقتسمة أراضيها مع أسبانيا وكذلك توغل الاستعمار الأوروبى فى بلاد أفريقية إسلامية كالسودان ونيجيريا وزنجبار وغيرها.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ١٣٩.

٢ - تقدمت وسائل النقل والاتصالات بين العالم الإسلامى وانتشرت الحركة الصحافية فى مصر وتركيا والجزائر والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوة (أندونيسيا)، وكانت الصحف تعالج موضوع الاستعمار وأطماع الدول الأوروبية فى العالم الإسلامى وتنشر أخبار الأوروبيين المتكررة فى الهجوم على ديار الإسلام، فتتأثر القلوب، وتهيج النفوس، وتتفاعل مشاعر وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين.

٣ - كانت جهود العلماء ودعواتهم فى وجوب إحياء مجد الإسلام، فقد انتشرت فى ربوع العالم الإسلامى الدعوة إلى وحدة الصف وازداد الشعور بأن العدوان الغربى بغير انقطاع على الشعوب الإسلامية مما يزيدها ارتباطًا وتماسكًا وبأن الوقت قد حان لتلتحم الشعوب الإسلامية وتنضوى تحت راية الخلافة العثمانية وغير ذلك من الأسباب[١].

إن السلطان عبد الحميد الثانى نجح فى إحياء شعور المسلمين بأهمية التمسك والسعى لتوحيد صفوف الأمة تحت راية الخلافة العثمانية وبذلك يستطيع أن يحقق هدفين:

الأول: تثبيت دولة الخلافة فى الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية، الاستعمارية النصرانية.

الثانى: وفى الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا. وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى[٢].

*****

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ١١٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٣.

المبحث الثالث

السلطان عبد الحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبد الحميد الثانى واليهود من أهم الأحداث فى تاريخ السلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثانى .

إن أمر اليهود وعداءهم للإسلام يعود جذوره إلى ظهور الإسلام منذ أن انتصر الإسلام وأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنورة لخيانتهم المتكررة وعداواتهم الدائمة، ومن ثم عن سائر الجزيرة العربية فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وهم يكيدون له وقد تظاهر بعضهم بالإسلام وبث السموم فى جسم الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل وما عبد الله ابن سبأ والقرامطة والحشاشون والراوندية والدعوات الهدامة التى ظهرت فى تاريخ المسلمين عنهم ببعيد .

لقد أهدى تتار بلاد القرم للسلطان سليمان القانونى فى القرن الخامس عشر الميلادى فتاة يهودية روسية كانوا قد سبوها فى إحدى غزواتهم فتزوجها السلطان سليمان القانونى وأنجبت له بنتًا فما أن كبرت تلك البنت حتى سعت أمها اليهودية لتزويجها من اللقيط الكرواتى رستم باشا ثم إمعانًا منها فى الغدر تمكنت من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ونصبت صهرها اللقيط بدلاً منه، ثم قامت بتدبير مؤامرة أخرى استطاعت بها أن تتخلص من ولى العهد مصطفى بن السلطان سليمان من زوجته الأولى ونصبت ابنها سليم الثانى وليًا للعهد .

فى ذلك الزمن كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد فى الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هربًا من محاكم التفتيش، فتقدمت تلك اليهودية من السلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة إلى البلاد، وبالفعل فقد استقر قسم منهم فى أزمير[1] ومنطقة أدرنة، ومدينة بورصة والمناطق الشمالية والغربية من الأناضول، وبعد استقرارهم فى الدولة العثمانية، طبقت الحكومة عليهم أحكام الشريعة الإسلامية حيث تمتعوا فى ظلها بقدر

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٤١ .

كبير من الاستقلال الذاتى، وفى الواقع أن يهود أسبانيا لم يجدوا المأوى فقط فى تركيا العثمانية بل وجدوا الرفاهية والحرية التامة بحيث أصبح لهم التسلسل الهرمى فى الدولة، إذ تغلغلوا فى المراكز الحساسة منها مثل دون جوزيف ناسى، وغيره وتمتع يهود أسبانيا بشىء كبير من الاستقلال وأصبح رئيس الحاخامين مخولاً له السلطة فى الشئون الدينية والحقوق المدنية، بحيث إن مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة إلى درجة تحولت إلى قانون يخص اليهود(١).

وتجدر الإشارة فى هذا المجال، إلى أن على باشا وزير الخارجية (أصبح فيما بعد الصدر الأعظم، قد شارك فى بعثته الدبلوماسية عدد من اليهود فى عام ١٨٦٥م المرسلة إلى الأقطار الأوروبية المسيحية(٢).

إن اليهود تمتعوا بكل الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة(٣). ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل فى الدولة العثمانية(٤).

أولاً: يهود الدونمة:

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ إن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التى تعنى الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعى لهذه الكلمة فإنه يعنى المرتد أو المتذبذب، بينما تعنى هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهبًا دينيًا جديداً، دعا إليه الحاخام شبتاى زيفى، أما المفهوم السياسى لهذه الكلمة فإنه يعنى اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص(٥)، وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون فى المدن الإسلامية وخاصة فى ولاية سلانيك وأطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية إلى الإسلام ثم أصبح علمًا على فئة من يهود الأندلس الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسلامية(٦).

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمى، ص ٣٧.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٩.
(٥) انظر: يهود الدونمة، د. أحمد النعيمى، ص ٨.
(٦) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٤٢.

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاى زيفى الذى ادعى أنه المسيح المنتظر فى القرن السابع عشر، حيث انتشرت فى تلك الأيام شائعة تقول: إن المسيح سيظهر فى عام ١٦٤٨م كى يقود اليهود فى صورة المسيح وأنه سوف يحكم العالم فى فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة[١]، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة عندئذ فى المجتمع اليهودى، وكانت الأوساط اليهودية القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح. ولذلك صادفت دعوة شبتاى تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا، بل أيدها كثير من اليهود وأصحاب الأموال لأغراض سياسية ومالية[٢].

وذاع أمر شبتاى فى أوروبا وبولندا وألمانيا وهولندا وإنجلترا وإيطاليا وشمال أفريقيا وغيرها.

وفى أزمير أخذ يلتقى بالوفود اليهودية التى جاءت من أدرنة وصوفيا واليونان وألمانيا، حيث قلدته هذه الوفود تاج «ملك الملوك» ثم قام شبتاى بتقسيم العالم إلى ثمانية وثلاثين جزءاً، وعين لكل منها ملكاً، اعتقاداً منه بأنه سيحكم العالم كله من فلسطين، حيث كان يقول فى هذا المجال: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر وأعتبر القدس قصراً لى)[٣].

وقام شبتاى بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التى كانت تلقى فى كنيس اليهود وجعل اسمه محل اسم السلطان، وسمى نفسه (سلطان السلاطين) و(سليمان بن داود) مما لفت انتباه الحكومة العثمانية[٤].

وأصبح شبتاى مصدر قلق لكثير من حاخامي اليهود ورفعوا ضده شكوى إلى السلطان، أكدوا فيها أن شبتاى ينوى القيام بحركة تمردية فى سبيل تأسيس دولة يهودية فى فلسطين[٥].

ونتيجة لاشتداد فتنة شبتاى زيفى، أصدر الوزير القوى أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه، وأودعه فى السجن، وظل فيه لمدة شهرين ثم نقل إلى قلعة جزيرة غاليبولى

---

(١) انظر: يهود الدونمة، ص ١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٤.

على الدردنيل، وسمح لزوجته وكاتبه الخاص أن يتخذا لهما سكنًا معه وأصبح له مجلس كمجلس الأمراء، لا يدخل عليه إلا بإذن مسبق، وينتظر الذين يريدون أن يتمتعوا برؤيته أيامًا من أجل ذلك، وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها والقادمات حيث كانت وفود يهودية من أنحاء العالم تقدم لزيارته[١].

حوكم شبتاى فى سراى أدرنة، حيث شكل السلطان هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من (شيخ الإسلام) يحيى أفندى منقرى زادة وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر محمد أفندى وانلى، وقام بدور المترجم من الأسبانية إلى التركية الطبيب مصطفى حياتى[٢].

أكد قاضى المحكمة، أن المسألة تعد بالنسبة للدولة العثمانية، وعلى مسمع من السلطان الذى جلس فى غرفة مجاورة (بواسطة الترجمان قيل لشبتاى تدعى أنك المسيح فأرنا معجزتك سنجردك من ثيابك ونجعلك هدفًا لسهام المهرة من رجالنا فإن لم تغرز السهام فى جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك. فهم شبتاى ما قيل له فأنكر ما أسند إليه وقال إنهم تقولوا عليه)[٣]، فعرض عليه الإسلام فدخل فيه تحت اسم محمد عزيز أفندى[٤]، وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، فأذنت له وانتهزها فرصة فانطلق بين اليهود يواصل دعوته إلى الإيمان به ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين فى ظاهرهم الإسلام مبطنين يهوديتهم المنحرفة[٥].

وظل شبتاى وأنصاره يتبعون دينهم الموسوى سرًا، ويمارسون العمل للصهيونية فى الخفاء، ويظهرون الإخلاص للإسلام فى العلن والصلاح والتقوى أمام الأتراك، وكان يقول لأتباعه إنه كالنبى موسى الذى اضطر أن يبقى مدة من الزمن فى قصور الفراعنة[٦] وفى ظل هذه الظروف ألقى القبض على شبتاى مع مجموعة من أتباعه فى كنيس (قورى جشمه) الكائنة فى داخل المعبد بسبب أنه كان مرتديًا زيًا يهوديًا وهو محاط بالنساء يشربون الخمر وينشدون الأناشيد اليهودية، وقراءة المزامير مع عدد من اليهود فضلاً عن اتهامه بدعوته

---

(١) انظر: يهود الدونمة، ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.

(٣) يهود الدونمة، مصطفى طوران، ترجمة كمال خوجة نقل منه د. على حسون، ص ٢٤٣.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٤٣.

(٥) انظر: يهود الدونمة، ص ٣٦.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٤١.

المسلمين إلى ترك دينهم والإيمان به، ولولا تدخل شيخ الإسلام لقطع رأسه، حيث اعترض على إعدامه قائلاً: (لو أعدم هذا المحتال سيكون سببًا لحدوث خرافة فى الإنسانية، حيث يدعى مريدوه بعروجه إلى السماء كعيسى عليه السلام)[1]. فاكتفى بنفيه إلى مدينة دولسجنو فى ألبانيا وذلك فى صيف عام ١٦٧٣م، وتوفى بعد خمس سنوات من نفيه وظلت عقيدة الشبتائية موجودة لدى فرق سالونيك، وتفنن أتباعه فى ممارسة المكر والتعصب والتجرد من المبادئ، والأخلاق[2].

وقد نظم شبتاى زيفى عقيدة الدونمة فى ثمانى عشرة مادة وفى الحقيقة تعد المادة السادسة عشرة والسابعة عشرة أهم سمات الدونمة، إذ تشير المادة (١٦): (يجب أن تطبق عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم ويجب ألا يظهر أحد من الأتباع تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية ولمن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ)[3]. أما المادة (١٧) فإنها تشير إلى الآتى: (إن مناكحتهم (يعنى المسلمين) ممنوعة قطعًا)[4].

إن شبتاى يعد أول يهودى بشر بعودة بنى إسرائيل إلى فلسطين، وفى حقيقة الأمر، عدت حركة زيفى حركة سياسية ضد سلطة الدولة العثمانية أكبر من كونها حركة دينية[5].

لقد أسهمت هذه الطائفة فى هدم القيم الإسلامية فى المجتمع العثمانى وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماسونية والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة فى المدارس وكان الكثير من رجال الاتحاد والترقى يساهم فى بعض نشاطاتها وأفراحها.

وقام يهود الدونمة بدور فعال فى نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد والتى تحركت من سالونيك لعزله وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ولا يزالون حتى وقتنا الحاضر يسعون لذلك ولهم صحف ودور نشر وتغلغلوا فى الاقتصاد العثمانى وكل مناحى الحياة فى الدولة العثمانية[6].

---

(١) انظر: يهود الدونمة، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٥.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤٦.

(٦) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٤٦.

وقد استطاعوا أن يؤثروا فى جمعية الاتحاد والترقى، وكان السلطان عبد الحميد الثانى عارفًا بحقيقة الدونمة ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول فى هذا الصدد: (إن الشخص الوحيد فى تاريخ الترك جميعه، الذى عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على الترك والإسلام وخطرهما تمامًا، وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان التركى العظيم، كافح هذه المنظمات الخطيرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال)(١).

وفى حقيقة الأمر، اهتم عبد الحميد بإبقاء الدونمة فى ولاية سالونيك، وعدم وصولهم إلى الأستانة، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم، ونتيجة للموقف الجاد من عبد الحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا استراتيجية مضادة له، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأى العام العثمانى والجيش(٢).

ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحرية والديمقراطية وإزاحة المستبد عبدالحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد فى الدولة العثمانية بين صفوف الجيش. وكانت الغاية من هذا هى تحقيق المشروع الاستيطانى الصهيونى باستيطان فلسطين. وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية(٣).

ثانيًا: السلطان عبد الحميد وزعيم اليهودية العالمية (هرتزل):

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودر هرتزل) أن يتحصل على تأييد أوروبى للمسألة اليهودية من الدول (ألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد، وطلب فلسطين منه وكانت الدولة العثمانية تعانى من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية فى البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية فى تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضمانًا لديونها، الأمر الذى دفع عبد الحميد الثانى أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هى السبيل الوحيد أمام هرتزل، كى يؤثر على سياسة عبد الحميد

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية للجندى، ص ١٠٧.

(٢) انظر: يهود الدونمة، ص ٨١.

(٣) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا لمحمد مصطفى، ص ٦٨، ٦٩.

الثانى تجاه اليهود. وفى هذا الصدد يقول هرتزل فى مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية فى تركيا... مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقى لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية ... ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأى قروض جديدة يطلبها)[1].

لقد أجرى هرتزل اتصالات مكثفة مع المسئولين فى ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنجلترا وكانت الغاية من هذه الاتصالات هى إجراء حوار مع عبد الحميد الثانى. وفى هذا الصدد فقد نصح لاندو منذ ٢١ شباط ١٨٦٩م الصديق اليهودى لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكى رئيس تحرير (بريد الشرق). وفى هذا المجال يقول هرتزل: (إن نحن حصلنا على فلسطين، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة.. لمن يتوسط لنا. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوى أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضى التى يمتلكها السلطان ضمن القانون المدنى، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة)[2].

وقام هرتزل بزيارة إلى القسطنطينية وذلك فى حزيران عام ١٨٩٦م، ورافقه فى هذه الزيارة نيولنسكى، الذى كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل نيولنسكى آراء هرتزل إلى قصر يلدز، وقد دارت محاورة بين نيولنسكى والسلطان عبد الحميد إذ قال السلطان له: (هل بإمكان اليهود أن يستقروا فى مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكى قائلاً:

(تعتبر فلسطين هى المهد الأول لليهود، وعليه فإن اليهود لهم الرغبة فى العودة إليها)، ورد السلطان قائلاً: (إن فلسطين لا تعتبر مهداً لليهود فقط، وإنما تعتبر مهداً لكل الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكى قائلاً: (فى حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة إلى الأرجنتين)[3].

وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكى جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع، لأنى لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضى المقدسة، لأنها ليست ملكى، بل هى ملك شعبى. وقد قاتل أسلافى من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠.

بملايينهم. إذا مزقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة)[١].

* وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد في مذكراته:

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج اتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لا نجد أن هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي إلى دين أسلافنا وتقاليدنا حتى لا يستطيعوا الهيمنة على زمام الأمور في الدولة)[٢].

وبعد إخفاق جهود هرتزل في واسطة نيولنسكي، اتجه هرتزل إلى قصر وليم الثاني امبراطور ألمانيا، ولاسيما أنه كان صديقًا لعبد الحميد، بالإضافة إلى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا[٣] إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. يقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني): (..عندما رد طلب الوفد اليهودي – المسند من قبل الامبراطور وليم – في الحصول على وطن لهم، أي: عندما خاب هرتزل في مسعاه اشتد العداء ضد (يلدز) وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العام متى شاءوا...)[٤].

يردف المؤرخ التركي قائلا: (بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد، أنصار المشروطية يتخذون طابعًا منظمًا وهجوميًا، علمًا بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعبًا عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط. وقد أخذ (المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي) على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسوني للامبراطورية العثمانية. ولعبت المحافل الإيطالية وخاصة محفل (ريزوتا) في سالونيك دوراً ملحوظًا...)[٥].

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢١.

(٤) انظر: السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان، ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٢.

إزاء هذا الإخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبد الحميد الثانى، حيث عرض عن طريق نيولنسكى خدمته بواسطة القضية الأرمنية[1] وفى هذا الصدد يقول هرتزل: (طلب منى السلطان أن أقوم بخدمة له، وهى أن أؤثر على الصحف الأوروبية، بغية قيام الأخيرة بالتحدث عن القضية الأرمنية بلهجة أقل عداء للأتراك، أخبرت نيولنسكى حالاً باستعدادى للقيام بهذه المهمة، ولكنى أكدت على إعطائى فكرة وافية عن الوضع الأرمنى: من هم الأشخاص فى لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون، وأى الصحف يجب أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك)[2].

وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لإقناع الأرمن بالتخلى عن ثورتهم. ونتيجة لذلك فقد اتصل هرتزل مع سالزبورى والمسئولين الإنجليز بغية استخدامهم للضغط على الأرمن، كما نشط اليهود فى مدن أوروبية أخرى مثل فرنسا للقيام بنفس الدور. إلا أن دبلوماسية هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمس بريطانيا، لأن ذلك كان يعنى تأييد سياسة عبد الحميد، الأمر الذى يؤدى فى إثارة الرأى العام البريطانى ضد الحكومة[3].

وقد حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثانى، ولاسيما أثناء الزيارة الثانية للامبراطور وليم الثانى إلى القسطنطينية، إلا أن موظفى قصر يلدز منعوه من ذلك. واستمر هرتزل فى محاولاته المستمرة حتى تكللت جهوده بالنجاح بعد سنتين (١٨٩٩ - ١٩٠١م) من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار لقصر يلدز من مقابلة عبد الحميد، حيث قابل السلطان لمدة ساعتين وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية فى أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان فى فلسطين، بالإضافة إلى ذلك فإنه قد أكد لعبد الحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام ١٨٨١م، وقد وعد هرتزل عبد الحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه[4].

كان السلطان عبد الحميد فى خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً وكان يرخى لهرتزل فى الكلام كى يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر فى مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح فى مهمته هذه. ولكنه أدرك فى نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبد الحميد وأنه أخذ يسير فى طريق

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٤١.

مسدود معه[١].

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبد الحميد الثانى، تحدث هرتزل قائلاً: (فى حالة منح السلطان فلسطين لليهود، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية، أما فى القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجاد حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبنى حضارة ضد التخلف، كما سنبقى فى جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا[٢].

وفى الحقيقة كان عبد الحميد يرى أنه من الضرورى عدم توطين اليهود فى فلسطين، كى يحتفظ العنصر العربى بتفوقه الطبيعى. وفى هذا الصدد يقول: (... ولكن لدينا عدد كافٍ من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربى متفوقًا، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين فى فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضًا تملكوا جميع قدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا فى الدين بالموت المحتم)[٣].

وكانت الدولة العثمانية تسعى فى أحيان كثيرة إلى إبعاد اليهود العثمانيين عن أفكار هرتزل والحركة الصهيونية، ومع ذلك فإنها فى أحيان أخرى كانت تستخدم لغة التهديد معهم. وفى هذا الصدد أوضح على فروخ بك الوسائل الإعلامية الأجنبية، وبصراحة تامة: (إنه لبعيد من الصواب أن يقوم الصهاينة على خلق صعوبات للحكومة العثمانية، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكن هذه الصعوبات سوف تؤدى فى نهاية الأمر إلى إلحاق الأذى بوجودهم السلمى والسعيد فى الدولة العثمانية... وهذه النقطة واضحة بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع رعايا الأرمن، لأن قلة من المتمردين الذين قاموا على ارتكاب الخطأ والحماقة معتمدين إلى الإرشاد الميكافلى قد أدى فى نهاية الأمر أن يندموا على ما فعلوه، من دون التوصل إلى أية نتيجة)[٤].

وعلى الرغم، من إخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبد الحميد، كتب هرتزل، قائلاً: (يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دونما حاجة إلى استخدام العنف، سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على النزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٤٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٦.

أعمال لهم هناك مع حظر تشغيلهم في بلدنا. إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوة على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم)[١].

وكتب هرتزل قائلاً: (أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لايمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معًا في آن واحد)[٢].

إن عبد الحميد كان يعرف أهداف الصهيونية، حيث قال في مذكراته السياسية: (لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله: ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى فيها اليهودي على قيادة محراثه بيده، صحيحًا في رأيه، أنه يسعى لتأمين أرض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافيًا لحل جميع المشاكل.. لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين بل يريدون أمورًا مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيدًا، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم. وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين)[٣].

وعن القدس يقول عبد الحميد الثاني: (لماذا نترك القدس.. إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية، لابد أن تظل القدس لنا)[٤].

لقد كان غرض السلطان عبد الحميد في استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي:

١ – حقيقة الخطط اليهودية.

٢ – معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها.

٣ – إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود[٥].

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٨.

(٤) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٥٧.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٥٦.

وشرع السلطان عبد الحميد فى توجيه أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية لمتابعة اليهود وكتابة التقرير عنهم وأصدر إرادتين سنيتين الأولى فى ٢٨ يونيو ١٨٩٠م والأخرى فى ٧ يوليو ١٨٩٠م. فى الأولى (رفض قبول اليهود فى الممالك الشاهسانية) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدّى وحاسم فى شأنها)[١].

واتخذ السلطان عبد الحميد الثانى كل التدابير اللازمة فى سبيل عدم بيع الأراضى إلى اليهود فى فلسطين، وفى سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أى امتياز لليهود من شأنه أن يؤدى إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين. ولابد فى هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد الثانى من الحكم. ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال: (إنى أفقد الأمل فى تحقيق أمانى اليهود فى فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، مادام السلطان عبد الحميد قائماً فى الحكم، مستمراً فيه)[٢].

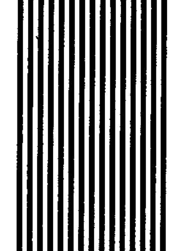
وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثانى، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون فى البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقى، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية[٣].

*****

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٨٨.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٥٨.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى لمحمد حرب، ص ٢٣٤.



المبحث الرابع

السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقى

كان الشباب العثمانى المثقف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية، التى حققت حكمًا ديمقراطيًا فى فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد، وكذلك تأثر بالحركة القومية الإيطالية التى قادها (ماتزينى) بنظهما وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية وإعلامية، غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها، وكانت الدول الأوروبية تتخذ من أوضاع النصارى فى الدولة حجة للتدخل، وفى هذه الظروف وبالضبط فى عام ١٨٦٥م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يُسرُّون عن أنفسهم فى حديقة فى ضواحى استانبول تسمى (غابة بلغراد). تحدث هؤلاء الشباب فى موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التى أسسها الزعيم الإيطالى (ماتزينى) عام ١٨٣١م، بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية، أطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحميّة) ومن ضمن هؤلاء الشبان الشاعر الذى أصبح فيما بعد واسع الشهرة: نامق كمال. ورأوا أن العمل لابد أن يكون فى شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالى فإن رغبة الشعوب النصرانية فى الاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها ما يبررها من تدخل أجنبى بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة من حالة التردى التى وصلت إليها يكون بإيجاد نظام سياسى ديمقراطى. وكان فى فرنسا فى تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصرى الذى نازع فؤاد باشا رغبة فى تولى عرش مصر وفى فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادى بالدستور فى الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم « حزب تركيا الفتاة » فى أوروبا.

التحق ثلاثة من الإعلاميين الثوريين العثمانيين هم: نامق كمال، ومحمد ضياء وعلى سعاوى، بالأمير المصرى مصطفى فاضل فى باريس وكونوا منظمة أسموها جمعية « العثمانيين الجدد ». وكان أبرز شخصيات جمعية العثمانيين الجدد إعلاميين وشعراء وأدباء

وعلى رأسهم نامق كمال وعلى سعاوى. وكان من أشهر تلك الشخصيات تأثيراً على الساحة الأوروبية نامق كمال الذى تثقف ثقافة إسلامية، وكما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية، مثل (روسو). وله حياة أدبية واسعة وكتابات امتدت عبر ربع قرن عبر عن أفكاره من خلال الشعر، والإعلام، والكتابة والتاريخ وكانت كتاباته تسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلة هى:

١ - ما أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟

٢ - ما الطرق التى يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟

٣ - ما الإصلاحات اللازم عملها فى هذا السبيل؟

كما يمكن إدراج إجابات نامق كمال فى ثلاث نقاط رئيسية هى:

١ - أسباب انحطاط الدولة العثمانية، أسباب اقتصادية، سياسية.

٢ - التربية، هى الطريق التى يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.

٣ - الإصلاح الرئيسى الواجب عمله، هو: البدء بإقامة نظام دولة مركزية دستورية.

وكان نامق كمال يرى أن حركة التنظيمات العثمانية، استبدلت بسلطة السلاطين سلطة الباب العالى، أى الصدور العظام الوزراء. لذلك فإن النظام الذى جاءت به التنظيمات، نظام أقل من النظام العثمانى القديم. لذلك لم تستطع التنظيمات أن تحقق نهضة اقتصادية فى الدولة. وفتحت هذه التنظيمات الباب على مصراعيه لتدخل الدول الأوروبية فى الشئون العثمانية الداخلية.

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطبيعية التى هى الأساس الفلسفى للحضارة الغربية المعاصرة، وقدم نامق كمال مشروعًا للدستور العثمانى، إلى مدحت باشا وكان متأثراً بالدستور الفرنسى (دستور نابليون الثالث عام ١٨٥٢م). ورأى نامق كمال أن هذا هو المناسب تمامًا لظروف الدولة العثمانية فى ذلك الوقت، وكان نامق كمال صديقًا لمدحت باشا ولذلك تأثر بقرار السلطان عبد الحميد فى عزله وقد تحدث السلطان عبد الحميد عن نامق كمال فى مذكراته: (كان كمال بك أكثر من لفت انتباهى من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم «العثمانيون الجدد». كان إنسانًا مضطربًا جداً. لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولا تتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية.

يمكن أن تجزم بأن إنسانًا ما، يستطيع عمل أمر ما، أو لا يستطيع. لكنك لا تستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال، وأنت تفكر فى كمال بك. ذلك لأنه هو نفسه لا يعرف نفسه، تستطيع القول إنه واحد من الأشخاص النادرين، الذين يحيون حياتين مزدوجتين، كل حياة تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قرب، يعرفون أنه: عندما كان على وئام مع السراى كتب (التاريخ العثمانى) وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله: (كلب هو الذى يأمن لخدمة صياد غير منصف). إنه إنسان متقلب. ربما كان إنسانًا مخلصًا جدًا، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التى سيحمل فيها هذه الأفكار)[١].

بعد أن وجد السلطان عبد الحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطًا متواصلاً لقبول أفكارها، وأجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعية؛ فبدأ بنفى كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرة، قامت ضد السلطان مؤامرتان لخلعه. واحدة: بقيادة على سعاوى وهو من أعضاء هذه الجمعية. والأخرى: ماسونية قامت بها جمعية كلانتى سكاليرى – عزيز.

والمؤامرتان مدعومتان من إنجلترا، وفشلت كلتاهما، لكنهما جعلتا السلطان يتشدد فى مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به، وقامت أثناء ذلك أيضًا خلية سرية، من طلاب المدرسة الحربية، فى استانبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، حيث استطاع أحد أعضاء جمعية (كلانتى – عزيز بك) الماسونية وهو (على شفقتى بك) الفرار إلى نابولى، وإلى جنيف، حيث أصدر بين عامى ١٨٧٩م و١٨٨١م، جريدة مناهضة للحكم العثمانى، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل.

وفى عام ١٨٨٩م تأسست منظمة طلابية فى المدرسة العسكرية الطبية فى استانبول، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب، وكان المؤسس لهذه المنظمة إبراهيم تيمو الرومانى الذى تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية، وأطلق على هذه المنظمة الاتحاد العثمانى واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية، تاريخًا لإنشاء منظمتهم وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٤٧.

السياسية، تتخذ من الدول الغربية نموذجًا لها، مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية[١].

ومن المدرسة العسكرية الطبية، سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثمانى) إلى مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربونارى) الإيطالية.

ولم تكن الجمعية متعجلة، لا فى الدعاية لأفكارها، ولا فى الحركة ضد السلطان. حتى إن أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف فى منطقة بوصة، وسافر عام ١٨٨٩م إلى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولى، ووصل إلى هناك، وأعلن أنه لن يرجع إلى بلاده. ومكث فى فرنسا حوالى ست سنوات، لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل، إلى حين أصدر جريدته (مشورات) عام ١٨٩٥م.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد – وهو إبراهم تيمو – أنه كان يمضى أوقاته فى الخارج – حتى عام ١٨٩٥م – بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم، لتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التى ألفها أعضاء جميعة العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا وقراءة منشورات على شفقتى بك – عضو كلانتى الماسونية – وكان فارًا فى أوروبا[٢].

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثمانى السرية فى الداخل وفى الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكرى والمدنى ضد السلطان، وعلى اعتماد اسم (جمعة الاتحاد والترقى) للجناحين المعارضين، العسكرى والمدنى، اللذين يعملان فى إطار الجمعية.

كان اسم الجمعية فى الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثمانى). وكان أحمد رضا بك – ممثل الجناح المدنى – متأثرًا بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو: (الانتظام والترقى). فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقى) استلهامًا من دستور «كانت» واحتفظ العسكريون بمسمى (الاتحاد)، واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقى)[٣].

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٧٩.

(٢) انظر: مذكرات إبراهيم تيمو، ص ٩.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٨٠، ٢٨١.

لقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقى) فى وحدات الجيش، وبين موظفى الدولة من المدنيين، واتحدا فى العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكرى والمدنى فى باريس، للعمل الفعلى ضد السلطان عبد الحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إعلان الدستور الذى كان قد أمر سابقًا عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[١].

وكان الفكر السياسى لجمعية الاتحاد والترقى يؤكد على المفاهيم الطورانية على المستويين الداخلى والخارجى، والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلى ونسبته إلى جبل توران الواقع فى المنطقة الشمالية الشرقية فى إيران[٢]، وكان داخل حركة الاتحاد والترقى اتجاه قوي يؤكد أن الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولى واحد فى الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ولم يقتصروا فيها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز والأناضول وروسيا وكان شعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذ وسيلة لا غاية وهذا يعنى أن هذا الاتجاه يدعو إلى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركى القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض - الأسود الذى صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب. وكأنهم يحلون تحية الذئب محل الصلاة، مبالغة منهم فى إقامة الشعور العرقى محل الشعور الإسلامى.

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم فى التاريخ أمثال: أتلاو وطغرك، جنكيزخان وتيمورلنك.

وقد تطرف هذا الاتجاه فى الطورانية، إذ قالوا: (نحن أتراك فكعبتنا طوران). وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئًا من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم ويمثل هذا الاتجاه كل من فياكوك الب[٣] ويوسف أقثور وجلال ساهر ويحيى كمال وحمد الله صبحى ومحمد أمين بك الشاعر، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد.

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٨١.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٥.

وكان تأثير اليهود على الطورانية أمرا واضحا وفى هذا الصدد يقول نيازى بركس فى كتابه (المعاصرة فى تركيا) : (أن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين فى الدولة العثمانية فى القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخمًا فى إرساء تيار القومية الطورانية، فالعلماء اليهود فى الغرب مثل لومالى دافيد وليون كاهون وارمينيوس فاميرى تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية كما أن اليهود المحليين فى الدولة العثمانية، مثل كراسوا (قراصو) وموئيز كوهين وابارهام غالانتى، كان لهم ضلع فى جمعية الاتحاد والترقى وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية فى الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم فى أن تعترف الجمعية بفلسطين وطنًا قوميًا لليهود. . .)[١].

وقد ذكر نيازى بركس فى كتابه السابق اسم اليهودى موئيز كوهين الذى وصفه رينيه بيلو قائلاً :

١ - إن كوهين هو من مؤسسى الفكر القومى الطورانى فى الدولة العثمانية.

٢ - إن كتاب موئيز كوهين هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية[٢].

كان اليهودى موئيز كوهين نشطًا جداً فى التعريف بحركة الاتحاد والترقى فى الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، عدة لغات أوروبية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روح قومى)[٣].

لقد أسهم موئيز كوهين فى التخطيط للسياسة العنصرية الطوارنية التى سارت عليها جمعية الاتحاد والترقى وهى السياسة التى شقت شعوب الدولة العثمانية وأوجدت بينها العداوة والبغضاء.

وكان هذا اليهودى لا يكل ولا يمل فى نشر الفكر القومى التركى لتفتيت الدولة العثمانية. وكتب ثلاثة كتب اعتمدت عند جمعية الاتحاد والترقى وهى : (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب) و(الطوران) و(سياسة التتريك). كما أسهم هذا الكاتب اليهودى فى الكتابة للفكر الكمالى بكتابه (الكمالية) وكتابه (الروح التركية) الذى أرخ فيه تطور العنصر التركى[٤].

---

(١) انظر : العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ١١٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٩ .

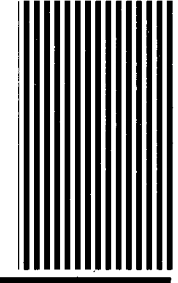
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٢ .

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقى على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت حلم الطورانية، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت فى صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبد الحميد الثانى[1].

******

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية ص ١٦٨.



المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى

كان السلطان عبد الحميد الثانى شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقى المدعومة باليهود والمحافل الماسونية، والدول الغربية، واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبد الحميد أن يتعرف على هذه الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة فى وقت متأخر، حيث دفعوا الأهالى إلى مظاهرات صاخبة فى سلانيك ومناستر واسكوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة إلى أن المتظاهرين هددوا بالزحف على القسطنطينية. الأمر الذى أدى بالسلطان إلى الخضوع لمطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان وذلك فى ٢٤ تموز ١٩٠٨م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقى تبقى السلطان عبد الحميد الثانى فى تلك الفترة على العرش منها:

١- لم تكن فى حوزة الاتحاد والترقى القوة الكافية لعزله فى عام ١٩٠٨م.

٢- اتباع عبد الحميد الثانى سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور.

٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد. وهذه النقطة واضحة، حيث إن لجنة الاتحاد والترقى لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبد الحميد الثانى بين الجنود، لأن هؤلاء كانوا يبجلون السلطان(١).

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستورى لعام ١٩٠٨م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقى لتحقيق مكاسب أخرى فى فلسطين، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثانى نهائيًا ولذلك دبرت أحداث فى ٣١ أبريل ١٩٠٩م فى استانبول وترتب على أثرها، اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقى؛ عرف الحادث فى التاريخ باسم حادث ٣١ مارت.

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٦٨.

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير فى العاصمة بتخطيط أوروبى يهودى، مع رجال الاتحاد والترقى وتحرك على أثره عسكر الاتحاد والترقى من سلانيك ودخل استانبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى من كل سلطاته المدنية والدينية. ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقى التهم التالية:

١- تدبير حادث ٣١ مارت.

٢- إحراق المصاحف.

٣- الإسراف.

٤- الظلم وسفك الدماء(١).

مع أن جمعية الاتحاد والترقى العثمانية، تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الإسلامى؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم فى معركتهم ضد السلطان عبد الحميد الثانى. وقد نجحوا فى ذلك.

تقول الجمعية فى بياناتها إلى العثمانيين :(أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا). (وبعون البارى وهمة الإخوان) و(أيها المسلمون: كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار، عديم الإيمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والإيمان) و(استيقظوا يا أمة محمد) و(الشجاعة الشجاعة يا مسلمون، الشجاعة منا والعون من الله. نصر من الله وفتح قريب) و(أيها المسلم الموحد! اقرأ باسم ربك) و(انهض أيها المسلم الموحد! وانقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين. وانقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجًا. وفى يده دينك وإيمانك. فانقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد) و(يا أيها المسلمون: إن السلطان عبد الحميد - شرعًا - ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لا يصدق قولنا هذا: فلينظر فى الكتاب والسنة. لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأوامر الله وأوامر الرسول الموجهة إلى الحكومة والأهالى.

لكن السلطان عبد الحميد، أشاح بوجهه بعيدا عن أوامر الله، وأوامر الرسول. وبالتالى: أثبت ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على الله؛ لذلك ينبغى على شعبنا، أن يلجأ إلى السلاح ضده وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذًا وزر ما عليه السلطان عبد الحميد من

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٥٠.

ظلم)[1].

لقد كان الفكر الحاكم فى اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقى)، هو : الماسونية وهى لا تعترف بالأديان، والفلسفة الوضعية (العقلانية وهى تنفى الدين) والعلمانية (وهى تبعد الدين عن الحياة)، ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد الثانى وافتروا عليه باسم الدين[2].

إن التهم التى وجهت للسلطان عبد الحميد الثانى لا تثبت أمام البحث العلمى، والحجج، والبراهين الدالة على براءته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة عدم علم السلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت، كما أنه (من المحال إحراق السلطان عبد الحميد للمصاحف، فهو سلطان معروف بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصلاة وإهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم إسرافه ولأنه لا يعرف الاسراف فقد كان المال يتوفر معه دائماً ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص). وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبد الحميد هذا، وسفك الدماء لم يكن أبداً ضمن سياسته[3].

ولم لا يغيب عن بال الانقلابيين الضغط على مفتى الإسلام محمد ضياء الدين بإصدار فتوى الخلع، ففى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩ اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان فى جلسة مشتركة قرروا بالاتفاق خلع السلطان عبد الحميد الثانى وكتب مسودة الفتوى الشيخ نائب حمدى أفندى المالى، لكن أمين الفتوى نورى أفندى الذى دعى للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه إن لم يجر تعديل عليها وأيده فى التعديل عدد من أنصاره من النواب فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس «المبعوثان» عرض التنازل عن العرش أو خلعه.

وإليكم نص الفتوى:

(الموقع عليها من شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندى ووافق عليها مجلس «المبعوثان» بالإجماع «إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طى وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة والتبذير والإسراف من بيت المال واتفاقية خلاف المسوغات الشرعية وقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعى وسائر المظالم

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٥٠.

لأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه ثم عاد فحنث وأصر على إحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كل الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعًا فلوحظ أن فى بقائه ضرراً محققًا وفى زواله صلاحًا فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم. الجواب : نعم يجب)(١).

قُرئت هذه الفتوى فى الاجتماع المشترك للمجلس الملى فصرخ النواب الاتحاديون نريد خلعه وبعد مداولات تمت الموافقة على خلع السلطان عبد الحميد الثانى(٢).

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقى تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثانى بقرار خلعه. وكانت هذه اللجنة تتألف من :

١- إيمانويل قراصو : وهو يهودى أسبانى. كان من أوائل المشتركين فى حركة تركيا الفتاة وكان مسئولاً أمام جمعية الاتحاد والترقى عن إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد الثانى وتأمين التخابر بين سلانيك واستانبول فيما يتعلق باتصالات الحركة. وقراصو هذا محام، عملت جمعية الاتحاد والترقى بنجاح على تعيينه فى المجلس النيابى العثمانى نائبًا عن سلانيك مرة وعن استانبول مرتين. وصفته المصادر الإنجليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقى. عمل أثناء الحرب مفتشًا للإعاشة، واستطاع أثناء وجوده فى هذا المنصب أن يجمع أموالا كثيرة لحسابه الخاص، ولعب دوراً هامًا فى احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطر نتيجة لخيانته للدولة أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر فى تريسنا حيث مات عام ١٩٣٤م. وكان أثناء وجوده فى الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيايزولتا الماسونى.

٢- آرام : وهو أرمنى عضو فى مجلس الأعيان العثمانى.

٢- أسعد طوبطانى : وهو ألبانى، نائب فى مجلس المبعوثان عن منطقة دراج.

٤- عارف حكمت : وهو فريق بحرى عضو مجلس الأعيان، وهو كرجبى العراق(٣).

يروى السلطان عبد الحميد فى مذكراته تفاصيل هذه الحادثة فيقول :(إن ما يحزننى ليس الإبعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التى ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه

---

(١) انظر : صحوة الرجل المريض، ص ٤١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤١٠.

(٣) انظر : العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٥١.

والتى خرجت عن كل حدود الأدب، حيث قلت لهم: إننى أنحنى للشرعية ولقرار مجلس المبعوثان ذلك تقدير العزيز العليم، سوى إنى أؤكد بأنه لم يكن لى أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التى تفجرت فى ٣١ مارت ثم أردف قائلاً :(إن المسئولية التى تحملتموها ثقيلة جدا). ثم أشار عبد الحميد إلى قرصو قائلاً : (ما هو عمل هذا اليهودى فى مقام الخلافة[١]؟ وبأى قصد جئتم بهذا الرجل أمامى؟)[٢].

لقد اعتبر اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به وساروا بمظاهرة كبيرة فى مدينة سلانيك، ولم يكتف الماسونيون بذلك بل طبعوا صورة هذه المظاهرات فى بطاقات بريدية لتباع فى أسواق تركيا العثمانية ولمدة طويلة. لقد كان الاتحاديون يفتخرون دائمًا بأنهم ماسونيون. وقد أدلى رفيق مانياسى زادة بتصريحات إلى صحيفة تمبس الفرنسية فى باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتحاد والترقى، حيث جاء فيها :(... لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التى تلقيناها من الجمعية الماسونية الإيطالية التى أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[٣].

إن هذه العلاقة بين الصهيونية والماسونية، وضحها السلطان عبد الحميد الثانى فى الرسالة التى وجهها إلى الشيخ محمود أبى الشامات شيخه فى الطريقة الشاذلية بعد خلعه وذلك فى سنة ١٣٢٩هـ[٤] وقد جاء فى هذه الرسالة:

(إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علىَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم، لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا، وأجبتهم بهذا الجواب القطعى :(إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلن أسود صحائف المسلمين). وبعد جوابى هذا اتفقوا على خلعى، وأبلغونى أنهم سيبعدوننى إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت المولى وأحمده أننى لم أقبل بأن ألطخ العالم الإسلامى بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢١٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٣.

فى الأراضى المقدسة! فلسطين)[1].

وفى مقال نشر فى جريدة (بويوك ضوغو) التركية فى ٢ مايو عام ١٩٤٧م العدد ٦١ يقول (محرم فوزى طوغاى) تحت عنوان (فلسطين والمسألة اليهودية) الآتى:

(منع السلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية فى فلسطين، وكلف هذا المنع السلطان عبد الحميد غاليًا وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد إلى إنهيار الدولة العثمانية كلها). رغم أنه كان يدرك - كما قال نظام الدين لبه دنخلى أوغلو - فى دراسته عن دور اليهود فى هدم الدولة العثمانية أن :(اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح فى العمل المنظم، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت فى أيديهم. كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية)[2].

إن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقى اكتشفوا فيما بعد أنهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية، فهذا أنور باشا الذى لعب دوراً مهمًا فى انقلاب عام ١٩٠٨م، يقول فى حديث له مع جمال باشا أحد أركان جمعية الاتحاد والترقى : (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال :(نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقى)[3].

وفى هذا المعنى، يقول أيوب صبرى قائد الاتحاديين العسكريين :(لقد وقعنا فى شرك اليهود، عندما نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية، فى الوقت الذى عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا إنه لم يقبل بذلك)[4].

ويقول فى هذا الصدد برنارد لويس :(لقد تعاون الأخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد، لأنه كان معارضًا قويًا لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أى شبر أرض لليهود فى فلسطين[5].

وقد علق نجم الدين أربكان المجاهد الكبير زعيم حزب الرفاه فى تركيا على هذا الموضوع قائلاً :(إن الحركة الماسونية سعت سعيًا شديداً لعزل السلطان عبد الحميد، ونجحت فى

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢٢٣.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، ص ٨٨.

(٣) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢٢٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٩.

سعيها وأن أول محفل فتح فى تركيا العثمانية كان على يد أميل قره صو وهو صهيونى وقد انضم إليه ضباط منطقة سالونيكا..)(١).

بعد إبعاد عبد الحميد الثانى من السلطة، عبرت الصحف اليهودية فى سلانيك عن غبطتها فى الخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف. وفى هذا الصدد يقول لوثر :(وبعد إبعاد عبد الحميد من السلطة، عبرت الصحف اليهودية فى سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذى رفض استجابة طلب هرتزل لمرتين، والذى وضع جواز السفر الأحمر الذى يقابل عندنا قانون الأجانب)(٢).

واستمرت الحملات الإعلامية المنظمة تشهر تشهيراً عنيفًا بالسلطان عبد الحميد الثانى. استهدف أعداء الإسلام من تلك الحملات:

١- الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقى، مبررين تصرفهم فى إنهاء حكم السلطان عبد الحميد كى تسترد الدولة مكانتها.

٢- تغطية فشل الاتحاد والترقى فى حكم الدولة، فقد لجأ رجال الاتحاد والترقى إلى القوة والاستبداد، وأثاروا الفرقة بين سكان البلاد.

٣- إبراز صورة مشرقة لعهد الطاغية الملحد مصطفى كمال أتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والإنجليز والدول الغربية فى إلغاء الخلافة والسلطنة وإعلان الجمهورية التركية.

٤- رغبة الصهاينة فى تدمير سيرة السلطان عبد الحميد الثانى انتقامًا منه لسياسته المعادية لأهدافهم فى فلسطين(٣).

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثا، وطويت صفحاتها فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادى الزمن أكثر من قرنين نتيجة للزحف الاستعمارى، والكيد اليهودى، والنخر الماسونى، والضعف الشديد الذى انتاب الدولة، وهو ضعف لم يكن السلطان عبد الحميد مسئولا عنه، وغدت ممتلكات الدولة نهبًا بين الدول الأوروبية الاستعمارية التى كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة(٤).

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٠.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. الشناوي (٢/١٠١٨ - ١٠٢٣).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/١٠٦١)..

المبحث السادس

حكم الاتحاديين
ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبدالحميد الثانى أخوه محمد رشاد إلا أنه فى الحقيقة لا يملك أى سلطة فعلية، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقى وغدت الحكومة العثمانية تركية فى مضمونها، قومية فى عصبيتها، بينما كانت من قبل عثمانية فى مضمونها وإسلامية فى رابطتها. فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التى تدعو إلى تحرير كل الأتراك. مدعين أن الشعوب الإسلامية فى الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهى الأفكار التى تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسها موئيز كوهين اليهودى، والكاتب التركى الشهير ضيا كوك آلب؛ فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية الوحيدة وإن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها. فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية فى مواجهة حركة التتريك .

كوّن العرب حزب اللامركزية وتعنى أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى خاضعة خارجياً لاستانبول، كما كونوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبدالكريم الخليل والضابط عزيز على المصرى، والجمعية العربية الفتاة التى تشكلت فى باريس عام ١٣٢٩هـ على منهج جمعية تركيا الفتاة ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية وخاصة مبادئ العصبية القومية، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية وكان قصدهم: استقلال العرب التام، وقد نقلوا مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب .

وتكونت الجمعية الاصطلاحية فى بيروت عام ١٣٣١هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية فى المهجر فقدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا عام ١٣٣١هـ التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان بينما اتجه بعض مثقفى العراق نحو الإنجليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطانى على برامج الإصلاح، بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد [١] .

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٤٩ .

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربى فى باريس سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون:

١- ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة .

٢- إشراك العرب بالإدارة المركزية .

٣- جعل اللغة العربية لغة رسمية فى كل الولايات العربية .

٤- جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة .

٥- التعاطف مع مطالب الأرمن .

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين فى المؤتمر وكان برئاسة عبدالحميد الزهراوى (١) .

وقد علقت فرنسا آمالاً كبيرة على المؤتمر وكان لها العديد من الأنصار فى داخله ثم قامت بنشر مقرراته .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/١٩١٤-١٩١٨م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط «ألمانيا والنمسا» فى حين تمكن الإنجليز «بمراسلات الحسين مكماهون» من جر العرب إلى جانب الحلفاء «بريطانيا وفرنسا وروسيا» فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك (٢) .

وسقطت تركيا بعد هزيمتها فى الحرب واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ووقعت الأستانة تحت سيطرة الإنجليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها .

إن خلع السلطان عبدالحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقى فى الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذى تم أثناء الحرب وبعد الحرب فى مراحل نلخصها فيما يلى :

١- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامى الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء، تجلى ذلك فى معاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م السرى فى الوقت الذى وعد فيه العرب بالاستقلال. وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة :

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى. د.جميل المصرى : ١/١٠٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ١/١١٠ .

■ أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سوريا الشمالى (لبنان والساحل الشمالى من سوريا) لفرنسا .

■ تتكون دولتان عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها، يكون النفوذ فى الأولى التى تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ فى الثانية التى تشكل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا .

■ تكون فلسطين دولية .

■ تكون الأستانة والمضائق (البسفور والدردنيل) لروسيا (١) .

٢- وعد بلفور الذى أصدرته بريطانيا للصهيونية فى ٢/١١/١٩١٧م (محرم ١٣٢٦هـ) بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود .

٣- تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامى إلى دولة غربية الطابع، فيمكن القول بأن الفترة التى بدأت فى تركيا بخلع السلطان عبدالحميد وتولى الاتحاديين للحكم هى الفترة التى اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية وإبراز طابع الجامعة الطورانية، وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية ومنح اليهود وعد بلفور الذى يعطيهم الحق فى إقامة دولة فلسطين (٢) .

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية، ولما احتل الإنجليز استانبول (الأستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير فى أيديهم، وأصبح المندوب السامى البريطانى والجنرال هازنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء فى استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية (٣) .

وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائياً تستدعى اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفى أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقى فى جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها وهذا أفضل قطعاً من كل الـ « مائة مشروع لتقسيم تركيا » وهدم الإسلام (٤) .

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى : ١/ ١١٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ١/ ١١٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ١/ ١١١ .

(٤) انظر: العلمانية. د. سفر الحوالى ، ص ٥٦٩ .

وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنجليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ وتوغلوا فى حقد صليبى دفين فى الأناضول، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد فى الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع وبدأ مصطفى كمال يطفو على السطح تدريجياً فقد ابتهج العالم الإسلامى وأطلق عليه لقب الغازى ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء .

فأحمد شوقى قرنه بخالد بن الوليد فى أول بيت من قصيدة مشهورة (١) .

الله أكبر كم فى الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

ثم يجعله فى مصاف صلاح الدين الأيوبى حين يقول :

حذوت حرب الصلاحيين فى زمن ... فيه القتال بلا شرع ولا أدب

وشبه انتصاره بانتصار بدر فيقول :

يوم كبدر فخيل الحق راقصه ... على الصعيد وخيل الله فى السحب

تهنئة أيها الغازى وتهنئة ... بآية الفتح تبقى آية الحقب (٢)

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر باستسلام الخليفة وحيد الدين محمد السادس القابع فى الأستانة مستكيناً لما يجرى عليه من الذل، كبر فى نظرهم الأول بمقدار ما يهون الثانى، وزاد فى سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرداً، ولم يكن مصطفى كمال فى نظرهم إلا بطلاً مكافحاً يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة الذى خيل إليهم أن الخليفة يمرغه فى التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة .

ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته صنيعة لأعداء الإسلام من اليهود والنصاري وخاصة انجلترا التى رأت أن إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين وأن ذلك لا يمكن أن

(١، ٢) انظر: حاضر العالم الإسلامى: ١ / ١١١ .

يتم دون اصطناع بطل وإعطائه صورة عظيمة وإظهار هالة حوله وتصويره وكأن الكرامات تجرى على يديه وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه بلا ألم عميق إذ الشعور قد تخدّر من نشوة الانتصارات الزائفة، فالحلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل وطلبوا من السلطان إخمادها واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ليصبح محط آمال الناس وموضع تقدير ضباط الجيش فتتصاعد مكانته وهيبته وتتدهور سمعة الخليفة وينحط مركز الخلافة فى أعين الناس، فألاعيب الإنجليزية لا تدرك بسهولة (١) .

لقد استطاعت المخابرات الإنجليزية أن تجد ضالتها المنشودة فى شخصية مصطفى كمال وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزية ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الإنجليزى « أرمسترونج » الذى تعززت علاقته به فى فلسطين وسوريا، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك فى الجيش العثمانى.

نجد أرمسترونج فى كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحة على بداية العقد النفسية عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزواج الثانى لوالدته من أحد الروديسيين الميسورين، وانقطاعه عن زيارتها ولجوئه إلى أصحابه من الرهبان المقدونيين الذين تلقفوه فلقنوه مبادئ اللغة الفرنسية مع صديقه المقدونى « فتحى » فالتهما كتب فولتير وروسو ومؤلفات هوبز وجون ستيورات ميل وغيرها من الكتب الممنوعة، حتى أصبح ينظم الشعر الملتهب بمشاعر القومية ويخطب فى ملأه بالكلية العسكرية، فيحدثهم عن فساد السلطان قبل أن يتجاوز العشرين من العمر ثم انتقل إلى استانبول وانغمس فى ملاهيها وحاناتها، وراح يشرب ويقامر ويغازل قبل أن يسجن لانضمامه إلى « جمعية وطن» (٢) .

ويشهد أرمسترونج بعلاقة الاتحاد والترقى بالدونمة والماسونية فى معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال فيذكر كيف « دعى لحضور أحد اجتماعاتها فى بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية، والجمعيات الماسونية الإيطالية إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية، وقد دأب الاتحاديون على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون فى بيوتهم آمنين من كل خطر، وكان بعضهم كفتحى المقدونى صديق كمال القديم قد انضم إلى جماعة الماسون (البنائين الأحرار) ويروى كيف استعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية، وصاروا يتلقون الإعانات

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

المالية الوافرة من مختلف الجهات ويتصلون باللاجئين السياسيين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد .

ويكشف أرمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده من دون بقية أقرانه، لتنفيذ آخر خطوة فى الخطة البريطانية فيقول : « إن طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الآمر الناهي، فلم يظهر أى احترام لزعماء الاتحاديين وتشاجر مع : أنور وجمال وجاويد اليهودى الأصل، ونيازى الألمانى المتوحش، وطلعت الدب الكبير الذى كان موظفاً صغيراً فى مصلحة البريد .

وبعد أن تحول مصطفى كمال من مجرد ضابط غير ثائر على الأوضاع إلى قائد عسكرى يملك رصيداً من الأمجاد والانتصارات لقب بـ« الغازى » بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانية، ويذكر أرمسترونج صفحة جديدة من حياته الخاصة بعد كشفه عن مجونه وفسقه، وأهليته لنسف الخلافة الإسلامية، فيتطرق إلى زواجه الأسطورى من « لطيفة » تلك الفتاة الأميرية الموسرة التى عادت لتوها من باريس لتقدم خبراتها الإدارية وثقافتها العصرية وإجادتها لعدة لغات فضلاً عن أنوثتها وسحرها مع قصر أبيها الفاخر فى أزمير إلى الغازى مصطفى كمال الذى أوقعته فى حبائلها بتمنعها ودلالها فتخلص من « فكرية » التى أرسلها إلى ميونخ للعلاج من المرض الذى نقله إليها، ثم دمر أمر انتحارها كما تخلص من « صالحة » ليقوم بزواج خاطف من « لطيفة » بعد أن أفسد حياة « سعادت » وعشرات البنات والنساء والغلمان وغيرها، كما تؤكد ذلك الوثائق التى تركها أحد زملائه من الضباط المتقاعدين (١) . وقد كانت لطيفة نفسها ضحية من ضحاياه، فيما بعد حيث طلقها بقرار وزارى وتركها فريسة للأمراض والأوجاع بعد تحذيرها للصمت من كل شذوذه، ولم تبق بجانبه إلا « عفت » تلك الفنانة التى كانت له معلمة ومؤرخة حتى استطاعت أن تقود ذلك الوحش - على حد تعبيرة - بأسلوب الخضوع والعبودية له .

ولكن « لطيفة » هانم أشاكى كيل لم يمنعها قانون حماية مصطفى كمال من أى هجوم أو نقد من التلميح بين سطور مذكراتها التى نشرتها صحيفة « الحرية » التركية فى حزيران « يونيو » عام ١٩٧٣ من تسليط بعض الأضواء على حياة أتاتورك الخاصة وإفراطه فى الشرب، محاولة إلقاء المسئولية على أصحابه وزملائه أمثال : « قلج على » و« نورى جنكر » و« رجب هدى » الذين كانوا يتعمدون إهدار وقته وهم مجموعة من القتلة والأشقياء المعروفين الذين

(١) انظر : صحوة الرجل المريض، ص ٢٦٧ .

ضمهم إلى حاشيته ولحراسته وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه إلى أبعد الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمات الإجرامية التى كلفهم بها للتخلص من بعض خصومه (١) .

إن تلك الأخلاق العفنة التى اشتهر بها مصطفى كمال لا تستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أن أصله من يهود الدونمة .

فقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية : «لقد أكد الكثير من يهود سلانيك أن كمال أتاتورك كان أصله من الدونمة، وهذا هو أيضاً رأى الإسلاميين المعارضين لكمال أتاتورك، ولكن الحكومة تنكر ذلك» (٢) .

ويعلق توينى على نسب مصطفى كمال قائلاً: «إن دماً يهودياً يجرى فى عروق الأسرة الكمالية. فقد كانت سلانيك مهبط اليهود أيام محنتهم، وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الإسلام، ولكن طبائع مصطفى كمال ولون عينه وتكوينه الجسمى يبعده عن أن يكون متأثراً بدماء يهودية» (٣) .

ويقول أسامة عيناى: «إن الدونمة يعتزون كثيراً بأتاتورك ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه منهم وحجتهم فى ذلك أن أتاتورك أسفر عن نياته ضد الإسلام حين تولى الحكم» (٤) .

إن أفعال مصطفى كمال دلت على بغضه للإسلام فيما بعد فبينما كان فى عام ١٣٣٧هـ عندما انتصر على اليونان فى أنقرة يعلن أمام الشعب: «إن كل التدابير التى ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبى» (٥)، نجده بعد أن تمكن من العباد والبلاد فى عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م تعلن الجمعية الوطنية التركية بزعامته عن قيام الجمهورية التركية وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختير عبدالمجيد بن السلطان عبدالعزيز خليفة بدلاً من محمد السادس الذى غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ولم يمارس السلطان عبدالمجيد أى سلطات للحكم (٦) .

كان الخليفة عبدالمجيد رجلاً مهذباً مثقفاً كما يليق بسلالة بنى عثمان، وقد أصبح فى

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٦٧ .

(٢) انظر: يهود الدونمة، د. النعيمى، ص ٨٧ - ٨٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٠ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٤ .

(٥ ، ٦) انظر: حاضر العالم الإسلامى : ١/ ١١٢ .

نظر الأتراك الصلة الحية بالتراث والتاريخ العثمانى الإسلامى، وكانت جماهير استانبول تهرع لإلقاء نظرة عليه وتحيته كل جمعة وهو فى طريقه لأداء الفريضة، وكان الخليفة مدركاً تمام الإدراك مكانة منصبه السامية، وعراقة السلالة التى ينتمى إليها فكان مرة يرتدى عمامة محمد الفاتح وثانية يتقلد لسيف السلطان سليمان القانونى .

استشاط مصطفى كمال غيظاً، فما كان ليطيق أن يرى أو يسمع عن محبة الناس وتعلقهم بآل عثمان وبالخلافة والسلطنة، فمنع الخليفة من الخروج للصلاة ثم خفض مخصصاته للنصف وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنار، وضمن تأييد الدول العظمى لسياسته التعسفية.

دعا مصطفى كمال الجمعية التأسيسية إلى اجتماع فى ٣ آذار/ مارس ١٩٢٤م، وكان علي ثقة تامة من أن أحداً فى الجمعية التأسيسية - التى لم يبق منها سوى اسمها - لن يجرؤ على معارضته، وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التى أسماها « هذا الورم من القرون الوسطى » (١) وقد أجيز القرار الذى شمل نفى الخليفة فى اليوم التالى دون مناقشة، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة التى كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم (٢) .

لقد كان مصطفى كمال ينفذ مخططاً مرسوماً له فى المعاهدات التى عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٣م على تركيا فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع « وهو رئيس الوفد الإنجليزى فى مؤتمر لوزان » وهى :

١- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام .

٢- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً .

٣- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة .

٤- اتخاذ دستور مدنى بدلاً من دستور تركيا القديم (٣) .

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامى فشوقى الذى مدحه سابقًا بكى الخلافة فقال:

---

(١) انظر: التاريخ العثمانى فى شعر أحمد شوقى لمحمد أبو غدة، ص ١١٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص ٢٨٧ .

عادت أغانى العرس رَجْعَ نواح ونُعيتِ بين معالم الأفراح

كُفنتِ فى ليلِ الزفاف بثوبه فنتِ عند تَبَلُّج الإصباحِ

ضَجَتْ عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالكُ ونواحِ

الهندُ والهة، ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاحِ

والشام تسأل، والعراق وفارسٌ أَمَحا من الأرض الخلافة ماحِ

يا للرجال لحرةٍ موءودة قُتِلتْ بغير جريرة وَجُناحِ

ثم انبرى شوقى لوجه التقريع والنقد الشديد إلى أتاتورك الذى يريد بجرة قلم وبالحديد والنار أن ينقل الأتراك رغم أنوفهم من آسيا إلى أوروبا، ومن جذورهم العميقة فى الشرق إلى الانتظار على أبواب الغرب :

بَكتِ الصلاة وتلك فِتنةُ عابثٍ بالشرع عربيدِ القضاء وَقاحِ

أفتى خُزَعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر فى البلاد بُواحِ

إن الذين جرى عليهم فِقْهُهُ خُلقوا لفِقهِ كتيبة وسِلاحِ

نَقَل الشرائعَ والعقائد والقُرى والناسَ نَقْلَ كتائب فى الساحِ

تركته كالشبح المؤلة أمه لم تَسْلُ بَعْدُ عبادة الأشباحِ

غرته طاعات الجموع ودولة وَجَد السوادِ لها هوى المرتاح (١)

ولم يترك شوقى أن يبين سبب ظهور هؤلاء المتسلطين إلى جهل الشعوب واستسلامها للطغاة المستبدين فقال :

مجدُ الأمور زواله فى زَلةٍ لا ترْج لاسمك بالأمور خلوداً

خلعته دون المسلمين عِصابةٌ لم يجعلوا للمسلمين وجوداً

يقضون ذلك عن سواد غافل خُلِقَ السواد مضَلاً ومَسْودا

---

(١) انظر: التاريخ العثمانى فى شعر أحمد شوقى، ص ١١٢ .

إليّ نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داءً للشعوب مُبيْدا
وإذا سبى الفردُ المسلط مجلساً ألفيت أحرار الرجال عبيداً (١)

لقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الإسلامية ودخلت تركيا لعمليات التغريب البشعة؛ فألغيت وزارة الأوقاف سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وعهد بشئونها إلى وزارة المعارف، وفى عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م أغلقت المساجد وقضت الحكومة فى قسوة بالغة على كل تيار دينى وواجهت كل نقد دينى لتدبيرها بالعنف، وفى عام (١٣٥٠ - ١٣٥١هـ/ ١٩٣١ - ١٩٣٢م) حددت عدد المساجد ولم تسمح بغير مسجد واحد فى كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم .

وتمادى مصطفى كمال فى تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ، وأمرهم أن يفسحوا فى خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحدث عن الشئون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له. وأغلق أشهر جامعين فى استانبول وحول أولهما وهو مسجد آيا صوفيا إلى متحف، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

أما الشريعة الإسلامية فقد استبدلت وحل محلها قانون مدنى أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسرى عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م. وغيرت التقويم الهجرى واستخدمت التقويم الجريغورى الغربى، فأصبح عام ١٣٤٢هـ ملغياً فى كل أنحاء تركيا وحل محله عام ١٩٢٦م.

● وفى دستور عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية، وغير نص القسم الذى يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله كما كان عليه الأمر من قبل .

● وفى عام ١٩٣٥م غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم يعد الجمعة بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين .

● وأهملت الحكومة التعليم الدينى كلية فى المدارس الخاصة، ثم تم إلغاؤه بل إن كلية الشريعة فى جامعة استانبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التى أغلقت عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .

(١) انظر: الشوقيات ديوان أحمد شوقى : ١/ ١١٢ .

● وأمعنت حكومة مصطفى كمال فى حركة التغريب فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدولة الأوروبية (١) .

● وفى عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م بدأت الحكومة تفرض إجباريا استخدام الأحرف اللاتينية فى كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية . وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية وحذفت من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرم استعمال الحرف العربى لطبع المؤلفات التركية، وأما الكتب التى سبق لمطابع استانبول أن طبعتها فى العهود السالفة، فقد صدرت إلى مصر، وفارس والهند، وهكذا قطعت حكومة تركيا ما بين تركيا وماضيها الإسلامى من ناحية، وما بينها وبين المسلمين فى سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى (٢) .

● وأخذ أتاتورك ينفخ فى الشعب التركى روح القومية، واستغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة فى بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة فى العالم ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامى وخلع مصطفى كمال على نفسه «أتاتورك» ومعناه أبو الأتراك (٣) .

● وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوروبى فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك فى ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين أغلبهم من فرنسا والنمسا (٤).

● وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور، وألغت قوامة الرجل على المرأة وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص .

● وفى زواجه من لطيفة هانم ابنة أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كى يشجع على نبذ العادات الإسلامية واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهى بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدى أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ (٥) .

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى : ١/ ١١٥ .

(٢، ٣) المصدر السابق نفسه : ١/ ١١٥ .

(٤) انظر: المسألة الشرقية للدسوقى، ص ٤٢٨ - ٤٣٢ .

(٥) انظر: حاضر العالم الإسلامى : ١/ ١١٦ .

• وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية (١) .

• عمل على تغيير المناهج الدراسية وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضى التركي القومى، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، واستبدلت بكلمات أوروبية لاتينية قديمة .

• وأعلنت الدولة عزمها فى التوجه نحو أوروبا وانفصلت عن العالم الإسلامى والعربى، وأمعنت حكومتها فى استدبار الإسلام حتى حاربت بقسوة أى محاولة ترمى إلى إحياء المبادئ الإسلامية (٢) .

وكان خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر فى مصر وأفغانستان وإيران والهند الإسلامية، وتركستان وفى كل مكان من العالم الإسلامى إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة وأن يضربوا المثل بتركيا فى مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر ـ الأهرام ، والسياسة والمقطم ـ ذات الاتجاهات المضادة للإسلام، والمدعومة النفوذ الغربى واليهودى والماسونى .

لقد بررت تلك الصحف تصرفات كمال أتاتورك ووافقت عما ابتدعه، ونشرت له أقوال: « ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين » وأنه ـ أى مصطفى كمال ـ : « ألقى القرآن ذات يوم فى يده فقال: إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت فى العصور الغابرة » .

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية ـ هى كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وإنجلترا فحسب، بل هى دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية فى روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية فى الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل فى حروف الأناجيل وزى رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغ الكنائس(٣) .

وكان للإعلام اليهودى دور كبير فى الترويج لهذه الردة، مثلما كان له دوره البارز فى تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة إسلامية، وكانت تزين له أن ما يقوم به من المذابح

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى : ١/ ١١٦ .
(٢) انظر: الاتجاهات الوطنية لمحمد حسين : ٢/ ١٠٠ .
(٣) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالى، ص ٥٧٣ .

والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية، كما كانت منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية، والترويج لفنون الانحلال الخلقى معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست إلا مظاهر للتمدن والتحضر (١).

إن الحقيقة المرة أن مصطفى كمال أصبح نموذجاً صارخاً للحكام في العالم الإسلامى وكان لأسلوبه الاستبدادى الفذ أثره فى سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربى مبرراً كافياً للقضاء على الإسلام، فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد الشمال الأفريقى وإخراجها من دينها وعقيدتها وإسلامها بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم (٢).

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة.

قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلمانى التركى المعادى للإسلام وظهرت أهم الثورات فى المنطقة الجنوبية الشرقية عام ١٣٤٤هـ، ثم فى منيمين عام ١٣٤٩هـ وقد قمعها الكماليون بشدة منقطعة النظير وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء وأهملت المنطقة اقتصادياً وعلمياً.

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى وتلاميذه من بعده، وقد كتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان «رسائل النور» فى سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مبادئ الكماليين والعلمانية، ولم تعمد حركته إلى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان. وقد حاول أتاتورك استمالته ونافسه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه:

(إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هى فى الصلاة، وإن الذى لا يصلى خائن وحكم الخائن مردود» (٣).

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت فى الانتشار سراً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى: ١/ ١١٧.

(٢) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالى، ص ٥٧٣.

(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامى: ١/ ١١٧.

«إننى لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه فى وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية. أما نور القرآن الذى يأبى إلا أن يشع فى أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة.

أسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم فى الكفر المطلق: إننى أقول بمنتهى ما أعطانى الله من قوة: افعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام...» (١).

فأعيد إلى منفاه وبقى حتى عام ١٣٦٧هـ حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم بخصوص النشاط الدينى (٢).

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية فى برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهورى) لعام ١٣٤٩هـ مرة وعام ١٣٥٥هـ مرة ثانية والتى نص عليها الدستور التركى وهى المبادئ الستة التى رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهى: القومية، الجمهورية، الشعبية، العلمانية، الثورة، سلطة الدولة (٣).

توفى أتاتورك عام ١٣٥٦هـ بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال بمرض قبل وفاته بسنين بمرض عضال فى الكلية لم يعرف كنهه، وكان يتعرض لآلام مبرحة مزمنة لا تطاق، كان السبب فى إدمانه شرب الخمر مما أدى إلى إصابته بتليف الكبد والتهاب فى أعصابه الطرفية وتعرضه لحالات من الكآبة والانطواء - وقد تدهور فى المستويات العليا للمخ - لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريداً فى القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة (٤).

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى: ١/١٢٢.
(٢) المصدر السابق نفسه: ١/١٢٢.
(٣) المصدر السابق نفسه: ١/١١٦.
(٤) انظر: المسألة الشرقية، محمد ثابت الشاذلى، ص ٢٤٢.

المبحث السابع

بشائر إسلامية في تركيا العلمانية

بعد وفاة أتاتورك عام ١٣٥٦هـ تولى الرئاسة رفيقه على الدرب العلمانى عصمت اينونو وسار على نهج سياسة أتاتورك، وعند نشوب الحرب العالمية الثانية التزمت تركيا الحياد ثم دخلت فى نهاية الحرب إلى جانب الحلفاء وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تقاربت تركيا من الولايات المتحدة ودخلت فى المعاهدات معها، وأقامت أمريكا على الأراضى التركية قواعد عسكرية، وظهرت الأزمات الاقتصادية العنيفة التى تزايد خطرها يوماً بعد يوم، وازداد التضخم المالى .

وسمحت الدولة بتشكيل أحزاب علمانية جديدة فنشأ الحزب الديمقراطى عام ١٣٦٦هـ من انشقاق داخل صفوف حزب الشعب الجمهورى نفسه، وفاز فى الانتخابات بدغدغة عواطف الناس، وقد تبنى السياسة الأمريكية وأصبح رئيسه جلال بايار رئيساً للجمهورية عام ١٣٧٤هـ، كما أصبح عدنان مندرس رئيساً للوزراء، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق فى الأهمية منصب رئيس الجمهورية .

وبقيت الأزمات والكوارث الاقتصادية فى تردٍ مستمر وتوجهت الانتقادات للحزب الحاكم. فحل الحزب القومى الذى ظهر عام ١٣٦٨هـ بحجة معارضته المبادئ الكمالية ولكنه تشكل باسم آخر هو الحزب القومى الجمهورى، وفرضت غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الحكومة، وضيق على أساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة، وفرضت قيود على الاجتماعات عام ١٣٧٦هـ.

ووجه الحزب الديمقراطى التهمة إلى كثير من الأبرياء بالاشتراك بما سمى « مؤامرة الضباط التسعة » واتهمهم بالارتداد عن مبادئ العلمانية والميل إلى جانب المنظمات الدينية الإسلامية وقد حصل بالفعل بعض التراجع عن بعض العداء ضد الإسلام بفعل الضغط الإسلامى (١).

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى : ١ / ١٢٠ .

حتى إن حزب الشعب الجمهورى بدأ يغير من اتجاهاته العلمانية منذ الانتقال إلى ظاهرة التعدد الحزبى، حيث وافق الحزب على إنشاء كلية الإلهيات، ومعهد العلوم الإسلامية فى أنقرة.

واعتمد الحزب الديمقراطى على الجماعات الإسلامية فى انتخابات ١٤ أيار ١٩٥٠م، وكان سبباً رئيسياً فى فوزه على حزب الشعب الجمهورى، وفضلاً عن ذلك اعتمدت أحزاب أخرى على الجماعات السالفة الذكر، مثل حزب العدالة فى المدة الواقعة بين ١٩٦١-١٩٨٠م.

وأما حزب الطريق المستقيم؛ فإنه استمد قوته فى الثمانينات من الرأى العام الإسلامى.

وركب حزب العمل القومى بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الإسلامية وغَيَّرَ مفهومه عن العلمانية، وبدأ بالتقرب من الرأى العام الإسلامى، وكان شعار هذا الحزب فى انتخابات عام ١٩٨٧م (دليلنا القرآن، وهدفنا الطوران) [١] .

إلا أن العمل الإسلامى المنظم الذى شق طريقه فى تلك الأمواج العلمانية المتلاطمة يظهر جلياً مع ظهور حزب السلامة الوطنى.

*** كانت الحركة الإسلامية فى تركيا قبل ظهور حزب السلامة الوطنى تتكون من:**

- المتصوفة المناوئة للحركة الكمالية، وهؤلاء حافظوا على التراث الإسلامى بمفهومه الخاص بهم، وواصلوا تحفيظ القرآن سراً وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الإسلامية فى نفوس الرأى العام التركى، وفى هذا المجال قاموا بتكوين جمعيات للإنفاق على طلاب مدارس الأئمة والخطباء للإكثار منهم، وتعويض النقص الذى نتج عن اختفاء الدعاة الإسلاميين عندما اصطدم بهم الحزب الكمالى .

- حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النورسى والتي تعرف بحركة النور والتى تركزت جهودها على الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ومحاربة المادية الملحدة والاهتمام بتربية الأجيال وابتعد الكثير من اتباعها عن السياسة [٢] .

عندما تحصلت تركيا على نوع من الحريات تقدم الإسلاميون المؤمنون بضرورة خوض

---

(١) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. أحمد النعيمى، ص ١٨٤ - ١٨٧ .

(٢) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، عبدالحميد حرب، ص ٤٣٥، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر البحرين ١٩٨٥ .

المعترك السياسى بتأسيس حزب النظام الوطنى فى كانون الثانى عام ١٩٧٠م، حيث قام على تأسيسه يونس عارف، وقد جاء دعم هذا الحزب بصورة رئيسية من التجار الصغار والحرفيين والرجال المتدينين فى الأناضول، وتوسع الحزب فى مدة قصيرة جداً وبدأ يشكل تهديداً خطيراً للأحزاب العلمانية، وقد جاء فى بيان التأسيس ما يلى : «أما اليوم: فإن أمتنا العظيمة التى هى امتداد لأولئك الفاتحين الذين قهروا الجيوش الصليبية قبل ألف سنة، والذين فتحوا استانبول قبل ٥٠٠ سنة، أولئك الذين قرعوا أبواب فينا قبل ٤٠٠ سنة.. وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة. هذه الأمة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها تجدد عهدها وقوتها مع حزبها الأصيل (حزب النظام الوطنى)، إن حزب النظام الوطنى سيعيد لأمتنا مجدها التليد ، الأمة التى تملك رصيداً هائلاً من الأخلاق والفضائل يضاف إلى رصيدها التاريخى، وإلى رصيدها الذى يمثل الحاضر المتمثل فى الشباب الواعى المؤمن بقضيته وقضية وطنه» (١) .

* **وقدم حزب النظام برنامج عمله فى منظومة من الأفكار يمكن إيجازها فى الآتى :**

١- جميع المؤسسات الهامة فى تركيا فى أيد غربية غير وطنية، والأمر الطبيعى والواجب القومى يقضى بأن تعود هذه المؤسسات إلى أصحابها .

٢- عاش الناس أربعين سنة والقوى الخارجية المؤثرة تحاول إبعادهم عن محورهم الحقيقى إلى محور غريب، فوقع الناس فى ضيق وعنت شديدين، ولابد من إرجاع الناس إلى طبيعتهم ومحورهم الأصيل (فطرة الله) حتى يستقيم أمرهم ويتخلصوا من عقائدهم .

٣- إن التسميات المعاصرة مثل اليمين واليسار والوسط هى من اختراع الماسونية والصهيونية، وكلها مؤسسات تابعة لغرض واحد وهو أن تنحرف تركيا عن خطها الحضارى الذى عمره ألف سنة، وأنه لابد من التخلص من هذه الأسماء الغريبة والعودة إلى الخط الأصيل الذى يصل الماضى التليد بالغد المشرق.

٤- إن حزب النظام الوطنى لا يشبه الأحزاب الأخرى، فجميع الأحزاب تقوم على أساس التسلط وشهوة الحكم، ونحن نقوم على أساس جديد يبتغى مرضاة الله والعمل فى سبيل الوطن.

٥- إن نظام التعليم فى تركيا فاسد وضعته شرذمة من الحاقدين من الصليبيين واليهود

(١) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا ، ص ١٢٦ .

بشكل لا يناسب الأمة فهو يسقط من حسابه كل قيمة معنوية أو أخلاقية أو دينية، غايته فصل تركيا عن ماضيها الإسلامى وسلخها عن دينها وقيمتها، وبهذه الطريقة فقط يستطيعون أن يقتلوا الجيل ويدمروا البلاد، لقد مرت خمسون سنة ونحن نسمع أن تركيا جزء من أوروبا، وأن النهضة لابد أن تقوم على أنقاض الدين كما حصل فى الغرب متناسين أن الإسلام يختلف عن الكنيسة ودولة القس .

٦- فى الوقت الذى تمنع الدولة فيه توزيع الكتب على المعاهد الإسلامية العالية وتحاول إغلاق معاهد الأئمة والخطابة ومدارس تعليم القرآن، تنفق الملايين على المسارح والممثلين وثمناً للمشروبات التى توزع فى السفارات . وفى الوقت الذى تعترض الدولة على الطالبات اللواتى يلبس الحجاب على رؤوسهن، تدرس فى كتب اللاهوت فى كل مكان دونما رقابة أو ضجة وهذا يعنى أن حزب النظام الوطنى أكد العودة إلى الإسلام الحقيقى (١).

إن اليهود والعلمانيين فى تركيا لم يتحملوا هذا الصوت الفتى الذى يتدفق بالحيوية والنشاط ويحركه فى قضاياه الإيمان العميق بالإسلام وبضرورة رجوع الشعب التركى إليه، ولذلك تحرك الجيش التركى فى آذار ١٩٧١م بسبب نشاط حزب العمال وأحال قضية حزب النظام الوطنى إلى المحكمة الدستورية التى أصدرت قراراً جائراً بحل الحزب فى ٢١ مارس ١٩٧١م (٢).

*** وقد جاء فى قرار محكمة أمن الدولة العليا ما يلى :**

١- إن المبادئ التى قام عليها الحزب وتصرفاته تخالف الدستور التركى.

٢- العمل على إلغاء العلمانية فى البلاد، وإقامة حكومة إسلامية .

٣- قلب جميع الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التى تقوم عليها البلاد.

٤- العمل ضد مبادئ أتاتورك .

٥- القيام ببعض التظاهرات الدينية .

وجاء فى حكم المحكمة أيضاً أنه لا يحق لأى شخص من شخصيات الحزب أن يعمل من خلال أى حزب سياسى آخر، ولا أن يؤسسوا أى حزب جديد، ولا أن يرشحوا أنفسهم لأى

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٨ .

انتخابات قادمة ولو بشكل مستقلين لمدة خمس سنوات . وهذا يعنى أن المدة بين نشوء الحزب وإغلاقه كانت ستة عشر شهراً فقط (١) .

وفى تلك الأحداث الساخنة والمشادة العنيفة بين الإسلام والعلمانية فى تركيا ظهر المجاهد الكبير نجم الدين أربكان يخوض المعارك الفكرية مع العلمانيين، ففى ٢ آب عام ١٩٧٢م وقبل تأسيس حزب السلامة الوطنى تحدث أربكان فى المجلس الوطنى فقال: «فى رأينا أن التوضيح المهم الأكثر ملاءمة لجعل الدستور، دستوراً ديمقراطياً، لابد أن تكون هناك مواد دستورية مناسبة قبل تحديد الحركات وحقوق الفكر والمعتقد، وهكذا من الممكن إيجاد مناخ للتطبيقات الحالية والتي تتعارض مع المبادئ الأساسية للدستور، وفى مثل هذه الحالة، على المرء أن يتكلم عن وجود فكر الحرية والمعتقد، وإن دولتنا لتسعى وتنمو، ومن ثم لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضارية فى العالم» (٢) .

كان أربكان يرى أن النظام الديمقراطى لا يعد ديمقراطياً بدون الحقوق وحرية الفكر والمعتقد، وكان يقصد من وراء ذلك الحرية التامة لاستخدام نشر الأفكار الإسلامية، وقد فسرت كل من صحيفتى «جمهوريت» و«ملليت» العلمانيتين تصريحات وأقوال أربكان بأنها ذريعة لاستخدام الدين لأغراض سياسية (٣) .

لقد هاجم نجم الدين أربكان العلمانية واستفاد من الثغرات الموجودة فى الدستور التركى ورد على الحملة الإعلامية العلمانية الموجهة ضد أطروحاته فقال: «إن مصطلحات القومية، والديمقراطية والعلمانية والاجتماعية، والتى تقوم عليها شخصية الدولة، استناداً إلى المادة الثانية من الدستور، إن هذا من الممكن توضيحه بأن هذه المادة لا تسمح باستخدام وتفسير المعارضة فى الممارسة، وفى هذا المجال وبصورة خاصة مصطلح القومية بحاجة إلى توضيح، وهذا يعنى أنها بحاجة إلى تحديدها بطريقة تقوم على احترام جميع القيم الروحية لقوميتنا من حيث التاريخ والتقاليد (٤) .

وأضاف نجم الدين قائلاً : «الدين هو معتقد أساسى ونظام فكرى للأفراد، وهذا يعنى الاعتراف بحق الحرية والوجود والاعتراف بحقوق المعتقد للفرد. إن حرمان الشخص من هذه الأسس هو ضد الروح والمبادئ الأساسية للدستور خاصة الفقرة «١» من المادة «١٩» والمادة

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا ، ص ١٢٨ .

(٢) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص ١٢٨ .

(٣ ، ٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٨ .

« ٢٠ » من الدستور [١] .

بعد هدوء جو العنف والقلق السياسى فى السياسة الداخلية التركية من جراء الأحكام العرفية؛ قام أربكان بلم شعث حزب النظام الوطنى وأسس حزباً جديدا أطلق عليه حزب السلامة الوطنى .

استطاع حزب السلامة الوطنى خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثمانية أشهر من تنظيم قواعد فى ٦٧ محافظة، وأعلن نجم الدين أربكان بأن نجاح حزبه خلال هذه المدة يعود إلى تعاطف الرأى العام المحلى مع الحزب الذى ينادى بأهمية الأخلاق الدينية والمواقف المعنوية، وعلى هذا الأساس فقد أكد حزب السلامة الوطنى فى برنامجه على ما يأتى :

(قيام تجمع يعتمد الفضيلة والأخلاق ويعطى القيمة المعنوية للإنسان مثلما نصت عليه المادتان العاشرة والرابعة عشرة من الدستور والتى تؤكد على القيمة المعنوية للإنسان على أساس من الأخلاق والفضيلة) [٢] .

•• أهم أعمال حزب السلامة :

عندما شعر حزب السلامة بقوته وصار جزءاً من الحياة السياسية فى تركيا شرع منظرو الحزب بشن حملة إعلامية منظمة على أسس العلمانية فى تركيا، وبينوا للناس إن الإطار السياسى لتركيا الجديدة يناقض المبادئ السياسية للإسلام، ويقضى الإسلام بتوحيد السلطات السياسية والدينية تحت سيطرة الدين، وفى هذا المعنى فإن العلمانية، والنظام العلماني ضد الإسلام، والشريعة والدين وخاصة تطبيقها فى تركيا، فإنها صممت لضمان الزندقة [٣] .

ويردف هؤلاء : «إن الخونة والكذابين هم وحدهم الذين يقولون بأن الدين والسياسة شيئان منفصلان، لأن المسلمين لا يفصلون شئون الدنيا عن شئون السماء. لقد أصبح واضحاً بأن التشريع ليس من حق الإنسان. أما إذا وضع القوانين أو ادعى بأنه يفعل ذلك فإن علمه هذا يعد خطيئة.. إن خالق القوانين الإسلامية هو نفسه خالق الإنسان، لقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين. إن القوانين الإنسانية لا تتناسب وطبيعة الإنسان. إن الإسلام نظام يصلح لكل زمان إنه يمثل كلا من الدين والدولة، إن القرآن لم ينزل ليقرأ فى القبور أو يغلق عليه فى أماكن العبادة لقد أنزل القرآن ليحكم [٤] .

---

(١) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية لحزب السلامة الوطنى، ص ٤٣٥ .
(٢) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة ، د. النعيمى، ص ١٣٠ .
(٣ ، ٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣١ .

إن المجاهد الكبير نجم الدين أربكان شق طريقه بصعوبة فى محاربته للعلمانية بالحجة والبرهان، ولقد عبر عن آرائه بصراحة خلال مباحثاته مع ضياء الحق حاكم باكستان سابقاً ـ رحمه الله ـ مؤكداً أن دخول الإسلام فى كل جوانب الحياة هو الشرط الوحيد لقيام دولة إسلامية، وفى هذا المجال قال نجم الدين أربكان: «قبل كل شيء يجب أن تكون الدولة إسلامية، إذا لم يكن الأمر كذلك فإن الدين الإسلامى فى خطر» (١) .

إن حزب السلامة الوطنى لم يحاول أن يتخذ موقف الهجوم المباشر على الديمقراطية فى انتخابات عام ١٩٧٣م، إلا أنهم عبروا عن مشاعرهم الحقيقية عن ذلك فى عام ١٩٨٠م، حيث بدأوا ينتقدون الديمقراطية مؤكدين أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام (٢) .

وفى هذا المجال أكد حزب السلامة أن «الديمقراطية مؤامرة غربية لقيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربية والمسيحية. إنه انتصار للمسيحية ضد الإسلام، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهية إذ لا يمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها» (٣) .

وبالإمكان تلخيص وجهة نظر حزب السلامة الوطنى عن الرأسمالية والاشتراكية، فى مقالة لنجيب فاضل جاء فيها:

«نحن نقسم طريق الخلاص إلى مجموعتين: الأولى هى طريقة الإسلام فى الخلاص، والثانية يمكن تصنيفها كنظم وراثية والتى لا توصل إلى الخلاص. إن المجموعة الثانية لا تعتمد على التعاليم الإلهية وتناقض نفسها باعتمادها على قوانين من صنع الإنسان مثل الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية. لقد تم التأكيد أيضاً على أن الله قد أمرنا أن نحكم طبقاً لتعاليم القرآن الكريم، وليس حسب آرائنا الخاصة. إذا حكم الناس حسب نظام التصويت، فإنهم لن يكونوا بحاجة إلى كلام الله. فى المجتمعات التى تحل فيها كل القضايا وفقا لنظام التصويت لا ينتشر الإسلام (٤) .

أما فيما يتعلق بموقف الحزب من الولايات المتحدة فقد عارض الحزب الوجود الأمريكى فى الأراضى التركية، كما عارض استخدام الولايات المتحدة الأراضى التركية فى استخدامها ضد دول منطقة الشرق الأوسط. ونتيجة لهذا فقد انتقد الحزب حكومة ديميريل فى أواخر عام ١٩٧٩م بسبب زيادة النشاط العسكرى الأمريكى فى تركيا، حيث قدم استجواباً إلى

---

(١) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة، ص ١٣٢ .
(٢، ٣، ٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٥ .

مجلس النواب التركى مطالباً فيه محاسبة حكومة ديميريل بسبب هذا النشاط الأمريكى، وقد دلل هذا على قيام طائرتين بالهبوط فى مطار مالقا وهما تحملان ١٨٠ عسكرياً مع أحدث المعدات الحربية، مؤكداً أن هذا يشكل تهديداً لأمن المنطقة .

وفى الحقيقة استطاع الحزب أن يشكل رأيًا عامًا مناهضًا للغرب والولايات المتحدة عن طريق المشكلة القبرصية والتى قام فيها أربكان بدور رئيسى فى إقناع القيادات العسكرية بإنزال قواتها فى الجزيرة. فقد تولى القيادة مدة غياب أجويد فى زيارة لدول أوروبا الشمالية.

ولقد عمل الحزب بقيادة أربكان على إفشال جميع الخطط والمشاريع اليونانية فى بحر أيجة، وفى هذا المجال يقول أربكان: «سنتحرك وفق أسس العدل والحق لا وفق الأسس التى تحددها الأقطار الأوروبية الكبيرة» (١) .

وفيما يتعلق بالسوق الأوروبية المشتركة يقول أربكان: «إن تركيا يجب أن لا تكون فى السوق الأوروبية المشتركة للدول الغربية، وإنما فى السوق المشتركة للدول الشرقية، إن تركيا متخلفة بالنسبة للغربيين ولكنها متقدمة بالنسبة للشرقيين، إذا دخلت تركيا السوق المشتركة فى الأوضاع السائدة اليوم فإنها ستصبح مستعمرة» (٢) .

لقد كان لحزب السلامة تأثير كبير فى الشارع التركى وعمل على إعادة الهوية الإسلامية ونازل بحجج الإسلام وبراهينه الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية، وكان زعيمه نجم الدين أربكان يتحدث بعزة الإسلام ويوضح للشعب التركى خطورة الانحراف عن منهج الله ويوجه صواريخه إلى أعداء الإسلام، وفى هذا المجال يقوّم لنا نجم الدين أربكان النظامين الاشتراكى والرأسمالى، وفيما يتعلق بالأول يقول أربكان: «إنه فكر يهدد الحريات، ويضر بالكيان القومى، ويركز على مصادر أجنبية» (٣)، أما فيما يتعلق بالثانى يقول أربكان : «الفكر الرأسمالى هو فكر يقوم على الربا، ومصدره أجنبى أيضاً أما حزب السلامة فيمضى فى طريقه رافعاً راية الأخلاق والأصالة. إن النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى لا يقتصران على ميدان الاقتصاد، وإنما يمتد تأثيرهما إلى الميدانين الاجتماعى والمعنوى، ورغم اختلاف النظامين فى الظاهر، فكلاهما مادى، وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادى فى مقابل

---

(١) انظر: الأحزاب السياسية فى تركيا، حسين فاضل كاظم، ص ١٩٢ .

(٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص ١٣٧ .

(٣) انظر: يقظة الإسلام فى تركيا، أنور الجندى، ص ٢٩ ، ٣٠ .

انحطاط الأخلاق والمعنويات، وكلاهما يزداد ارتفاعاً مادياً مع هبوط الثقافة والأخلاق » (١).

إن غاية حزب السلامة هو الوصول إلى فهم « تركيا الكبرى » وحرص على التمسك بالماضى العثمانى المجيد، وبيّن للناس أهمية الالتزام بالإسلام واتبع سياسة تؤدى فى مداها البعيد القضاء على مبادئ أتاتورك العلمانى، وهو فى نفس الوقت يدعو إلى عدم التعاون مع العناصر غير الإسلامية فى تركيا، وهو فى نفس الوقت يعارض الشيوعية بعنف، ويؤكد على أن أفضل طريقة لإنتشار المبادئ الإسلامية هو توفير الحياة الحرة للمواطن التركى.

ودعا أربكان إلى ضرورة تطوير علاقات تركيا مع العالم الإسلامى فى المجالات كافة، حيث قال: « وأن لا تظل هذه العلاقات صورية، وإنما يجب أن تكون علاقات فعلية متطورة حيث إن فى العالم ما يقرب من خمسين دولة إسلامية يبلغ سكانها ملياراً وهذه الدول الإسلامية سوق طبيعية قوية لإنتاجنا » (٢).

وعلى هذا الأساس، فقد انتقد أربكان كلا من الصهيونية والماسونية (٣) حيث قال فى هذا المجال: « إن الصهيونية والماسونية حاولا عزل تركيا عن العالم الإسلامى، ومؤامراتهم مستمرة، ذلك أن المعركة بين الإسلام فى تركيا والصهيونية قد اتخذت أشكالاً عدة وهى حرب طويلة المدى، ومستمرة منذ خمسة قرون، منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وعمل على فتح رومية، ولكن هذا الصراع فى المائة سنة الأخيرة، أخذ شكلا مخططا أعد له سلفاً، فاستطاعت بعض القوى عام ١٨٣٩م أن تؤثر فى جسم الدولة الفكرى، وتدخل القوانين الوضعية البعيدة عن الإسلام بوساطة المنظمات اليهودية الماسونية، وقسم العمل اليهودى فى تركيا إلى ثلاث مراحل مدتها ثلاثون سنة، وهى عبارة عن تنفيذ فكرة ليتويود وهرتزل بإسقاط الدولة الإسلامية فى تركيا، أما المرحلة الثانية فقد استمرت عشرين سنة، وكان لإبعاد تركيا عن الإسلام، ثم نشأ حزب الاتحاد والترقى، وكانت له علاقة باليهود والماسونية، ومن ثم استطاع إسقاط السلطان عبدالحميد، وبدأ فى إبعاد تركيا عن النمط الإسلامى وتغريبها بطرق عديدة، أهمها العلمانية التى كانت تعنى فى تركيا بالتحديد اضطهاد المسلمين (٤).

---

(١) انظر: يقظة الإسلام فى تركيا، ص ٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠.

(٣) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص ١٤١.

(٤) انظر: الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، الجندى، ص ١١٧.

وقد خاض حزب السلامة الوطنى الانتخابات العامة لعام ١٩٧٣م حيث حصل على ١١,٩٪ من الأصوات، أى بواقع ١,٢٤ مليون من أصوات الناخبين، ونتيجة لذلك فقد مثل نفسه فى المجلس الوطنى التركى بواقع ٤٥ مقعداً (١).

وقد أعلن أربكان عشية انتخابات ١٩٧٣م: «إننا سنعيد عهد الرسول ﷺ، كما أعلن أربكان بعد الانتخابات أن شعار حزبه هو - المفتاح - وهذا ما سيؤهل للحزب فتح الطرق المغلقة أمامه، ويكون مفتاح كل الحكومات الائتلافية» (٢) .

ونتيجة لذلك فقد تكونت أول حكومة ائتلافية، ضمت حزب الشعب الجمهورى، وحزب السلامة الوطنى، وذلك فى ٢٥ كانون الثانى ١٩٧٤م، حيث ضمت الوزارة ثمانية عشر وزيراً من أعضاء حزب الشعب الجمهورى، وسبعة أعضاء من حزب السلامة.

وبفضل الله تعالى ثم جهود حزب السلامة الوطنى بقيادة أربكان، مثلت تركيا ولأول مرة فى آذار ١٩٧٤م فى مؤتمر القمة الإسلامى، وقد اختير وزير الداخلية التركى «وهو من حزب السلامة الوطنى» فى هذا المؤتمر.

إن نشاط حزب السلامة الوطنى خلال السبعينيات أدى إلى خرق المظاهر العلمانية فى تركيا، حيث انتشرت بعض المظاهر الإسلامية وخاصة فى شهر رمضان، كما تم التوسع فى المدارس الإسلامية، حيث سمح لها بتدريب الأئمة والوعاظ، وأصبحت هذه المدارس تعلم حوالى ١٠٪ من الطلاب فى المدارس الثانوية بما فيهم ٥٠,٠٠٠ من العنصر النسائى فى تركيا، وفى الحقيقة وصل التصويت الإسلامى بين ١٠٪ - ١٥٪، وقد اعتبر العلمانيون هذه النسبة بمثابة خطر على المدنية التركية (٣) .

وبتأثير من حزب السلامة الوطنى، وطلاب النور فى تركيا خرجت إلى حيز الوجود سلسلة «ألف كتاب» التى دعمتها وزارة التربية، وتناولت هذه السلسلة الثقافية التركية بمعيار إسلامى وأخذ حزب السلامة يعمق المفاهيم الإسلامية فى المجلس الوطنى التركى الكبير، وهاجمت الصحف الإسلامية فى تركيا كمال أتاتورك وأطلقت عليه اسم «الدجال» وضغط حزب السلامة الوطنى على رئاسة الشئون الدينية حتي أصدرت بياناً فى حزيران ١٩٧٣م أكدت فيه على دعوة المرأة التركية إلى الحجاب .

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٥ .

وحينما سافر أربكان إلى السعودية عام ١٩٧٤م - وكان وقتئذ نائباً لرئيس الوزراء - بدأ زيارته للكعبة، وفى الرسالة التى كتبها للملك فيصل - رحمه الله - ذكر ما يلى: «إن معرفة الشعب والحجاج للمشاريع التى ستقام فى المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية بالقروض التى ستمنحونها لتركيا تعد من الأمور الهامة، إن دعمكم لموقفى فى تركيا سيفتح لتركيا مرحلة جديدة فى العالم الإسلامى، ومساعدتكم لنا فى هذا المجال سوف تدعم هذه المرحلة» (١).

واستطاع أربكان أن يمرر قانوناً فى البرلمان يسمح بموجبه للأتراك السفر براً إلى الحج وكان ذلك ممنوعاً (٢).

لقد كانت خطوات حزب السلامة الوطنى جريئة فى المجتمع التركى ولذلك لم يتحمل الجيش التركى خادم العلمانية فى تركيا هذه الأعمال الحميدة، ولذلك تدخل الجيش بانقلابه الذى قضى على التعددية والحرية السياسية فى ١٢ أيلول ١٩٨٠م، وقد سبق هذا الانقلاب مظاهرات كبيرة فى مدينة قونيا يوم ٦ أيلول، ونادى المتظاهرون بتأسيس دولة إسلامية، وقام أنصار حزب السلامة بالاستهزاء بكل ما يؤمن به أتاتورك والمؤسسة العسكرية. وقد هتف هؤلاء الذين جاءوا من جميع أنحاء البلاد بالشعارات الدينية، وطالبوا باستخدام الشريعة الإسلامية فى التعامل السياسى الداخلى، ومنعوا عزف النشيد الوطنى(٣).

واحتج المتظاهرون على ضم القدس، ونادوا بقطع العلاقات مع إسرائيل، ودعوة إسرائيل للمناداة بالقدس الحرة، كما دعا أربكان فى هذه التظاهرة إلى بدء الصراع لإنهاء العقلية الغربية الزائفة والتى تحكم تركيا، وقد كتب المتظاهرون الشعارات باللغة العربية، وقام هؤلاء بحرق العلم الصهيونى والأمريكى والسوفيتى ونادى المتظاهرون بشعار «الموت لليهود» ولاسيما أن مدينة قونيا تضم أعداداً من طائفة اليهود والتى يبلغ عددها ٢٠,٠٠٠ يهودى ونادى المتظاهرون أيضاً: «جاء دور القانون الدينى وانتهت الهمجية، الشريعة أو الموت، إن الدولة الملحدة يجب أن تدمر، وإن القرآن هو دستورنا، نريد دولة إسلامية بدون الحدود والطبقات» (٤).

كانت شعيبة حزب السلامة الوطنى ترتقى لأنه التزم القضايا الإسلامية علنا خصوصاً فى

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. محمد مصطفى، ص ٢٠٧.

(٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا. د. النعيمى، ص ١٤٧.

(٣، ٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٥١.

العامين ١٩٧٩م، ١٩٨٠م واضطر الحزب الجمهورى وحزب العدالة لإرضاء حزب السلامة الوطنى، وقدما تنازلات للاتجاه الإسلامى، طمعاً فى المساعدات الاقتصادية من الأقطار الإسلامية والحاجة الملحة إلى بترولها.

لم يستح قادة الجيش التركى بعد انقلابهم العسكرى أن يقولوا بأن سبب تدخلهم من أجل وقف المد الإسلامى.

اتخذ الانقلابيون قراراً بحظر جميع الأحزاب السياسية وحجز قادتها وتقديمهم للمحاكمة، وكان من الطبيعى أن يحاكم حزب السلامة الوطنى وأن توجه التهم لزعيمه أربكان وزملائه المجاهدين، وكانت كل التهم تدور حول حرص حزب السلامة على إعادة دولة الإسلام لتركيا والتخلص من الأفكار العلمانية والمبادئ الكمالية، إن الغطرسة التركية العلمانية أعلنت بكل وقاحة على لسان الجنرال إيفرن رئيس أركان الجيش التركى بأن لها من القوة بحيث تستطيع أن تقطع لسان كل من يتهجم على أتاتورك (١) .

لقد استطاع حزب السلامة الوطنى أن يدخل بعض التغييرات فى السلوك السياسى الداخلى التركى، من بين ذلك تحقيق الأذان فى الجوامع وباللغة العربية، وفرض قراءة القرآن الكريم فى محطات الإذاعة والتليفزيون، وكان ذلك محرماً منذ مجئ المفسد الكبير مصطفى كمال إلى الحكم .

لقد أصبح أربكان مع حزبه المجاهد معلماً من معالم الحركة الإسلامية المعاصرة فى تركيا. ولقد أثرت حركة حزب السلامة فى الأوساط الإسلامية والطرق الصوفية والزوايا التقليدية، ووجدت من التيار الإسلامى التقليدى من يناصرها ويقف بجانبها ويدعمها، وحكمت المحكمة العسكرية الظالمة فى عام ١٩٨٣ على المجاهد أربكان بالسجن لمدة أربعة أعوام وعلى ٢٢ عضواً من أعضاء حزب السلامة الوطنى بالسجن لمدد تصل إلى ثلاثة أعوام ونصف(٢).

وقام الجيش التركى بتسريح كل من تشم منه رائحة إسلامية، وأعلن إيفرن فى حملته التى استهدفت الإسلاميين داخل القوات المسلحة بأن هؤلاء المسلمين «كان هدفهم الوصول إلى المراتب العليا فى القوات المسلحة، ماذا سيحدث لو أنهم أمسكوا بزمام الجيش؟» (٣) وأضاف قائلاً : «قد يحولون البلاد إلى أى نوع من الأنظمة التى يريدون، هل هذا نشاط دينى أم خيانة؟» (٤) .

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٦ .

(٣ ، ٤) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص ١٦٥ .

وبدأت القيادة العسكرية فى تركيا تبحث عن حل لمشاكلها السياسية وإرضاء الضغوط الأوروبية، التى اتهمت تركيا بخرق حقوق الإنسان، ويجب عليها إعادة الديمقراطية من جديد، فشكلت لجانا جديدة لصنع دستور للبلاد بحيث يعطى الرئيس التركى الحق فى فرض حالة الطوارئ، وحل البرلمان، والدعوة إلى انتخابات جديدة، وبذلك يكون باستطاعة العلمانيين قطع محاولات الإسلاميين المستمرة للقضاء على الدستور العلمانى، وعدلت القوانين بحيث تكون للقيادة العسكرية حق الاحتفاظ ببعض السيطرة على الحياة السياسية فى تركيا .

وبعد إعلان الدستور الجديد فى عام ١٩٨٢ تكونت أحزاب سياسية وظهر حزب الرفاه وهو امتداد طبيعى لفكر السلامة الوطنى، وبدأت العناصر الإسلامية تتوافد على هذا الحزب الجديد والذى تعرض لمعارضة الجيش والضغط عليه لمنعه من دخول انتخابات عام ١٩٨٣م، إلا أنه خاض الانتخابات وحصل على نسبة ٥٪ من الأصوات (١) .

إضافة إلى ذلك، اشترك حزب الرفاه فى انتخابات تشرين أول ١٩٨٧م، حيث فاز ٧,٠٦٪ من الأصوات (٢) .

وبدأت الجماعات الإسلامية تتمحور حول حزب الرفاه، وشرع حزب الرفاه فى قيادة الحركة الإسلامية فى جميع المدن التركية، وحتى المحافظات الكبرى والقرى المتباعدة الأطراف، وانتعشت الحركة الإسلامية مع تسلم أوزال السلطة وهو المتعاطف مع الإسلام فى تركيا، خاصة أن أعداداً كبيرة من قيادة حزبه ـ حزب الوطن الأم ـ من الوجوه الإسلامية المعروفة فى تركيا ودخلت كوادر قيادية هامة من حزب السلامة المنحل إلى حزب الوطن الأم الذى نجح فى انتخابات عام ١٩٨٣م بأغلبية كبيرة، وشجعت حكومة أوزال نشاط المساجد والمدارس الدينية، واهتم وزير الدولة المشرف على الشئون الدينية «كاظم اكصوى» بدورات تعليم القرآن الكريم والتى كانت فى بداية الثمانينيات ٢٠٠ دورة رسمية، ووصلت إلى ٣٠٠٠ دورة فى عام ١٩٨٧م ونشطت الطرق الدينية، وقام كاظم اكصوى بجعل بعض المؤسسات الدينية والبنوك مثل بنك الأوقاف من أهم المراكز التى تغذى الحركة الإسلامية فى تركيا (٣) .

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٣ .

واستمر حزب الرفاه فى جهاده السلمى والتوغل المتزن فى أعماق الشعب المسلم التركى الذى لاتزال أعمال حزب السلامة فى ذاكرته ووجدانه والتى أعادت للمجتمع التركى وجوده وحضوره الإسلامى، واستطاع حزب الرفاه الذى هو امتداد لحزب السلامة فى مارس عام ١٩٩٤م أن يتحصل على أهم وأكبر البلديات فى تركيا، وعلى فوزه بانتخابات ديسمبر عام ١٩٩٥م كأكبر حزب فى البلاد، تسلم على أثرها السلطة فى ائتلاف حكومى مع حزب الطريق القويم فى يونيو ١٩٩٦م (١)، وأصبح المجاهد الكبير نجم الدين أربكان رئيس الوزراء وقام بإصلاحات اقتصادية رائعة وارتفعت الرواتب فى فترة وجيزة، وتقدم مندفعاً كالسهم نحو الدعوة لإقامة سوق إسلامية مشتركة ورفض دخول تركيا السوق الأوروبية المشتركة، فكانت دعوة إلى قيام أمم إسلامية متحدة، ومجلس إسلامى مشترك، وضرب ممثلو حزب الرفاه فى البلديات وعلى مستوى الدولة أروع الأمثلة فى النزاهة والعفة وطهارة اليد والمقدرة على التخطيط، واهتمت مؤسسات الحزب بتقديم وتحسين أداء الخدمات للمواطنين. وتعاطف الشعب التركى مع حزب الرفاه حتى كثير من المومسات أعطين أصواتهن لحزب الرفاه الذى عمل على إيجاد فرص للعمل الشريف لهن وترك بيوت الدعارة والفساد والرجوع إلى الله بالتوبة والمغفرة .

ولقد عالج ممثل الرفاه والذى تولى بلدية استانبول مشاكل العاصمة بكل جدارة وتضاعفت ميزانية البلدية بعد أن كانت دائماً تشتكى من العجز المالى بسبب الاختلاس .

لم يرض اليهود والعلمانيون عن هذه المكاسب العظيمة التى حققتها الحركة الإسلامية فى تركيا فدفعوا قادة الجيش لممارسة ضغوطهم على الأحزاب حتى قضوا على التحالف بين حزب الطريق القويم وحزب الرفاه، وتقدم حزب علمانى متطرف مدعوم بقوة العسكر ورجال الاقتصاد العلمانيين وقدموا حزب الرفاه إلى المحكمة الدستورية التي حكمت بحل حزب الرفاه ومصادرة أملاكه عام ١٩٩٧م ، ولايزال الإسلاميون فى تركيا يديرون صراعهم مع اليهود والعلمانيين وأعداء الإسلام بكل جدارة وشجاعة وذكاء، وإنى على يقين راسخ لا يتزعزع أن الحركة الإسلامية فى تركيا ستصل إلى الحكم وتطبق شرع الله بإذن الله، لأن كل المؤشرات والسنن تقول ذلك.

وأختم بالتجربة الإسلامية فى تركيا هذا الحوار للأستاذ والمجاهد الكبير الذى نخر أعمدة العلمانية فى تركيا البروفسور نجم الدين أربكان، سأله صحفى مسلم مشهور بقوله: إن

---

(١) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية، مصطفى الطحان، ص ١١٨ .

المشاركة فى العملية الانتخابية أمر لا يجوز من الناحية الشرعية.. وهى مساهمة فى تقوية النظام الجاهلى الذى يعتمد مثل هذه الأساليب.. فرد أربكان: ماذا نفعل إذن؟.. هل كان بإمكاننا أن نحقق المكاسب الكبرى على صعيد الحريات الشخصية والعامة.. ونؤسس هذه المئات من المدارس الإسلامية.. ونرفع أصواتنا فى البرلمان لتعديل المواد الدستورية التى تحد من الحريات الدينية، ونعيد للناس ثقتهم بأنفسهم وبدينهم، ونحاصر الشر بأنواعه حتى يكاد ينحسر عن بلادنا، بغير هذه الوسائل التى ترفع من مستوى أداء الجميع أفراداً وجماعات وتدفع الجميع لتحمل مسئولياتهم فى إعادة البناء؟ (١) .

إن التيار الإسلامى فى تركيا لايزال فى نمو متصاعد على الرغم من ضخامة مخططات الأعداء المحيطين به، وجسامة الأخطار التى يواجهها من اليمين واليسار على السواء وإننا لمنتظرون تحقيق وعد الله تعالى فى قوله :

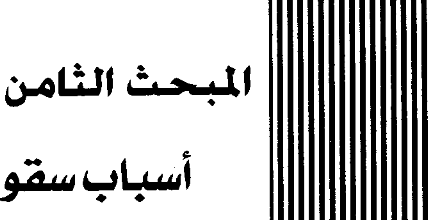
﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس : ٨١]

وقوله تعالى : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]

******

(١) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية، ص ٨٧ .



المبحث الثامن

أسباب سقوط الدولة العثمانية

• تمهيد:

إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذى جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا فى الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة فى وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم.

قال تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾

[النور: ٦٣]

لقد كان فى ابتعاد أواخر سلاطين الدولة العثمانية عن شرع الله تعالى آثاره على الأمة الإسلامية؛ فتجد الإنسان المنغمس فى حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع فى معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصى فى قلبه، وأصبح فى ضنك من العيش: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤].

وقد أصيبت الشعوب الإسلامية فى مراحل الدولة العثمانية الأخيرة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات، وضعف ضميرها الروحى، فلا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، وأصابهم ما أصاب بنى إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال تعالى:

﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]

فإن أى أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله ﷺ: «كلا والله لتأمرّن بالمعروف ولتَنْهُونّ عن المنكر ولتأخُذُنّ على يد الظالم ولتأطرُنّه على الحق أطراً، ولتقصُرُنهُ على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعَنّكم كما لعنهم»(١).

لقد تحققت فى الدولة العثمانية سنة الله فى تغيير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما أن الشعوب التى تخضع للحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله تطلب العون من إخوانهم فى العقيدة. إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أثر فى تلك الشعوب، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين، وأصبحوا فى خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصى الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين فى الدولة العثمانية.

إن الذنوب التى يهلك الله بها الدولة، ويعذب بها الأمم قسمان:

١- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

٢- كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس، وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله، واستعمالها فى غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام. والنوع الثانى من الذنوب هو الذى

---

(١) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث ٤٦٧٠.

مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم(١).

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة في مسيرتها الدعوية والجهادية، آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين، وابتدعت عن أسبابه المادية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾

[النور: ٥٥، ٥٦].

فكانت الدولة الإسلامية العثمانية في بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط أما في أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحراف عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً:

أولاً: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء:

فكان الدولة في عصورها المتقدمة عاملة بقول الله تعالى: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١].

ويقول رسول الله ﷺ: (أوثق عُرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله)(٢).

أما في عصورها المتأخرة وخصوصًا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب أقاليم الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية، ولغياب العلماء الربانيين الذين ينيرون للأمة دروبها، ويأخذون بزمامها إلى الطريق المستقيم. وكان الحكام والسلاطين يصانعون الأعداء من

---

(١) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص ١٧٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير (٢/٣٤٣، ح ٢٥٣٦).

الكافرين ويتولونهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب عظيم من القوة المادية، والمسلمون فى المقابل على العكس تماماً من الضعف؛ فقد ساعد الواقع الأليم الذى كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة(١).

فالواقع المليئ بكل صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة فى مقابل الواقع الأوروبى مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقًا، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة، كما كان حال الجيل الأول رضى الله عنهم الذى استعلى بدينه وعقيدته على قوة الكافرين وجبروتهم حتى فى وقت الهزيمة، ولحظة الفشل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ومع هذا فإن هذه العقيدة على مستوى شعوب الأمة كانت متوهجة فى النفوس، مستقرة فى العقول؛ فقد كان المسلم فى الشمال الأفريقى يحب أخاه المسلم فى الشام ويبغض جاره النصرانى، وهكذا فى كل الأقطار والبلدان. وكان المسلم يحس بإخوانه فى كل مكان وبما يقع لإخوانه فى الدين من اعتداءات ونكبات، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنفير فى سبيل الله. فكانوا إلى حد كبير كما وصفهم الرسول ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى(٢).

وقد بينا مناصرة مسلمى الحجاز وليبيا لإخوانهم فى مصر عندما احتلها الفرنسيون فى عام ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨م، وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السلطان عبدالحميد الثانى إلى فكرة الجامعة الإسلامية ودعوته لاتحاد المسلمين فى العالم فى مقابل التسلط الأوروبى والروسى وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدعوة إلى حد كبير، وتجاوب معها المسلمون فى كل مكان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وبلادهم، وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين فى أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخط. إن الشعور بالترابط الدينى بين المسلمين كان قوياً على الرغم من كثرة الانحرافات التى توحى بالفرقة والاختلاف كالمذاهب الكلامية والفقهية، والطرق الصوفية، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة إلى حد كبير فى نفوس العامة، لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود والنصارى

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية لعلى الزهرانى (١/ ١٤٢).

(٢) البخارى، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (١٠/ ٤٣٨) رقم ٦٠١١.

أن يروا فى تلك العقيدة جداراً صلبا وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم فى القضاء على المسلمين ودينهم، ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الإسلامية، وفي الدولة العثمانية ممن بأيديهم مقاليد الأمور من السلاطين والباشوات، كما حدث مع السلطان العثمانى محمود الثانى المتوفى عام ١٨٣٩م الذى تزعم حركة الإصلاح المقلدة للمنهج الأوروبى، حيث عمل على مسخ عقيدة الولاء والبراء وحاول طمسها فى النفوس، ويتجلى هذا الاتجاه الخطير فى قول السلطان نفسه (.. إننى لا أريد – ابتداء من الآن – أن يميز المسلمون إلا فى المسجد، والمسيحيون إلا فى الكنيسة، واليهود إلا في المعبد، إنى أريد ما دام الجميع يتوجه نحوى بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة فى الحقوق وبحماية الأبوية، ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها فى الدولة فى ذلك العصر بحرية واسعة النطاق[١].

وفى هذا العصر انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السلطان وتشجيعه[٢].

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النسق النسماوى، وطرد الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان[٣].

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلا من العمامة، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطياً موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس[٤].

والأدهى من ذلك ما (حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا بالولاء لروسيا من قبل، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة، وبالتالى كان لروسيا عيون فى جيش السلطان الجديد، تزودها بأدق المعلومات والخطط)[٥]، وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء.

هذا مثال بارز على ضعف عقيدة الولاء والبراء لدى بعض السلاطين العثمانيين وعدم الاهتمام بها.

---

(١) انظر: حركة الإصلاح فى عصر السلطان محمود الثانى، د. البحراوى، ص٢١٤.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢١٤.
(٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص٢٥٨.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٦١.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٧.

أما الباشا محمد على والى مصر، فقد فتن بالغرب، وتابع سياستهم، وسار على خطاهم، وما فتئ خلال حكمه الطويل الذى بلغ خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولى الكفار ويصانعهم، ويعلى من شأنهم ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم وقوانينهم، والسير فى ركابهم، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين، واستهانته بهم، فقد تخطى عقيدة الولاء والبراء وضربها فى الصميم، ليرضى أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات اليهودية، فقد اعتاد محمد على باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، الذين تغلغلوا فى حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشورته، وشركاؤه فى اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها[١].

وفتح البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب، واكتشاف الاثار، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب فى طريقهم[٢].

لقد قام النصارى بدراسة مراكز الثروة، ودراسة المواقع دراسة تخطيطية، مما أفادهم ولا شك فى احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢ م خصوصاً إذا علمنا أن كثيرا من هؤلاء المنقبين كانوا من الإنجليز، وكانت هناك أهداف أخرى لم يفطن لها كثير من الباحثين، ونترك الحديث لأحد المستشرقين فى كتابه (الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته): (إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد مسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات...)[٣].

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً، وإنفاقهم الأموال الطائلة فى كشف الآثار وتعريتها بدءاً بالفرنسيين ثم الإنجليز الذين ساروا على خط واحد فى تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة[٤].

يقول الأستاذ محمد قطب: (ولكن المخطط الخبيث الذى حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام)[٥].

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١ / ١٦٥).

(٢) المصدر السابق نفسه (١ / ١٧٠).

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٢.

(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١ / ١٧١).

(٥) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٢.

وقدم محمد على خدمة لمخططات الأعداء بضرب الاتجاه الإسلامى السلفى فى الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثمانى الذى فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودى يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصاً فى الخليج العربى والبحر الأحمر[١].

وقد كان على رأس تلك الجيوش التى وجهها محمد على ضباط فرنسيون وبعض النصارى[٢].

وقد سرّت فرنسا بذلك العمل الحربى المدمر، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد على عن طريق قنصلها فى القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن فى البلاد الشرقية[٣].

وضايق محمد على باشا العلماء والفقهاء والأزهريين فى لقمة العيش وسيطر على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة، وبالتالى أحكم السيطرة على المشايخ القائمين على التعليم من رجال الأزهر[٤]، وحتى الكتاتيب التى تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنج عن عائلة محمد على؛ فقد ذكر الجبرتى – رحمه الله – أن كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد على عليها[٥].

وذكر الشيخ محمد عبده أن ما أبقاه محمد على من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوى جزءاً من الألف من إيرادها، وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى إلى اليوم (فى عهد الشيخ محمد عبده) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة، وقرر له بذلك ما يساوى أربعة آلاف جنيه فى السنة، بينما نجده قد اندفع نحو التغريب وإرسال البعثات كما ذكرنا فى البحث.

إن هذه السياسة التدميرية التى نهجها محمد على والتى فرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبى الذى عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرحيل، وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى فى قوله : (كان محمد على

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص١٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٨٧.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٧٤).

(٤) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص١٧٩.

(٥) انظر: عجائب الآثار (٣/ ٤٧٨).

ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة فى مصر[١].

لا شك أن محمد على باشا كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم، سواء كان وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبى وعلى الأخص تخطيط فرنسى، أو كان نتيجة لدهاء محمد على ومكره وثقافته أو كان للأمرين معاً، فإن هذا كله لا يغير من الأمر شيئاً، ولا ينفى أن محمد على قد احتوته الدول الغربية، وأخذت تقوده فى ركابها، وخصوصاً أن فيه من الصفات والخلال، التى ينشدها المستعمرون دائماً كجنون العظمة، وغلظة القلب وفظاظة الطبع، ورقة الديانة أو عدمها[٢].

وقد عمل محمد على طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء، واستخدم سياسة العسف والإرهاب والتنكيل فى أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضى عليها قضاءً مبرماً[٣].

ومع عظم الهالة التى أحيط بها محمد على من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين، حول ما قام به من إصلاحات فى كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية، إلا إنه من الثابت من سيرة محمد على أنه يكره مسلمى مصر ويحتقرهم ويزدريهم أيما ازدراء، وليس أدل من ذلك إلا قوله: (ثقوا أن قرارى لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفوننى وتعلمون أننى متحرر من هذه الاعتبارات التى يتقيد بها قومى.. وقد تقولون إن مواطنى حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها)[٤].

وقد كان محمد على باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، حتى لقد هم – بعد أن جاءته الأوامر بالطبع – أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين، وعملاً لحسابهم الخاص إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التى تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم، لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمد على بتزويد الفرنسيين فى الجزائر بالغلال[٥].

ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما علمت بعزم محمد على ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكر فى ذلك.

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ص١٨٢.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٨١).

(٣) المصدر السابق نفسه، (١/ ١٨١).

(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٨٨).

(٥) انظر: الشرق الإسلامى، حسين مؤنس، ص٣١١.

هذه وقفة مع باشا من باشوات الدولة العثمانية عمل على إضعاف عقيدة الولاء والبراءه لدى الأمة المسلمة بشكل مباشر تمثل فى سياسة العسف والإرهاب، وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً، لقد استحق محمد على أن يكون رائد التغريب فى العالم الإسلامى العربى التابع للدولة العثمانية، وسار أولاده وأحفاده من بعده على نفس السياسة، فقد ظلوا يتعهدون غراس التغريب والعلمنة، ويسيرون فى نفس الطريق ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب، وخطب وده(١).

إن فئة سلاطين الدولة العثمانية وباشواتها أمعنوا فى موالاة الكافرين وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء والبراء فى الأمة وأصابوها فى الصميم،وبذلك تميعت شخصية الدولة العثمانية وهويتها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها ثم مزقوها شر ممزق.

ثانيا انحصار مفهوم العبادة:

إن من شروط التمكين التى قام بها العثمانيون الأوائل تحقيق مفهوم العبودية الشامل كما فهموه من القرآن الكريم والسنة النبوية، وكما أخذوه عن السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ففهموا أن الدين كله عبادة، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هى الغاية الحقيقية التى خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، وكانت هى دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ لأقوامهم: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل:٣٦]

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]

لقد فهم العثمانيون الأوائل العبادة بمفهومها الشامل الذى أراده الله عز وجل، وهى أن تشمل كل نشاط فى حياة الإنسان: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/١٨٩).

فأصبحت حياتهم حافلة بالأعمال العظيمة من تقوية الدولة المسلمة وتربية دائمة لرعاياها، وتعليم القرآن، والعلم، وجهاد الكافرين والمنافقين، وقيام على أمور المسلمين، وتنفيذ لأهداف التمكين ولذلك نجد العلامة الشيخ شمس الدين آق يجمع بين دوره فى توجيه الأمة وتعليمها وتوظيف علم النبات والطب والصيدلة لمصلحة المسلمين، لقد كان هذا الشيخ يتعبد المولى عز وجل بالعلم الدينى والدنيوى، وكانت له بحوثه في علم النبات ومعالجة الأمراض المعدية وألف فى ذلك كتاباً، واهتم أيضاً بمعالجة مرض السرطان، وكان مجاهداً فى صفوف جيش محمد الفاتح، مربياً لعوام العثمانيين على طاعة الله تعالى ومهتماً بتزكيتهم وآمرا بالمعروف وناهياً عن المنكر، وكان نعم المربى والناصح لمحمد الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينية جاء محمد الفاتح يدخل فى الخلوة مع الشيخ فمنعه الشيخ شمس الدين وقال لمحمد الفاتح: (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك، فتختل أمورها، فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح. إن هذا الفهم الجميل هو الذى سارت به الدولة العثمانية عندما كان للعلماء الربانيين صدارة التوجيه والإرشاد والتعليم، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً فى عصر السلطان محمد الفاتح فى جميع شئون الحياة التربوية والسياسية، والاقتصادية والعسكرية، والاجتماعية والعلمية. كل ذلك النهوض مستمد من مفهوم العبودية الشامل الذى فهموه من الشريعة الغراء ولذلك نجد في الدولة العثمانية في عصر مجدها وقوتها تفوقاً فى كل المجالات فمثلاً فى الجغرافيا يظهر اسم الريس بيرى فى زمن السلطانين سليم الأول، وسليمان القانونى، وكان الريس بيرى قائداً للبحرية العثمانية، وعالماً جغرافياً فذاً (ولد عام ١٤٦٥م وتوفى عام ١٥٥٤م)، كان هذا العالم الجغرافى رائدا من رواد رسم الخرائط فى الأدب الجغرافي العثمانى وله في هذا المضمار خريطتان هامتان، الأولى لأسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسى والسواحل الشرقية من الأمريكيتين.. وهذه قدّمها إلى السلطان سليم الأول فى مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن فى متحف طوبقبو فى استانبول (٦٠ X ٨٥ سم) وعليها توقيع الريس.

والأخرى لسواحل الأطلسى من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨X٦٩سم) وموجودة الآن فى متحف طوبقبو باستانبول أيضاً.

والجدير بالذكر أن الخريطة التى رسمها الريس بيرى لأمريكا هى أقدم خريطة لها.

فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م عقدت فى جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة

الأمريكية ندوة إذاعية عن خرائط الريس بيرى، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الريس بيرى لأمريكا: (اكتشاف خارق للعادة).

وقد كان الريس بيرى على معرفة بوجود أمريكا قبل اكتشافها، ويقول فى كتاب البحرية: (إن بحر المغرب - يقصد المحيط الأطلسى- بحر عظيم، يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغاز سبته، وفى طرق هذا البحر العظيم توجد قارة هى قارة أنتيليا)، وتعبير قارة أنتيليا هى الدنيا أو أميركا، وقد كتب الريس أن هذه القارة اكتشفت عام (٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م) أى قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالى ٢٧ سنة[١].

لقد ترك ريس بيرى كتاباً فى البحرية أثار بما فيه من معلومات وخرائط دقيقة، دهشة المعاصرين من علماء الجغرافيا فى أمريكا وأوروبا، معلومات وخرائط أثبت العالم المعاصر صحتها.

وقد ذكر الراهب الجزويتى لاين هام مدير مركز الأرصاد فى ويستون ما يدل على عبقرية القائد العثمانى ريس بيرى فى علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الريس بيرى صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى أيامه فى القرن السادس عشر الميلادى.. إن الجانب المذهل فى مكانة بيرى، هو رسمه لجبال أنتار كتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أن هذه الجبال، لم يكن أحد قد تمكن من اكتشافها إلاّ فى عام ١٩٥٢م أى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، أمّا قبل القائد العثمانى الريس بيرى، يعنى حتى القرن السادس عشر الميلادى، لم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكا موجودة، إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريخ)[٢].

والمعروف أن أنتار كتيكا هى القارة السادسة والواقعة فى نصف الكرة الأرضية الجنوبى، لم يقتصر الذهول على الراهب لاين هام فقط، بل تعدّاه إلى كثير من العلماء والكتاب لقد قارن بعض العلماء صور الأرض التى تم التقاطها من مركبات الفضاء (فى القرن العشرين) بالخرائط التى رسمها القائد البحرى العثمانى الريس بيرى فى البدايات المبكرة للقرن السادس عشر فاتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيرى[٣].

إن النهضة فى الدولة العثمانية فى عصورها الزاهية كان فى كل المستويات العلمية،

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص٣٨٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٤.

والشعبية، والحكومية والعسكرية، وكانت حركة الدولة والأمة تعبيراً صادقاً لمفهوم العبودية الشامل، أما فى العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انحصر مفهوم العبادة فى صور الشعائر التعبدية التى أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر فى حياة ممارسيها، اللهم إلا ما تستغرقه من زمن لأدائها، (وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضوا النظر عنها وأنزلوا مرتبتها، ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل فى جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة، كل ذلك فى نظر هذا الفريق من الناس – وما أكثرهم فى عصور الانحطاط –فضول يشغل عن الله وعبادته.. وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى فى الإسلام شاملة لجميع الواجبات التى أوجبها الإسلام من عبادات خاصة، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة فى المعاملة وإحسان، كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له، أصبحت مقاييس التقوى محصورة فى العبادات)[1].

وهكذا أعانت هذه الفكرة التى عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامى الشامل على ضعف الوعى السياسى، والاجتماعى والأخلاقى.

ولقد تسبب هذا الانحصار فى مفهوم العبادة فى سلبيات من أهمها:

– صارت الشعائر التعبدية تؤدى بصورة تقليدية، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام، فلا تؤدى هذه الشعائر دورها فى حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى، فالصلاة التى يخبر الله عز وجل عنها بقوله: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥]، لم تعد ذات أثر واقعى في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وماكان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة فى أداء الشعائر التعبدية فحسب.

– تهاون الناس فى بقية جوانب العبادات الأخرى.

إذ هى عندهم ليست من العبادة فى شىء حين نري من المسلمين من يصلى الفروض جماعة فى المسجد، ثم يخرج ويحلف على عتبة المسجد كاذباً، ويغش فى بيعه وشرائه،

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٠٠).

ويحتال فى معاملاته، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ويقع فى أعراض الناس، ثم تراه سادراً فى ذلك مرتاح الضمير، هادئ الخاطر، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

– العناية بالجانب الفردى الشخصى، وإهمال الجوانب الاجتماعية، فنجد أن المسلمين قد «عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين، فقد يكون المسلم فى ذاته نظيفاً ولكنه لا يبالى أن يلقى القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أن «إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان» كما ورد فى الحديث(١)، وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطهارة وشروط النظافة فى نفسه، ولكنه لا يبالى أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التى أمر الإسلام بها»(٢).

ونتيجة لكون مفهوم العبادة انحصر فى الشعائر وحدها وخرجت منها بقية الأعمال، فاهتم الناس بشئونهم الخاصة وأهملوا شئونهم العامة، ونمت روح الفردية على حساب الروح الاجتماعية.

– إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب.

«قراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله واستثمار ما فى الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة.. وبينما كان الرسول ﷺ يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله، ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره، إذا بالمسلمين فى هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء –المأثور منه والمبتدع المخترع– بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر، لا بأسبابها المشروعة التى جعلها الله سبباً وطريقا إليها، بل بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمائم وحجباً، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها..»(٣).

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير فى مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (١/ ٦٣).
(٢) انظر: المجتمع الإسلامى المعاصر لمحمد المبارك، ص٦٦.
(٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص٦٩.

عن دائرة العبادة، فخرج العمل السياسى بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم، وتقديم النصيحة إليه، والسهر على تطبيق الشريعة وإجراء العدل فى حياة الناس.

وما أجمل ما قاله سيد قطب فى توضيحه لحقيقة العبادة واستنكاره لمن يحصرها فى الشعائر التعبدية: (الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هى مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التى بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التى تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده فى كل أمر وفى كل شأن، وفى منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء)[1]، وهذا معنى العبادة الشامل الذى وعاه العثمانيون الأوائل، فطبقوه فى حياتهم، وعملوا به فى واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطواغيت، ومكن الله لهم فى الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة، ويوم تبدل ذلك المفهوم وانحصر فى دائرة الشعائر، فترت الهمم وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملة فوقع الضعف ثم السقوط.

إن ما حل بالدولة العثمانية من هزائم عسكرية، وأزمات اقتصادية وانحرافات خلقية، ومصائب اجتماعية وتلوثات فكرية، وجفاف روحى، وتأخر حضارى، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشامل.

«فيوم كانت ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠] عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أراضى المسلمين واستلاب خيراتهم. ويوم كان «طلب العلم فريضة» لم يكن هناك تخلف علمى، بل كانت الأمة المسلمة هى أمة العلم، التى تعلمت أوروبا فى مدارسها وجامعاتها!

ويوم كانت ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ [الملك: ١٥] عبادة، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» عبادة، وكان ولى الأمر يستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته، لم يكن للفقراء فى المجتمع الإسلامى قضية، لأن العلاج الربانى

---

(١) انظر: ظلال القرآن (٤ / ١٩٣٨).

لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله! ويوم كانت ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩] عبادة، لم تكن للمرأة المسلمة قضية، لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله بها كانت تؤدى إليها طاعة لله، وعبادة لله..)[١].

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخرة للدولة العثمانية لشيوع المذهب العلماني، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية.

ثالثا: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات:

إن الدولة العثمانية في القرنين الأخيرين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، وحدث انحراف في توحيد الألوهية انحرافاً رهيباً، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم[٢].

يوم كانت الدولة العثمانية محققة للتوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشامل، وتحارب الشرك كانت في ذروة التمكين والعز والنصر من الله تعالى، فهذا السلطان مراد الأول وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جندي صربي يودع الدنيا بمعان عميقة في التوحيد، وكلمات جامعة على التوحيد المنافي للشرك فيقول: «لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله. إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء»[٣].

أما السلطان مراد الثاني فقد ترك وصيته: (فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي)[٤] لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألا يبنى شئ على مكان دفنه.

لقد كان السلاطين الأوائل تتفجر معاني التوحيد في كلماتهم وتنعكس على أعمالهم، وانتشرت تلك المفاهيم في الشعب العثماني قاطبة، أما في العصور المتأخرة فقد تغير الحال،

---

(١) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد قطب، ص٢٤٩.
(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٢٧١).
(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص٣٩١.
(٤) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٤٦.

ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها فى النهى عن كل السبل المفضية إلى الشرك وتحذير النبى ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته، كقوله ﷺ في الصحيحين: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا).

قالت عائشة رضى الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً[١]، وقوله ﷺ: «لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٢].

وقال ﷺ قبل أن يموت بخمس: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك»[٣].

وقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٤]، وقوله ﷺ: «لاتجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»[٥].

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسة رأينها فى أرض الحبشة فيها تصاوير، قال ﷺ: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[٦].

ونهيه ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه، وجاء فى رواية أخرى النهى عن الكتابة على القبور[٧]. وفي أواخر الدولة العثمانية كثر على غير العادة تشييد القباب وبناء الأضرحة وإقامة المشاهد، وتحديث المزارات حتى لكأن هذه النصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور، وتذكر فضله وتحث عليه.

وزاد الأمر سوءاً أن بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميت فاضلاً، واحتجوا بقولهم: إن بعض السلف استحسن ذلك، وزاد الطين بلة أنهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة فى مصنفاتهم التى يعكف على دراستها الطلاب[٨].

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية، والمزارات الوثنية فى الأمة هم الشيعة.

---

(١) البخارى، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور رقم ١٣٣٠.
(٢) الترمذى، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن يتخذ على القبر مسجد، رقم ٣٢٠.
(٣) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن بناء المساجد، رقم ٥٣٢.
(٤) رواه مالك فى الموطأ (١/ ١٧٢).
(٥) مسلم، كتاب الجنائز، باب النهى عن الجلوس على القبور، رقم ٩٧٢.
(٦) البخارى: كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركى الجاهلية رقم ٤٢٧.
(٧) الترمذى، كتاب الجنائز، باب ما جاء فى كراهية تجصيص القبور، صححه الألبانى رقم ٧٥٧.
(٨) الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود فى نشأة التشيع: «فظهرت بدعة التشيع التى هى مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف إمام معصوم، ورووا فى إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان[1] كتاباً فى (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبى ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافى للتوحيد»[2].

وانتقل هذا الوباء العظيم وبدأ فى نخر الدولة العثمانية، وتعاظم شره ووقع ما حذر منه النبى ﷺ من الشرك العظيم.

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله فى تلك الفترة فى الصور التالية:

- بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور فى أقاليم الدولة، بل انتشر ذلك فى العالم الإسلامى كله، وللأسف الشديد نجد الدولة العثمانية فى العصور المتأخرة تشجع على تلك المشاهد والأضرحة المنتشرة فى العالم الإسلامى، فمثلاً أعفت الدولة أهالى البصرة من الرسوم والتكاليف، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة، يعنى الزبير بن العوام رضى الله عنه، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السلطان عبدالعزيز بترميم القباب، وتكبير المسجد، وفى سنة ١٢٩٣هـ ورد أمر من السلطان عبدالحميد الثانى بتعمير هذه المراقد الشريفة على نظارة والى البصرة (ناصر باشا السعدون).

ثم فى سنة ١٣٠٥ هـ أمر السلطان عبدالحميد أيضا بتبييض القباب وتعمير المسجد، وأمر أيضا بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين[3]. وكانت جميع الأقاليم الإسلامية، فى الحجاز واليمن وأفريقيا ومصر والمغرب العربى والعراق والشام وتركيا وإيران، وبلاد ما وراء النهر والهند وغيرها تتسابق فى بناء الأضرحة والقباب وتتنافس فى تعظيمها والاحتفاء بها، إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشرف الذى يتوق إليه الكثيرون.

---

(١) من كبار الشيعة الإسماعيلية فى مصر.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٢).

(٣) أنظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٢٩٤).

لقد أولع العثمانيون فى عصورهم المتأخرة بالبناء على كل ما يعظمه الناس فى ذلك العصر، سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثارا لأنبياء أو غير ذلك.

وأصبحت تلك المشاهد والأضرحة محلاً للاستغاثة والاستعانة بأصحابها، وانتشرت عقائد شركية كالذبح لغير وجه الله والنذر للأضرحة، والاستشفاء وطلب البراء من الأضرحة والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس، وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة الناس، وأصبحت مهيمنة على شئونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوأت فى نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات، والتعلق بهم من دون الله عز وجل، فلا يبرمون من أمورهم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها واستشارتهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً، فكيف لغيرهم، وقد كان العلماء وللأسف الشديد يتقدمون العامة ويسنون لهم السنن السيئة فى تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها ويزرعون الهيبة فى نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى الناس فى الشرك والضلال وأمعنوا فى الوثنية ومحاربة التوحيد، فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء، بل أشركوا بالأشجار والأحجار، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة فى بغداد فى مدفع قديم فى ساحة الميدان من بقايا أسلحة السلطان مراد العثمانى التى استخدمها فى حربه مع الفرس، لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم وهو يعرف عندهم «طوب أبى خزامة» مما حدا بالعلامة محمود شكرى الآلوسى إلى التصدى لهذه الخرافة الشنيعة بكتابة رسالة يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها بـ(القول الأنفع فى الردع عن زيارة المدفع)[1].

واعتاد الناس فى أواخر الدولة العثمانية أن يحلفوا بغير الله عز وجل من المخلوقين، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذبا، عامداً متعمداً، ولكنه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين إلا صادقاً.

- انتشار البدع والخرافات:

كان السلاطين الأوائل فى الدولة العثمانية ينفرون من البدع وأهلها ويحاربونها، فهذا السلطان محمد الفاتح فى وصيته يقول لمن بعده: «جانب البدع وأهلها وباعد الذين يحرضونك عليها» أما فى العصور المتأخرة من الدولة العثمانية فإن البدع انتشرت انتشاراً

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٣٦٧).

ذريعاً، وأصبحت حياة رعايا الدولة ممزوجة بها، فقلما تخلو منها عبادة، أو عمل أو شأن من شئون الحياة سواء فى الجنائز والمآتم والأعراس والضيافات والولائم، وبدع الموالد عند المتصوفة المنحرفين، وهكذا أصبحت البدع ترى فى كل مكان، تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس يعمل بها الجاهلون ويؤيدها العالمون، وأصبحت السنة بدعة والبدعة سنة[1]، وتغير مفهوم الدين والعلم من منهج كامل وشامل لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون بها، ويحسبون أنهم مهتدون. وتحول صحيح البخارى بما حواه من منهج للنبى ﷺ إلى تقليد بال رتيب، يتلى فى الأزمات ويقرأ فى الحروب، طلباً للنصر ودحر الأعداء[2].

لقد أضحت السنة فى تلك الفترة غريبة جداً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين، ويأبون التفريط فيها مطلقاً، فى الوقت الذى كانوا يفرطون فيه فى كثير من أحكام الإسلام، ويكافحون من أجلها، ويتعاهدون عليها، ويرون أنهم خدموا الدين، ونفعوا المسلمين[3].

- انتشار الخرافات:

فى أواخر الدولة العثمانية فشت الخرافات والأساطير فى جموع المسلمين بشكل منقطع النظير، وأضحت كحقائق مسلمة لا تقبل النقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لا يجوز التهاون بها، فضلا عن التشكيك فى صحتها.

ومن الخرافات فى الأستانة أن جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير مربوط طرفه بشجرة سرو قديمة، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً، وجلس تحت هذا الزنجيز، فهو يسقط على رأسه، وإذا كان صادقاً فى إنكاره، فالزنجير لا يتحرك[4]، لقد كانت الأمة فى تلك الفترة غارقة فى عبادة الأضرحة، والتعلق بها من دون الله عز وجل، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والغلو والبدع والخرافات، التى ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها عن طريقها الصحيح، فعجزت عن النهوض من كبوتها، ولم تستطيع أن تعالج أسباب انحطاطها؟ وانهزمت أمام جيوش الأعداء ووهنت عن مقاومة مخططاتهم ومؤامراتهم وكانت النتيجة ضياع الدولة العثمانية.

---

(١) انظر: مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام ص٣٧٣.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٣٨٠).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٢٨).

(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٣٢).

رابعاً: الصوفية المنحرفة:

إن أعظم انحراف وقع فى تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة فى المجتمع الإسلامى تحمل عقائد وأفكار وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها فى أواخر العصر العثمانى بسبب عوامل متعددة منها:

١ - الأحوال السيئة التى كانت تعيشها الأمة الإسلامية والواقع المرير الذى كان يعيشه المسلمون فى تلك الفترة، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل، كل ذلك جعل الناس يرتمون فى أحضان الصوفية المنحرفة، التى لا تقوم بأكثر من التربيت عليهم، والتحذير لهم، وجعلهم يعيشون فى غير واقعهم الذى فروا منه.

٢ - كان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات العصور المتأخرة، حيث كانت تزهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون سبب فى بعض الأحيان، وفى هذه الأجواء الحالكة، والظروف العصيبة، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدة عن المصائب والفتن التى فتكت بالناس.

«قد كان الفقراء أروح بالا وأكثر طمأنينة من الفلاحين فى حقولهم والتجار فى متاجرهم والصناع فى مصانعهم، فقد كانوا فى أمن من تطبيق القوانين.. وكانوا فى أغلب فترات الظلم الفادح فى نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحى، ويؤمنون باتصالهم بالله، فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه فى رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال»(١).

٣ - الترف فى معيشة أرباب الفرق: «كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لا يجهدون أنفسهم فى احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون فى الزوايا، طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله.. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف..»(٢).

---

(١) انظر: التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، د. الطويل، ص١٥٢، ١٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٤.

٤ – حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف: «كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم»[1].

«لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر فى المجتمع العباسى، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أما فى ظل الدولة العثمانية، وفى تركيا بالذات، فقد صارت هى المجتمع وصارت هى الدين، وانتشرت – فى القرنين الأخيرين بصفة خاصة – تلك القولة العجيبة: من لا شيخ له فشيخه الشيطان! وأصبحت – بالنسبة للعامة بصورة عامة – هى مدخلهم إلى الدين وهى مجال ممارستهم للدين»[2].

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية، ويفيضون عليها من عطفهم وحدبهم، حتى جاء السلطان عبدالحميد إلى السلطنة فى ظروف عصيبة والمؤامرات تحاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان، ودعاة القومية يبثون دعوتهم فى سائر البلاد، فدعا إلى الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية، وكانت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها تشكل ثقلاً فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصوفية التى أطبقت على العالم الإسلامى من أدناه إلى أقصاه، ولم تبقى مدينة ولا قرية إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجد وملحقاتها[3].

لقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامى فى تلك الفترة، ووقع جمهور من المسلمين فى أسرها، وعظم سلطان المتصوفة فى ذينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة فى طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنته الدولة وناصره الحكام[4].

وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة وتبيح التسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان، وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جدا «فما أخيب التاجر الذى يصرف وقته فى تجارته، والزارع الذى ينفق جهده في زراعته، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة فى مال، فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر، والمرزوق فى طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر..».

---

(١) انظر: التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، ص ١٥٤.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٥.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٤٤٧).

(٤) المصدر السابق نفسه (١/٤٤٨).

وفسدت لدى كثير من المتصوفة عقيدة القضاء والقدر وأصبحت عندهم عقيدة سلبية مخذلة، لقد كتاب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين فى عصورهم الأخيرة يقول: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار، وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففى العصر الإسلامى الأول لعبت دوراً كبيرا فى الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت فى الجندى روح الفداء. وفى العصور الأخيرة كانت سببا فى الجمود الذى خيم على العالم الإسلامى فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية»(١).

إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الإيمان الذى ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة، فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين بها، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال شعراً فقال:

من القرآن قد تركوا المساعى ... وبالقرآن قد ملكوا الثريا

إلى التقدير ردوا كل سعى ... وكان زماعهم قدراً خفيا

تبدلت الضمائر فى إسار ... فما كرهوه صار لهم رضيا(٢)

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر(٣).

لقد كانت مفاهيم التصوف المنحرف تنخر فى كيان الدولة العثمانية، وكان العالم الصليبى ينطلق فى مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقى، ويدير المؤامرات والدسائس لتفتيت الدولة العثمانية، ومن ثم الهيمنة على العالم الإسلامى.

وكان المتصوفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهى والمعازف ويتعلمون الموسيقى، وكانت مجالسهم مليئة بالطبول والنايات والأعلام والرايات، وكانت كثير من الطرق المنحرفة لا تخلو حلقات الذكر من الدف حتى قال أبو الهدى الصيادى وهو من خواص السلطان عبدالحميد الثانى، ومن أنصار الجامعة الإسلامية:

---

(١) انظر: الإسلام قوة الغد العالمية، باول سمتز، ص٧٨.

(٢) انظر: العلمانية، سفر الحوالى، ص٥١٩.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٤٦٧).

اضــــرب الـدف وجـــانـب جـــاهلاً	حكمـــــة الشـــــرع لمعنى مـــادرى
كل مــــا حـــرك قلبـــاً ســـاكنـاً	ودعــا العـــقل منه مـــعـــتـــبـــراً
وأجـــــال الـروح فى بـرزخـــهـــا	تـذكـــــر الله وتبــــغى مظهــــراً
فــــهـــــو بـر والـذى يفــــعـلـه	فــــعـل البـــــر والله يـرى
إن فـى الـدف وفـى رنـتـــــه	نغـمـــة يعـــرفـهـــا من ذكـــرا
صــــوتـه ذكـــــر وفى بحــتـــه	أنـه تـذكـــر أوقـــات الســـرى
نـضــــــرب الـدف ومـنـه عـنـدنـا	ذاكـــراً نســمـعـه لن يفـتـــرا(١)

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة، يقول أبو الهدى الصيادى: «من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال بعيد عن نور الروحانية، زائد فى غلظة الطبع وكثافته، بل هو أبلد من الجماد والطيور وسائر البهايم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة.. وبالجملة فالسماع يثمر حالة فى القلب وتسمى وجدا، ويثمر الوجه تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص»(٢).

وياليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة، وعدوه طاعة تلين بها القلوب، وتشف بها الأرواح.

وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن القيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول: «فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له كتمايل النشوان، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟.

ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمرة النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حميا الكئوس، فلغير الله، بل للشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب فى غير طاعة تنفق، حتى إذا عمل السكر فيها عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز فى صدورهم وخزاً، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزاً ، فطوراً تجعلهم

---

(١) انظر: رياضة الأسماع فى أحكام الذكر والسماع للصيادى، ص٤٥ .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٨.

كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسط الديار، فيرحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زنداً، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.. ولقد أحسن القائل:

تلى الكتاب فأطرقوا لاخيفة	لكنه إطراق ساه لاهى
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا	والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن	فمتى رأيت عبادة بملاهى
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهى
سمعوا له رعداً وبرقًا إذ حوى	زجراً وتخويفًا بفعل مناهى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن	شهواتها يا ذبحها المتناهى
وأتى السماع موافقًا أغراضها	فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه[1]

وهكذا أصبحت حياة المتصوفة المنحرفين فى اللهو والسخافة، وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم فى مجالس الذكر والسماع والملاهى، وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر فى صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السعى فى مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغى على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر بالسماع والغناء والرقص.

ودخل فى عالم التصوف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم والأحياء، ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا فى الأوهام، عالم الخيال، وأصيب الناس بالوهن

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٥٠٦).

والعجز والانحطاط، واتسعت هوة التخلف والسقوط، وكانت أوروبا الصليبية تواصل صعودها فى سلم الحضارة المادية وتعد جيوشها للزحف على العالم الإسلامى الغارق أهله فى دنيا الخرافات والأوهام، والاتكال على الخوارق والكرامات.

فى الوقت الذى كانت فيه الأمة تعانى أشد المعاناة من الضعف والانحطاط، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة المنحرفين الذين أشاعوا روح الذل والخنوع فى الأمة والذلة والهوان، وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثير من الطرق الصوفية المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء فى عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولا شك أن هناك بينهم بنسبة كبيرة من الدجالين والمحترفين، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة فى نفوس الناس، فاندسوا فى صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الذين لا لوم عليهم ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجن فكان طبيعيًا أن تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخططاتهم، وتحتل جيوشهم أرضنا، وتستباح بيضتنا، ولقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة ولعل آخر العقائد ممن آمن بها كثير من المتصوفة المنحرفين عقيدة وحدة الوجود والحلول، لقد احتضن المتصوفة المنحرفين هذه العقائد، وعملوا على نشرها، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التى كشف لهم سرها وستر عن الآخرين.

وكان تدريس كتابى (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) لـ (ابن عربى) وغيرهما من كتب المتصوفة التى تطفح بعقيدتى وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التى لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمى الذى لا يرقى إليه إلا فحول العلماء(١).

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجًا واسعًا بين المتصوفة المنحرفين فى تلك الفترة الحرجة التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية، فكان كثير منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، التى لا يمكن للحياة فى ظلها أن تفسد، ويحيق الدمار بالعالم، وتبطل الأديان بالكلية، فلا يبقى معها دين ولا جهاد، ولا عداء بين مسلم وكافر، فالكل واحد، والوجود واحد، وإن تعددت المظاهر، نسأل الله السلامة فى الدين.

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٥٥٦).

وكان هناك استخفاف كثير منهم بالشرائع، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه، تحت مسمى الولاية والحزب والجذب والشهود. ولقد كان واقع الصوفية حجة قوية استندت إليها حركات التغريب التى نخرت الدولة العثمانية.

خامساً: نشاط الفرق المنحرفة:

كالشيعة الاثنى عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصًا مع مجئ الاستعمار الصليبى الذى طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائمًا مع أعداء المسلمين عونًا لهم وجندًا مخلصين تحت قياداتهم.

ففى الماضى كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين، وها هم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة والتآمر لحساب أعداء الأمة، وقد مر بنا فى هذا الكتاب دور الصفوية الاثنى عشرية الشيعة فى محاربة الدولة العثمانية على مر عصورها، وحين احتل الفرنسيون سوريا وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الإسماعيلية فى سليمة وغيرها يقاتلون جنبًا إلى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد (إبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين[1].

أما طائفتا النصيرية والدروز فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدرًا لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن والثورات المستمرة ضد الحكم الإسلامى، وعونًا للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم.

وفى القرن الثالث عشر الهجرى تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم فى بلاد الشام مما حدا بـ(يوسف باشا) والى الشام أن يقود جيشًا بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان قد خيرهم بين الدخول فى الإسلام أو الخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم فى البلاد..)[2].

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها. وقد حاول السلطان عبد الحميد الثانى أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام وأرسل رجلاً من خاصته

---

(١) انظر: الأعلام (١/ ٤٢).

(٢) انظر: حلية البشر (٣/ ١٦٠٠).

اسمه (ضيا باشا) جعله متصرفًا فى لواء اللاذقية فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمرًا، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست[1].

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم وكم خدعت تلك العقيدة الخطيرة (التقية) المسلمين حكامًا ومحكومين، علماء ومتعلمين، فأين علماء السنة الذين لا تنطلى عليهم دسائس الباطنيين؟

إن تاريخ النصيريين، تاريخ أسود ملطخ بالدماء ضد أهل السنة، وكانوا دائمًا خنجرًا مسمومًا فى جنب الأمة الإسلامية، يتآمرون ضدها فى الخفاء، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلا، والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائمًا فى تحالف مع أعداء الإسلام.

وكان أمير الدروز بشير الشهابى المتوفى سنة ١٢٦٦هـ يقف بجنوده بجانب جيش محمد على عند احتلاله للشام، مما سهل على جيش محمد على هزيمة الجيش العثمانى فى حمص، وعبر جبال طوروس، وأوغلت جيوشه فى قلب بلاد الترك، وكان هناك مراسلات بين نابليون والدروز عند حصار الفرنسيين (عكا)[2].

أما البهائية فقد نشأت عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسى واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزى بهدف إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية، وقد ادعى البهاء المهدية، ثم ادعى النبوة، ثم ادعى الربوبية والألوهية[3].

إن من المؤلم حقا تهاون الدولة العثمانية فى القضاء على تلك النحلة الخبيثة وتطبيق فيهم حكم الله وشرعه فى أمثالهم.

وأما القاديانية فهى نحلة تنسب إلى (غلام أحمد القاديانى)، ونسبت إلى قرية قاديان من إقليم البنجاب فى الهند (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) وهى :(حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الانجليزى فى القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام)[4].

---

(١) انظر: خطط الشام (١ / ٢٦٠).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١ /٥٧٧).

(٣) المصدر السابق نفسه (١ /٥٨٩).

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان، ص ٣٨٩.

وقد ادعى القاديانى النبوة ثم الألوهية، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام أحمد القاديانى) (ميله الشديد للإنجليز وخدمته لأغراضهم فى بلاد الهند، وإبطال عقيدة الجهاد لهم، وثناؤه عليهم، وحث أتباعه على نصرتهم فى كل مكان..)(١).

ويقول القاديانى: (ولا يجوز عندى أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البغاة وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً فى هذا الأمر ويُعان على شىء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرام قطعى ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبينا)(٢).

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإثارة القلاقل والفتن وإحداث الفوضى فى داخل الدولة العثمانية وكذلك فى تجمعات المسلمين كالهند وغيرها، وكانت تلك الفرق لا تكل ولا تمل فى تآمرها المستمر مع أعداء الإسلام وفى خيانة المسلمين فى أحرج الأوقات، وأحلك الظروف، لقد اكتوت الأمة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السنة فى كيان الدولة القائمة عليها وفى نفوس رعاياها من أهل السنة.

سادسا: غياب القيادة الربانية:

إن القيادة الربانية من أسباب نهوض الأمة والتمكين لها، لأن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة الربانية فى حياة الأمة، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصى الأمور وأزمة الحكم فى الأمة الإسلامية، ففى خطة لويس التاسع أوصى بـ (عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح) كما أوصى بـ (العمل على إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة)(٣).

وصرح القائد المستشرق البريطانى (مونتجومرى وات) فى (جريدة التايمز اللندنية) قائلا: (إذا وجد القائد المناسب الذى يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى فى العالم مرة أخرى)(٤).

---

(١) انظر: عقيدة ختم النبوة، د. عثمان عبد المنعم، ص ٢٠٩.
(٢) انظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. أحمد حمدان، ص ٢٥٥.
(٣) انظر: قادة الغرب يقولون، جلال العالم، ص ٦٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥.

وقال المستشرق الصهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الإسلام) في دراسة نشرها عام ١٩٧٦م : (إن غياب القيادة العصرية المثقفة : القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الإسلام كقوة منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة)[١].

إن الباحث في الدولة العثمانية يجد أن القيادة الربانية كانت موجودة في عصورها المتقدمة وخصوصاً عند فتح القسطنطينية، فنجد القادة الربانيين في المجال الجهادي والمجال المدني ونلاحظ الصفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد ، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة، والصدق والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتواضع وقبول التضحية، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

لقد قاد محمد الفاتح الأمة في زمنه قيادة ربانية، وقد جرى الإيمان في قلبه وعروقه، وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله وسكناته وأحواله، وانتقل بدولته وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطوات ثابتة، وكان العلماء الربانيون هم قلب القيادة في الدولة وعقلها المفكر، ولذلك سارت الأمة والدولة العثمانية على بصيرة وهدى وعلم[٢]، وأما في العصور المتأخرة يجد الباحث انحرافاً خطيرا في القيادة العثمانية على المستوى العسكري والعلمي، فمثلاً وصل إلى الصدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، ووالي ولاية مصر محمد علي باشا العلماء والفقهاء، وإن المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجل مثل (محمد علي باشا) ليتولى أمورهم، وإصرارهم عليه في تولي الحكم، أما كان أحدهم أولى به من عسكري جاهل مغرور ويبدو أن العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم وتهيبوا النزول إلى الميدان، وتحمل المسئوليات العظام؛ لأنهم قد ألفوا الركون إلى حلقات العلم وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسئوليات؟

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات والضغائن بينهم

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص١٨٥ .

(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصلابي، ص ٣٢٨ .

واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صف العلماء كالخلاف الذى وقع بين الشيخ (عبد الله الشرقاوى) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد على باشا إلى الشيخ الشرقاوى بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاةالجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتى :(أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه.. فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر، فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره)[١].

ويصف الشيخ مصطفى صبرى حال العلماء الذين ابتعدوا عن أمور الحكم ونصح الحكام، وما هى نظرة العلمانيين للعلماء فقال :(والذين جردوا الدين فى ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغى لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاءون لدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجئ من العلماء أمر بمعروف أو نهى عن منكر، إلا ما بعد من فضول اللسان، أو ما يكمن فى القلب، وذلك أضعف الإيمان.

فالعلماء المعتزلون عن السياسة، كأنهم تواطأوا مع كل الساسة، صالحيهم وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسى..)[٢].

لقد أخلد العلماء فى أواخر الدولة العثمانية إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التى ترمقهم وترقبهم عن قرب، ولقد غرق الكثير منهم فى متاع الدنيا وأترفوا فيها، وكممت أفواههم بدون سيف أو سوط ولكن بإغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات والحكام، ووضعهم فى المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة، التى تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم[٣].

(لقد كان علماء الدين دائماً فى تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، هم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر، وملاذها عند الفزع.. تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه

---

(١) انظر: عجائب الآثار (٣/ ١٣٤).
(٢) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٨٤).
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٦٠٥).

إليهم ليشيروا عليها فى أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.. وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوى السلطان أحيانًا، ويلقون فى السجون أحيانًا، ويؤذون فى أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحيانًا، ولكنهم يصمدون لهذا، كان تقديراً لمسئولياتهم أمام الله.

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها فى الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، وكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان.. يذكرونها بالله واليوم الآخر، وبالجنة التى تنتظر المجاهدين الصادقين، وكانوا يشاركون فى الجهاد بأنفسهم، بل يقودون الجيوش بأنفسهم فى بعض الأحيان.

تلك كانت مهمة علماء الدين، والدين حى فى النفوس.. وفى التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أماناتهم وجاهدوا فى الله حق جهاده، وصبروا على ما أصابهم فى سبيل الله فما ضعفوا وما استكانوا.. فأين كان العلماء فى تلك الفترة التى نحن بصددها من التاريخ؟

هل كانوا فى مكان القيادة الذى عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد..؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوى السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرونه وينهونه، قتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا فى ركابه، يتملقونه ويباركون مظالمه فيمدونه فى الغى، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت فى بيوتها، أو انزوت فى الدرس والكتاب، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس العلم.. وما نريد أن نظلمهم فقد كان منهم – ولا شك – من صدع بكلمة الحق، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولى السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق.. ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالبة التى راحت تلهث وراء المتاع الأرضى، أو تقبع داخل الدرس والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور..)[1].

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٣٢٧.

وكان من الطبيعى أن تصاب العلوم الدينية فى هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتوالية، ومن هذه العوامل:

١- الاهتمام بالمختصرات:

قام بعض العلماء باختصار المؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم، (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم فى متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها)[١].

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس ناقداً للطريقة فى تدريس الفقه :(واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها)[٢].

ويذكر الإمام الشوكانى اهتمام الناس فى عصره بهذه المختصرات والخطورة التى تنطوى على ذلك فيقول :(قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التى هى مشتملة على ما هو من علم الرأى والرواية والرأى أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأسًا من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر فى ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً)[٣].

٢- الشروح والحواشى والتقريرات:

يقول الشوكانى – رحمه الله – الذى درس ودرَّس الكثير من هذه الشروح والحواشى فى مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها :(مع أن فيها جميعًا مالا تدعو إليه الحاجة بل غالبها كذلك ولاسيما تلك التدقيقات التى فى شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل)[٤].

لقد كانت المؤلفات على كثرتها من شروح وحواش وغير ذلك من الأغلال التى كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدة وكانت توجد بعض الحواشى والشروح

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٥٦.

(٢) انظر: ابن باديس.. حياته آثاره (١/ ١٠٨).

(٣) انظر: أدب الطلب، ص ٥٩.

(٤) انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (١/ ٨٦).

المفيدة، ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم فى تلك الفترة بعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة، وكانت المعاهد الإسلامية كلها تقريبا - بعيدة عن ذلك المنهج الإسلامى الأصيل.

فالأزهر مثلا وهو المعهد الإسلامى الكبير والجامعة العتيقة كان مركزًا لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه، يقول أحد الدارسين فى الأزهر عن علم الكلام:

(من العلوم التى لم أنتفع بدراستها فى الأزهر على الإطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات، ولكنى لم أعرف منه شيئًا عن الله ذا بال، وإنما انغمست فى اصطلاحات زادت تفكيرى غموضًا واضطرابًا حتى تمنيت إيمان العوام..)[١].

لقد أصاب المناهج الإسلامية فى تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجة من الجفاف حيث: (إن العصور المتأخرة بعدت بعدًا كبيرًا عن روح الإسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التى كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها..)[٢].

٣- الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية فى تلك الفترة التساهل فى منح الإجازات؛ فكانت تعطى فى العصر المتأخر للدولة العثمانية جزافًا، إذ كان يكفى أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيرا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم فى القاهرة يبعث إلى طالب فى مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره[٣].

فكان ذلك التساهل من الأمور التى شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغى، وهكذا كان التساهل فى منح الإجازات عاملاً مهمًا من عوامل انحدار المستوى التعليمى، وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التى لم يكن لها فى كثير من الأحيان أى رصيد علمى فى الواقع[٤].

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٤٢،٤٣).

(٢) انظر: المجتمع الإسلامى المعاصر، ص ٢١٠.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٥٩).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٤).

٤- وراثة المنصب العلمي:

أصبحت المناصب العلمية في أواخر الدولة العثمانية بالوراثة في الأمور العلمية المهمة كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولونها، تمامًا كما تورث الدور والضياع والأموال، فكثيرا ما كان يحدث أن يموت شيخ يدرس عليه، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسيه إلى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجى البضاعة في العلم، ولكن لابد للتصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الذي رحل عنه[١].

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت المتوفى عام ١٣١٢هـ[٢] متحدثًا عن تلك الظاهرة السيئة في الدولة العثمانية: (وصار أبناء الصدور والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث وأطفال، ويترقون لذلك في الوظائف، حتى إن الواجد منهم لتأتيه نوبته في المولوية[٣] وما طر شاربه ولا اخضر عذاره. وكان ينال التدريس أيضًا كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالإرث، فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم وغيرهم، فازدحم عليها الغوغاء وصار الجهال يموج بعضهم في بعض والتبس الأمر وفسد أي فساد)[٤].

ويقول (محمد كرد على) في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني :(وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن، وكان المفتي (أبو السعود) من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم، بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولى القضاء الأميين، وكم من أمي غدا في (دمشق) و(حلب) و(القدس) و(بيروت) قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم..)[٥].

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٦٤).
(٢) كان وزيراً في البلاط العثماني وكتب تاريخ جودت بالتركية في ١٢ مجلداً.
(٣) المولوية: ثاني رتبة في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر.
(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٦٨).
(٥) انظر: خطط الشام (٣/ ٧٠).

لقد كانت لتلك العادة السيئة آثار وخيمة فى انحدار مستوى التعليم، وضعف الحياة العلميـة عند المسلمـين، وذلك بتـوارث تـلك المناصب الدينيـة، وحكرها فى أسـر معـينة وبالتالى أثرت تلك العادة فى إيجاد علماء ربانيين متجردين لدين الله تعالى همهـم إحقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدين.

سابعًا: رفض فتح باب الاجتهاد:

فى أواخر الدولة العثمانية أصبحت الدعوى بفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى الرمى بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكان من التهـم التى وجهها خصوم الدعوة السلفية إلى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمة شديدة فى ذلك الزمن مع أن أحـدا منهـم لم يقل بذلك، وكـانت الدعـوة إلى قـفل باب الاجـتهـاد توارثهـا المتعصبون على مر العصور وأصبح حرصهم فى أواخر الدولة العثمانية ظاهرًا ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله، مما شجع المتغربين بالسعى الدءوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا، ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر فى حياة المسلمين إلى يومنا هذا.

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته.. فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمـد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنهـا محكومة بقوالب لـم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، تخرج فى ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معًا، الواحد تلو الآخر.. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة(١).

لقد عانت الأمة من قفل باب الاجتهـاد، وكانت الدولة العثـمانية فى أواخر عهـدها لـم تعط هذا الباب حقه وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم، (وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبدًا، فهى تلد كل يوم جديدًا لـم تكن تعرفه الإنسانية من قبل.. وكان من هذا أن مضى الناس – من غير المسلمين – يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً.. وهكذا سار الناس – من غير المسلمين–

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٩.

قدمًا فى الحياة ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذى كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون)[١]. واستمر التعصب المذهبى فى إضعاف المستوى التعليمى، وانحدار العلوم وجمودها، وتكبيل العقول والأفهام، والحجر عليها. بالإضافة إلي ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم، وبعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادى غيرها من أجله، وفى تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميدانًا رحبًا للصراعات المذهبية خصوصًا بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر[٢].

إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين فى القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعيًا وسياسيًا، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام..)[٣].

لقد كان التعصب المذهبى منحرفًا عن منهج الله تعالى، وزاد هذا الانحراف عمقًا فى حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتيت الصف الإسلامى مما كان له أعظم الأثر فى ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية فى الوقت الذى كانت المؤامرات قد أحاطت بها وشرع الصليبيون فى الإجهاز على الرجل المريض.

ثامنًا: انتشار الظلم فى الدولة:

إن الظلم فى الدولة كالمرض فى الإنسان يعجل فى موته بعد أن يقضى المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم فى الدولة يعجل فى هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدى إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هى الأجل المقدر لها، أى الذى قدره الله لها بموجب سنته العامة التى وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التى يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضى مدة محددة يعلمها الله[٤]. قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٤]. قال الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** ﴾ أى ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أى: وقت معين

---

(١) انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، د. عبدالكريم الخطيب، ص ١٤٤.
(٢) انظر: عجائب الآثار (٢/٢٤٢).
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/٨٦).
(٤) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص ١٢١.

مضروب لاستئصالهم (١). ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئًا مؤكدًا ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أى أننا نعلم يقينًا أن الأمة الظالمة تهلك حتمًا بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى فى الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد الأيام ولا السنين، وهو محدد عند الله تعالى (٢).

إن سنة الله مطردة فى هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصرا على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى فى أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغى أن يظن أحد أن هذا الهلاك مقصور على أولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ** ﴾. فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين فى أفعالهم التى أدت إلى هلاكهم فلابد أن يشاركهم فى ذلك الأخذ الأليم الشديد؛ فالآية تحذر من وخامة الظلم. إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم(٣) قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود: ١١٧].

قال الإمام الرازى فى تفسيره :(إن المراد من الظلم فى هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضًا على الصلاح، وعدم الفساد) (٤).

وفى تفسير القرطبى قوله تعالى ﴿ **بِظُلْمٍ** ﴾ أى: بشرك وكفر ﴿ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ أى: فيما بينهم فى تعاطى الحقوق، ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده

---

(١) انظر: تفسير الآلوسى (٨/ ١١٢).

(٢) انظر: السنن الإلهية، ص ١٢١.

(٣) انظر: السنن الإلهية، ص١٢٢.

(٤) انظر: تفسير الرازى (١٨/ ١٦).

حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط (١).

قال ابن تيمية فى هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة :(وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذى يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق، وإن لم تشترك فى إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة) (٢).

لقد قام بعض الباشوات بأفعال قبيحة وسفكوا الدماء واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالى أحد وزراء السلطان مراد الثالث وكان أمير الأمراء فى ديار بكر بأسرها؛ ففتك فيها وظلم أهلها وأظهر من أنواع الظلم أشياء مستكرهة جداً، منها الاعتداء على الأعراض، ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة، ولما وصل الأمر للسلطان وعقد مجلس القضاء وهاب الناس أن يشهد عليه لم يستطع القاضى أن يدقق فى الدعوة لأن أخته كانت عند السلطان مراد مقبولة جداً، وانصرف خصماؤه، وقرره السلطان فى ديار بكر فذهب إليها ناوياً على إهلاك كل من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقًا تحت العذاب، ووصل الأمر إلى أن ثار عليه أهل البلد وقاموا عليه قومة رجل واحد فتحصن فى القلعة وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتى قتل منهم خلقًا كثيراً(٣).

وما قام به الباشا محمد على من ظلم أهل مصر وأهل الشام، والحجاز معروف وقد ذكرناه فى هذا الكتاب، وقد اشتد ظلم الأتراك للعرب، والأكراد، والألبان مع مجئ الاتحاد والترقى للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم الناس فى داخل تركيا وخارجها، وقد ذكرنا ما تعرض له السلطان عبد الحميد الثانى من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم؛ فجرت فيهم سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم وزالت دولة الخلافة العثمانية من الوجود.

---

(١) انظر: تفسير القرطبى (٩/ ١١٤).

(٢) انظر: رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية، ص ٤٠.

(٣) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (٢/ ٩١٦، ٩١٧).

تاسعاً: الترف والانغماس فى الشهوات:

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾. أراد بالذين ظلموا: تاركى النهى عن المنكرات، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف النهى عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس فى الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعى لها وطلب أسباب العيش الهنيء(١).

وقد مضت سنة الله فى المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٣]

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاء فى تفسيرها :(وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أى متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سوئهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد)(٢).

وحدث فى زمن السلطان محمد بن إبراهيم :(زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلستره بروم ايلى فكتب إلى قائم مقام الوزير بالقسطنطينية عبدى باشا النيشانى أنه يريد القدوم إلى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى إذا قدم فوقع النداء قبل قدوم السلطان بأربعين يوماً وتهيأ الناس للزينة، ثم قدم السلطان فشرعوا فى التزيين وبذلوا جهدهم فى التأنق فيها، واتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة فى دور من الأدوار، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينية

(١) انظر: السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد، ص ١٨٦.
(٢) انظر تفسير الآلوسى (١٥ / ٤٢).

وشاهدتها ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس فى اللذة والسرور، واستوعب جميع آلات النشاط والحبور، وفشت المناهي، وعلمت العقلاء أن هذا الأمر كان غلطًا وأن ارتكابه كان جرما عظيما، وما أحسب ذلك إلا نهاية السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة، ثم طرأ الانحطاط وشوهد النقصان وتبدل الربح بعدها بالخسران . .)(١).

وفى سنة تسعين وتسعمائة للهجرة احتفل السلطان مراد بن سليم الثانى بختان ولده السلطان محمد ووضع لذلك فرحًا لم يقع فى زمن أحد من الخلفاء والملوك، وامتدت الولائم والفرحة واللهو والطرب مدة خمسة وأربعين يومًا وجلس للفرجة فى دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان وأغدق النعم العظيمة، ورأيت فى تاريخ الكبرىّ أنه جعل صوانى صغاراً من ذهب وفضة وملأ الذهب بالفضة والفضة بالذهب وألقى فى ذلك لأرباب الملاهى وغيرهم من طالبى الإحسان(٢).

وهذا انحراف خطير عن المنهج الذى سارت عليه الدولة فى زمن قوتها وصولتها، وتمكينها، وكانت من وصايا محمد الفاتح لولى عهده (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد)، (ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو وأكثر من قدر اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك)، فكان من الطبيعى بعد هذا الانحراف الخطير والانغماس فى الترف واللهو والشهوات أن تزول الدولة بعد ضياع مقومات بقائها.

عاشراً: الاختلاف والفرقة:

إن سنة الله تعالى ماضية فى الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه تعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ :(فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفى رواية (فأهلكوا)(٣).

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود : فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف(٤).

قال ابن حجر العسقلانى : وفى الحديث والذى قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف(٥).

---

(١) انظر : المختار المصون من أعلام القرون (٢ / ١١٦٣,١١٦٤).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢ / ١١٥٤,١١٥٥).

(٣) انظر : صحيح البخارى بشرح العسقلانى (٩ / ١٠١، ١٠٢).

(٤ ، ٥) المصدر السابق نفسه (٩ / ١٠٢).

وقال ابن تيمية – رحمه الله – :(وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف)(١).

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذى يؤدى إلى تفريقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضًا(٢).

(وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ، لأن الاختلاف المذموم الذى ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقًا شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهى مجتمعة أكبر من قوتها وهى متفرقة، وهذا الضعف العام الذى يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيها جمها، ويحتل أراضيها ويستولى عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفى ذلك انقراضها وهلاكها)(٣).

إن من الدروس المهمة فى هذه الدراسة التاريخية أن توقى الهلاك بتوقى الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سببًا من الأسباب فى ضياع الدولة العثمانية وهلاكها واندثارها. وإن من أخطر ما نعانى منه الآن الخلاف فى صفوف الإسلاميين القائمين بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف يؤدى إلى ضعف الأمة إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان :(والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التى تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها، لهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقًا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هى التى تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم فى مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتى عن طريق التفريق، ولكن الشيطان هو الذى يزين الفرقة والتفريق فى أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم فى مصلحة الدعوة.

والاختلاف فى الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها فى الناس، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم فى الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهى تخالفه إذ هى

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٩ / ١١٦).

(٢) انظر: السنن الإلهية، ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٩.

متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعى أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة فى المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هى فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول)(١).

لقد ابتليت الدولة العثمانية خصوصًا فى أواخر عهدها بالاختلاف والتفريق بين الزعماء والسلاطين، فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك فى العراق، آل العظم فى سوريا، المعنيون والشهابيون فى لبنان، ومحمد على فى مصر، ظاهر العمر فى فلسطين، أحمد الجزار فى عكا، على بك الكبير فى مصر، القرامليون فى ليبيا)(٢) وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم فى إضعافها ثم زوالها وسقوطها. ولقد ذكر بعض المؤرخين أسباب السقوط وحدث لهم تخليط بين الأسباب فى السقوط وبين الآثار المترتبة على الابتعاد عن شرع الله تعالى.

إن الحديث عن الضعف السياسى والحربى والاقتصادى والعلمى والأخلاقى والاجتماعى وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكرى والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد على محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لا يمكنه أبدا أن ينهض بالأمة التى أصيبت بالخواء العقدى، وما لم يتم محاربة الأسباب الحقيقية والقضاء عليها فإنه لايمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إن الآثار كانت متشابكة ومتداخلة، يؤثر كل منها فى الآخر تأثيراً عكسيًا، فالضعف السياسى مثلاً يؤثر فى الضعف الاقتصادى، ويتأثر به، وهكذا.

إن كثيراً من المحاولات التى بذلت فى العالم الإسلامى من أجل إعادة دولة الإسلام، وعزته وقوته ركزت على الآثار ولم تعالج الأسباب الحقيقية الذى كانت خلف ضياع الدولة العثمانية وضعف الأمة، وانحطاطها.

إن جهود النصارى، واليهود، والعلمانية ما كانت لتؤثر فى الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين، وأهملت أسبابه المادية والمعنوية، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) انظر: السنن الإلهية، ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) انظر: العالم العربى فى التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغى، ص ٩٤.

نتائج البحث

١ – تعرض التاريخ العثمانى لحملات التشويه والتزوير والتشكيك من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين.

٢ – سار مؤرخو العرب والأتراك فى ركب الاتجاه المعادى لفترة الخلافة العثمانية.

٣ – احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الإسلامية وقامت بدعم المؤرخين فى مصر والشام إلى تأصيل الإطار القومى وتعميقه من أمثال البستانى واليازجى وجورج زيدان وأديب إسحاق وسليم نقاش وشبلى شميل، وسلامة موسى، وغيرهم.

٤ – استطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومى فى داخل الشعوب الإسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الإسلامى.

٥ – اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشويه الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس. ولقد غلبت على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الأعمى، والدوافع المنحرفة، بعيدة كل البعد عن الموضوعية.

٦ – قام مجموعة من علماء التاريخ العثمانى من أبناء الأمة بالردود على تلك الاتهامات والدفاع عن الدولة العثمانية، من أهمها وأبرزها تلك الكتابة التى قام بها الدكتور عبد العزيز الشناوى فى ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، وما قدمه الدكتور محمد حرب من كتب مهمة مثل؛ العثمانيون فى التاريخ والحضارة، والسلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، وما كتبه الدكتور موفق بنى المرجة، صحوة الرجل المريض.

٧ – ترجع أصول الأتراك إلى منطقة ما وراء النهر والتى تسمى اليوم تركستان والتى تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقًا إلى بحر قزوين غربًا، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوبًا، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى فى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

٨ – دخل الأتراك فى الإسلام فى عام ٢٢ هـ فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

٩ - أصبحت قبائل الأتراك بعد دخولها فى الإسلام ضمن رعايا الدولة الإسلامية وازداد عددهم فى بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين، وشرعوا فى تولى المناصب القيادية والإدارية فى الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتّاب.

١٠ - استطاع السلاجقة (وهم أتراك) أن يقوموا بتأسيس دولة تركية كبرى ضمت خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

١١ - ساند السلاجقة الخلافة العباسية فى بغداد ونصروا مذهبها السنى بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهى الشيعى فى إيران والعراق، والنفوذ العبيدى (الفاطمى) فى مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهى تمامًا وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية).

١٢ - استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقى أن يسقط الدولة البويهية فى عام ٤٤٧ هـ فى بغداد وأن يقضى على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبى عبد الله الجلاب لغلوه فى الرفض.

١٣ - تولى زعامة السلاجقة ألب أرسلان بعد وفاة عمه طغرل بك وكان قائدًا ماهرًا مقدامًا، وهو الذى انتصر على جيوش إمبراطور الروم فى معركة ملاذكرد فى عام ٤٦٣ هـ، وكان ذلك الانتصار نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى لأنها سهلت إضعاف نفوذ الروم فى معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهى المناطق المهمة التى كانت ترتكز عليها الإمبراطورية البيزنطية.

١٤ - تولى زعامة السلاجقة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه واتسعت الدولة السلجوقية فى عهده لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقًا إلى آسيا الصغرى غربًا وبلاد الشام جنوبًا.

١٥ - يعتبر نظام الملك من أعظم وزراء السلاجقة، واشتهر بضبطه لأمور الدولة وحبه للعلم والعلماء، وكثرة إنفاقه، وأعماله فى الخير، وبناء المدارس لتعليم المسلمين.

١٦ - تضافرت عوامل عديدة فى سقوط سلطنة السلجوقية مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية منها؛ الصراع داخل البيت السلجوقى، تدخل النساء فى شئون الحكم، ضعف الخلفاء العباسيين، المكر الباطنى الذى تمثل فى اغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقادتهم.

١٧ - قدمت دولة السلاجقة أعمالا جليلة للإسلام منها؛ كان لهم دور فى تأخير زوال الدولة العباسية، حوالى قرنين من الزمان، منعت الدولة العبيدية فى مصر من تحقيق أغراضها التوسعية، كانت جهود السلاجقة تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامى والذى تم على يد صلاح الدين الأيوبى تحت راية الخلافة العباسية السنية، قاموا بنشر العلم والأمن والاستقرار فى الأقاليم التى تحت نفوذهم، وقفوا فى وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولى إلى حد كبير، ورفعوا من شأن المذهب السنى وعلمائه.

١٨ - ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت تعيش فى كردستان، وتزاول حرفة الرعى.

١٩ - هاجر سليمان جد عثمان فى عام ٦١٧ هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر فى مدينة أخلاط فى شرق تركيا حالياً.

٢٠ - تولى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الذى واصل تحركه نحو الشمال الغربى من الأناضول، وفى طريقه وجد صراعًا مسلحًا بين السلاجقة المسلمين والروم النصارى، فانضم إلى المسلمين وكان تدخله فى الوقت المناسب سببًا فى تحقيق نصر السلاجقة.

٢١ - اقتطع القائد الإسلامى السلجوقى أرطغرل ومجموعته أرضًا من الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور فى الروم، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الروم.

٢٢ - تولى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه وسار على نهج سياسة أبيه السابقة فى التوسع فى أراضى الروم.

٢٣ - كان عثمان الأول يتميز بصفات رفيعة منها؛ الشجاعة، والحكمة، والإخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، والعدل، والوفاء، والتجرد لله فى فتوحاته، وحبه للعلم والعلماء.

٢٤ - كانت حياة عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة فى سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإدارى والتنفيذ الشرعى فى الإمامة. ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

٢٥ – تولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦ هـ وسار على نفس سياسة والده فى الحكم والفتوحات، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ فى فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق فى آن واحد.

٢٦ – إن من أهم الأعمال التى ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامى، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش، فقام بتقسيم الجيش إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشًا دائمًا بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

٢٧ – اهتم أورخان بتوطيد أركان دولته، فوالى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شئون الإدارة، وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام فى الدولة.

٢٨ – تولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام ٧٦١ هـ وكان مراد الأول شجاعًا مجاهداً كريمًا متدينًا، وكان محبًا للنظام متمسكًا به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفًا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلسًا لشورته، وتوسع فى آسيا الصغرى وأوروبا فى وقت واحد.

٢٩ – استطاع مراد الأول أن يفتح أدرنة فى عام ٧٦٢ هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية من عام ٧٦٢ هـ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية.

٣٠ – كان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل فى سبيل الله وأن النصر من عنده، ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعانى العبودية واستشهد فى معركة قوصوة ضد الصرب.

٣١ – قاد السلطان مراد الشعب العثمانى ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره.

٣٢ – تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١ هـ وكان شجاعًا شهمًا كريمًا متحمسًا للفتوحات الإسلامية، ولذلك اهتم اهتمامًا كبيرًا بالشئون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية فى الأناضول وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد مثل البرق فى تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة).

٣٣ – انهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم إحسانه لاختيار المكان الذى نزل به جيشه.

٣٤ – تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلى ونشبت الحرب الأهلية فى الدولة بين أبناء بايزيد على العرش، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلى المتمثل فى فتح القسطنطينية.

٣٥ – استطاع السلطان محمد جلبى أن يقضى على الحرب الأهلية بسبب ما أوتى من الحزم والكياسة وبعد النظر، وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سنى حكمه العثمانى فى إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثانى للدولة العثمانية.

٣٦ – استطاع السلطان محمد جلبى أن يقضى على حركة الشيخ بدر الدين الذى كان يدعو إلى المساواة فى الأموال، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم فى العقيدة.

٣٧ – كان السلطان محمد جلبى محبًا للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثمانى أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة.

٣٨ – تولى أمر السلطنة مراد الثانى عام ٨٢٤ هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبى وكان محبًا للجهاد، والدعوة إلى الإسلام، وكان شاعراً ومحبًا للعلماء والشعراء.

٣٩ – تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده فى عام ٨٥٥ هـ وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة. وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حداثته فى كثير من العلوم التى كان يتلقاها فى مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ.

٤٠ – كانت من أهم أعمال السلطان محمد الثانى فتحه للقسطنطينية، وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامى والأوروبى وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها.

٤١ – حرص العثمانيون على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثمانى منها؛ الاستخلاف والتمكين، الأمن والاستقرار، النصر والفتح، العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

٤٢ – من أهم الصفات القيادية فى شخصية محمد الفاتح، الحزم والشجاعة والذكاء، العزيمة والإصرار، العدالة، عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، الإخلاص، العلم.

٤٣ – من أعمال محمد الفاتح الحضارية؛ بناؤه للمدارس والمعاهد، واهتمامه بالعلماء والشعراء والأدباء والترجمة، والعمران والبناء والمستشفيات، واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية، والجيش والبحرية والعدل.

٤٤ – ترك محمد الفاتح وصية عبرت أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة، وقيمه ومبادئه التى آمن بها.

٤٥ – يعتبر الشيخان محمد بن حمزة المشهور بـ(آق شمس الدين)، وأحمد الكورانى من الشيوخ الذين كان لهم أثر على محمد الفاتح.

٤٦ – بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ) وكان سلطانًا وديعًا، نشأ محبًا للأدب، متفقهًا فى علوم الشريعة الإسلامية، شغوفًا بعلم الفلك.

٤٧ – دخل بايزيد الثانى فى صراع مع أخيه جم، واشتبك مع المماليك فى معارك على الحدود الشامية، وحاول أن يساعد مسلمى الأندلس فى محنتهم الشديدة.

٤٨ – تولى الحكم السلطان سليم الأول بعد بايزيد الثانى، وكان يحب الأدب والشعر الفارسى والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التى تحكى أمجاد الماضى.

٤٩ – كان للسلطان سليم الأول الفضل بعد الله فى إضعاف النفوذ الشيعى فى العراق وبلاد فارس وحقق على الصفويين الشيعة الروافض انتصاراً عظيماً فى معركة جالديران.

٥٠ - كانت نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والصفوية؛ ضم شمال العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية، أمّن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية، سيطرة المذهب السنى فى آسيا الصغرى بعد أن قضى على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوى.

٥١ - استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

٥٢ - دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر فى زحفها على أوروبا.

٥٣ - استطاع العثمانيون أن يحققوا انتصاراً ساحقاً على المماليك فى معركة غزة ثم معركة الريدانية وأزاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود.

٥٤ - بعد مقتل السلطان الغورى ونائبه طومان باى بادر شريف مكة (بركات بن محمد) إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين.

٥٥ - دخلت اليمن تحت النفوذ العثمانى بعد سقوط دولة المماليك وكانت تمثل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر، وفى سلامتها سلامة للأماكن المقدسة فى الحجاز، واستفاد العثمانيون من وجودهم فى اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالى.

٥٦ - بعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثمانى، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية فى البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير على بك إلى الساحل الأفريقى فتم تحرير مقديشو وممبسة ومنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة.

٥٧ - فى عهد السلطان سليمان القانونى (٩٢٧ - ٩٧٤ هـ) تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم فى المراكز التى استقروا بها فى الخليج العربى.

٥٨ - تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن الممالك الإسلامية والحد من نشاطهم ونجحت الدولة العثمانية فى تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من

التوسع البرتغالى المبنى على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

٥٩ – كانت نتيجة الصراع العثمانى البرتغالى؛ أن احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج، وحماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، واستمرار الطرق التجارية التى تربط الهند وأندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربى والبحر الأحمر.

٦٠ – فتحت رودس فى زمن السلطان سليمان القانونى واستطاع سليمان القانونى أن يحاصر فينا، ودخل فى سياسة التقارب مع فرنسا.

٦١ – اهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقى ووقفت مع حركة الجهاد البحرى وقدمت لهم جميع المساعدات المادية والمعنوية.

٦٢ – دخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليم الأول وظهر فى ساحة الجهاد فى الشمال الأفريقى قائدان عظيمان هما الأخوان عروج، وخير الدين بربروسا.

٦٣ – نجح خير الدين فى وضع دعامات قوية لدولة فتية فى الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانونى، واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الأسبانية وكانت جهوده مثمرة فى إنقاذ آلاف المسلمين من أسبانيا.

٦٤ – كان للوجود العثمانى فى الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالى فى المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه.

٦٥ – بعد أن أصبح خير الدين بربروسا قائداً للأسطول العثمانى اهتم بالحوض الشرقى للبحر المتوسط وتولى حكم الجزائر القائد حسن آغا الطوشى الذى انهمك فى توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة وحاول جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية.

٦٦ – استطاع حسن آغا الطوشى أن يهزم الجيوش الصليبية بقيادة شارل الخامس على أراضى الجزائر وكانت لتلك الهزيمة أثرها على الامبراطورية الأسبانية، وعلى ملكها شارلكان وعلى مستوى الأحداث العالمية.

٦٧ – نزلت أنباء هزيمة شارلكان نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث بسرعة على المستوى الأوروبى.

٦٨ – لم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير فى حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة.

٦٩ – ظهر فى الشمال الأفريقى قادة عظام ساهموا فى حركة الجهاد ضد الأسبان والنصارى فى البحر المتوسط من أشهرهم؛ حسن خير الدين بربروسا، وصالح رايس، وقلج على.

٧٠ – حاولت الدولة العثمانية أن تكّون علاقات استراتيجية مع الدولة السعدية إلا أنها فشلت فى بعض الأحيان وخصوصاً فى زمن السلطان محمد الشيخ السعدى ومحمد المتوكل.

٧١ – إن من الأعمال العظيمة التى قامت بها الدولة السعدية فى زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال فى معركة الملوك الثلاثة، والتى تسمى فى كتب التاريخ معركة القصر الكبير، أو معركة وادى المخازن.

٧٢ – كان انتصار المغاربة فى معركة وادى المخازن بسبب عدة أمور منها؛ القيادة الحكيمة التى تمثلت فى قيادة السلطان عبد الملك وأخيه أبى العباس، والتفاف الشعب المغربى حول قيادته، ورغبة المسلمين فى الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، واشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة فى الرمى بالمدفعية مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية المغربية النصرانية.

٧٣ – تولى حكم الدولة السعدية السلطان أحمد المنصور بعد استشهاد أخيه عبد الملك فى معركة وادى المخازن.

٧٤ – بوفاة قلج على فى الجزائر انتهى نظام البليريك الذى جعل من حكام الجزائر ملوكًا واسعى السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها فى ذلك تونس وطرابلس.

٧٥ – لم تستطع الدولة العثمانية أن تضم المغرب الأقصى بسبب ظهور الجزائر فى محاولاتهم لضم المغرب الأقصى.

٧٦ – كان العثمانيون لديهم رغبة جامحة فى استرداد الأندلس إلا أنهم لم يحققوا هدفهم المنشود، بسبب موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الإنكشاريين من جهة أخرى، وجبهات المشرق من جهة ثالثة.

٧٧ – اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثمانى سليمان القانونى عام (٩٧٤هـ) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت فى عهد السلطان سليمان.

٧٨ – تولى الحكم بعد سليمان القانونى سليم الثانى الذى لم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسى القدير محمد باشا الصوقللى لانهارت الدولة. وكان ذلك من فضل الله على الأمة.

٧٩ – انهزم العثمانيون فى معركة ليبانتو عام ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١م، وكانت النتيجة لتلك المعركة مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية فى البحر المتوسط وكان ذلك الانكسار نقطة تحول نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية.

٨٠ – كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامى، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثمانى فى تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعًا إلى السلطان العثمانى، وذلك بواسطة سفيره فى استانبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته فى بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها.

٨١ – عمل السلطان سليم الثانى على تخليص تونس من هيمنة الأسبان واستطاع العثمانيون بقيادة قلج على وسنان باشا أن يفتحوا تونس فى عام ٩٨٢هـ.

٨٢ – قضى ضياع تونس من الأسبان على آمالهم فى أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجيًا حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الاسبان نحو إقامة دولة إسبانية فى شمال أفريقيا وضاع بين الرمال.

٨٣ – أرسل السلطان سليم الثانى حملة كبرى إلى اليمن واستطاعت أن تخلص عدن وصنعاء من هيمنة الزيود.

٨٤ – تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو ٩٧٩ هـ إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربى

كحزام أمنى حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين.

٨٥ - استطاعت الدولة العثمانية أن تبنى درعًا قوية، حمت الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية، ومع تلك الدرع فقط احتفظ السلطان بحرس عثمانى خاص فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع.

٨٦ - تولى الحكم بعد وفاة سليم الثانى ابنه مراد الثالث، وكان مهتمًا بفنون العلم والأدب والشعر، وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية وحاول منع الخمور إلا أن الإنكشاريين اضطروه لرفع أمره وهذا يدل على ظهور ضعف الدولة.

٨٧ - تولى الحكم بعد مراد الثالث محمد الثالث ورغم حالة الضعف والتدهور التى كانت قد بدأت تعترى الدولة إلا أن راية الجهاد ظلت مرفوعة، وقام هذا السلطان بدخول ميادين الوغى بنفسه وكان الشيخ سعد الدين أفندى ممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان: (أنا معك أسير حتى أخلص نفسى من الذنوب، فإنى بها أسير).

٨٨ - تولى الحكم بعد محمد الثالث ابنه أحمد الأول وكان عمره ١٤ سنة، ولم يجلس أحد قبله من السلاطين العثمانيين فى هذه السن على العرش، وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا فى أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية فى آسيا، فأتم ما بدأ به أبوه من تجهيزات حربية، وكان فى غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً فى الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعًا فى ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة، والقيادة وكان شديد الحب للنبى ﷺ.

٨٩ - بعد وفاة السلطان أحمد الأول، تولى الحكم سلاطين ضعاف منهم مصطفى الأول، وعثمان الأول، ومراد الرابع، وإبراهيم بن أحمد، ومحمد الرابع، وسليمان الثانى، وأحمد الثانى، ومصطفى الثانى، وأحمد الثالث، ومحمود الأول، وعثمان الثالث، ومصطفى الثالث، وعبد الحميد الأول.

٩٠ - تولى السلطان سليم الثالث الحكم بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣هـ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعدائها وشرع فى إحياء الروح المعنوية فى نفوس جنده.

٩١ – استطاعت الجيوش الروسية والنمساوية أن تهزم الجيش العثمانى، فكان لتلك الهزيمة آثارها على الدولة العثمانية وتوالت الهزائم على العثمانيين وتزحزحت القوات العثمانية إلى الوراء باتجاه شرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصة لفك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوروبا.

٩٢ – بعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الإنكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة، واتجه نحو تقليد أوروبا إلا أنه عزل من السلطنة.

٩٣ – انتهز الفرنسيون تدهور الدولة العثمانية وضعفها، فأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، وكانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية.

٩٤ – سعى رجال الحملة الفرنسية إلى زعزعة الدين فى نفوس الشيوخ والعلماء وعوام المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم.

٩٥ – نجح الفرنسيون فى استثارة العناصر القبطية المسيحية لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل.

٩٦ – كان الهجوم الفرنسى على مصر يعتبر أول هجوم صليبى على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية فى التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين واستجاب لدعوته المسلمون فى الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا.

٩٧ – كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية فى مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية، ووصلت إلى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الأميرال نيلسون لتعقب الحملة الفرنسية واستطاع الأسطول الإنجليزى أن يدمر الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية.

٩٨ – كانت هزيمة الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية قد شجعت الدولة العثمانية على مهاجمة الحملة الفرنسية فى مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا فى استانبول وإلقائهم فى السجون.

٩٩ - اضطرت الحملة الفرنسية إلى مغادرة مصر بسبب الهجوم المشترك الذى قام به الإنجليز والعثمانيون على الفرنسيس فى مصر، وقد تضافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيس على الخروج من مصر فى النهاية، منها تحطيم أسطولهم فى معركة أبى قير البحرية وسيطرة الإنجليز البحرية فى البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدات والإمدادات إلى فرنسا فى مصر.

١٠٠ - كان للحملة الفرنسية أثر بالغ فى مصر خصوصًا والشرق عمومًا واستطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الإسلام بخنجرها المسموم، واستطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء فى المنطقة، واستفادوا بعد خروجهم العسكرى من الدور الخطير الذى قام به محمد على باشا حاكم مصر فيما بعد.

١٠١ - تولى الحكم السلطان محمود الثانى فى عام ١٢٢٣ هـ واستطاع أن يتخلص من الإنكشارية وأزالها من الوجود، وأصبح بعد ذلك حرًا فى تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية واستبدل الطربوش الرومى بالعمامة، وتزيا بالزى الأوروبى، وأمر أن يكون هو الزى الرسمى لكل موظفى الدولة.

١٠٢ - فى تلك الفترة الحرجة من التاريخ العثمانى انتشرت المحافل الماسونية فى مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهارًا من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التى لا تكل ولا تمل.

١٠٣ - كانت المحافل الفرنسية ترى دعم محمد على ليتحقق لها أطماعها المستقبلية فى حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية وزرع خنجرها المسموم فى قلب الدولة العثمانية، ولذلك أنشأت لمحمد على أسطولاً بحريًا متقدمًا متطورًا، وترسانة بحرية فى دمياط.

١٠٤ - قام محمد على بدور مشبوه فى نقل مصر من انتمائها الإسلامى الشامل إلى شىء آخر يؤدى بها فى النهاية إلى الخروج عن شريعة الله وكانت تجربة محمد على قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبد الناصر... إلخ.

١٠٥ - قام محمد على نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الإسلامى فى كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر فى تهيئة العالم الإسلامى للأطماع الغربية.

١٠٦ - كان محمد على مخلبًا وخنجرًا مسمومًا استعمله الأعداء فى تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه فى نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدى والإسلامى لديه ولدى أعوانه وجنوده.

١٠٧ - ترتب على دور محمد على فى المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذى أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالى استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية.

١٠٨ - تولى الحكم فى الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثانى ابنه عبد المجيد الأول، وكان ضعيف البنية، شديد الذكاء، واقعيًا ورحيمًا وهو من أجلّ سلاطين آل عثمان قدرًا.

١٠٩ - كان السلطان عبد المجيد خاضعًا لتأثير وزيره رشيد باشا الذى وجد فى الغرب مثله وفى الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذى أعد الجيل التالى له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء فى دفع عجلة التغريب التى بدأها هو.

١١٠ - كانت حركة الإصلاح والتجديد العثمانى تدور حول نقاط ثلاثة هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه فى نظم الحكم والإدارة، الاتجاه بالمجتمع العثمانى نحو التشكيل العلمانى، الاتجاه نحو مركزية السلطة فى استانبول والولايات.

١١١ - تكلل خطأ كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م ولأول مرة فى تاريخ الإسلام ودوله يجرى العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسى والبلجيكى والسويسرى وهى دساتير وضعية علمانية.

١١٢ - وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسميًا على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعلمنت القوانين، ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامى فى مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، لقد سُحبت من الدولة

العثمانية شرعيتها فى أنظار المسلمين.

١١٣ - إن النظرة الفاحصة فى تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار، ما يضعف التمايز والاستقلال فى الأمة المقلدة ويجعلها مهتزة الشخصية.

١١٤ - اقتضت سنة الله فى خلقه أن الأمة الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة ومن ثم تقليدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها فى عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلدة مقوماتها الذاتية وحضاراتها - إن كانت ذات حضارة - وتعيش عالة على غيرها.

١١٥ - تولى الحكم فى الدولة العثمانية السلطان عبد العزيز بن محمود الثانى عام ١٢٧٧هـ، وكانت الدول الأوربية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للاستمرار فى خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربى، والفكر الأوروبى والمبادئ العلمانية وكان السلطان عبد العزيز يرفض الدساتير الغربية والعادات البعيدة عن البيئة الإسلامية، وحاول النهوض بالمجتمع الإسلامى العثمانى فدبرت مؤامرة لقتله بواسطة القناصل وممثلى الدول الأوروبية فى العاصمة وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعة الماسونية المدعو مدحت باشا.

١١٦ - تولى الحكم بعد السلطان عبد العزيز ابن أخيه مراد الخامس الذى كان منخرطًا فى سلك الماسونية، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية، وكانت الحركة الماسونية هى الى دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلى بعد أن أصابته الدهشة والفزع بسبب مقتل عمه عبد العزيز وظهرت عليه اضطرابات عصبية أثّرت على جهازه الهضمى، وكانت صحته فى تدهور مستمر، فكان لابد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام.

١١٧ - تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبد الحميد الثانى فى عام ١٢٩٣ هـ، وضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور، ومارس الوزراء استبدادهم واشتدت سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتى كانت تضم النخبة المثقفة التى تأثرت بالغرب، وعندما حانت الفرصة للسلطان عبد الحميد

ألغى الدستور وشرّد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم، وشرع فى إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

١١٨ – عمل السلطان عبد الحميد على تشكيل جهاز استخباراتى قوى لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه من الخارج، وأخمد ثورات فى البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان فى القضاء على التمردات الداخلية فى حينها.

١١٩ – دخلت الدولة العثمانية فى حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين فى ألمانيا.

١٢٠ – ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية فى معترك السياسة فى زمن السلطان عبد الحميد الذى اهتم بهذه الفكرة من لدعم أواصر الأخوة بين المسلمين فى كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية.

١٢١ – شرع السلطان عبد الحميد فى تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها، الاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء.

١٢٢ – حاول السلطان عبد الحميد التضييق على يهود الدونمة عندما علم قوتهم ومؤامراتهم ضد الإسلام، ولذلك قام يهود الدونمة بوضع خطة استراتيجية مضادة له حيث تحركوا ضده على مستوى الرأى العام العثمانى والجيش وقاموا بدعم المحافل الماسونية للإطاحة به، واستخدموا شعارات الحرية، والديمقراطية وإزاحة المستبد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد فى الدولة وبين صفوف الجيش، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية التى تعمل على تحقيق المشروع الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين.

١٢٣ – كان السلطان عبد الحميد العائق القوى أمام مخططات حكماء صهيون فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا، وكان يتخذ التدابير اللازمة فى سبيل عدم بيع الأراضى إلى اليهود فى فلسطين، ولم يعط اليهود أى امتياز من شأنه أن يؤدى إلى تغلب اليهود على أراضى فلسطين.

١٢٤ - تحركت الصهيونية العالمية، لتدعيم أعداء السلطان عبد الحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقى، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

١٢٥ - استطاعت جمعية الاتحاد والترقى أن تعزل السلطان عبد الحميد الثانى عن الحكم، وقد تحصلت على دعم من الدول الأوروبية، واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف.

١٢٦ - كانت جمعية الاتحاد والترقى لا تستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، واضطر زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا وروسيا.

١٢٧ - استطاع الإنجليز واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدولة العثمانية، وقام الأخير بتنفيذ مخطط مرسوم انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربع وهى: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تامًا، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة، اتخاذ دستور مدنى بدلاً من دستور تركيا القديم.

١٢٨ - عمل مصطفى كمال على سلخ تركيا من عقيدتها وإسلامها، وحارب التدين، وضيق على الدعاة، ودعا إلى السفور والاختلاط، إلا أن صوت الحق فى تركيا قاوم العلمانية بشدة وظهرت حركة سعيد النورسى وحزب السلامة الذى أصبح فيما بعد حزب الرفاه ومازال الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغى، على أشده فى تركيا.

١٢٩ - إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذى جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا فى الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت فى وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

١٣٠ - إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أثر فى تلك الشعوب، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأراضى للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

١٣١ - إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التاريخ أنه إذا عُصى الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط النصارى على المسلمين، وغاب النصر عن الأمة وحرمت من التمكين، وأصبحت فى فزع وخوف وتوالت عليها المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

١٣٢ - لقد أصيبت الأمة بانحراف شديد فى مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

١٣٣ - إن من أعظم الانحرافات التى وقعت فى تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة فى المجتمع الإسلامى تحمل عقائد وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها فى أواخر العصر العثمانى.

١٣٤ - كانت الفرق المنحرفة قد استفحل أمرها، خصوصًا مع مجيء الاستعمار الصليبى الذى طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائمًا مع أعداء المسلمين عونًا لهم وجنداً مخلصين لقيادتهم، ومن أشهر هذه الفرق، الشيعة الاثنى عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

١٣٥ - أصبح كثير من العلماء ألعوبة بيد الحكام الجائرين، وتسابقوا للحصول على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكان من الطبيعى أن تصاب العلوم الدينية فى نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، واهتم العلماء بالمختصرات، والشروح والحواشى والتقريرات وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدعوة لفتح بابه تهمة كبيرة تصل إلى الرمى بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر.

١٣٦ - انتشر الظلم فى الدولة العثمانية، والظلم كالمرض فى الإنسان يعجل بموته بعد أن يقضى المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم فى الأمة يعجل فى هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدى إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هى الأجل المقدر لها، ولذلك زالت الدولة العثمانية من الوجود، وكذلك مما يعجل بزوال الدول انغماسها فى الشهوات والترف وشدة الاختلاف والتفرق.

١٣٧ – لقد ترتب عن ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالضعف السياسى، والحربى، والاقتصادى، والعلمى، والأخلاقى، والاجتماعى. وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستعمرت، وغزيت فكريًا، نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنن الله فى نهوض الأمم وسقوطها.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

١٣٨ – إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هى إلا محاولة متواضعة هدفها عوامل نهوض الأمة وأسباب سقوطها، وبينى وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيبًا فسد الخللا ... جلّ من لا عيب فيه وعلا

أسأل الله العلى العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسنًا وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالى الصالحة التى أتقرب بها إليه وأن لا يحرم إخوانى الذين أعانونى على إكماله من الأجر والمثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى

أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى ... والخير إن يأتينا من عنده يأتى

لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرّات

والفقير لى وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصف له ذاتى

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتى

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

المصادر والمراجع

(أ)

١ – أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، د. محمد نور الدين.

٢ – أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، المنتدى الإسلامي، طبعة ١٤١١هـ.

٣ – إعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن القيم، مراجعة وتعليق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت – لبنان.

٤ – أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م.

٥ – اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي التمام، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٦ – أطوار العلاقات المغربية العثمانية، إبراهيم شحاتة، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٧ – إمام التوحيد محمد عبد الوهاب، أحمد القطان، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٨ – استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، المدينة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٩ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الإمام الشنقيطي، مطبعة المدني عام ١٣٨٤هـ – الطبعة الأولى.

١٠ – اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي الطبعة الثانية عام ١٣٦٩هـ، مطبعة السنة المحمدية.

١١ – ابن باديس حياته وآثاره: د. عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

(ب)

١٢– البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، دار الريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.

١٣– البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، دار الفكر، سوريا – دمشق.

١٤– البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكانى، دار المعرفة، بيروت.

١٥– بدر التمام فى اختصار الاعتصام، اختصره أبو عبد الفتاح محمد السعيد الجزائرى، دار الحنان الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الإمارات العربية المتحدة.

١٦– بدائع الزهور فى وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس، القاهرة مطابع الشعب، ١٩٦٠م.

١٧– بداية الحكم المغربى من السودان الغربى، محمد الغربى، الدار الوطنية للتوزيع والنشر، طبعة عام ١٩٨٢م.

١٨– البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، دار اليمامة، الرياض، قطب الدين محمد بن أحمد المكى، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ– ١٩٦٧م.

١٩– البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصرى، بيروت ١٩٦٠م.

(ت)

٢٠– تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ– ١٩٥٨م.

٢١– تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبرى، دمشق، دار الفكر ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.

٢٢– تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور إحسان حقى، دار النفائس، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.

٢٣– تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى، دار الكتاب العربى، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ– ١٩٩١م.

٢٤– تاريخ دول آل سلجوق، لمحمد الأصبهانى، القاهرة، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

٢٥- تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابى، تأليف يوسف آصاف، دار البصائر، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٢٦- تاريخ العرب الحديث، رأفت الشيخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

٢٧- تاريخ العرب الحديث، تأليف د. جميل بيفون، د. شحادة الناظور، الأستاذ عكاشة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، دار الأمل للنشر والتوزيع.

٢٨- التقليد والتبعية وأثرها فى كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل، دار المسلم، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٢٩- تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، المكتب الإسلامى الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٣٠- التاريخ العثمانى فى شعر أحمد شوقى بقلم محمد زاهد عبد الفتاح أبو غدة، دار الرائد كندا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٣١- تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرمانى، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، دار البصائر دمشق سوريا.

٣٢- تاريخ المشرق العربى، عمر عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

٣٣- تجربة محمد على الكبير، دروس فى التغيير والنهوض، منير شفيق، دار الفلاح للنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٧م - ١٤١٨هـ.

٣٤- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى، د. على عبد الحليم، دار الوفاء ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٣٥- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت.

٣٦- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، تحقيق: عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة - مصر.

٣٧- تفسير الطبرى المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، لابن جرير الطبرى، دار الفكر، بيروت - لبنان ١٤٠٥هـ.

٣٨- تفسير السعدى، المسمى تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى، المؤسسة السعدية بالرياض ١٩٧٧م.

٣٩- تركيا والسياسة العربية: أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا.

٤٠- تفسير القرطبى، لأبى عبد الله القرطبى.

٤١- تفسير النسفى مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبى البركات عبد الله بن أحمد ابن محمود النسفى.

٤٢- تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ترجمه إلى العربية عدنان محمود سلمان، د. محمود الأنصارى، المجلد الأول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول ١٩٨٨م.

٤٣- تطبيق الشريعة الإسلامية، د. عبد الله الطريقى، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٤٤- التيارات السياسية فى الخليج العربى، صلاح العقاد، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٤م.

٤٥- تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، دار الشروق الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

٤٦- الأتراك العثمانيون فى أفريقيا، عزيز سامح، دار النهضة العربية، ترجمة محمود عامر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

٤٧- تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالى، دار الثقافة بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٠م.

٤٨- تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل إندرى جوليان، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٨م، تعريب محمد مزالى.

٤٩- تاريخ المغرب، لمحمد عبود، دار الطباعة المغربية الطبعة الثانية.

٥٠- تاريخ الفكر المصرى الحديث - لويس عوض، ط١ القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٥١- التيارات السياسية الاجتماعية بين المجددين والمحافظين، د. زكريا سليمان موسى، دراسة فكر الشيخ محمد عبده، القاهرة سنة ١٩٨٣م.

٥٢- تاريخ الإحساء السياسى، د. محمد عرابى، منشورات ذات السلاسل الكويت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٥٣- التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمى بك.

٥٤- الاتجاهات الوطنية، لمحمد حسين، بيروت، ١٩٧٢م.

٥٥- التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، د. توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد بمصر ط ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.

(ج)

٥٦- جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين، زيادة أبو غنيمة، دار الفرقان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٧- جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٨- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس فى مطلع العصر الحديث، د. نبيل عبد الحى رضوان، مكتبة الطالب الجامعى، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٥٩- الجبرتى والفرنسيس، د. صلاح العقاد، ندوة الجبرتى القاهرة ١٩٧٦م.

(ح)

٦٠- حاضر العالم الإسلامى، د. جميل عبد الله محمد المصرى، جامعة المدينة المنورة.

٦١- حروب البلقان والحركة العربية فى المشرق العربى العثمانى د. عايض بن خزّام الروقى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٦٢- حروب محمد على فى الشام وأثرها فى شبه الجزيرة العربية، د. عايض بن خزّام الروقى، ١٤١٤هـ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.

٦٣- حركة الجامعة الإسلامية، أحمد فهد بركات، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الأولى ١٩٨٤هـ- ١٤٠٤هـ.

٦٤- الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى، عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٦٥- الحكومة الإسلامية للمودودى، ترجمة أحمد إدريس، نشر المختار الإسلامى للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

٦٦- الحسبة فى العصر المملوكى د. حيد الصافح، دار الإعلام الدولى، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، القاهرة.

٦٧- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، أحمد توفيق مدنى الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

٦٨- حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سرهنك، المطبعة الأميرية، ببولاق، مصر الطبعة الأولى ١٣١٢هـ.

٦٩- الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، محمد العمروسى دار الغرب الإسلامى، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

٧٠- حقيقة الماسونية لمحمد الزغبى، دار العربية، بيروت ١٩٧٤م.

٧١- الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا د. أحمد النعيمى، دار البشير، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٧٢- حركة الإصلاح فى عصر السلطان محمود الثانى، د. البحراوى، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(خ)

٧٣- خراسان، محمود شاكر، الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامى، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٧٤- خير الدين بربروسة، بسام العسلى، دار النفائس الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٧٥- الخلافة والملك للمودودى، تعريب أحمد إدريس، دار القلم، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٧٦- خليفة من خياط تاريخه، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية دار القلم بيروت ومؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

٧٧- خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، شكيب أرسلان.

٧٨- خطط الشام، محمد كرد على، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٠هـ.

(د)

٧٩- الدولة العثمانية والشرق العربى، محمد أنيس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

٨٠- دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، تأليف ثريا شاهين، ترجمة الدكتور محمد حرب، دار المنار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٨١- دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الإسلام، مصطفى فوزى عبد اللطيف غزال، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٨٢- الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد العزيز الشناوى، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م.

٨٣- الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، د. إسماعيل سياغى مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٨٤- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، قيس جواد العزوى، مركز دراسات الإسلام والعالم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٨٥- الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، د. جمال عبد الهادى، د. وفاء محمد رفعت جمعة، على أحمد لبن، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٨٦- دراسات متميزة فى العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، يوسف الثقفى، دار الثقة، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

٨٧- دراسات فى التاريخ المصرى، أحمد سيد د.أ-ج، والسيد رجب حراز، القاهرة، دار النهضة، ١٩٧٦م.

٨٨- الدولة السعودية الأولى، عبد الرحيم عبد الرحمن.

٨٩- دولة الموحدين، على محمد الصلابى، دار البيارق عمان - الأردن، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

(ر)

٩٠- الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، القاهرة ١٩٤٦م.

٩١- رسائل البنا، حسن البنا، دار الأندلس.

٩٢- رياضة الإسماع فى أحكام الذكر والسماع، محمد أبو الهدى الصيادى، مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٣م.

(ز)

٩٣- زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم الجوزية.

(س)

٩٤- السلوك، أحمد بن على المقريزى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م.

٩٥- السلاطين فى المشرق العربى، د. عصام محمد شبارو، طبعة ١٩٩٤م، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان.

٩٦- سير أعلام النبلاء، الذهبى، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٩٧- السلطان عبد الحميد الثانى، د. محمد حرب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٩٨- الإسلام فى آسيا منذ الغزو المغولى، د. محمد نصر مهنًّا، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ - ١٩٩١، المكتب الجامعى الحديث، طبعة أولى، ١٩٩٠م.

٩٩- السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، عبد السلام عبد العزيز فهمى، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٠٠- السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع فى تونس.

١٠١- الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة، الناشر المختار الإسلامى، القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ.

١٠٢- سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق، عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.

١٠٣- سنن الترمذى، لأبى عيسى الترمذى، تحقيق أحمد شاكر، مصطفى الحلبى، القاهرة.

١٠٤- الإسلام فى مواجهة التحديات: أبو الأعلى المودودى، الطبعة الأولى، عام ١٣٩١هـ، دار القلم.

١٠٥- سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، عبد الكريم الخطيب، دار الأصالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

١٠٦- السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان.

(ش)

١٠٧- الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند، د. عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

١٠٨- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلى دار الآفاق الجديدة بيروت.

١٠٩- الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، حسين مؤنس مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٣٨م.

١١٠- الشوقيات، ديوان أحمد شوقى، دار العودة، بيروت ١٩٨٦م.

(ص)

١١١- صحوة الرجل المريض، د. موفق بنى مرجه، دار البيارق، الطبعة الثامنة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١١٢- صحيح البخارى، للإمام محمد بن إسماعيل.

١١٣- صحيح مسلم، للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

١١٤- صراع المسلمين مع البرتغال فى البحر الأحمر، غسان على الرمال، جدة، دار العلم، ١٤٠٦هـ.

١١٥- الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتى، د. أحمد العدوى، أبحاث ندوة الجبرتى، القاهرة، سنة ١٩٧٦م.

(ط)

١١٦- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى، تحقيق عبد الفتاح محمد، محمود محمد الطناحى، دار إحياء الكتب العربية.

(ع)

١١٧- العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

١١٨- العالم العربى فى التاريخ الحديث، د. إسماعيل أحمد ياغى، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١١٩- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر عبد الرحمن الحوالى، طبعة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

١٢٠- العثمانيون والروس، د. على حسون، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٢١- العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن خلدون.

١٢٢- علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان، ط ١٩٦٩م. عبد القادر أحمد اليوسف.

١٢٣- علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم، الرياض، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٢٤- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار فاس - بيروت، لعبد الرحمن الجبرتى.

١٢٥- عقيدة ختم النبوة المحمدية، د. أحمد سعدان حمدان، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

١٢٦- عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. عثمان عبد المنعم، مكتبة الأزهر ١٩٧٨م.

(ف)

١٢٧- فتوح البلدان، أحمد يحيى البلاذرى.

١٢٨- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمرى، دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٢٩- الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام، عبد الله التل، المكتب الإسلامى.

١٣٠- فى أصول التاريخ العثمانى، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ.

١٣١- فى ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق.

١٣٢- الفوائد لابن القيم.

١٣٣- فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، ومحمد مصطفى.

١٣٤- فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، محمد صفوت، منشورات الفاخرية، الرياض ودار الكتاب العربى، بيروت بدون تاريخ.

١٣٥- فقه التمكين فى القرآن الكريم، لعلى محمد الصلاّبى، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد.

١٣٦- فقه التمكين عند دولة المرابطين على محمد الصلاّبى، دار البيارق عمان، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٨م.

١٣٧- فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر، محمد عبد اللطيف البحراوى، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

١٣٨- فلسفة التاريخ العثمانى، محمد جميل بيهم، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها - شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٤م.

(ق)

١٣٩- قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، د. زكريا سليمان بيومى، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م، عالم المعرفة.

١٤٠- قيام الدولة العثمانية، د. عبد اللطيف عبد الله دهيش، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

(ك)

١٤١- الكامل فى التاريخ على بن محمد بن أبى الكرم بن عبد الكريم، القاهرة.

١٤٢- الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية، مقالة فى كتاب الصراع بين العرب والاستعمار، شوقى عبد الله الجمل، القاهرة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(ل)

١٤٣- ليبيا بين الماضى والحاضر، حسن سليمان محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٢م.

١٤٤- ليبيا منذ الفتح العثمانى، اتورى، روسى، تعريب خليفة التليسى، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

(م)

١٤٥- معركة نهاوند، شوقى أبو خليل.

١٤٦- مرآة الزمان لسبط بن الجوزى.

١٤٧- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٤٨- مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

١٤٩- موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية د. حسان على حلاق، دار الجامعة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

١٥٠- موقف أوروبا من الدولة العثمانية، د. يوسف على الثقفى، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٥١- المختار المصون من أعلام القرون، محمد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٥٢- المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلى، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

١٥٣- محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى، الإرشاد، جدة، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م - ١٤١٠هـ.

١٥٤- معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، إحياء التراث العربى.

١٥٥- المشرق العربى والمغرب العربى، د. عبد العزيز قائد المسعودى، جامعة صنعاء، دار الكتب الثقافية، صنعاء، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

١٥٦- مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم.

١٥٧- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، خالد السبت، المنتدى الإسلامى.

١٥٨- معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكمى رحمه الله، تعليق عمر محمود، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٥٩- مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

١٦٠- المجتمع المدنى فى عهد النبوة، «الجهاد ضد المشركين»، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

١٦١- مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان.

١٦٢- منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية فى نفوس أصحابه، د. السيد محمد السيد نوح، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، نشرته جامعة الإمارات العربية.

١٦٣- المغرب العربى فى بداية العصور الحديثة، صلاح العقاد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

١٦٤-المغرب العربى الكبير، شوقى عطا الله الجمل، طبعة أولى، ١٩٧٧م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

١٦٥- المجتمع الإسلامى المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر بيروت، ط ١٣٩٠هـ- ١٩٧١م.

١٦٦- مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام، محمد المجدوب، ط ١٣٩٠هـ.

١٦٧- المغرب فى عهد الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٧م.

١٦٨- المغرب العربى الكبير، جلال يحيى.

١٦٩- محنة المورسيكوس فى أسبانيا، لمحمد قشتيلو، مطبعة الشويخ، تطوان، ١٩٨٠م.

١٧٠- الموسوعة الميسرة فى الأديان، لندوة الشباب العالمى، جدة.

١٧١- المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبد الله بن حمد الشبانة، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٧٢- مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤادى شكرى، القاهرة سنة ١٩٥٨م.

١٧٣- الماسونية وموقف الإسلام منها، د. حمود أحمد الرحيلى، دار العاصمة، السعودية، طبعة أولى ١٤١٥هـ.

١٧٤- من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى، محمد أديب غالى، دار اليمامة السعودية، ط١ سنة ١٩٧٥م.

١٧٥- المعالم الرئيسية التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد عبدالحميد حرب، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر، البحرين.

١٧٦- مفاهيم يجب أن تصحح، لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٢هـ- ١٩٢٢م.

١٧٧- المجتمع الإسلامى المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط ١٣٩٠هـ- ١٩٧١م.

١٧٨- مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام، محمد المجدوب، ص ١٣٩٠هـ.

(ن)

١٧٩- الانحرافات العقدية والعلمية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما فى حياة الأمة، تأليف على بن نجيب الزهرانى، دار طيبة مكة، دار آل عمّار الشارقة، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

١٨٠- النظام السياسى فى الإسلام د. محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

١٨١- النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تعزى الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

١٨٢- النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى، نوال صيرفى، الرياض مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١٨٣- نشوة المدام فى العودة إلى مدينة السلام، أبو الثناء الآلوسى، مطبعة ولاية بغداد، ١٢٩٣هـ.

(و)

١٨٤- واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، مؤسسة المدينة المنورة.

١٨٥- الولاء والبراء فى الإسلام، محمد سعيد القحطانى، دار طيبة، مكة الرياض، الطبعة السادسة، ١٤١٣هـ.

١٨٦- وادى المخازن، شوقى أبو خليل.

١٨٧- وحى القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربى، الطبعة الثانية.

١٨٨- والدى السلطان عبد الحميد، مذكرات الأميرة عائشة، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

(ى)

١٨٩- اليهودية والماسونية، عبد الرحمن الدوسرى، دار السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، السعودية.

١٩٠- اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نورى النعيمى، مؤسسة الرسالة، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٩١- يهود الدونمة، دراسة فى الأصول والعقائد والمواقف، د. أحمد نورى النعيمى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

*****



فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث : محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

الفصل الرابع : السلاطين الأقوياء بعد محمد الفاتح

الفصل الخامس: بداية اضمحلال الدولة العثمانية

الفصل السادس: عصر السلطان عبدالحميد

المؤلف في سطور

على محمد محمد الصّلابى

* ولد فى مدينة بنغازى بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م

* حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز وكان الأول على دفعته عام ١٤١٣/ ١٤١٤ هـ الموافق ١٩٩٢/ ١٩٩٣م.

* نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.

* نال درجة الدكتوراه فى الدراسات الإسلامية

* **صدرت له عدة كتب :**

١ – من عقيدة المسلمين فى صفات رب العالمين (دار البيارق)

٢– الوسطية فى القرآن الكريم (دار البيارق – دار النفائس).

سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى).

٣ – صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الأفريقى (دار البيارق)

٤ – عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٥ – الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية (دار البيارق)

٦ – فقه التمكين عند دولة المرابطين (دار البيارق).

٧ – دولة الموحدين (دار البيارق).

٨ – الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (دار البيارق – دار التوزيع والنشر الإسلامية).

٩ – الحركة السنوسية فى ليبيا (دار البيارق).

(أ) الإمام محمد بن على السنوسى ومنهجه في التأسيس

(ب) محمد المهدى السنوى، وأحمد الشريف.

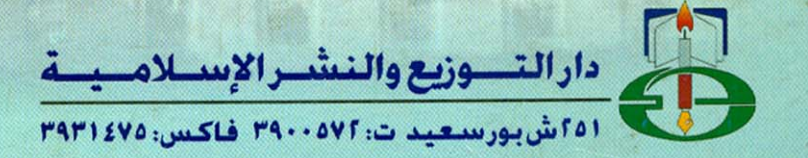
(ج) ادريس السنوسى، وعمر المختار.

١٠ – فقه التمكين فى القرآن الكريم (دار الوفاء، دار البيارق).

إن هذا الجهد المتواضع يسلط الأضواء على المجهود العظيم الذى قام به العثمانيون، نصرة لدين الله، وحباً فى الشهادة فى سبيله، ويهتم بإبراز عوامل النهوض التى ساهمت فى بناء الدولة العثمانية وحضارتها الإسلامية، سواء كانت تلك العوامل متمثلة فى صفات القادة، أو الأمة، أو المنهج الذى سارت عليه الدولة، ويدافع عن التاريخ العثمانى الإسلامى الذى تعرض للتزوير، والتشكيك، والبهتان من قبل أعداء الأمة، ويركز على أسباب السقوط التى تعرضت لها الدولة فى تاريخها الطويل من المنظور القرآنى، ليبين للقارئ الكريم أن أسباب السقوط عديدة منها: انحراف الأمة عن مفاهيم دينها، وانتشار مظاهر الشرك والبدع، والخرافات فى عموم الأمة. ويتحدث عن غياب القيادة الربانية كسبب فى ضياع الأمة، وكيف أصيبت العلوم الإسلامية فى نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، وكيف تباعد العلماء وأبناء الأمة عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ويصل إلى حقيقة مهمة وسنة من سنن الله فى المجتمعات الإسلامية؛ وهى أن جهود الصليبيين واليهود، والعلمانيين ما كانت لتؤثر فى الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين؛ وأهملت أسبابه المادية والمعنوية.

إن هذه الجولة التاريخية العثمانية تعيننا على التفكير والتأمل فى أحوال الأمم والشعوب والدول.

المؤلف



دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥